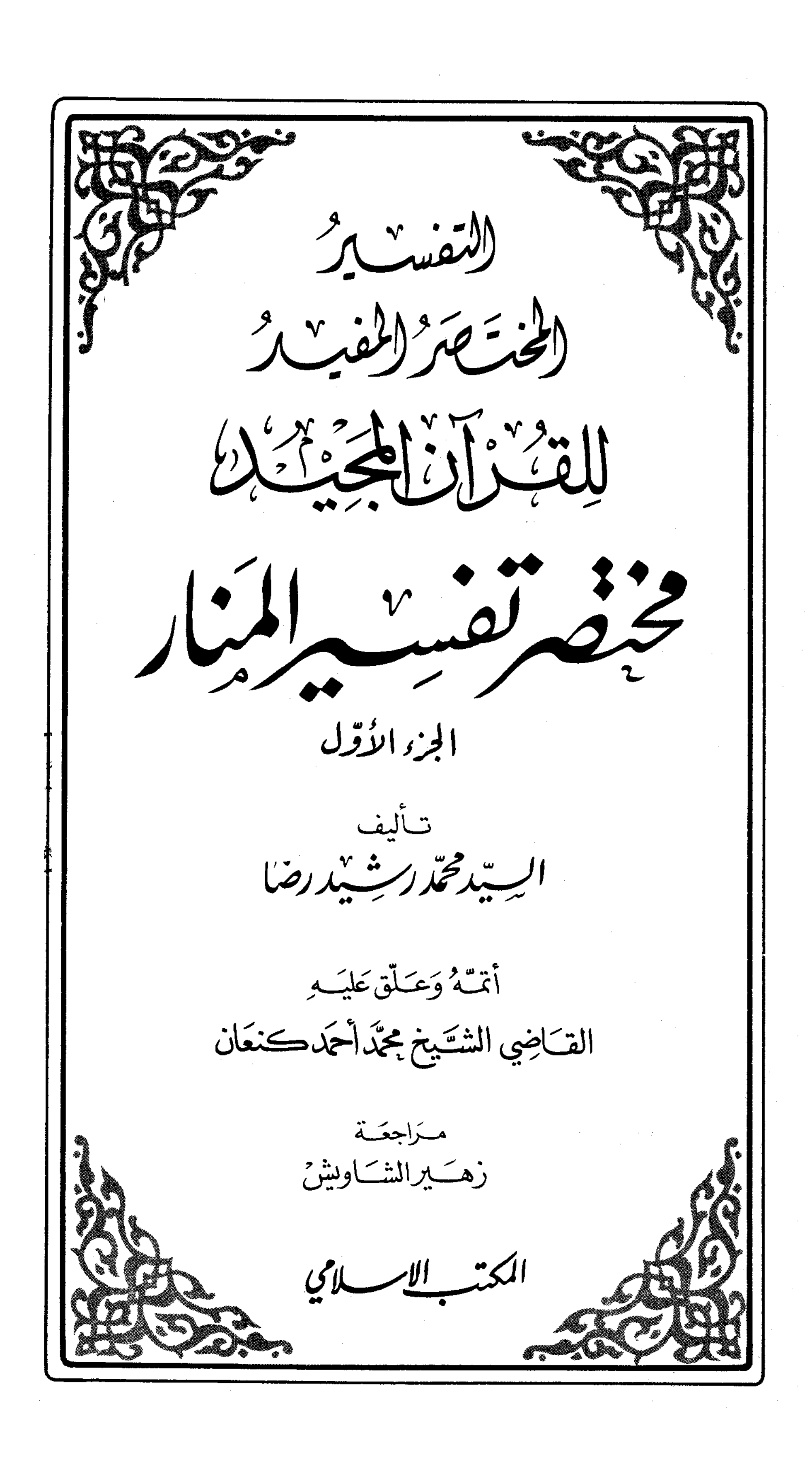


التفسير المختصر المفيد للقرآن المجيد

مختصر تفسير المنار

الجزء الأول

تأليف

السيد محمد رشيد رضا

أتمه وعلق عليه

القاضي الشيخ محمد أحمد كنعان

مراجعة

زهير الشاويش

المكتب الاسلامي

الطبعة الأولى

بيروت - ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقياً : اسلاميا

دمشق : ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقياً : اسلامي

التفسير
المختصر المفيد
للقرآن المجيد

مختصر تفسير المنار



تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن كتاب الله سبحانه أشرف الكلام وأسماه وأكرمه وأعلاه، أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ لينذر به من كان حياً، وجعله سبيل الهداية للناس أجمعين؛ وأجمل فيه حكمه وأمره ونهيه، وفصّل فيه وعده ووعيده، وحفظه بحفظه فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولما كانت علوم القرآن وتفسير معاني آياته وألفاظه من أشرف ما يجب على علماء الأمة فقد قام كثير من الصحابة، رضوان الله عليهم بنقل ما سمعوه من رسول الله ﷺ من فهمه وما شاهدوه من أسباب نزوله، ونقلوا ذلك إلى الناس فتلقى علمهم العدد الكبير من التابعين، وهكذا تتابع النقل وكثرت الأقوال، وفي كل يوم يظهر جديد يدل على أنه المعجز وأنه تنزيل العزيز الحكيم، ومن ذلك كان «تفسير المنار» للعلامة الشيخ محمد رشيد رضا أحد أكبر وأشهر رجال النهضة الإسلامية الحديثة وقد عمل في مختلف ميادينها السياسية والعلمية والاجتماعية. وكانت له جولات موفقة في كثير منها، وإني أحمد الله تعالى على أن شرفني بخدمة كتابه العزيز وسنة نبيه الكريم، وتراث هذه الأمة المجيد. ويسر لي طباعة مجموعة من التفاسير وغيرها من كتب علوم القرآن ونشرها ومنها: «زاد المسير في علوم التفسير» للإمام ابن الجوزي. و«التفسير العصري القديم» للشيخ عبد الفتاح الإمام.

و «قرة العينين على تفسير الجلالين» للقاضي الشيخ محمد كنعان. و «البرهان على سلامة القرآن» لشيخي العالم سعدي ياسين. و «تفسير جزءي عم وتبارك»، للأستاذ مظهر العظمة. و «القلم القرآني» للأستاذ عبد الرحمن الباني. و «لمحات في علوم القرآن» للدكتور الشيخ محمد لطفي الصباغ. و «علوم القرآن» للدكتور عدنان زرزور. و «التجويد وعلوم القرآن» للأستاذ عبد البديع صقر. و «فوائد قرآنية» للشيخ عبد الرحمن بن سعدي. و «تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب» لأبي حيان (تحقيق الأستاذ سمير المجذوب). و «الدستور القرآني» للأستاذ محمد عزة دروزة. و «قصص القرآن» للأستاذ موفق سليمة. و «الناسخ المنسوخ» للعلامة هبة الله بن سلامة. و «قبضة البيان من ناسخ ومنسوخ القرآن» للعلامة البذوري. و «إقامة الدليل والبرهان» للعلامة الشيخ محمد بن عبد العزيز المانع.

وها أنا أقدم اليوم، كتاباً جديداً، قيّمًا مفيداً، ألا وهو: «التفسير المختصر المفيد للقرآن المجيد» الذي هو مختصر لتفسير العلامة السيد محمد رشيد رضا رحمه الله المشهور بـ «تفسير المنار».

وقد تنبه الشيخ رشيد إلى ضرورة اختصاره لما لحظ فيه من تطويل وإطناب، وبدأ ذلك بالفعل وسماه بالاسم الذي ذكرناه، ونضّد حروف قسم منه، ولكنه لم يكمل تفسيره ــ الأصل ــ ولا مختصره حيث توفاه الله تعالى قبل أن ينجز ذلك.

وقد عثر ورثته الأكارم على ما مجموعه ثلاثة أجزاء ونصف الجزء من هذا المختصر، فسلموني ــ مشكورين ــ صوراً عنها راغبين إليّ في طباعتها بعد اختصار الباقي من تفسيره، تعميمًا للفائدة بعلم سلفهم رحمه الله. فاحتفظت بتلك الأجزاء في مكتبتي، ثم بذلت جهدي المستطاع في اختصار ما بقي منه متبعاً منهج المؤلف رحمه الله، فأنجزت اختصار الجزء الثالث ونصف الجزء الرابع منه ثم توقفت عن متابعة العمل بسبب الظروف والشواغل الكثيرة التي لا يقوم بها غيري والتي حالت بيني وبين ذلك. إلى أن يَسّر الله سبحانه لي ــ منذ مدة ــ مراجعة تفسير «قرة العينين على تفسير الجلالين» الذي عمله فضيلة القاضي الشرعي أخي الشيخ محمد أحمد كنعان والذي هو الآن قيد الإنجاز ليكون من منشورات

المكتب الإسلامي ـ إن شاء الله ـ فوجدت في عمله هذا ما يدل على علم غزير، وروح علمية طيبة، وتحقيق دقيق، فاتفقنا على أن يقوم هو بإكمال ما لم يختصره السيد محمد رشيد رضا رحمه الله من تفسيره على المنهج الذي سار عليه فيما اختصره منه، وعلى أن يقوم بالتعليق حيث يكون التعليق موضحاً لقول غامض أو مضيفاً إلى كلام المؤلف فائدة، وعلى أن يكون جميع ما في المختصر من كلام السيد رضا نفسه، وعلى أن أقوم أنا بمراجعة ذلك بعد إنجازه، من أجل أن نتعاون معاً في خدمة كتاب الله تعالى.

فسلَّمته الأصول التي عندي مما اختصره المؤلف، فقام حفظه الله وبارك فيه بإنجاز اختصار ما تبقى من الكتاب على نحو ما بينه في مقدمته.

وقمت بمراجعة الكتاب المختصر كله مع تعليقاته عليه، فوجدته عملاً جيداً وافياً بالمطلوب محققاً للغاية المرجوة من هذا العمل.

وبذلك نقدم الطبعة الأولى من هذا الكتاب القيم سائلين الله سبحانه أن ينفعنا وينفع المسلمين به، وأن يكون خالصاً لوجهه الكريم، وداعين الله تعالى بأن يتغمد الشيخ محمد رشيد رضا بعفوه ورحمته، وأن يوفقنا وذريته وأهله والمسلمين، إلى ما فيه خير الدنيا والآخرة، وجزاهم الله خيراً.

والحمد لله رب العالمين.

٢٥ صفر الخير سنة ١٤٠٤هـ
الموافق ٣٠ تشرين الثاني سنة ١٩٨٣م

زهير الشاويش

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعين به، ونعوذ به تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا ندَّ ولا مِثْل له، أنزل القرآن على عبده ورسوله محمد ﷺ ليكون للعالمين نذيراً، وشرّف به لغة العرب فجعلهِ قرآناً عربياً غير ذي عوج.

ونشهد أن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله ورحمته إلى العالمين، بلغ ما أنزل إليه من ربه وجاهد في الله حق جهاده، فمن يطع الله ورسوله فقد اهتدى، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل وغوى.

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله عز وجل، وخير الهدي هدي نبيه محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة.

وإن أفضل العلوم ما تعلق بكلام الله تعالى لأنه وحيه الهادي إلى معرفته سبحانه وتوحيده، والسعيد كل السعادة من أكرمه الله تعالى بحفظ كتابه والاشتغال بتفسير آياته وبيان معانيها بحسب ما تدركه مدارك العلماء استناداً إلى المأثور من التفسير وما تساعد عليه اللغة وأصولها. وإنني ــ تحدثاً بنعمة الله عليّ ــ ممن أكرمني الله تعالى بأن أكون خادماً لكتابه عاملاً في تقديم ما هو نافع للناس من أقوال المفسرين، وزادني سبحانه إكراماً بأن يكون جلُّ عملي في مجال التفسير بالاتفاق والتعاون مع أخٍ عالم جليل سخر وقته وأفنى عمره في خدمة

تراث هذه الأمة في التفسير والحديث والفقه وغيرها من العلوم الإسلامية عنيت به الأستاذ الشيخ زهير الشاويش صاحب «المكتب الإسلامي للطباعة والنشر».

فبعد كتابنا «قرة العينين على تفسير الجلالين» ها نحن نقدم للمسلمين كتاباً آخر كان مؤلفه قد بدأ في تأليفه ولكن توفاه الله قبل أن يتم عمله، ألا وهو كتاب «التفسير المختصر المفيد للقرآن المجيد» للسيد محمد رشيد رضا رحمه الله، وهذا الكتاب مختصر لتفسيره المطول المعروف بـ«تفسير المنار»، ـ الذي لم يتمه أيضاً كما سيأتي ـ وكان قد ابتدأ العمل في اختصاره وتنضيد حروفه في أول شهر ذي الحجة من عام ثلاثة وخمسين وثلاثمائة وألف هجرية ـ اطَّلِعْ على النموذج منه ص ٢٣ ـ فقمنا نحن بإتمام ما لم يتمه المؤلف منه والتعليق حيث يستدعي المقام ذلك.

وها نحن نضع بين يدي القارىء الكريم ما ينبغي أن يعرفه عن:

١ ـ السيد محمد رشيد رضا.

٢ ـ مؤلفاته.

٣ ـ معلومات عن «تفسير المنار».

٤ ـ معلومات عن هذا المختصر كما تصوره المؤلف الشيخ رشيد.

٥ ـ معلومات عن هذا الكتاب كما هو عليه الآن وعن عملنا فيه.

أولاً ـ ترجمة المؤلف:

قال الأستاذ خير الدين الزِّرِكلي، رحمه الله، في كتابه «الأعلام» ص ١٢٦ الجزء السادس ـ طبعة دار العلم للملايين ـ ما يلي:

«محمد رشيد رضا (١٢٨٢ ـ ١٣٥٤هـ = ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م)، محمد رشيد، بن علي رضا، بن محمد شمس الدين، ابن محمد بهاء الدين، ابن منلا

علي خليفة، القَلَموني، البغدادي الأصل، الحسيني النسب، صاحب مجلة «المنار». ولد ونشأ في «القَلَمون» ـ من أعمال طرابلس الشام[1] ـ وتعلم فيها وفي طرابلس، ثم رحل إلى مصر عام ١٣١٥هـ، فلازم الشيخ محمد عبده وتتلمذ له، وكان قد اتصل به قبل ذلك في بيروت، ثم أصدر مجلة «المنار»، ورحل إلى الهند والحجاز وأوروبة، واستقر بمصر إلى أن توفي فجأة في «سيارة» كان راجعاً بها من السويس إلى القاهرة ودفن بالقاهرة».

وذكر الزِّركلي أيضاً أن للأمير شكيب أرسلان كتاباً في سيرته سماه: «السيد رشيد رضا، أو إخاء أربعين سنة». كما كتب عنه الأستاذ الشيخ عبد الرحمن عاصم في مجلة «الهدي النبوي» عدد جمادى الآخرة سنة ١٣٥٨ وفي جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٣٩/٧/١٤ ـ أي: بعد وفاته ـ وكذلك الأستاذ محمد بهجة البيطار في مجلة المجمع العلمي العربي ١٥/٣٦٥ و٤٧٤. وذكر الدكتور الذهبي: أن الأستاذ عبد الرحمن عاصم كتب مقالاً عن حياة الشيخ رشيد في مجلة «نور الإسلام»[2] السنة الخامسة سنة ١٣٥٤ العدد ١٢.

ولم يذكر أحد ممن بلغنا أنه كتب عن محمد رشيد رضا أحداً من شيوخه على التعيين سوى الشيخ محمد عبده في مصر الذي لازمه وتتلمذ له كما هو معلوم، وقد اكتفى في «الأعلام» بالقول: «تعلَّم فيها ـ أي: في بلدة القلمون ـ وفي طرابلس وتنسَّك ونظم الشعر في صباه، وكتب في بعض الصحف»، ولكن السيد محمد رشيد نفسه ذكر في حاشية له ص ١٣٣ من الجزء السابع من تفسير المنار ما يلي:

---

(١) القلمون: بلدة معروفة اليوم تقع على مسافة قريبة جنوبي مدينة طرابلس على شاطىء البحر الأبيض المتوسط من لبنان.

(٢) مجلة «نور الإسلام» مجلة علمية أدبية إسلامية كانت تصدر في مصر لصاحبها: الشيخ أمين أبي يوسف المحامي، ومحمود أفندي عبد الكريم التاجر في «الزقازيق» في أول كل شهر عربي ومنتصفه، وكان أول أعدادها صدوراً في الخامس عشر من المحرم سنة ١٣١٨هـ الموافق ١٤ (مايو) أيار سنة ١٩٠٠م. وكان للسيد محمد رشيد رضا فيها باب للتفسير يكتب فيه نُبذاً مما يقتبسه من درس الشيخ محمد عبده، وله فيها بعده باب آخر للعبادات.

«(١) كتاب «الأربعين النووية» أول كتاب تلقيته عن الشيوخ، قرأته في بلدنا (القلمون) على أستاذنا وشيخ سيوخنا علامة الديار السورية بل العربية الشيخ محمود نشابه[١] (رحمه الله تعالى) وأجازني به، وذلك قبل أن أبدأ بطلب العلوم».

ولم أجد في تفسيره إشارة إلى سواه من شيوخه.

ثانياً ـ مؤلفاته:

يقول الأستاذ الزِّركلي في «الأعلام»:

«أشهر آثاره:

١ ـ مجلة المنار أصدر منها أربعة وثلاثين مجلداً. أسسها عام ١٣١٥ هجرية. ـ انظر المثال لعنوان المجلد الأول منها ص ٢٢ ـ.

٢ ـ تفسير القرآن الكريم في اثني عشر مجلداً ولم يكمله المعـروف بـ «تفسير المنار» وهو أصل مختصرنا هذا.

٣ ـ تاريخ الأستاذ الشيخ محمد عبده.

٤ ـ نداء للجنس اللطيف. أو حقوق المرأة في الإسلام. (طبع المكتب الإسلامي).

٥ ـ الوحي المحمدي. (طبع المكتب الإسلامي)

٦ ـ يسر الإسلام وأصول التشريع العام.

٧ ـ الخلافة.

٨ ـ الوهابيون والحجاز.

---

(١) لم نعثر للشيخ محمود نشابة على ذكر في «الأعلام» مع جلالة قدره وشهرته فسألت الدكتور هشام نشابه فقال لي: إنه والد جدي وكتب لي عنه نبذة ملخصها: هو محمود بن عبد الدائم نشابة الحسني المولود في طرابلس الشام بحدود عام (١٢٢٨هـ ـ ١٨١٣م) والمتوفى فيها عام (١٣٠٨هـ ـ ١٨٩٠م) ودفن في مقبرة باب الرمل، من شيوخه في الأزهر الشيخ إبراهيم البيجوري، وكان له مدرسة عند مدخل الجامع المنصوري الكبير يُدَرِّسُ فيها، من تلاميذه بالإضافة إلى السيد محمد رشيد رضا، الشيخ مصطفى كرامي وهو جد عبد الحميد كرامي والد الرئيس رشيد كرامي أحد رؤساء الوزارة في لبنـان، والشيخ عبد الكريم عويضة الذي كان مفتياً لطرابلس حتى عام (١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م).

٩ ـ ذكرى المولد النبوي.

١٠ ـ شبهات النصارى وحجج الإسلام».

وكل هذه المؤلفات مطبوعة كما أشار إلى ذلك صاحب «الأعلام».

وذكر الدكتور «محمد حسين الذهبي» في كتابه «التفسير والمفسرون» بعد أن أشار إلى «تفسير المنار»: أن للسيد محمد رشيد رضا مجموعة «تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن» أي: من «الكوثر، إلى الناس».

ونضيف نحن إلى مؤلفات السيد رضا رحمه الله المذكورة كتابين لم نر مَنْ ذكرهما أولهما: «التفسير المختصر المفيد للقرآن المجيد» وهو كتابنا هذا كما سنبينه، وثانيهما: كتاب أشار إليه صفحة ٣٩٣ من الجزء العاشر من تفسير المنار وسماه: «الحكمة الشرعية» قائلاً فيه:

«الذي ألفتُه في عهد طلبي للعلم في طرابلس الشام».

ولعل هذا الكتاب يبحث فيه ما يتعلق بأحاديث الدجال والمسيح والمهدي كما فهمت من سياق كلامه في الصفحة المشار إليها.

ومن مؤلفاته أيضاً: «خلاصة السيرة المحمدية» طبع المكتب الإسلامي.

وله أيضاً تعليقات مفيدة على كتاب «دلائل الإعجاز» للإمام عبد القاهر الجرجاني الذي طبعه في مطبعته عام ١٣٣١هـ.

كما أن له الكثير من المقالات والتعليقات.

ثالثاً ـ معلومات عن «تفسير المنار»:

ليس بعيداً أن رغبة السيد رشيد في كتابة تفسير للقرآن الكريم كانت مستقرة في فكره قبل سفره إلى مصر عام ١٣١٥ هجرية، بدليل أنه كان أول عمل اقترحه على شيخه محمد عبده بعد تعرفه عليه، وهو الذي حث الشيخ على عقد درس خاص في الأزهر لتفسير القرآن الكريم، وبالفعل اقتنع الشيخ محمد عبده برأي السيد رضا وباشر في إعطاء دروس التفسير مبتدئاً بمقدمة في علم التفسير إلى قوله تعالى: ﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيمًا﴾ وهي الآية (١٤٦)

من سورة «النساء» ـ انظر ص ٢١١ من الجزء الثاني من هذا المختصر ـ حيث توفي الشيخ محمد عبده في شهر جمادى الأولى سنة ١٣٢٣هـ.

وكان السيد رضا يلازم دروس شيخه ويكتب كثيراً مما يسمعه منه، ثم بعد عودته إلى منزله يقوم بمراجعته وإعداده للنشر في مجلته «المنار». وذلك بعد أن يراجع شيخه فيما كتبه، كما قال في مقدمة تفسيره.

وقد بدأ في مجلته المذكورة بنشر تلك الدروس التي كان يعدُّها فَنشر القسم الأول من مقدمة شيخه في علم التفسير في العدد الصادر منها بتاريخ الأول من المحرم عام ١٣١٨هـ ـ ١٩٠٠م ثم استمر على ذلك في الأعداد الأخرى.

لذلك فإن القسم الأول من «تفسير المنار» المنتهي بالآية «١٤٦» من سورة «النساء» الآنفة الذكر، ما هو في الواقع سوى تفسير للشيخ محمد عبده، فهو يصدِّر معظم عباراته بقوله: «قال الأستاذ الإمام»، وإذا كان للسيد محمد رشيد رضا من كلام يضيفه فإنه يعقب على قول شيخه بقوله: «قلت».. كذا، أو: «وأقول».. ؛

وقد حزن السيد محمد رشيد رضا على وفاة شيخه حزناً شديداً وفَقَد بوفاته مصدراً من مصادر التفسير عنده ودوّن في حاشية له ص ٤٤١ من الجزء الخامس من «تفسير المنار» ما يلي:

« (يقول محمد رشيد مؤلف هذا التفسير): هذه الآية ـ أي: ١٤٦من النساء ـ كانت آخر ما فسره شيخنا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في الجامع الأزهر، فرضي الله عنه وجزاه عن نفسه وعنا خير الجزاء، وسنستمرّ في التفسير على هذه الطريقة التي اقتبسناها منه إن شاء الله تعالى وإن كنا محرومين في تفسير سائر القرآن من الفوائد والحكم التي كانت تهبط من الفيض الإلهي على عقله المنير إلا في الجزء الثلاثين فإنه كتب له تفسيراً مختصراً مفيداً[1]. وكان فراغه من تفسير هذه الآية في منتصف المحرم سنة ١٣٢٣ وقد توفي في شهر جمادى الأولى منها رحمه الله تعالى ونفعنا به. وكتبتُ تفسير هذه الآيات في مدينة (بمبي) (أو بومباي) من ثغور

---

(١) وقد طبع منفرداً مرات عديدة.

الهند في غرة ربيع الآخر سنة ١٣٣٠ والله أسأل أن يوفقني لإتمام هذا التفسير، إنه على ما يشاء قدير».

ولم يكن الشيخ رضا ــ مع إجلاله لشيخه محمد عبده ــ موافقاً له في كل ما يقول، بل كان أحياناً يبين بأسلوب لا تكاد ترى فيه ملامح الخلاف أنه لا يوافق شيخه على ما يقول، بل صرح في أحد المواضع بما نرى أن ذكره بنصه أهم من اختصاره حيث قال في الصفحة ٢٢٢ من الجزء الثامن ما يلي:

«ونقول: «إن هذا الكلام من الأستاذ ــ يعني: محمد عبده ــ يدل على أنه كان في عهد تأليفه لهذه الحاشية أيام اشتغاله بعلم الكلام في الأزهر ممتازاً باستقلال الفكر وعدم التقليد والبراءة من التعصب مع الحرص على جمع كلمة المسلمين، ولكنه كان ينقصه سعة الإطلاع على كتب الحديث، وإذاً لجزم بأن الذين: «هم على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه» هم: أهل الحديث وعلماء الأثر، المهتدون بهدي السلف. وأنهم ثلة من الأولين وقليل من الآخرين. ولا تزال منهم طائفة ظاهرة على الحق إلى أن تقوم الساعة كما ورد في الصحيح. وأنهم لا يمكن أن يكونوا أتباع أحد من علماء الكلام المبتدع، سواء منهم من ضر ومن نفع». انتهى.

وقد قال السيد رضا ذلك تعقيباً على ما قاله شيخه في حديث افتراق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة وما فيه من روايات، وقد نقل ذلك عنه في الصفحتين (٢٢٠ و ٢٢١) من الجزء الثاني وهذا نصه:

وقد تعرض لهذه المباحث والمشكلات في الحديث شيخنا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في حاشيته على شرح الجلال الدواني (محمد بن أسعد الصديقي) للعقائد العَضُدية، وعَدَّ ما أطال به إيجازاً بالنسبة إلى ما يتسع له المقام. قال في أوله:

(لا بد أن نتكلم في هذا الحديث بكلام موجز، فاسمعْ واعلمْ: أن هذا الحديث قد أفادنا أنه يكون في الأمة فرق متفرقة، وأن الناجية منهم واحدة، وقد بينها النبي ﷺ بأنها: التي على ما هو عليه وأصحابه. وكون الأمة قد حصل فيها افتراق على فرق شتى تبلغ العدد المذكور أو لا تبلغه ثابت قد وقع لا محالة، وكون الناجي منهم واحدة أيضاً حق لا كلام فيه، فإن الحق واحد هو ما كان

النبـي عليه وأصحابه، فإن ما خالف ما كان عليه النبـي فهو رد، **وأما تعيين أيُّ فرقة هي الناجية، أي: التي تكون على ما كان النبـي عليه وأصحابه فلم يتعين** لي إلى الآن، فإن كل طائفة ممن يذعن لنبينا بالرسالة تجعل نفسها على ما كان عليه النبـي وأصحابه. حتى إن ميرباقر الداماد برهن على أن جميع الفرق المذكورة في الحديث هي فرق الشيعة، وأن الناجية منهم فرقة الإمامية، وأما أهل السنة والمعتزلة وغيرهم من سائر الفرق فجعلهم من أمة الدعوة، فكل يدعي هذا الأمر ويقيم على ذلك أدلة).

ويضيف السيد محمد رشيد قائلاً:

ثم ذكر الأستاذ أمثلة مما يقوله فلاسفة المسلمين وصوفيتهم وأشهر فرقهم فيما خالفوا فيه غيرهم وما استدلوا به على ذلك، ومنها أحاديث موضوعة وهم لا يعلمون أنها موضوعة لجهل أكثرهم بالنقول. واعتمادهم على النظريات والآراء التي يسمونها المعقول. ثم قال ــ أي: الشيخ محمد عبده ــ:

(فكل يبرهن على أنه الفرقة الناجية الواقفة على ما كان عليه النبي وأصحابه، وكل طائفة منهم متى رأت من النصوص ما يخالف ما اعتقدت أخذت في تأويله وأصحابه وأرجعته إلى بقية النصوص التي تشهد لها، فكل برهن على أنه الفرقة الناجية المذكورة في الحديث، وكلٌّ مطمئن بما لديه، وينادي نداء المحقق لما هو عليه، والوقوفُ على حقيقة الحق في ذلك يكون من فضل الله تعالى وتوفيقه، فإن للناظر أن يقول: يجوز أن تكون الفرقة الناجية الواقفة على ما كان عليه النبـي وأصحابه قد جاءت وانقرضت، وأن الباقي الآن من غير الناجية. أو أن الفرق المرادة لصاحب الشريعة لم تبلغ الآن العدد. أو أن الناجية إلى الآن ما وُجدت وستوجد. أو أن جميع هذه الفرق ناجية حيث أن الكل مطابق لما كان عليه النبـي وأصحابه من الأصول المعلومة لنا عنهم كالألوهية، والنبوة، والمعاد. وما وقع فيه الخلاف فإنه لم يكن يعلم عنهم علم اليقين وإلا لما وقع فيه اختلاف. وأن بقية الفرق ستوجد من بعد أو وجد منها بعض لم يعلم أو علم كمن يدعي ألوهية علي كفرقة النصيرية. **وموجب هذا التردد أنه ما من فرقة إلا ويجدها الناظر فيها معضدة بكتاب وسنة وإجماع وما يشبـه ذلك**

والنصوص بها متعارضة من الأطراف. ومما يَسُرُّني ما جاء في حديث آخر: أن الهالك منهم واحدة)». انتهى كلامه.

ثم بعد وفاة الشيخ محمد عبده زاد من استقلاله واحتجاجه بالحديث النبوي، والتزامه به أكثر مما كان عليه شيخه ــ مع رده للعديد من صحاح الأحاديث بغير حق ــ فقال رحمه الله في الصفحة السادسة عشرة من الجزء الأول من المنار ما نصه:

«وإنني لما استقللت بالعمل بعد وفاته خالفت منهجه بالتوسع فيما يتعلق بالآيات من السنة الصحيحة، سواء كان تفسيراً لها، أو في حكمها، وفي تحقيق بعض المفردات أو الجمل اللغوية والمسائل الخلافية بين العلماء إلخ».

وعلى هذا الأساس تابع السيد محمد رشيد رضا عمله في طباعة تفسيره مستقلاً بعدما كان ينشره في مجلة «المنار» واضعاً في ذهنه أن يكون كتابه «ثلاثين مجلداً» لكل جزء من أجزاء القرآن الكريم مجلد واحد، ولم ينكبَّ على كتابته كما كان يتمنى، بل كان يكتب حيناً ويتوقف حيناً آخر بحسب شواغله وأسفاره الكثيرة، فكان يكتب في سفره، في الآستانة، أو في الهند، حتى وهو على ظهر السفينة في البحر، وكان كثيراً ما يكتب ويدفع ما كتبه إلى المطبعة من دون مراجعة. وكمثال على ذلك نذكر بعضاً من حواشيه ففي تفسير آخر سورة «المائدة ص ٢٨٣ من المجلد السابع قال ما يلي:

«يقـول محمد رشيد مؤلف هذا التفسير: قد وفقني الله تعالى لإتمام تفسير هذه السورة في أوائل شهر ربيع الآخر سنة ١٣٣٤ وكنت بدأت تفسيرها في مثل هذا الشهر من سنة ١٣٣١ وسبب هذا البطء أنني أكتب التفسير لينشر في مجلة المنار فتارة أفسر في الجزء منه بضع آيات، وتارة أفسر آية واحدة في عدة أجزاء. وقد يمر شهر أو أكثر ولا أكتب في التفسير شيئاً، وأسأل الله تعالى أن يوفقني لإتمام هذا التفسير بمنع العوائق، والمباركة في الوقت، وأن يؤيدني فيه بروح من عنـده».

وفي حاشية له ص ٩٤ من المجلد السابع أيضاً قال ما يلي:

« *) سبب ما جاء في مباحث تحريم الخمر في تفسيرنا للآيات من الاستدراكات وتشتيت المسائل أننا كتبنا ما كتبناه أولاً فطبع، ثم تذكرنا بعض

شبهات الذين فرقوا بين المسكرات في الحكم فبيّنا بطلانها بما طبع عقب كتابته، ثم سألنا بعض أهل العلم عن بعض الأحاديث الواردة في النبيذ فكان سؤاله منبهاً لنا إلى زيادة البحث بياناً وإيضاحاً. هذا وإننا نكتب التفسير دائمًا في وقت ضيق ونعطي ما نكتبه للمطبعة من غير قراءة ولا مراجعة ثم لا نراه إلا عند تصحيح ما يجمع في المطبعة، وكلما جمع شيء يطبع وإن لم تتم كتابة ما يتعلق به. وقد طبعت الكراسة التي قبل هذه قبل أن نصححها كلها».

وقد شعر رحمه الله بهذا البطء في العمل فلذلك كان يأمل في أن ينجز تفسير كل جزء مما بقي في أقل من سنة حتى يتمم تفسيره كله، كما قال في آخر تفسير الجزء العاشر:

«ونرجو أن يوفقنا الله تعالى لإنجاز تفسير كل جزء مما بقي في أقل من سنة مع الاختصار غير المخل إن شاء الله تعالى وبه الحول والقوة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

فتابع رحمه الله عمله فأكمل الجزأين الحادي عشر والثاني عشر، ثم بدأ في تفسير الجزء الثالث عشر من القرآن الكريم حتى بلغ آخر الآية «١٠١» من سورة «يوسف» عليه السلام وهي قوله تعالى: ﴿رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض توفني مسلمًا وألحقني بالصالحين﴾ فتوفاه الله وهو منتقل في «سيارة» من مدينة «السويس» إلى مدينة «القاهرة» في مصر كما تقدم في ترجمته.

وبذلك توقف عمله عند هذه الخاتمة الحسنة.

وملخص ما تقدم:

(أ) أن السيد محمد رشيد رضا رحمه الله قد كتب من تفسيره من أول الفاتحة حتى آخر الآية «١٠١» من سورة يوسف..

(ب) أن المطبوع المتداول من تفسيره هو اثنا عشر مجلداً لاثني عشر جزءاً من القرآن الكريم حيث ينتهي الجزء الثاني عشر بآخر تفسير الآية «٥٢» من سورة يوسف وهي قوله تعالى: ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾.

(ج) أن ما فسره السيد محمد رشيد رضا من الجزء الثالث عشر أي: من أول

الآية «٥٣» حتى آخر الآية «١٠١» من سورة يوسف مطبوع في أيامه ولكنه غير متداول لعدم إنجازه كاملاً، ويوجد صورة عنه مطبوعة في مكتبة «المكتب الإسلامي للأستاذ زهير الشاويش».

(د) قام الأستاذ العلاّمة محمد بهجة البيطار بتفسير ما تبقى من سورة يوسف عليه السلام وهو عبارة عن الآيات العشر الأخيرة منها، كما قدم لتفسير سورة يوسف باسم السيد محمد رشيد رضا وطبعت مستقلة.

وقال في آخر السورة ما نصه:

«يقول الضعيف: محمد بهجة ابن الشيخ محمد بهاء الدين آل البيطار الدمشقي. هذا آخر تتمة تفسير السيد الإمام، لسورة يوسف عليه السلام، وقد وردتُ فيها على زاخر بحره، وعلقت عليها من نفائس لآليه ودره، فرحم الله السيد الإمام، وجدد بمناره وتفسيره عهد الإسلام، وكتب في ذي الحجة وتَـمَّ في المحرم الحرام سنة ١٣٥٥. وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين».

ومجمل القول في «تفسير المنار»: أنه ــ مع ما لنا ولغيرنا على بعض ما فيه من اعتراضات محقة ولا شك ــ يصح أن يسمى «موسوعة محمد رشيد رضا العلمية». وكان خلال الخمسين سنة التي خلت وما يزيد، ولا يزال، أحد التفاسير المشهورة المتداولة، فقد ضمنه المؤلف ــ على ما أظن ــ خلاصة أقواله ومقالاته وبحوثه، كما أنه لم يخل من الطرائف والنوادر وكذلك بعض الأحداث التاريخية التي حصلت في تلك الفترة السوداء من تاريخ الأمة الإسلامية حيث ألغيت الخلافة الإسلامية وتفتت بلاد المسلمين ووقعت تحت سيطرة أعدائهم وتسلطهم.

رابعاً ــ «مختصر تفسير المنار» كما تصوَّره المؤلف، رحمه الله:

لقد رأى السيد رضا أن تفسيره مطوَّل جداً، وأنه لو كان كمل لبلغ الثلاثين مجلداً، لذلك رغب في جعله ثلاثة أجزاء كل عشرة أجزاء قرآنية في مجلد فيشمل الجزء الأول من سورة الفاتحة إلى آخر سورة يونس. (راجع المثال ص ٢٣). فبدأ في اختصار الثلث الثاني في أول ذي الحجة عام ١٣٥٣هـ أي: قبيل عام واحد من وفاته، وهو: من أولِ قوله تعالى: ﴿يعتذرون إليكم إذا

رجعتم إليهم﴾ الآية «٩٤» من سورة التوبة إلى آخر قوله تعالى ﴿ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد﴾ الآية «٤٨» من سورة يوسف. ثم رجع إلى بداية التفسير فاختصر من الثلث الأول من أول سورة الفاتحة إلى أواخر قوله تعالى ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾ الآية «١٨٦» من سورة البقرة، ولكنه توفي بعد ذلك ولم يكمل اختصار ما فسره، حتى ولا تفسير جميع القرآن الكريم كما كان في نيته أن يفعل، وقد أشرنا إلى ذلك في مواضعه من هذا المختصر. (انظر مقدمة السيد محمد رشيد رضا بعد مقدمتنا هذه ص ٢٥ وصورتها ص ٢٤) فيكون مجموع ما اختصره السيد رضا رحمه الله ثلاثة أجزاء ونحو نصف الجزء، من أصل اثني عشر جزءاً ونحو نصف الجزء.

خامساً ـ «مختصر المنار» كما هو الآن:

لقد اتبعنا في عملنا طريقة المؤلف في اختصاره إلى حد يصعب معه على القارىء أن يميز بين ما اختصره هو وما اختصرناه نحن لولا التنبيهات التي وضعناها، علماً بأن اختصارنا لم يخرج عن كونه ربطاً لعبارات المؤلف نفسها، وليس لنا فيها زيادات سوى ما تقتضيه الأصول النحوية والبلاغية، والدليل على ذلك أننا أضفنا ما نريد قوله في تعليقات على مسائل في الكتاب مما فيه زيادة فائدة أو بيان لقول المؤلف، فكانت حصيلةُ عملنا أن كان المختصر ـ كما كان المؤلف يرغب ـ ثلاثة أجزاء:

يضم الجزء الأول منها تفسير سور: الفاتحة، والبقرة، وآل عمران.

ويضم الجزء الثاني تفسير سور: النساء، والمائدة، والأنعام.

ويضم الجزء الثالث ما تبقى من السور وهي: من أول سورة الأعراف إلى آخر سورة يوسف.

ويشمل القسم الذي اختصرناه ثمانية أجزاء وأكثر من نصف الجزء من مجموع تفسير المنار، أي: ما يفوق ثلثي الكتاب. وهو من أواخر الآية «١٨٦» من سورة البقرة إلى آخر الآية «٩٣» من سورة التوبة، ومن أول الآية «٤٩» من سورة يوسف إلى آخرها.

وبالإجمال فإن هذا المختصر قد حوى أحسن ما في «تفسير المنار»، وخلا من المجادلات التي لا جدوى منها ولا طائل تحتها، فقد أثبتنا فيه أوضح المعاني التي ذكرها المؤلف وأقربها للصواب ـ بحمد الله ـ مستندين في ذلك إلى ما ثبت في التفسير من الأحاديث النبوية والآثار، وإلى الأقوال المتفقة مع منهج سلفنا الصالح الذين ساروا على هدي محمد عليه الصلاة والسلام من غير تبديل ولا تحويل.

ومما زاد في قيمة عملنا هذا قيام أخينا الأستاذ العالم الشيخ زهير الشاويش بمراجعته بما هو معروف عنه من تدقيق وتحقيق، واطلاع واسع في علم التفسير، فنبهنا إلى أمور مهمة وذكَّرنا بفوائد جمة وتعليقات أخذناها بعين الاعتبار، فكان ذلك خدمة جُلىً للكتاب، وتقديراً منه لما بذلناه من جهد، وقد سبق له أن باشر نفس العمل واختصر الجزء الثالث وقسمًا من الجزء الرابع من «تفسير المنار» وكان عملاً جيداً، ولكن شواغله الكثيرة حالت بينه وبين إتمامه فعهد بذلك إلـيّ فاختصرته على نحو ما ذكرت آنفاً. فله مني خالص الدعاء بأن يجزيه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً، وبأن يوفقنا لاستمرار التعاون فيما بيننا لما فيه خدمة كتاب الله وسنة رسوله إنه سميع قريب مجيب الدعاء.

والحمد لله رب العالمين.

بيروت في العشرين من شهر صفر الخير
عام أربعة وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية
الموافق ١٨ تشرين الثاني سنة ١٩٨٣م.

محمد أحمد كنعان



١٣١٥

مجلة شهرية تبحث في فلسفة الدين وشؤون الاجتماع والعمران

« تصدر في كل شهر عربي مرة »

لمنشئها

السيد محمد رشيد رضا

عنوانها (مصر — ادارة مجلة المنار) والتلغرافي « المنار بمصر »

المجلد الاول

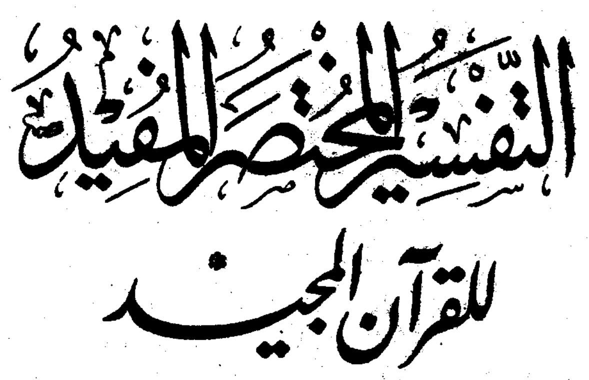
سنة ١٣١٥ وسنة ١٣١٦

قيمة الاشتراك عن سنة ستون قرشاً صاغاً في مصر والسودان
وفي المملكة العثمانية ثلاثة ريالات ونصف وفي الخارج ١٨ فرنكاً
و١٥ شلناً في الهند و٧ روابل في روسيا والدفع سلفا

الطبعة الثانية سنة ١٣٢٧

طبع بمطبعة المنار بشارع درب الجماميز بمصر

مثال الصفحة الأولى للمجلد الاول من مجلة «المنار»
التي أنشأها السيد محمد رشيد رضا المشار إليها في مؤلفاته



المبين لأصح معاني التنزيل بأوضح التعبير الذي يفهم عنه كل ذي حظ من اللغة العربية بقدره ، ما يعينه على تدبره والاهتداء به ، من عقيدة صحيحة سليمة من الاهواء وتفرق الشيع ، وعبادة شرعية خالية من الآراء والبدع ، وآداب عالية تهذب النفس وتثقف العقل ، وسياسة رشيدة تجمع كلمة الأمة ، فهو كالمتن لتفسير المنار ، الجامع لكل ما يحتاج اليه البشر من هداية القرآن



(فيه تفسير ثلث القرآن من سورة الفاتحة الى آخر سورة يونس عليه السلام)

تأليف

السيد محمد رشيد رضا

منشئ مجلة المنار

الطبعة الأولى بمطبعة المنار بمصر

مثال الصفحة الأولى من الجزء الأول من «مختصر تفسير المنار» الذي ابتدأ السيد محمد رشيد رضا في تأليفه

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمدك اللهم بما حَمِدْتَ به نفسك، وباسمك أشرع في الثلث الأول من هذا التفسير المختصر لكتابك العزيز، الذي كثر علي الإلحاح بطلبه من المؤمنين الراضين عن (تفسير المنار) المطوّل، المفضلين له على غيره، بتحريه بيانَ ما أنزلتَهُ لأجله من الهدى والإصلاح للبشر في أمري الدين والدنيا، وموافقته لحاجة هذا العصر في معارفه، وإقامة حجة الإسلام والدفاع عنه، بالجمع بين صحيح المأثور والمعقول، أحبوا أن أكتب لهم على نهجه تفسيراً وجيزاً يُسَهِّلُ على كل ذي حظ من اللغة العربية أن يتدبره ويهتدى به، وعلى كل عالم أن يقرأه كله لطلاب العلم في زمن قصير، فإياك استعين على إتمامه بما تحب وترضى من بينات الهدى والفرقان. وإياك أسأل أن تؤتيني به وفيه الحكمة وفصل الخطاب، وأن تعلمني من لدنك علماً، وتهب لي فهماً وحُكماً، حتى يكون القرآن حجة لي لا حجة علي، واهد اللهم به كل من قرأه بنية صحيحة، واحفظنا جميعاً من زيغ من يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله

وإني أنصح لقارئه بأن ينوي بالنظر فيه الإستعانةَ به على تدبر القرآن والتفقه فيه والاتعاظ به لإصلاح نفسه. والاستعداد لإصلاح غيره، بالدعوة إلى الحق وفعل الخير وإقامة العدل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعاون على البر والتقوى بين الخلق.. وجمع كلمة المسلمين دون المراء والجدل في الدين ونصر المختلفين فيه

وسيجدني إن شاء الله أتحرى أن أصوّر له المعاني الصحيحة التي تدني إليه هذه المقاصد مجتنباً ما يشغله عنها من مباحث اللغة كاشتقاق الألفاظ. وذكر الحقيقة والمجاز، ووجوه الإعراب، واصطلاحات الفنون. وأصول الكلام والفقه، إلا ما كان إشارة يسهل فهمها على جمهور القراء. ككلمة تعليل وتمثيل، وإجمال وتفصيل، ومجمل ومبين، ومطلق ومقيد، وشرط وجواب، واستئناف لبيان. وحديث مرفوع مثلاً، فإن وجدت خفاء أو إشكالا في بعض العبارات أو المسائل وأردتَ كشف الغطاء عنها، أو الوقوف على ما فيها من الأحكام والحكم بالتفصيل، فراجع لفظها أو معناها في تفسير المنار المطول مستعيناً بفهارسه، وبعدد الآيات والسور، وأرجو أن يكون ما هنا أقرب إلى الصواب مما قد يخالفه هنالك، وأذكر القراءات المتواترة بدون عزو إلى رواتها للاختصار، مع بيان معانيها وحكمتها بالإيجاز، إلا ما يتوقف على التلقي بأداء حفاظ القراء كالإمالة وتسهيل الهمزة مثلا، وقد قدرته بثلاثة أجزاء كل ثلث من القرآن في جزء، وكنت بدأت بالثلث الثاني من قبل،[1] وأسأل الله أن يعينني على إتمامه كما يحب ويرضى في زمن قصير، وهو على كل شيء قدير ﴿وكتبه محمد رشيد منشئ المنار بمصر في ذي القعدة سنة ١٣٥٣

هذه مقدمة السيد محمد رشيد رضا لمختصره كما نَضُّد حروفها،
وقد أعدنا تنضيدها في الصفحة التالية مع بعض التعليقات عليها

مقدمة المؤلف

السيد محمد رشيد رضا

رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمدك اللهم بما حَمِدْتَ به نفسك، وباسمك أشرع في الثلث الأول من هذا التفسير المختصر لكتابك العزيز، الذي كثرعليَّ الإلحاح بطلبه من المؤمنين الراضين عن (تفسير المنار) المطوَّل، المفضلين له على غيره، بتحريه بيانَ ما أنزلتَهُ لأجله من الهدى والإصلاح للبشر في أمري الدين والدنيا، وموافقته لحاجة هذا العصر في معارفه، وإقامة حجة الإسلام والدفاع عنه، بالجمع بين صحيح المأثور والمعقول.

أحبوا أن أكتب لهم على نهجه تفسيراً وجيزاً يَسْهُلُ على كل ذي حظ من اللغة العربية أن يتدبره ويهتدي به، وعلى كل عالم أن يقرأه كله لطلاب العلم في زمن قصير.

فإياك أستعين على إتمامه بما تحب وترضى من بينات الهدى والفرقان، وإياك أسأل أن تؤتيني به وفيه الحكمة وفصل الخطاب، وأن تعلمني من لدنك علمًا، وتهب لي فهمًا وحُكمًا، حتى يكون القرآن حجة ليَّ لا حجة عليَّ، واهد اللهم به كل من قرأه بنية صحيحة، واحفظنا جميعاً من زيغ من يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.

وإني أنصح لقارئه: أن ينوي بالنظر فيه الاستعانةَ به على تدبر القرآن والتفقه فيه، والاتعاظ به، لإصلاح نفسه، والاستعداد لإصلاح غيره، بالدعوة إلى الحق وفعل الخير وإقامة العدل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعاون على البر والتقوى بين الخلق، وجمع كلمة المسلمين، دون المراء والجدل في الدين ونصرالمختلفين فيه.

وسيجدني إن شاء الله أتحرى أن أصوِّر له المعاني الصحيحة، التي تدني اليه هذه المقاصد، مجتنباً ما يشغله عنها من مباحث اللغة، كاشتقاق الألفاظ، وذكر الحقيقة والمجاز، ووجوه الإعراب، واصطلاحات الفنون، وأصول الكلام والفقه، إلا ما كان إشارة يسهل فهمها على جمهور القراء، ككلمة تعليل وتمثيل، وإجمال وتفصيل، ومجمل ومُبيَّن، ومطلق ومقيد، وشرط وجواب، واستئناف لبيان، وحديث مرفوع مثلاً.

فإن وجدتَ خفاء أو إشكالا في بعض العبارات أو المسائل، وأردتَ كشف الغطاء عنها، أو الوقوف على ما فيها من الأحكام والحكم بالتفصيل، فراجع لفظها أو معناها في «تفسير المنار» المطول مستعيناً بفهارسه، وبعدد الآيات والسور، وأرجو أن يكون ما هنا أقرب إلى الصواب مما قد يخالفه هنالك. وأذكر القراءات المتواترة دون عزوٍ إلى رواتها للاختصار، مع بيان معانيها وحكمتها بالإيجاز، إلا ما يتوقف على التلقي بأداء حُفاظ القراء كالإمالة، وتسهيل الهمزة مثلاً.

وقد قدرته بثلاثة أجزاء، كل ثلث من القرآن في جزء، وكنت بدأت بالثلث الثاني من قبل[1]، وأسأل الله أن يعينني على إتمامه كما يحب ويرضى في زمن قصير، وهو على كل شيء قدير ؟

وكتبه محمد رشيد منشىء «المنار» بمصر في ذي القعدة سنة ١٣٥٣

---

(١) قوله: «وقد كنت بدأت بالثلث الثاني من قبل»، بدأ المؤلف السيد محمد رشيد رضا، رحمه الله، مختصره هذا بأول الجزء الحادي عشر من القرآن الكريم الذي يقع في أول الآية «٩٤» من سورة «التوبة» وهي قوله تعالى: ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم..﴾ الآية. وتوقف مع آخر الآية «٤٨» من سورة «يوسف»، عليه السلام، أي: عند قوله تعالى: ﴿إلا قليلا مما تحصنون﴾، وقد اختصر هذا المقدار قبل أن يكتب مقدمته هذه، ثم كتبها وباشر في اختصار الثلث الأول من «فاتحة الكتاب» حتى أواخر الآية «١٨٦» من سورة «البقرة» وبالتحديد عند قوله تعالى: ﴿فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي﴾. وقد بينا ذلك كله وما يتعلق به في مقدمتنا على هذا الكتاب فارجع اليها.

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

(مكية، وهي: سبع آيات)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

١ ـ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ اسم الجلالة: «الله» عَلَمٌ لـرب السماوات والأرض، واجب الوجود، وواهبه لكل موجود.

و «الرحمن»: وصف استعمل في القرآن ـ كلفظ الجلالة ـ اسمًا لذاته تعالى. ومعناه: الكامل الرحمة بذاته الذي وسعت رحمته العامة كل شيء.

و «الرحيم»: وصف استعمل فيه[1] باعتبار تعلُّقها بمن شاء واخْتَصَّ من عباده.

ومعنى البسملة في خطاب اللّه عز وجل لرسوله ﷺ: اقرأ أيها الرسول هذه السورة، أو القرآن باسم الله، أي: بأمره مبلِّغاً عنه، وكان ﷺ يقدِّر في قراءته أنه يقرأ بإذنه وأمره تعالى تبليغاً عنه ما هو كلامه عز وجل، لا باسم نفسه ولا من تلقاء نفسه، وكل واحد منا يقدِّر: أَقْرَأُ باسمه تعالى وتشريعه، وهدايته

---

(١) قوله: «فيه» أي: في معنى «الرحمن» المتقدم.

وتوفيقه، ويقدِّر في غير قراءة القرآن ما يناسب العمل الشريف الذي يبدؤه بالبسملة، وما في معناها، كدعاء النوم: «باسمك ربي وضعتُ جنبي وبك أرفعه» إلخ[1].

٢ ـ ﴿الحمد لله﴾ أي: كل ثناء حسن، ووصفٍ بالكمال والجلال والجمال، فهو لله استحقاقاً ووجوداً بالفعل، حَمِدَ به نفسه، وكلَّفنا أن نحمده به ﴿رب العالمين﴾ سيدهم ومدبر أمورهم، ومربيهم بأنواع المواهب والنِّعم.

٣ ـ ﴿الرحمن﴾ في نفسه ﴿الرحيم﴾ بخلقه، والوصفان كسابقهما تعليلٌ لحمده.

٤ ـ ﴿مالك يوم الدين﴾ أي: يوم الحساب والجزاء في الآخرة، وقرىء[2] (مَلِك)، فهو وحده مالك الأعيان، وملك التصرف فيه «يَومَ لا تَمْلكُ نفْسٌ لِنَفسٍ شَيْئًا والأمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلّهِ».

٥ ـ ﴿إياك نعبد﴾ نخصك بالعبادة وحدك، فلا نعبد معك أحداً ولا شيئاً، وإنما نعبدك بما شرعته لنا، من دعاء، وذكر، وفكر، وعلم، وعمل، في كتابك، وما بينه مِنْ سُنَّةٍ نبيِّكَ ورسولُكَ، لا نبتدع في عبادتك شيئاً ﴿وإياك نستعين﴾ ونخصك بطلب المعونة على القيام بحقوق عبادتنا وأمور معيشتنا وسائر أعمالنا الخاصة والعامة، بأن تسخر لنا ما نعجز عنه أو نجهله من الأسباب، أفراداً وجماعةً وأمة.

٦ ـ ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ الهداية: «الدلالة بلطف»، وتكون

---

(١) قوله: «وبك أرفعه إلخ»، تتمته، قوله ﷺ: «إن أمسكت نفسي فاغفر لها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين ـ وليضطجع على شقه الأيمن ـ» رواه الشيخان وأصحاب السنن.

(٢) قوله: «وقُرىء» يعني به المؤلف: القراءة الصحيحة كما ذكر في مقدمته، وقد جرى بعض المفسرين ـ كالجلالين ـ على استعمال لفظ: «قرىء» عند ذكر القراءة الشاذة، وهذا المعنى غير مراد هنا، وإن حصل ذلك في هذا الكتاب فسنبينه في موضعه إن شاء الله تعالى.

بالقول وهو: التكليف. وبالفعل وهو: التوفيق. وتتم بالقبول، وهو الاهتداء، وهو المراد هنا، أي: اهدنا طريق الحق الذي لا عوج فيه ولا زيغ، الموصل إلى مرضاتك، بالعلم الصحيح والعمل الصالح، والاستقامة والثبات عليه بغير زلل.

٧ ـ ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ من قبلنا بكمال الإيمان، وصالح الأعمال، وحسن الخلال، والأسوة الحسنة للناس، من النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين ﴿غير المغضوب عليهم﴾ من الناكبين عن صراط الحق والرشد، المتبعين لسبل الباطل والغي، إيثاراً لأهوائهم، وإرضاء لشهواتهم، وهم يعلمون أنهم مجرمون ﴿ولا الضالين﴾ أي: وغير الضالين عن الحق والهدى، المتبعين للهوى، عن جهل وعمى، «الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً»، آمين[1].

---

(١) قوله: «آمين» بالمد، هو اسم فعل أمر، معناه: استجب يا رب. وليس من كلمات القرآن الكريم باتفاق العلماء، بل أمر بها النبي ﷺ فيما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قال الإمام: غير المغضوب عليهم ولا الضالين، فقولوا: آمين. فمن وافق قولُه قولَ الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه».

سورة البقرة

(مدنية، وآيها مائتان وست وثمانون)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾

١ ـ ﴿الم﴾ اسم للسورة[1]، يقرأ بأسماء هذه الحروف ساكنة: ألِفْ، لامْ، مِيمْ، وحكمته: إصغاء السمع وتنبيه الذهن لما بعدها، وهو خاص في الغالب بما بدىء من السور بذكر القرآن للدعوة إليه، فهو كـ «ها» التنبيه، وأداة الافتتاح[2]، بل أبلغ.

٢ ـ ﴿ذلك الكتاب﴾ أي: ذلك الأمر العلي الشأن البعيد الشأو في العرفان، المشار إليه بهذه الحروف المفردة، هو الكتاب الكامل في هدايته، كالنجم في أفقه ﴿لا رَيْبَ فيه﴾ أي: لا مجال للشك في أن ما يدعو إليه هو الحق

---

(١) قوله: «اسم للسورة»، هذا أحد الأقوال، والله أعلم بمراده بذلك، فهي سر الله تعالى في القرآن، كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

(٢) قوله: «كها التنبيه وأداة الافتتاح»، هاءُ التنبيه، كقوله تعالى: «ها أنتم هؤلاء تحبونهم ولا يحبونكم». أما أداة الافتتاح فهي: «ألا» كقوله تعالى: «ألا إن نصر الله قريب».

لحسن بيانه، ووضوح برهانه، ولا في أنه من عند الله تعالى لعجز غيره عن مثله، في نظمه وأسلوبه، وفصاحته وبلاغته، وفي علمه وحكمته، وفي علو سلطانه وتأثير هدايته، فهو ﴿هدى للمتقين﴾ أي: ذو هـدى، يصرف عن الضلال، ويدل دلالة موصلة إلى الحق، للمتقين الله تعالى، بإيثار الحق على الباطل، والخير والفضائل على الشرور والرذائل.

٣ ــ ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ أي: يصدقون بأن وراء ما يحسونـه بمشاعرهم[١] الظاهرة، مَا هو غَائب عنها، تدل عليه عقولهم بالنظر والاستدلال، ويشعر به وجدانهم الروحي بالإلهام، وتحدثهم عنه رسل الله بوحيه، ﴿ويقيمون الصلاة﴾ أي: يديمونها على وجهها القيّم، وهي ــ بمعناها العام المطلق ــ: التوجه إلى الله ومناجاته ودعاؤه. وبمعناها الخاص: ما بينه كل رسول لقومه، وهي رأس العبادة الروحية ﴿ومما رزقنـاهم ينفقون﴾ أي: ينفقـون بعض ما رزقناهم في البر والإحسان، وهو رأس العبادة المالية.

فهذا وصف لصنف من المستعدِّين لهدى هذا الكتاب من قَبْلِ دعوتهم إليه، وكان منهم الحنفاء من العرب[٢]، كالسابقين الأولين من المهـاجرين والأنصار، رضي الله عنهم.

٤ ــ ﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك﴾ أيها الرسول من هذا الكتاب، بالتفصيل ﴿وما أنزل من قبلك﴾ إلى الرسل بالإجمال ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾ أي: يؤمنون بالدار الآخرة وما فيها من حساب، ونعيم وعذاب، إيمان يقين

---

(١) قوله: «بمشاعرهم الظاهرة»، أي: حواس الإنسان الخمس فما وراء المحسوس بها هو عالم الغيب كاليوم الآخر وما فيه، والملائكة، والجن، وغير ذلك مما ثبت وجوده من الغيب على لسان الرسل عليهم الصلاة والسلام، فنحن نؤمن بكل ذلك إيماناً لا ريب فيه.

(٢) قوله: «وكان منهم الحنفاء من العرب»، أي: من الذين كانوا مستعدين لقبول هدي هذا الكتاب قبل دعوتهم إليه، وهم قوم كانوا على دين الحق ملة إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، قبل بعثة محمد ﷺ ومنهم: زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العُزّي، الذي كان آخرهم وتوفي قبيل البعثة كما سيأتي، وهؤلاء هم أحد الفريقين اللذين أشار إليهما فيما بعد، والفريق الآخر هم المؤمنون مع محمد، صلى الله عليه وسلم.

لا شك فيه ولا ارتياب، فهو يبعثهم على الأعمال الصالحات، واجتناب الفواحش والمنكرات.

﴿أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾

٥ ـ ﴿أولئك﴾ الموصوفون بما ذكر من الفريقين[١] ﴿على هدى من ربهم﴾ وهو هدى القرآن، قائمون عليه متمكنون منه، عاملون به على بصيرة ونور ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ الفائزون بسعادة الدنيا والآخرة، دون غيرهم من الكافرين والمنافقين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾

---

(١) قوله: «من الفريقين»، أي: الحنفاء قبل البعثة، والمؤمنين بعدها كما تقدم بيانه في التعليق السابق، قال المؤلف في تفسيره المعروف بتفسير المنار ـ أصل هذا المختصر ـ عند قوله تعالى: ﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾: ههنا إشارتان ـ أي: «أولئك»، «وأولئك» ـ والمشار إليه عند الجمهور واحد، وهو ما في الآيتين السابقتين من المؤمنين، من غير أهل الكتاب ومنهم. ثم قال: كذا قال بعضهم وهو تكلُّف ظاهر. وأضاف: أن الإشارة الأولى ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾ للفرقة الأولى، وهم الذين ينتظرون الحق لأنهم على شيء منه، كما يدل عليه تنكير «هُدىً» الدال على النوع، وينتظرون بياناً من الله ليأخذوا به، ولذلك تقبلوه عندما جاءهم.

ونقول: قوله هذا ينطبق على الذين أدركوا بعثة النبي ﷺ منهم فأسلموا، أما الذين ماتوا قبل البعثة من الحنفاء والذين كان آخرهم زيد بن عمرو بن نفيل الذي توفي قبل البعثة بنحو خمس سنوات فإن هذه الآية لا تشير إليهم، بل هي إشارة إلى الذين آمنوا إيماناً صحيحاً مع محمد ﷺ وعملوا الصالحات، وهو قول الجمهور الذي استبعده المؤلف، وقول الجمهور أقرب للصواب والله أعلم.

٦ ـ ﴿إن الذين كفروا﴾ بما دعوت إليه أيُّها الرسول جحوداً به واستكباراً عنه، مع العلم بأنه الحق، أو لفقد الاستعداد للإيمان بفساد الفطرة ﴿سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم﴾ الإنذار: إعلام مع تخويف من المخالفة، أي: إنذارك وعدمه عندهم سيان ﴿لا يؤمنون﴾ لأنهم لا يستعملون عقولهم في آيات الإيمان، ولا يسمعون ما يتلى عليهم منها، ولا يتأملون فيها ينظرون إليه مما يدل عليها، وقد بين هذا بالمَثَل فقال:

٧ ـ ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ أي: صارت كالكتاب ـ أو الإناء المختوم ـ لا يدخله شيء غير ما فيه من التقاليد مخالفاً له ﴿وعلى سمعهم﴾ فلا يتدبرون ما يتلى عليهم من القرآن والبرهان ﴿وعلى أبصارهم غشاوة﴾ أي: كأن عليها غطاء يحجب عنهم رؤية آياتها، لعدم النظر في دلالاتها، والكلام مَثَلٌ لسنة الله في فقدهم الاستعداد للإيمان، باشتغال جميع مداركهم بغيره ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ وهو عذاب الوجدان في الدنيا[1] وعذاب النار في الآخرة.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾

٨ ـ ﴿ومن الناس من يقول ءامنا بالله وباليوم الآخر﴾ أي: ومنهم

---

(١) قوله: «وهو عذاب الوجدان في الدنيا»، لو قصره المؤلف على بعضهم لكان أحسن لأن أكثر الكافرين لا يشعرون في الدنيا بأنهم مبطلون، بل هم مكابرون معاندون كما قال الله تعالى: ﴿الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً. أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً، ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزواً﴾، والدنيا بالنسبة إلى الكافر هي جنته كما قال ﷺ: ـ فيما رواه مسلم ـ «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» فالعذاب هو عذاب الآخرة في النار الذي هو أشد العذاب، وإذا كان للكافرين عذاب في الدنيا فهو عذاب القتل والأسر وضرب الجزية عليهم.

فريق غير فريق الذين يؤمنون ـ بقسميه[1] ـ وفريق الذين لا يؤمنون لفقدهم الاستعداد للإيمان، وهم: الذين يقولون بألسنتهم: آمنا ﴿وما هم بمؤمنين﴾ في قلبوهم.

٩ ـ ﴿يخادعون الله والذين ءامنوا﴾ بدعوى الإيمان ليصدقهم المؤمنون، فيعاملوهم كأنفسهم انخداعاً لهم، و«الخَدْعُ» أن: توهم غيرك خلاف ما تخفيه عنه مما يكرهه، والخداع منه للمشاركة ﴿وما يخدعون إلا أنفسهم﴾ لأن ضرره خاص بهم، وقرىء «وما يخادعون»، أي: في الحقيقة، فهم الخادعون المخدوعون ﴿وما يشعرون﴾ بذلك لخفائه عليهم، فالشعور: إدراك الأمور الخفية أو الدقيقة.

١٠ ـ ﴿في قلوبهم مرض﴾ المراد بالقلب في مثل هذا: قلب النفس لا الجسم، وهو لب الإنسان المدرك العاقل الشاعر، ومرضُه: ضعف الإدراك والحكم، كالجهل والظن والشك والوهم، واستحسان القبيح وعكسه، وضعف الوجدان والخُلُق، ومنه النفاق ﴿فزادهم الله مرضاً﴾ إذ دعاهم رسوله محمد ﷺ إلى الحق بهذا القرآن فلم يؤمنوا سراً، ولم يكفروا جهراً، بل كانوا أولياء في الظاهر أعداء في الباطن، فهم شر الفرق، وهم منافقو اليهود، وعرب المدينة وما حولها، وأمثالهم في كل زمن ﴿ولهم عذاب أليم﴾ شديد الألم في الدنيا[2]: بعداوة سرائرهم لظواهرهم، وخوفهم من افتضاح أمرهم، وحسرتهم على بذل أموالهم فيما يوجبه عليهم الإسلام، وعلى نشوء أولادهم عليه، وفي الآخرة:

---

(١) قوله: «بقسميه»، أي: بقسمي فريق المؤمنين، ويعني بهم: الحنفاء قبل البعثة، والمسلمين بعدها، كما قدمنا في تعليقنا على الآية الخامسة، ص ٣٢.

(٢) قوله: «شديد الألم في الدنيا الخ»، لو استغنى المؤلف عن هذا الذي ذكره من الألم الدنيوي لكان أحسن، وخاصة قوله: «بعداوة سرائرهم لظواهرهم»، فالمنافق لا يحس بذلك ومثله غيره من الكافرين كما بينا في تعليقنا على تفسيره آخر الآية السابقة ص ٣٣، فالعذاب المقصود هنا للمنافقين هو في الآخرة فقط وفي الدرك الأسفل من النار، لأنهم بإعلانهم الإسلام نفاقاً عصموا دماءهم وأموالهم وصدوا عن سبيل الله، فلم يقاتلهم النبي، صلى الله عليه وسلم.

إذ يكونون في الدرك الأسفل من النار ﴿بما كانوا يكذبون﴾ أي: بسبب كذبهم في دعواهم الإيمان بالنبيِّ الصادق الأمين، فكانوا كاذبين ومكذبين.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

١١ ـ ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض﴾ بالنفاق والرياء والصد عن الإسلام، والكيد لأهله في الخفاء ﴿قالوا: إنما نحن مصلحون﴾ بالثبات على ما كان عليه الآباء والرؤساء.

١٢ ـ ﴿ألا إنهم هم المفسدون﴾ أي: الراسخون في الإفساد ﴿ولكن لا يشعرون﴾ بذلك، لاعتقاد رؤسائهم أن فيه حفظ جاههم وتقليد مرؤوسيهم لهم فيه، فهم بهذا يرونه مصلحة لهم لا مفسدة.

١٣ ـ ﴿وإذا قيل لهم: آمنوا كما آمن الناس﴾ الذين استوى ظاهرهم وباطنهم في إيثار الحق على الباطل، واستحبابِ الهدى على الهوى، كأنبياء بني إسرائيل، وأصحاب محمد ﷺ، ﴿قالوا: أنؤمن كما آمن السفهاء؟﴾ أولو السفه والجهالة، وهو: الطيش وخفة العقل وضعف الرأي، الذين يتبعون زعيمًا جديداً، يحقر آباءهم وأجدادهم، ويقول بكفرهم وضلالهم، ﴿ألا إنهم هم السفهاء﴾ الراسخون في السفه والجهالة دون من يعرضون بهم ﴿ولكن لا يعلمون﴾ أن السفه محصور فيهم، لأنهم سفهوا أنفسهم، واحتقروا ما أنعم الله به عليهم من العقل ومعرفة الحق بالدليل، فلذلك نفى عنهم العلم.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ

﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾

١٤ ـ ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا﴾ هذا وصف طائفة منهم، يظهرون بوجهين ويتكلمون بلسانين ﴿وإذا خلوا إلى شياطينهم﴾ خبثائهم، الرؤساء المتمردين دعاة الفتنة ﴿قالوا: إنا معكم﴾ في الاعتقاد والرأي ﴿إنما نحن مستهزئون﴾ بهؤلاء المسلمين، ساخرون منهم بإظهار اتباعهم.

١٥ ـ ﴿الله يستهزىء بهم﴾ يجعل جزاءهم من جنس عملهم، فيكونون في عاقبة أمرهم هزؤا وسخرية ﴿ويمدهم في طغيانهم﴾ يملي لهم ويؤخر عقابهم بما يكون مدًّا وزيادة في طغيانهم، وهو: «تجاوز الحد في الشر والظلم والضلال» ﴿يعمهون﴾ أي: حال كونهم يترددون متحيرين فيه، لا يقر لهم قرار، فالعَمَهُ في البصيرة كالعمى في البصر.

١٦ ـ ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ أي: جعلوا دينهم تجارة، فآثروا الضلالة على الهدى، لما لهم من المال والجاه فيها ﴿فما ربحت تجارتهم﴾ في دنياهم، لأن العاقبة فيها للمؤمنين بما يؤتيهم الله من النصر والغنائم والسيادة ﴿وما كانوا مهتدين﴾ في دينهم لأنهم لم يتبعوا فيه الحق الذي ثبت بالبرهان، فهم خاسرون في الدنيا والآخرة.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾

١٧ ـ ﴿مثلهم﴾ صفتهم الماثلة البارزة، المبينة لحقيقة حالهم ﴿كمثل الذي استوقد ناراً﴾، أي: الفريق الذي طلب إيقاد نار ـ بفعله أو فعل غيره ـ في بادية ليبصر في ضوئها ما حوله مما ينفعه أو يضره، ويرى كيف يتصرف في

ليله ﴿فلما أضاءت ما حوله﴾ من الأمكنة والأشياء بإيقادها، وصار متمكناً من الانتفاع بها ﴿ذهب الله بنورهم﴾، أي: أذهب نورهم ولطفه بهم، بنحو مطر شديد أطفأها، أو ريح عاصف جرفتها، ﴿وتركهم﴾ أي: تخلى عنهم، فصيرهم ﴿في ظلمات لا يبصرون﴾ شيئاً، ولا يستطيعون عملاً.

الظلمات الحسية في المشبه به هي: الليل والسحاب والمطر، وتأثير ذهاب النور فجأة.

والظلمات المعنوية المرادة من التشبيه: ظلماتُ الكفر والنفاق والعَمَه، أي: تردد الحيرة وجهل الحال والمآل.

والمراد باستيقاد النار فيه: استعمال العقل والبصيرة في كشف نور هداية الفطرة السليمة، وفهم الآيات ودلائل الدعوة، وبذهاب الله بما لاح لهم من نور نارها، سُنَّته تعالى في عدم الاهتداء به، بإيثارهم لما كانوا عليه من التقاليد، ومنافع الاتجار بعصبيتها، على هداية الدين الحق.

١٨ ــ ﴿صم بكم عمي﴾ أي: هم كالفاقدين لهدايات السمع والنطق والبصر، لعدم استعمالها في أفضل ما خلقت له، فهم لا يسمعون قول من يهديهم سماعَ فهمٍ وقبولٍ، ولا يسألون أحداً أن يدلهم على الطريق الذي ضلوا عنه، ولا يبصرون مسلكه بأنفسهم فيسيرون فيه ﴿فهم لا يرجعون﴾ عن ضلالهم، لفقدهم جميع أسباب الرجوع.

أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

١٩ ــ ﴿أو كصيب من السماء﴾ هذا مثل آخر لفريق منهم نزل بهم

صَيِّبٌ، وهو: صوب المطر النافع، أَو السحاب الذي يصوب منه أي: ينزل بقوة، والسماء جهة العلو، ووصفه بأنه منها للإشعار بأنه أمر لا يملكون دفعه ﴿فيه ظلمات ورعد وبرق﴾ الظلمات ما عَلِمْتَ[1]، و«الرعد» هو: الصوت المعروف الذي يسمع في السحاب عند اجتماعه أحياناً، و«البرق»: الضوء الذي يلمع فيه، وسببه اتصال الكهربائية الإيجابية بالسلبية، كالذي نراه في مصابيحنا ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت﴾، أي: يجعلون أناملهم في أصمخة آذانهم من شدة صوت الصواعق المكررة، حذراً من الموت بها. والصاعقة: هي ما ينزل في أثناء المطر والبرق والرعد، فيصعق ما ينزل به، بأن يهلك أو يلحقه ضرر، وهي تحدث بتفريغ السحاب لطائفة من الكهربائية التي فيه، بجذب كهربائية الأرض لها. ومعنى المَثَل: أن الوحي السماوي المحيـي للقلوب كالمطر المحيـي للنبات، تعترضه ظلمات تقليدهم وشبهات كفرهم؛ ويصخّ أسماعَهم بتلاوته رعدُ الزواجر والنُّذُر فيه، ويلوح لهم بتأمله برقُ الآيات والحجج منه، فهم يتقون سماعها، إذ يخافون أن تقنعهم بما يقضي على تلك التقاليد التي ألفوها ونيطت بها منافعهم، وهو الموت المعنوي عندهم ﴿والله محيط بالكافرين﴾ الذين ضرب لهم هذا المثل قدرة وعلماً فلا ينفعهم الحذر.

٢٠ ــ ﴿يكاد البرق يخطف أبصارهم﴾ بشدة مفاجأته لهم، والخطف: هو الأخذ بسرعة ﴿كلما أضاء لهم مشوا فيهم وإذا أظلم عليهم قاموا﴾، أي: كلما لمع مرة مشوا في ضوئه خَطْوَةً، تتلوها ــ إذا خبا ــ ظلمةٌ، فيقومون مكانهم، والمراد: أنه عندما يدعوهم الداعي إلى أصل الدين، بالبرهان الذي يضيء لهم طريق الحق، يعزمون على اتباعه، وتسير أفكارهم في نوره قليلاً، ثم لا يلبثون أن تغشاهم عتمة التقليد وظلمة الأهواء والشبهات، فتقيِّد الفكر، وتقف به موقف الحَيرة ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم﴾ حتى لا يسمعوا رعداً ولا يروا برقاً.

والمراد: أنهم لا تفيدهم هداية هاد، ولا يهتدون بالنظر والاستدلال.

---

(١) قوله: «ما علمت»، أي: مما تقدم من معنى الظلمات، في تفسير الآية السابعة عشرة، ص ٣٧.

ولم يقل: إنه ذهب بنورهم كما ذهب بنور أولئك، لأنهم لم يَصِلُوا في ضلالهم إلى حد اليأس من رجوعهم إلى الحق ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ تعليل لما قبله، للإعلام بأن ما تعلقت به مشيئته تعالى وتعلقت به قدرته، كان قطعاً لا محيص منه.

ثم صرح بالدعوة العامة بعد بيان أصناف الناس الثلاثة فقال:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

٢١ ــ ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم﴾ وحده، فإن العبادة لا تنبغي ولا تصح منكم إلا لربكم ﴿الذي خلقكم والذين من قبلكم﴾، أي: من آبائكم الذين يقلدهم المشركون منكم في شركهم، غلواً في تعظيمهم والتعصب لهم ﴿لعلكم تتقون﴾ عقابه باجتناب الشرك به، وما يفسدكم من مخالفة شرعه وسننه في نظام خلقه، فإن العبادة الخالصة له هي التي تُعِدُّكم للتقوى، يرجى بها بلوغ غاية الكمال القصوى.

٢٢ ــ ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً﴾، أي: صالحة للافتراش والإقامة عليها، والارتفاق بها ﴿والسماء بناء﴾، أي: كوَّنها بنظام كنظام البناء. وسوى أجرامها على هذه الصفة المشاهدة، وأمسكها بقدرته وحكمته، التي يعبر عنها بسنة الجاذبية، فلا تقع على الأرض، ولا يصدم بعضها ببعض، ولو نظرنا إليها بآلات الرصد المقرِّبة للأبعاد، لرأينا من نظام بنائها العجاب ﴿وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم﴾، أي: أنزل من السحاب ماء ثم سلكه ينابيع في الأرض، فأخرج به من بعض أنواع الثمرات ــ جمع «ثمرة» بالتحريك، وهو ما تحمله الشجر ــ رزقاً لكم تأكلون منه، وما كل الثمرات

يؤكل، وليس لما عبدتم من دونه تأثير في إخراجه منها وإنما كل ذلك بيد الله القدير، وماله فيه من السنن والتقدير ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾، أي: أشباهاً من خلقه، تطلبون منهم ما تعجزون عنه، وما لا يصل علمكم أو كسبكم إليه من الرزق وغيره، من جلب نفع وكشف ضر، وتعظمونهم من جنس تعظيمه ﴿وأنتم تعلمون﴾، أي: والحال أنكم تعلمون أنه هو الخالق، لأنكم إذا سئلتم من خلقكم وخلق مَنْ قبلكم؟ تقولون: الله.

وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾

٢٣ ـ ﴿وإن كنتم في ريب﴾ شك مريب ﴿مما نزلنا على عبدنا﴾ ورسولنا محمد ﷺ من هذا القرآن، وهو ما لا مجال فيه للريب ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾ في نظمه وأسلوبه، وبلاغته وهدايته، وما فيه من علوم التشريع وغيرها، وأخبار الغيب ماضيها ومستقبلها ﴿وادعوا شهداءكم﴾ الذين يشهدون لكم أنكم أتيتم بسورة من مثله، أو ادعوا كل أحد ﴿من دون الله﴾، أي: غير الله، ليؤيدوكم ويظاهروكم عليها ﴿إن كنتم صادقين﴾ في دعواكم أن عندكم فيه ريباً، وإنما يصدق المرتاب في ريبه إذا خفيت الحجة، وغلبت الشبهة.

٢٤ ـ ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا﴾ إلخ، أي: فإن لم تأتوا بسورة من مثله، وتجتثوا دليله من أصله ـ وما أنتم بفاعلين ـ لأن هذا ليس في طاقة المخلوقين، وهذه الجملة المعترضة إخبار بالغيب، فما كان لعاقل كمحمد ﷺ أن يقوله من نفسه برأيه، إذ لا يقوله إلا مَنْ يعلم مبلغ قدرة جميع الناس الذين يبلغهم، وأنهم يعجزون عنه أبدا، وجواب الشرط قوله تعالى: ﴿فاتقوا النار﴾ بالإيمان بأنه من عند الله، وبنبوة من أنزل عليه واتباعه، إذ لا مصير لكم بعد إقامة الحجة عليكم غيرها، وهي موطن عذاب الآخرة نؤمن بها لأنها من عالم الغيب الذي أخبر الله تعالى به، ولا نبحث عن حقيقتها، ولا نقول: إنها شبيهة

بنار الدنيا، ولا إنها غير شبيهة بها[1]، وإنما نثبت لها جميع ما وصفها الله تعالى به كقوله: ﴿التي وقودها الناس والحجارة﴾ «الوَقود» بالفتح، ما توقد به النار وإن ألقي فيها بعد وجودها، والمراد بالحجارة الأصنام، كما في قوله تعالى: «إنكم وما تعبدون من دون الله حصَب جهنم»، توضع مع عابديها لتعذيبهم بتذكرها ﴿أعدت للكافرين﴾ بالله ورسله وبما يدعونهم إليه من دينه، أي: هيئت لعقابهم.

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾

٢٥ ـ ﴿وبشر الذين آمنوا﴾ الخطاب للرسول، والمراد بالذين آمنوا: مَنْ صدقه بما جاء به من التوحيد والقرآن، تصديقَ يقين وإذعان، واتباع وتسليم ﴿وعملوا الصالحات﴾ التي هي ثمرات الإيمان، وهي مفصلة في آيات أخرى كآية البر الآتية[2]: ﴿أن لهم جنات﴾ «الجنة» في اللغة: الحديقة

---

(١) قوله: «ولا نقول إنها شبيهة بنار الدنيا، ولا إنها غير شبيهة بها»، بيانه: أن النار الأخرة تشبه نار الدنيا في أصل الخلقة وكونها محرقة، فكل منها نار محرقة، ولكن تختلف عنها في شدة حرها ووقودها لقوله تعالى: ﴿وقودها الناس والحجارة﴾، فهي ليست كنار الدنيا في وقودها. وروى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «ناركم هذه، ما يُوقِدُ بنو آدم، جزءٌ واحد من سبعين جزءاً من نار جهنم»، قالوا: والله إن كانت لكافية، قال: «إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهنَّ مثلُ حرِّها». فهي ليست كنارنا في شدة حرها.

وجاء في روايات كثيرة: أنها سوداء مظلمة. وأنها سوداء كالليل المظلم، وفي بعض الروايات: «لهي أشد سواداً من القار»، أي: الزفت.

(٢) قوله: «كآية البر الآتية»، وهي قوله تعالى: ﴿ليس البرَّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾، الآية «١٧٧» من سورة «البقرة»، وأيضاً في غيرها من الآيات وفي الأحاديث النبوية الشريفة.

والبستان، و«الجنات» جمعها، والمراد بها دار الأبرار المتقين، كما أن النار دار الفجار الفاسقين، فنؤمن بهما بالغيب ولا نبحث في حقيقة أمرهما، ولا نزيد على النصوص الثابتة فيهما شيئاً لأن عالَمَ الغيب لا يجري فيه القياس ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾، أي: تجري من تحت أشجارها وقصورها ﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً﴾ كلمة «من» الأولى للابتداء، والثانية للتبعيض، أي: كلما رزقوا من الجنات رزقاً من بعض ثمارها ﴿قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل﴾، أي: هذا الذي وُعِدْنا به في الدنيا جزاءً على الإيمان والعمل الصالح ومصداقُهُ، أو: هذا عين الذي رُزقناه فيما قبله، في الجنة، أو في الدنيا، فالأخير تشبيه ثمرات الآخرة بثمرات الدنيا، لأنها مثلها في اللون والشكل، وإن كانت تفضلها في الطعم واللذة ﴿وأُتوا به متشابهاً﴾ أي: بعضه يشبه بعضاً في الظاهر، فيتشابه عليهم، والفرق بينهما عظيم في الواقع، فهذا من المتشابهات التي لا يعلم تأويلها، أي: كنهها التي تؤول إليه في الآخرة إلا الله تعالى.

قال ابن عباس، رضي الله عنهما: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسامي. وفي حديث الصحيحين المرفوع عن الله عز وجل: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» وهو تفسير قوله تعالى: «فلا تعلم نفس ما أُخفيَ لهم من قرة أَعينُ جزاء بما كانوا يعملون» ﴿ولهم فيها أزواجاً مطهرة﴾، أي: مبالغ في تطهرهن وتزكيتهن. فليس فيهن ما يعاب من خبث جسدي، حتى ما هو في الدنيا طبيعي كالحيض والنفاس، ولا نفسي كالمكر والكيد والغيرة؛ ونساء الجنات من المؤمنات الصالحات الموصوفات في القرآن بالحور العين، وصحبة الأزواج في الآخرة ـ كسائر شؤونها الغيبية ـ طور أعلى من أطوار الحياة الدنيا ﴿وهم فيها خالدون﴾ «الخلود» في اللغة: طول المكث، ومن كلامهم: خلد في السجن، وفي الشرع: الدوام الأبدي، أي: لا يخرجون منها، ولا هي تفنى بهم فيزولوا بزوالها.

* إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾

٢٦ ـ ﴿إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها﴾، أي: لا يترك ضرب أيِّ مثل من الأمثال حياءً منه، سواء كان بعوضة فما فوقها، أي: أصغر منها حجمًا، أو أقل عند الناس شأناً؛ وقد ضرب المثل بالذباب في الضعف، وببيت العنكبوت في الوهن، ﴿فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم﴾ لأنه مبين للحق ومقرِّر له، وسائقٌ إلى الأخذ به، بما لَهُ من التأثير في النفس، وذلك أن المعاني الكلية تعرض للذهن مجملة مبهمة، والمثل هو الذي يفصل إجمالها، ويوضح إبهامها، بتصوير المعقول منها بصورة المحسوس، كمثل مستوقد النار، وأصحاب الصَّيِّب من السماء، فهو ميزان البلاغة وقسطاسها، ومشكاة الهداية ونبراسها، ﴿وأما الذين كفروا﴾ من المشركين والمنافقين، الذين يؤلمهم ما تتضمنه الأمثال التي ضُربت لهم آنفاً، من فضيحتهم وتشويه جهلهم وفسادهم ﴿فيقولون: ماذا أراد الله بهذا مثلاً؟﴾، أي: فيقولون منكرين أو مستنكرين: ما الذي أراد الله ـ حال كونه مثلاً ـ بهذا؟ أو: أيُّ شيء أراد به في مقام التمثيل؟ ولو أيقنوا لعرفوا، ولكنهم ارتابوا في الحق فانصرفوا ﴿يضل به كثيراً﴾ هذا جواب لما قبله، أو لِمَا ضُرِبَ المثلُ لبيانه والإقناع به، أي: يضل بسبب الجهل به كثيراً من فاسدي الفطرة وفاقدي الحكمة ﴿ويهدي به كثيراً﴾ من أولي الألباب، المستعدين للاهتداء بالحكمة وفصل الخطاب، وأنفع الكلام ما جلىَّ الحقائق، وهدى إلى أقصد الطرائق، وساق النفوس بقوة التأثير، إلى حسن المصير «وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون» ﴿وما يضل به إلا الفاسقين﴾، أي: الخارجين عن هداية الله تعالى، وسننه في خلقه التي هداهم إليها بسلامة الفطرة، ونور العقل والمشاعر، وهدايةِ كتابه بالنسبة إلى

الذين أوتوه، كاليهود ومن اتبعوا سننهم، والكلامُ رد على الكافرين، بَيَنَّ لهم أن منشأ الضلال راسخ فيهم وفي أعمالهم وأحوالهم، وقد فصله بقوله:

٢٧ ـ ﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقهم﴾ «عهد الله»: ما عهده إلى عباده ووصاهم بحفظه، و«ميثاقه»: توكيده بحيث يكون مبرماً يعسر حله، و«نَقْضُه»: نكث فتله وحل عراه. وهو قسمان:

فطري: وهو ما أودعه الله في الطبع السليم، والعقل المستقل من اتباع الدليل، وإيثار الحق على الباطل، وتفضيل الخير على الشر.

وديني: وهو ما شرعه بوحيه لرسله، من التوحيد والوصايا.

فالمشركون المجرمون نقضوا الأول منهما، وأهل الكتاب نقضوا العهدين كليهما ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ وهذا الأمر نوعان ـ كالعهد والميثاق الذي قبله ـ هما:

أمر تكوين: وهو ما عليه الخلق من النظام والسنن المحكمة، واقتضاء الدليل للمدلول، وترجيح الأفضل على المفضول، وقد سمى الله تعالى التكوين: «أمراً» بالتعبير عنه بقوله: «كن».

وأمر تشريع: وهو ما أوحاه إلى رسله وأمر الناس بالأخذ به، ومن النوع الأول ما تهدي إليه الفطرة والعقل، من حفظ الروابط الأهلية والقومية[1] بين الناس، والإسلام دين الفطرة. فالذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، هم الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصَلَ بغايته، لكل من نوعي التكوين والتكليف، وصلة الأرحام تدخل في كل منهما، فالمشركون نقضوا عهد الفطرة، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، بتكذيبهم النبي ﷺ وإيذائه، وهو ذو رحم بهم؛ والمكذبون من أهل الكتابين قطعوا صلات الأمرين، كما نقضوا العهدين ﴿ويفسدون في الأرض﴾ بترك هداية العقل وهداية الدين؛ وقطع الصلة بين الأدلة والبراهين؛ ومن كان هذا شأنه فهو فاسد في نفسه، ووجوده في الأرض مفسد لأهلها ﴿أولئك هم الخاسرون﴾ الذين خسروا أنفسهم، وما كانت مستعدة له من سعادة الدارين.

---

(١) قوله: «والقومية» مراد المؤلف الإشارة إلى رابطة الإنسان ببني قومه وعشيرته. لا العصبية والعنصرية القومية التي يرفضها الإسلام.

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

٢٨ ــ ﴿كيف تكفرون بالله﴾، أي: بأيِّ صفة من صفات الكفر بالله تعالى تأخذون؟ وعلى أيِّ شبهة فيه تعتمدون؟ ﴿وكنتم أمواتاً فأحياكم﴾، أي: والحالُ أنكم كنتم قبل هذه النشأة الأولى من حياتكم الدنيا أمواتاً، فأنشأ أصلكم الأول من الأرض الميتة، التي أوجد فيها الحياة بعد أن لم تكن، وكل منكم يخلق من ماء متحول من الأغذية الميتة، فيحييه حياة حيوانية، ثم ينفخ فيه روح الحياة العقلية الملكية ﴿ثم يميتكم﴾ بقبض الروح الحي الذي به نظام حياتكم هذه، فتنحلّ أبدانكم بمفارقته إياها، وتعود إلى أصلها الميت، وتنبث في طبقات الأرض، وتدغم في عوالمها، حتى ينعدم هذا الوجود الخاص بها، وتبقى أرواحكم منعزلة في برزخها ﴿ثم يحييكم﴾ حياة ثانية ــ كما أحياكم بعد الموتة الأولى ــ في أجسادكم، تحل فيها أرواحكم فتحيا بها ﴿ثم إليهم ترجعون﴾ فينبئكم بما عملتم، ويحاسبكم على ما قدمتم ويجزيكم به.

٢٩ ــ ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ من نبات وحيوان وجماد، وأباح لكم الانتفاع بها، غذاءً ودواءً وزينة، بقدر ما تصل إليه معارفكم ﴿ثم استوى إلى السماء﴾، أي: ثم قصد في نوع آخر من التكوين، قصداً مستوياً خاصاً إلى مادة السماء، كما قال: «ثم استوى إلى السماء وهي دخان»، وهو ما يسمى بالسديم أيضاً ﴿فسواهن سبع سماوات﴾ فسوى من تلك المادة الدخانية سبع سماوات، بغير عَمَدٍ ترونها، تاماتٍ منتظماتِ الخلق، سواءً فيه ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ مما في هذا العالم وغيره من العوالم التي لا يحيط بها غيره علمًا.

٣٠ - ﴿وإذ قال ربك للملائكة﴾، أي: واذكر أيها الرسول مما نوحيه إليك إذ قال ربك للملائكة من عالم الغيب الروحاني: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ يكون مظهراً لعلمي ومشيئتي وحكمتي، وإقامة سنتي وشريعتي، ومعرفة أسمائي ومتعلَّق صفاتي، وقيل: خليفة لعالم عاقل كان فيها وانقرض ﴿قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ فيغفل عن تسبيحك وتقديسك بما تجعله مستعداً له من الأمور المتعارضة، ويتعذر عليه ترجيح المصلحة في كل منها فيفسد فيها ﴿ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾، أي: والحال أن تسبيحنا كلَّه بحمدك، وتقديسنا كلَّه لك، بلا عصيان ولا إفساد، ولا شك أن هذا السؤال نشأ من فهم المعنى المراد من الخليفة، وما يقتضيه من العلم الواسع، والإرادة القوية، وكون هذا العلمِ المصرف للإرادة لا يحصل إلا بالتدريج، وكون التدريج وعدم الإحاطة مدعاةً للفساد، وللتنازع المفضى إلى سفك الدماء ﴿قال: إني أعلم ما لا تعلمون﴾ فأثبت لذاته العلم بحكمة هذه الخلافة ونفاءها عنهم.

وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾

٣١ - ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾، أي: ألهمه ذلك، بأن أودع في نفسه واستعداده الفطري النوعي علم جميع الأشياء المادية والروحية، والتعبير عنها بأسمائها كلما عُرِضَ عليه شيء منها، بغير حدّ ولا حصر، فالعلم بالأسماء فرع للعلم بالمسميات ﴿ثم عرضهم على الملائكة﴾، أي: عرض تلك الأشياء التي علمها آدم بخلقه مستعدًّا لإدراكها بحواسه وعقله، وما تتوقف عليه حياته الشخصية والنوعية، من الشهوات ووظائف الغذاء والهضم والنسل والأمراض

التي لا تدركها الملائكة ﴿فقال: أنبئوني بأسماء هؤلاء﴾ المسميات. والغرض من الإنباء بأسمائها الإبانة عن معرفتها ﴿إن كنتم صادقين﴾ فيما دل عليه سؤالكم ووصل إليه اجتهادكم، من أن وجودكم يغني عن جعل الخليفة في الأرض من البشر، فالسؤال للتعجيز، وغُلِّب فيه ضمير العقلاء لأن الملائكة أجدر بالعلم بهم[1].

٣٢ ـ ﴿قالوا: سبحانك﴾، أي: تنزيهاً لك، فلفظ «سبحان» مصدر قلما يستعمل إلا مضافاً «كمعاذ الله»، وهو منصوب بفعل مقدر، والمعنى: نقدسك وننزهك أن يكون علمك قاصراً، فتخلق الخليفة عبثاً، أو تسألنا شيئاً، وأنت تعلم أننا لاندركه، ولا نقدر على الإنباء به، وكلمة: «سبحانك» تهدي إلى هذا، فكأنها جملة وحدها.

وبعد تنزيه الباري تبرؤوا من علمهم إلى علمه تعالى وحكمته فقالوا: ﴿لا علم لنا إلا ما علمتنا﴾ بجعلنا مدركين له، بتعليمك التكويني من غير كسب منا، وهو محدود لا يحيط بهذه الأشياء كلها فنعبر عنها بأسمائها ﴿إنك أنت العليم﴾ بكل شيء ﴿الحكيم﴾ في صنعك، المنزه عن العبث فيه.

٣٣ ـ ﴿قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم﴾، أي: بأسماء الأشياء التي عرضها عليهم وسألهم عنها ﴿فلما أنبأهم بأسمائهم قال﴾ الله تعالى للملائكة ﴿ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض﴾، أي: ما هو غائب عن علمكم واستعدادكم، ومن كان هذا شأنه فلا يخلق شيئاً سدى، ولا يجعل الخليفة في الأرض عبثاً ﴿وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ فالذي يبدونه: هو ما يظهر أثره في أقوالهم وأفعالهم، ومنه سؤالهم المتقدم، وأما ما يكتمونه: فمنه ما يسرونه أدباً، كالباعث لهم على ذلك السؤال، ومنه ما يوجد في فطرتهم وتنطوي عليه طبائعهم، كاستعداد جميع أصنافهم للطاعة إلا إبليس[2]، فهو منطوٍ على المعصية، وبيانه في قوله تعالى عطفاً على ما قبله:

---

(١) قوله: «وغلِّب فيه ضمير العقلاء» إلخ أي في قوله تعالى: «ثم عرضهم» ولم يقل «ثم عرضها» لأن الأسماء لكل المسميات أي: علّمه أسماء المسميات كلها العقلاء منهم وغير العقلاء.

(٢) قوله: «إلا إبليس» يميل المؤلف إلى قول بعضهم ـ كالقاضي البيضاوي، وعنه نَقَلَ ـ: إن الجن وإبليس منهم هم نوع من الملائكة وقد صرح بذلك في كلامه أعلى الصفحة «٤٩»، من هذا الجزء ولكن الصحيح والحق: أن الجن ليسوا من أصناف الملائكة، بل هم خلق آخر، وقد بينا ذلك في تعليقنا الآتي على قول المؤلف المشار إليه ص ٤٩.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾

٣٤ ـ ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ سجود تكريم، وخضوعَ اعترافٍ بخلافته، وعبادة لله بامتثال أمره. والسجود في اللغة: التطامن والخضوع والانقياد، وأعظم مظاهره الخرور نحو الأرض للأذقان، ووضع الجبهة على التراب، وكان عند بعض القدماء من تحية الناس(١) للملوك والعظماء.

والسجود لله تعالى قسمان: سجود العقلاء المكلفين له تعبداً على الوجه المشروع، وسجود المخلوقات كلها لمقتضى إرادته وتجمعهما آية السجدة(٢) من سورة «الحج» ﴿فسجدوا إلا إبليس﴾ وهو منهم، كما يفهم من الآية وأمثالها في القصة، إلا آية «الكهف»: «فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر

---

(١) قوله: «من تحية الناس للملوك والعظماء» أي: كانت تحية مشروعة كسجود أبوي يوسف عليه السلام وإخوته له تحقيقاً لرؤياه المشار إليها بقوله تعالى: «ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً». سورة يوسف الآية «١٠٠».

(٢) قوله: «آية السجدة من سورة الحج» هي قوله تعالى: ﴿ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء﴾. الآية «١٨» منها.

ربه»، والظاهر أن الملائكة[1] هم النوع الأعلى المعصوم من جنس الجن الخفي، وإبليس وذريته هم النوع الأسفل ولذلك ﴿أبى﴾ السجود والانقياد ﴿واستكبر﴾ ترفعاً عنه، ومفضلاً عنصره على عنصر الخليفة إذ «قال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين» ﴿وكان من الكافرين﴾، أي: من جنس الكافرين بربه بهذا الاستكبار عن أمره.

٣٥ ــ ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾، وهي: البستان الذي يجن شجره الأرض، أي: يسترها، وهو يدل على أنه خُلِقَ في تلك الجنة أو بالقرب منها ﴿وكلا منها رغداً حيث شئتما﴾، أي: كُلَا منها أكلاً رغداً واسعاً هنيئاً، من أيِّ مكان منها ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ استثنى شجرة عرَّفها لهما بالإشارة إليها لا باسمها، ونهاهما عن قربها لئلا يغريهما بالأكل منها، وهو أول إرشاد إلى سد ذرائع الفساد ﴿فتكونا من الظالمين﴾ لأنفسكما بالوقوع فيما يترتب على الأكل منها. فكان النهي ابتلاءً وامتحاناً منه تعالى، ليظهر به ما في استعداد الإنسان من الميل إلى الإشراف على كل شيء واختباره، ومن المعصية وما قد يترتب عليها من الندم والتوبة والمغفرة والاجتباء.

---

(١) قوله: «والظاهر أن الملائكة هم النوع الأعلى المعصوم من الجن الخفي الخ» هذا قول لبعضهم مفاده: أن الجن نوع من الملائكة، أو على العكس، وقد دفعهم إلى هذا القول خطاب الملائكة وإبليس معهم بأمر السجود لآدم واستثناؤه منهم. وهذا قول غير قوي لأن صراحة النصوص من الكتاب والسُّنّة تقطع بأن إبليس جني من عالم الجن وليس مَلَكاً من الملائكة، وبخاصة قوله تعالى في سورة «الكهف»: ﴿إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً﴾ فهذه الآية تنص على أمرين مهمين أولهما: أنه لم يسجد لأنه كان جنياً ففسق وكفر، والملائكة معصومون عن ذلك، فلو كان ملكاً لسجد. وثانيهما: أن لإبليس ذرية، والملائكة لا يتناسلون، لأنهم لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة، فأبليس جني كان يعيش مع الملائكة، وقد شمله الخطاب بالجملة، وأدرك هو ذلك، وعلم أنه مأمور بالسجود لآدم، لذلك قال: ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾، ولو كان يرى أن الخطاب لا يعنيه لبرر عدم سجوده ــ بأسلوب يليق ــ عندما سأله الله تعالى بقوله: ﴿ما منعك ألا تسجد لما خلقت بيدي﴾ وقال: إن الخطاب لا يعنيني ولكنه كان يدرك أنه من المخاطبين، فأبى واستكبر وكان من الكافرين.

٣٦ ـ ﴿فأزلهما الشيطان عنها﴾، أي: حوَّلهما وزحزحهما عن الجنة، أو حملهما على الزلة بسبب الشجرة، وقرىء: «فأزالهما»، و«الشيطان»: إبليس الذي لم يسجد ولم يخضع، وقد وسوس لهما بما ذكر في سورتي «الأعراف» و«طه»، حتى أوقعهما في الزلل، وحملهما على الأكل من الشجرة، فأكلا ﴿فأخرجهما مما كانا فيه﴾، أي: فكان سبباً لخروجهما من ذلك المكان، أو النعيم الذي كانا فيه ﴿وقلنا اهبطوا﴾ يعني: آدم وزوجه وإبليس، والهبوط الانتقال من مكان عال إلى أسفل منه حساً أو معنى، وقال الراغب: الهبوط الانحدار على سبيل القهر، كهبوط الحجارة، ولا يبعد أن تكون تلك الجنة في ربوة فسمي الخروج منها هبوطاً، أو سمي بذلك لأن ما انتقلوا إليه دون ما كانوا فيه، أو هو كقوله تعالى لبني إسرائيل: «اهبطوا مصراً» ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ يعني: الإنسان والشيطان، والعدوّ يطلق على الواحد وما زاد عليه ﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾، أي: إن استقراركم في الأرض وتمتعكم فيها ينتهيان إلى زمن محدود، وليسا بدائمين، ففي الكلام فائدتان: «إحداهما» أن الأرض ممهدة ومهيأة للمعيشة فيها والتمتع بها، «والثانية»: أن طبيعة الحياة فيها تنافي الخلود والدوام، فليس الهبوط لأجل الإقامة الأبدية.

٣٧ ـ ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات﴾، أي: ألهمه الله إياها وهي كما في سورة «الأعراف»: «رَبنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين»، تاب آدم بذلك، وأناب إلى ربه ﴿فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾، أي: قَبِلَ توبته، وعاد عليه بفضله ورحمته، إنه هو التواب، أي: الذي يقبل التوبة كثيراً، فمهما يذنب العبد ويندم ويتب، يَتُبِ الرب عليه، وإنه هو الرحيم بعباده، مهما يسيء أحدهم ويرجع إليه فإنه يحفه برحمته. وكل ما ورد في هبوط آدم وحواء من تعيين الأمكنة، فهو من الاسرائيليات الباطلة.

٣٨ ـ ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً﴾ هذا بيان لطور التكليف بالفعل للإنس والجن، أي: اهبطوا من هذه الجنة فقد انتهى طور النعيم الخالص والراحة العامة، وادخلوا في طور من التكليف، لكم فيه طريقان: هدى

وضلال، إيمان وكفران، فلاح وخسران ﴿فإما يأتينكم مني هدى﴾ من رسول، بشير ونذير، وكتاب مبين ﴿فمن تبع هداي﴾ الذي أشرعه، وسلك صراطي المستقيم الذي آمره أن يتبعه ﴿فلا خوف عليهم﴾، أي: على المتبعين من وسوسة الشيطان، ولا مما يعقبها من الشقاء والخسران ﴿ولا هم يحزنون﴾ على فوت مطلوب، أو فَقْد محبوب في الدنيا، فإن مصيرهم النعيم الأبدي في الآخرة. واستدل بهذا الخطاب العام مَنْ قال: إنه للتكوين، وإن القصة تمثيل لنشأة البشر واستعداد نوعهم.

٣٩ ــ ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ المبينة لذلك الهدى، بأن جحدوا بها، ولم يذعنوا لصدقها، اتباعاً لخطوات الشيطان وعملاً بوسوسته ﴿أولئك أصحاب النار فيها خالدون﴾ دون متبعي هداي لايظعنون[١] عنها. أي: وهم في خوف دائم وحزن ملازم.

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾

٤٠ ــ ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾[٢]

---

(١) الظعن: هو الترك والابتعاد أي: هم خالدون في النار لا يغادرونها.

(٢) قوله تعالى: ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ الآية. إن مما يجب الانتباه والتنبيه إليه في هذا الموضوع: أن بني إسرائيل هم يوسف عليه السلام وإخوته =

«اسرائيل»: لقب نبي الله يعقوب، عليه السلام، والمراد ببنيه: ذريته من أسباطه الاثني عشر، وهذه دعوة لهم إلى الإسلام لما جاورهم النبي ﷺ بعد الهجرة، بدأها بتذكيرهم بنعمة الله، بإجمالٍ سيفصِّل بَعْدُ ﴿وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾ عهد الله تعالى إليهم يُعرف من التوراة، وجملته: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وأن يؤمنوا برسله، وأن يخضعوا لأحكامه وشرائعه، وأن يرسل إليهم نبياً من بين إخوتهم، أي: العرب بني إسماعيل يقيم شعباً جديداً تتم به النعمة عليهم. وأما عهدهم فهو ما وعدهم من التمكين في الأرض المقدسة، والنصر على الأمم الكافرة، وقد وفىً لهم ما وفَّوا ﴿وإياي فارهبون﴾، أي: وارهبوني وحدي، ولا ترهبوا غيري أن يعاقبكم بسلب ما أنعمت عليكم، فالرهبة: الخوف المقابل للرغبة المضادة لها.

٤١ ــ ﴿وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم﴾ من تعليم التوراة وكتب الأنبياء، كالتوحيد وعمل البر والأمر بالمعروف والنهي عن الفواحش والمنكرات، وهو هذا القرآن، وتصديق ما معهم لا يستلزم عدم ضياع بعض ما أُنزل إليهم وتحريفَ بعض ﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾ من قومكم مع جدارتكم بالسبق إليه، فتكونوا قدوة سوءى لهم في كل مكان وزمان ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾، أي: ولا تتبدلوا بآياتي المنزلة فيه ثمناً قليلاً كمنافع عصبيتكم النَّسَبِيَّة، وهي ما يستفيده رؤساؤكم من المرؤوسين من مال وجاه، أوقعاهم في الكبر والغرور، وما يرجوه المرؤوسون بتقليد الرؤساء من الزلفى والحظوة، وما يخشونه

= الأحد عشر وذرياتهم، وأن الثناء والتكريم الوارد في القرآن الكريم هو للأنبياء والصالحين المسلمين منهم، وأن بني إسرائيل ليسوا جميعاً يهوداً، بل اليهود جماعة من بني إسرائيل، وهم الذين عبدوا عجل السامري ثم تابوا وهادوا، فَسُمُّوا: «هوداً»، وهؤلاء هم الذين لُعنوا على لسان داود وعيسى بن مريم، والذين غضب الله عليهم، فيجب التفريق بين اليهود هؤلاء، وغيرهم من بني اسرائيل، إن معظم اليهود من بني إسرائيل وليس جميعهم منهم، فإن من بني اسرائيل من أسلموا كعبد الله بن سلام وأصحابه من بني قريظة والنضير وغيرهم، ومن العرب مَنْ تَهَوَّدوا، وكذلك من غير العرب، فلم تظل اليهودية حكراً على بني إسرائيل جنساً ونسباً كما يزعم البعض.

إذا خالفوهم من المهانة والذلة ﴿وإياي فاتقون﴾ واتقوني وحدي دون رؤسائكم المضلين.

٤٢ ــ ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾، أي: ولا تستروا الحق بلباس من الباطل يلتبس به على الناس، ولا تكتموا الحق المكتوب عندكم ــ وهو بعثة محمد ﷺ وصفاته ــ والحال أنكم تعلمون أنه هو الذي بَشَّر به موسى وَمَنْ بعده، وكان الأحبار والرؤساء يَلْبِسُونَ على العامة الحق بالباطل، فيوهمونهم أن النبي ﷺ من الأنبياء الذين نعتتهم الكتب بالكَذَبَة (حاشاه)، ويكتمون ما يعرفون من نعوته التي لا تنطبق على سواه.

٤٣ ــ ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أمرهم ــ بعد الدعوة إلى الإيمان اليقيني ــ بالعمل الصالح على الوجه النافع المرضي، وأجمعه وأجلُّه: إقامةُ الصلاة بأركانها وخشوعها، المفيدة لمراقبة الله والنهي عن معصيته، وإعطاءُ الزكاة لمستحقيها المطهرة للنفس من رذيلة البخل والدناءة، والمساعدة على المصالح العامة ﴿واركعوا مع الراكعين﴾ هذا أمر بصلاة الجماعة، فهي فريضة عين أو كفاية.

٤٤ ــ ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم﴾ هذا الاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي: إذا كنتم موقنين بوعد الكتاب على البر، وهو أنواع العمل الصالح النافع ووعيده على تركه، فكيف تأمرون به غيركم وتنسون أنفسكم ﴿وأنتم تتلون الكتاب﴾ والحال أنكم أنتم تكررون قراءة الكتاب، وتعرفون منه ما لا يعرفه المأمورون؟ ﴿أفلا تعقلون﴾ إن هذا حجة عليكم، ودليلٌ على كذبكم بأنكم علماء كتاب الله، ودعاته والهداة به؟، ولكل أحد نصيبه من هذا التوبيخ والوعيد العام بقدر علمه.

٤٥ ــ ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾، أي: واستعينوا على إقامة الدين وتقويم أنفسكم وغيركم بالصبر على المكاره، وحبس النفس عن الشهوات ــ ومنه الصيام ــ وبالصلاة المغذية للإيمان ﴿وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾، أي: وإن الصلاة لثقيلة شديدة الوقع إلا على المخبتين المتطامنة قلوبهم وجوارحهم لله تعالى، فهؤلاء هم الذين يقيمونها كما أمر الله.

٤٦ ــ ﴿الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون﴾، أي: هم الذين يرجون لقاء الله تعالى يوم الحساب والجزاء، ويعتقدون أنهم إليه راجعون بعد البعث لا مرجع لهم إلى سواه، وحكمة التعبير بالظن عما يطلب فيه اليقين، بيان أن الظن الذي لا يعارضه شك كاف في الحمل على الاستعداد للقاء الله بما ذكر من الصبر والصلاة، فمن تركهما لا يمكن أن يكون مؤمناً موقناً بالأولى[1].

يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

٤٧ ــ ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ هذا الخطاب مؤكِّد لمثله في الآية ــ الأربعين ــ، وتمهيد لما عطفه عليه، من تفصيل الإجمال فيها، وفيما بعدها من الآيات، وما اقترن به من بيان كفرهم للنعم، وما تخللها من المواعظ والحجج، وأوله وأعلاه قوله: ﴿وأني فضلتكم على العالمين﴾، أي: أعطيتكم من الفضل ــ وهو الزيادة من الخير، وآيات الحق، وكثرة الأنبياء ــ ما لم أعط غيركم من الشعوب التي جاورتموها وخالطتموها، كالمصريين وسكان البلاد المقدسة.

٤٨ ــ ﴿واتّقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً﴾، أي: واحذروا يوماً عظيماً أمامكم، سيقع فيه من الحساب والجزاء، ما لا منجاة من هوله إلا بتقوى الله في جميع الأحوال، ومراقبته في جميع الأعمال، فهو يوم لا تجزي فيه نفس ــ مهما يكن قدرها عظيماً ــ، عن نفس ــ مهما يكن ذنبها صغيراً ــ شيئاً ما، كحمل وزرها، أو تكفير ذنبها ﴿ولا يُقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل﴾

---

(١) قوله: «لا يمكن أن يكون مؤمناً موقناً بالأولى» أي: بلقاء الله تعالى، وليس المراد نفي الإيمان بالكلية عن تارك الصلاة والصيام على كل حال، بل المقصود نفي كماله في حق من ترك فريضةً كسلاً وهو معتقد فرضيتها. أما جاحدها، أو المستهزىء بها فهو كافر بلا شك. وعلى هذا تُحمل الأحاديث الواردة في كفر تارك الصلاة والتي ذكر بعضها المؤلف ص ٢٢٨ من هذا الجزء.

قرؤوا «يقبل» بالتحتية والفوقية، والمعنى: لا يقبل منها أن تأتي بشفيع يشفع لها، ولا يؤخذ منها فداء أو بدل إن هي استطاعت أن تأتي به، ولن تستطيع، فليس لهم فادٍ ولا شفيع ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ من قبل أحد يتولى نصرهم، فلا وليَّ لهم من دون الله ولا نصير.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

٤٩ ـ ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون﴾، أي: واذكروا من نعمنا عليكم، إذ نجيناكم من ظلم آل فرعون ـ وهو لقب كل من ملك مصر من العمالقة ـ وآلُهُ: خاصته، وقد يطلق على قومه، حال كونهم ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾، أي: يكلفونكم ويبغونكم ما يسوءكم ويخزيكم منه، وهو ما بينه بقوله: ﴿يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾، أي: يبالغون في ذبح ذُكْرانِ نسلكم، ويستبقون إناثه أحياء لإضعافكم وإذلالكم المفضي إلى إبادتكم ﴿وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ أي وفي ذلكم العذاب، وفي التنجية منه ـ في كل منهما ـ بلاء وامتحان عظيم لكم من ربكم، فيه تربية لكم، كما قال في آية أخرى: «وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون».

٥٠ ـ ﴿وإذ فرقنا بكم البحر﴾، أي: واذكروا من نعمنا أيضاً إذ فرقنا بكم البحر، أي: بدخولكم فيه، أو: بسببكم ولأجلكم، فجعلنا لكم فيه طريقاً يَبَساً سلكتموه في هربكم من فرعون ﴿فأنجيناكم﴾ بعبوره من جانب إلى آخر ﴿وأغرقنا آل فرعون﴾ إذ عبروا وراءكم ﴿وأنتم تنظرون﴾ ذلك بأعينكم، ولولاه لعظم عليكم خبر غرقهم ولم تصدقوه.

٥١ ـ ﴿وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة﴾ يستعد فيها لمناجاة الله بعبادته، لتقوى روحُهُ على احتمال تجلِّيه وسماع كلامه ﴿ثم اتخذتم العجل من بعده﴾، أي: اتخذتموه إلهاً فعبدتموه، إذ كان يناجي ربه في الميقاتين الزماني والمكاني ﴿وأنتم ظالمون﴾ لأنفسكم باتخاذه في غيبته[1]، ليس لكم أدنى عذر ولا شبهة.

٥٢ ـ ﴿ثم عفونا عنكم من بعد ذلك﴾ إذ تبتم، كما يبينٌ قريباً. ﴿لعلكم تشكرون﴾ هذه النعمة بدوام التوحيد والطاعة.

وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

٥٣ ـ ﴿وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان﴾ التوراة، وما يفرق به بين الحق والباطل، في تنفيذها، وسياسته لكم بها ﴿لعلكم تهتدون﴾ لِنُعِدَّكم للاهتداء بأتباعها، فيكون مرجواً لكم.

---

(١) قوله: «باتخاذه في غيبته الخ» لو اقتصر على: «باتخاذه» ولم يذكر ما بعده لكان أحسن، لأن الظلم كان منهم بعبادة العجل، وهو ظلم عظيم، كما قال تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾، ولا فرق في عبادة العجل بين أن تكون بغيبته أو بحضوره، أو أن تكون بعذر وشبهة، و بلا عذر وشبهة، فالشرك كفر، وظلم عظيم، ولا عذر لكافر مطلقاً، ولكن الشبهة تكون عذراً ــ أحياناً ــ لأهل القبلة فقط، لا للكافرين.

٥٤ ـ ﴿وإذ قال موسى لقومه﴾ الذين اتخذوا العجل ﴿يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل﴾ إلهاً عبدتموه. والقصة مفصلة في سورتي: «الأعراف» و «طه» المكّيتين، لأن قصة موسى فيهما مقصودة بالذات، وأما ما هنا فهو تذكير لبني إسرائيل في سياق دعوتهم إلى الإسلام ﴿فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم﴾ بأن يقتل بعضكم بعضاً، فإن قتل المرء لأخيه كقتله لنفسه.

والقصة في التوراة التي بين أيديهم إلى اليوم وخلاصتها: أن موسى دعا إليه من يرجع إلى الرب، فأجابه بنو لاوي، فأمرهم بأن يأخذوا السيوف ويقتل بعضهم بعضاً ففعلوا، وقتل في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف ﴿ذلكم خير لكم عند بارئكم﴾ لأنه يطهركم من رجس الشرك الـذي دنستم به أنفسكم، ويجعلكم أهلاً لما وعدكم به في الدنيا، ولمثوبته في الآخرة ﴿فتاب عليكم﴾، أي: قبل توبتكم إذ فعلتم ما أمركم به موسى ﴿إنه هو التواب الرحيم﴾، أي: إنه هو وحده الكثير التوبة على عباده بتوفيقهم لما وقبولها منهم، وإن تعددت قبلها جرائمهم، الرحيم بهم، ولولا رحمته لعجل إهلاكهم ببعض ذنوبهم الكبرى، ولا سيما الشرك به.

٥٥ ـ ﴿وإذ قلتم: يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾، أي: واذكروا إذ قلتم لنبيكم، يا موسى لن نصدق بما جئت به تصديق إذعان وأتباع لك، حتى نرى الله عياناً جهرة، فيأمرنا بالإيمان لك ﴿فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون﴾، أي: فأخذت القائلين ذلك منكم الصاعقة وأنتم تنظرون ذلك بأعينكم. وسيأتي بيان هذا في سورة «الأعراف».

٥٦ ـ ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ بالصاعقة، كأنه كان صعقاً مؤقتاً للعبرة، والعطف بـ «ثم» للتراخي في الرتبة ﴿لعلكم تشكرون﴾ الله على هذه النعمة وغيرها.

٥٧ ـ ﴿وظللنا عليكم الغمام﴾، أي: وسخرنا لكم الغمام، فجعلناه مظللاً عليكم مدة التية، ولولاه لَسَفَعَتْكُمُ[1] الشمس ولفحت وجوهكم، أو:

---

(١) قوله: «لسفعتكم الشمس»، أي: لفحتكم لفحاً يسيراً فغيرت لون البشرة.

أحرقتكم ﴿وأنزلنا عليكم المن والسلوى﴾ «المنُّ»: مادة لزجة حلوة تشبه العسل، تقع على الحجر وورق الشجر، مائعة كالندى، ثم تجمد وتجف، فيجمعها الناس، ومنها «التُرُنْجَبين» وبه فسروها. وأما «السلوى»: فقد فسروها بالسُّمَانَي وهو الطائر المعروف. فمعنى النزول في كل منهما يصح فيه على حقيقته ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾، أي: أمرناكم بذلك امتناناً عليكم. ﴿وما ظلمونا﴾ بكفر هذه النعم، فإن الله غنيّ عن شكرهم ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ ظلمًا مستمراً، فكان جزاؤهم عليها دون غيرها.

وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

٥٨ ــ ﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية﴾، أي: المدينة، وهي في الأصل: اسم لما يبنيه الناس والنملُ للسكنى. وفي سورة الأعراف «اسكنوا» محل «ادخلوا» هنا. ولم يسمِّ القرآن هذه القرية، وقيل: هي بيت المقدس، وقيل: أريحا، والله أعلم ﴿فكلوا منها حيث شئتم رغداً﴾، أي: هنيئاً واسعاً ﴿وادخلوا الباب سُجداً﴾، أي: باب القرية، وقيل معبدها، ساجدين لله، أي: خاضعين متطامنين متذللين له ﴿وقولوا: حطة﴾ وهي صيغة هيئة من الحط، يقال: حط المسافر رحلة للاستراحة أو الإقامة، وحط عنه من أثقاله، أي خففها. والمعنى: وقولوا: حاجتنا أن تُحَطَّ عنا خطايانا من المعاصي والتقصير في شكر النعم ﴿نغفر لكم خطاياكم﴾ بهذا الخضوع والدعاء ﴿وسنزيد المحسنين﴾ منكم بما يزيدون على ما أوجبناه عليكم من إحسان أعمالهم.

٥٩ ــ ﴿فبدل اللذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم﴾، أي: ففسقوا عن أمرنا، وظلموا أنفسهم بتبديل قوله الله فيما أمرهم به قولاً غيره لا يؤدي

مدلوله، والمراد منه بسوء التأويل له وتحريفه عن مواضعه. وليس المراد بالتبديل أنهم قالوا كلمة مكان كلمة بمجرد نطق اللسان، فإن هذا لاحَظَّ لهم ولا هوى فيه، فيعصوا الله به، بل بدلوه بما أبطل المراد منه[1] ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء﴾ «الرجز» في اللغة: الاضطراب والقلقلة، أي: أنزلنا عليهم عذاباً إلهياً شديد الاضطراب لهم في معيشتهم ﴿بما كانوا يفسقون﴾، أي: بسبب استمرارهم على الفسوق عن أمر ربهم وعصيانه.

* وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ

---

(١) قوله: «بل بدلوه ما أبطل المراد منه»، وذلك أنهم دخلوا يزحفون على أستاههم ـ جمع «سَتَه» أي: أوراكهم، ـ وقالوا: حبة في شَعَرَة، هكذا فسره النبي ﷺ في حديث رواه البخاري ومسلم. ولكن المؤلف ـ تبعاً لشيخه الشيخ محمد عبده ـ يرد بعض الأحاديث ولو كانت في الصحيحين، وهذا منها، ويعتبرها من الإسرائيليات الوصفية كما صرح بذلك في تفسير الآية المماثلة من سورة «الأعراف» ص ٣٧٣ ج ٩ من تفسير المنار حيث قال: إن الصحابي الراوي أبا هريرة رضي الله عنه لم يصرح بسماعه من النبي ﷺ، وأنه يحتمل أن يكون سمعه من كعب الأحبار.

وإن كلامه هذا مردود بل لا يقول به من له إلمام بعلم أصول الحديث، والمؤلف نفسه صَرَّح بأن شيخه «ينقصه سعة الاطلاع على كتب الحديث»، قال ذلك ص ٢٢٢ ج ٨، فكيف يكون رده للحديث الصحيح حجة؟! وللمؤلف وشيخه مواقف كثيرة يردان فيها الحديث الصحيح ولا يأخذان به، ولكن الحق والصواب أن العبرة بما ثبت من الحديث لا فيما تهواه الأنفس وترغب فيه الأهواء.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

٦٠ ـ ﴿وإذ استسقى موسى لقومه﴾، أي: طلب السقيا لهم وقد أعوزهم الماء ﴿فقلنا اضرب بعصاك الحجر﴾ العظيم المعهود، فضربه ﴿فانفجرت منهم اثنتا عشرة عيناً﴾ بعدد أسباطهم ﴿قد علم كل أناس مشربهم﴾ فكان لكل سبط مكان للشرب منه، وقلنا: ﴿كلوا واشربوا من رزق الله﴾ الذي أنعم به عليكم ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾، أي: ولا تفسدوا فيها متعمدين.

٦١ ـ ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد﴾ وهو المن والسلوى ﴿فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها﴾ البقل من النبات: ما ليس بشجر، أو ما ينبت في بزرة، ولا ينبت في أرومة ثابتة، كالكرفس والنعناع ونحوهما مما يغري بالقضم، ويعين على الهضم. والقثاء: هي أخت الخيار أو تشمله، والعدس والبصل معروفان، والفوم: هو الحنطة. وقال الكسائي وجماعة: هو الثوم ﴿قال﴾ موسى عليه السلام تقريعاً لهم على أشرهم، وإنكاراً لتبرمهم ﴿أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير؟﴾، أي: أتطلبون هذه الأنواع الخسيسة بدل ما هو خير منها، وهو المن والسلوى؟ ﴿اهبطوا مصراً﴾، أيَّ مصرٍ من الأمصار ﴿فإن لكم ما سألتم﴾ إن هبطتموه ونزلتموه وجدتم فيه ما سألتم ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة﴾، أي: وألقى الله عليهم في عاقبتهم حالتي الأذلاء والمساكين بسلب الملك منهم، فكانت كالقبة المضروبة، محيطة بهم، أو كطابع السكة ظاهرة عليهم ﴿وباؤوا بغضب من الله﴾، أي: رجعوا به، كما يقال: رجع أو عاد بصفقة المغبون، إذا كان ذلك آخر شوطه ومنتهى سعيه، وكذلك كان آخر أطوار اليهود في بغيهم أيام ملكهم ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله﴾، أي: ذلك العقاب كله بسبب ما جروا عليه من الكفر بآيات الله التي آتاها الله لموسى، ونعمه على من بعده من أنبيائهم وملوكهم، بدلاً من الشكر عليها ﴿ويقتلون النبيين بغير الحق﴾ مع أن الكتاب يحرم عليهم قتل غير الأنبياء إلا

بحقه المبين فيه، وقتلهم لن يكون بحق ﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾، أي: ذلك الكفر بالآيات، وقتل الأنبياء، أو: ذلك الجزاء، بسبب عصيانهم واستمرارهم على اعتداء حدود الله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾

٦٢ ـ ﴿إن الذين آمنوا﴾ وهم المسلمون الذين اتبعوا محمداً ﷺ، والذين سيتبعونه إلى يوم القيامة، وكانوا يسمون: المؤمنين، والذين آمنوا ﴿والذين هادوا والنصارى والصابئين﴾ وهم هذه الفرق من الناس التي عرفت بهذه الأسماء أو الألقاب، من الذين اتبعوا الأنبياء السابقين ﴿من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً﴾، أي: عملاً تصلح به نفسه، بباعث الإيمان الصحيح، على الوجه الذي جاءتهم به رسلهم كل في زمنه ﴿فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾، أي: إن حكم الله العادل سواء، وهو يعاملهم بسنة واحدة لا يحابي فيها فريقاً ويظلم فريقاً، وحكم هذه السُّنَّةِ: أن لهم أجرهم المعلوم بوعد الله لهم على لسان رسلهم، ولا خوف عليهم من عذاب الله يوم يخاف الكفار والفجار مما يستقبلهم، ولا هم يحزنون على شيء فاتهم من محبوبات الدنيا.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾

٦٣ ـ ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾ وهو العهد الذي أخذه عليهم وتقدم الكلام فيه[1] ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾ وهو الجبل المعروف، فكان كالظلة

(١) قوله: «وتقدم الكلام فيه» أي: في تفسير الآية «٤٠» من هذه السورة ص٥١.

فوقكم وقلنا: ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾، أي: تمسكوا به واعملوا بجد ونشاط، لا يلابس نفوسكم فيه ضعف، ولا يصحبها وَهْنٌ ولا وَهَمٌ ﴿واذكروا ما فيه﴾، أي: بالمحافظة على العمل به؛ فإن العمل هو الذي يجعل العلم راسخاً في النفس، مستقراً عندها ﴿لعلكم تتقون﴾ فإن المواظبة على العمل بما يرشد إليه الكتاب، تطبع في النفس ملكة مراقبة الله تعالى، فتكون بها تقية نقية.

٦٤ ــ ﴿ثم توليتم من بعد ذلك﴾، أي: ثم أعرضتم وانصرفتم عن الطاعة بعد أخذ الميثاق ومشاهدة الآيات التي تؤثر في القلوب، وتستكين لها النفوس ﴿فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين﴾، أي: إنكم بتوليكم استحققتم العقاب، ولكن حال دون نزوله بكم، فضلُ الله عليكم ورحمتُهُ بكم، ولولا ذلك لخسرتم سعادة الدنيا، وهو: التمكن في الأرض المقدسة التي تفيض لبناً وعسلاً، ثم خسرتم سعادة الآخرة، وهي خير ثواباً وخير أملاً.

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

٦٥ ــ ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت﴾، أي: وأقسم إنكم لقد علمتم نبأ الذين تجاوزوا حدود حكم الكتاب، في ترك العمل الدنيوي يوم السبت ﴿فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ الأمر للتكوين، أي: كونوا قردة أو كالقردة مطرودين. قال مجاهد: ما مُسخت صورهم ولكن مسخت قلوبهم، فَمُثِّلُوا بالقردة كما مُثلوا بالحمار في قوله تعالى: «مَثَلُ الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً».

٦٦ ــ ﴿فجعلناها﴾، أي: جعلنا هذه العقوبة ﴿نكالا﴾ وهو ما يفعل بشخص من إيذاء وإهانة ليعتبر غيره، أي: عبرةً ينكل من يعلم بها، أي: يمتنع من اعتداء الحدود ﴿لما بين يديها﴾ من أهل زمنها ﴿وما خلفها﴾ ممن يأتي بعدها ﴿وموعظة للمتقين﴾ فإن المتقي يتعظ بها في نفسه بالتباعد عن الحدود التي يخشى اعتداءها.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

٦٧ ـ ﴿وإذ قال موسى لقومه﴾ في جناية وقعت لأجل الفصل فيها ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، قالوا أتتخذنا هزواً؟﴾ بضم الزاي وسكونها، بالهمز ودونه[1]، أي: سخرية يهزأ بنا، وهذا القول من سفههم وخفة أحلامهم

---

(١) قوله: «بضم الزاي وسكونها، بالهمز ودونه» يدل على وجود أربع قراءات في كلمة: «هزواً» وهذا سبق قلم، صوابه: أنها بضم الزاي وبسكونها مع الهمزة، وبضم الزاي وإبدال الهمزة واواً، فقط. وذلك أينما جاءت في القرآن الكريم.

وجهلهم، وفيه رمي لموسى عليه السلام بالسفه والجهالة ﴿قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾، أي: ألتجىء إلى الله أعتصم بتأديبه إياي من الجهالة والهزء بالناس.

٦٨ ـ ﴿قالوا إدع لنا ربك يبين لنا ما هي؟﴾، أي: ما الصفة المميزة لها في سنها؟ ﴿قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض﴾، أي: غير مسنة انقطعت ولادتها ﴿ولا بكر﴾ لم تلد بالمرة، والمراد بها التي لم تلد كثيراً ﴿عوان بين ذلك﴾ العوان: النَصف في السن من النساء والبهائم، أي: هي بين ما ذكر من السِّنَّيْنِ: الفارض والبكر. فالمشار إليه بكلمة «ذلك» متعدد في المعنى ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ كان يجب عليهم الاكتفاء بهذا الجواب والمبادرة بعده للامتثال، ولكنهم أبوا إلا تنطعاً واستقصاء في السؤال.

٦٩ ـ ﴿قالوا إدع لنا ربك يبين لنا ما لونها؟ قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين﴾ «الفاقع»: الشديد الصفرة في صفاء، بحيث لا يخالطه لون آخر، وبعض أهل اللغة لا يخصه بالأصفر بل يجعله وصفاً لكل لون صاف.

٧٠ ـ ﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي﴾ بحيث لا تشتبه بغيرها ﴿إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون﴾ إليها بعد جواب هذا السؤال عن زيادة التمييز، ككونها عاملة أو سائمة.

٧١ ـ ﴿قال إنه يقول إنها بقرة﴾ سائمة ﴿لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث﴾، أي: غير مذللة بالعمل في الحراثة ولا في السقي ﴿مسلمة﴾ من العيوب، أو من سائر الأعمال ﴿لا شية فيها﴾، أي: ليس فيها لون آخر غير الصفرة الفاقعة. و«الشية»: مصدر كالعِدَة، من «وَشَى الثوبَ يَشيه»، إذا جعل فيه خطوطاً من غير لونه بنحو تطريز ﴿قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾، أي: ما قاربوا أن يذبحوها إلا بعد أن انتهت أسئلتهم، وانقطع ما كان من تنطعهم وتعنتهم.

روى ابن جرير في التفسير بسند صحيح عن ابن عباس موقوفاً: «لو ذبحوا أي بقرة أرادوا لأجزأتهم ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم» وأخرجه سعيد بن منصور في سننه عن عكرمة مرفوعاً مرسلاً.

٧٢ـ ﴿وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها﴾ أسند القتل إلى المخاطبين من الأمة ـ وإن كان القاتل واحداً من المتقدمين ـ باعتبار كونها في مجموعها وتكافلها كالشخص الواحد. والتدارؤ: تفاعل من «الدَّرْء» وهو الدفع، فمعناه: التدافع، وهو يدل على أنه كان خصام واتهام، وكان كلٌّ يدرأ عن نفسه ويدعي البراءة ويتهم غيره ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ من حكم الشريعة، أو من قصد الإيقاع بقوم برءاء، تتهمونهم بالقتل لإخفاء القاتل، فهو مظهره بحكمه.

٧٣ ـ ﴿فقلنا: اضربوه ببعضها﴾ المشهور أن معناه: اضربوا القتيل بجزء من البقرة. ويرى بعض[1] المدققين أن هذه قصة غير قصة البقرة فتلك انتهت بالإحالة على حكم التوراة المعروف، وأن المراد في هذه ضرب المتهم بالقتل ببعض أعضاء القتيل ليظهر عليه الانفعال والاضطراب المعتاد من القتلة، فتثبت عليه التهمة ﴿كذلك يُحيي الله الموتى﴾ التي كانت عرضة لأن تقتل بسبب الخلاف في قتل تلك النفس، أي: يحفظها من الموت بمثل هذه الأحكام، على حد قوله تعالى: «ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً»، وقوله: «ولكم في القصاص حياة»، فالإحياء هنا معناه: الاستبقاء، كما هو المعنى في الآيتين ﴿ويريكم آياته﴾ بما يفصل بها في الخصومات، ويزيل من أسباب الفتن والعداوات ﴿لعلكم تعقلون﴾، أي: تفقهون أسرار الأحكام وفائدة الخضوع للشريعة.

٧٤ ـ ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك﴾ الذي كان من شأنكم مع موسى ﴿فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾ القسوة: الصلابة الحسية أو المعنوية. أي: فهي الآن كالحجارة بل هي أشد قسوة منها، إذ لا شعور فيها يأتي بخير، ولا عاطفة تفيض منها بعبرة ﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء﴾، أي: والحال إن الحجارة على صلابتها وقسوتها تتأثر بالماء الرقيق اللطيف، فيشقها وينفذ منها بقلة أو كثرة، فيحي الأرض، وينفع

---

(١) قوله: «ويرى بعض المدققين إلخ» هذا القول فيه تكلُّف ظاهر للمتأمل، والصحيح هو القول المشهور أي: ضرب القتيل بجزء من البقرة، والسياق يؤيده.

النبات والحيوان، وأما هذه القلوب فلم تعد تتأثر بالحكم والنُّذُر، ولا بالعظات والعبر، وإن من الحجارة ما يشقه الماء القليل، كماء العيون والينابيع الحجرية، ومنها ما لا يفجره إلا الماء القوي الغمر الذي يسمى نَهَراً ﴿وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾ وهو ما ينحط من أعلى الجبل، أو من أثنائه بسبب أثرٍ من آثار القهر الألهي، كالبراكين والصواعق التي تهبط بها الصخور، وتندك الجبال. وقد جعل هذا شبهاً للآيات الإلهية التي أظهرها على يد عبده ونبيه موسى عليه السلام، فهي حوادث عظيمة في الكون تفزع بها نفوس المؤمنين إلى الله، وتخشع لأمره ونهيه، لعظمتها وخفاء سر إيجادها وحكمتها، وقد أصبحت تلك القلوب بعد تلك الآيات لا تتأثر بها ولا تزداد إيماناً ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾، أي: فهو سيربيكم بضروب النقم، إذا لم تتربَّوا بصنوف النعم، وقرىء: «يعملون» بالتحتانية، ليشمل غير المخاطبين فهل نعتبر بهذا؟.

* أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾

٧٥ ــ ﴿أفتطمعون﴾ أيها المؤمنون ﴿أن يؤمنوا لكم﴾ أن يؤمن لكم هؤلاء اليهود، إيمانَ أتباع، لظهور حجة القرآن عليهم ﴿وقد كان فريق منهم﴾، أي: والحال أنه كان فريق من سلفهم، وهم السبعون الذين اختارهم موسى لحضور ميقات الله له ﴿يسمعون كلام الله﴾ ويشهدون للآخرين منهم ﴿ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾ ثم يحرفه الآخرون عن مواضعه بأهوائهم وشهواتهم ــ كما يأتي تفصيله ــ من بعد ما عقلوا مراد الله، والحال أن ما حرفوه إليه غير مراده الذي كلفهم إياه، فهم عامدون متعمدون لتحريفه، فهذا الاستفهام للتعجيب من سلامة فطرة أصحاب النبي ﷺ من العرب،

الذين كانوا يظنون أن ظهور حجة الإسلام لليهود كاف ـ لأتباعه ﷺ معهم ـ، لجهلهم بتاريخ هؤلاء القوم، وهو مبني على وحدتهم، وشبه آخرهم بأولهم، وإسناد أعمالهم القومية إلى جملتهم.

٧٦ ـ ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنّا﴾ خداعاً لهم، وهذا حال فريق منهم تقدم ذكره في الآية «١٤» ﴿وإذا خلا بعضهم إلى بعض﴾ هو كقوله في تلك الآية: «وإذا خلوا إلى شياطينهم» ﴿قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ أي: قال الفريق الآخر، للذين أظهروا الإيمان للمؤمنين نفاقاً هذا القول، يَعْذِلونهم على الافضاء إليهم بما فتح الله عليهم. والمراد بالفتح هنا: الانعام بالشريعة والأحكام، والبشارة بالنبي ﷺ، كقوله: «فتحنا عليهم بركات من السماء والأرض» أو بما حكم به وأخذ به الميثاق عليكم من الإيمان بالنبي الذي يجيئكم مصدقاً لما معكم، ونصرِهِ ﴿ليحاجوكم به عند ربكم﴾ ليقيموا به عليكم الحجة من كتاب ربكم، وهو التوراة، من حيث أن ما تحدثونهم به موافق لما في القرآن، فلهم أن يقولوا: لولا أن محمداً نبي لما علم بهذا الذي حكاه عنكم، وقد كان مثلنا لا يعرف من أمر الكتاب شيئاً ﴿أفلا تعقلون﴾ أن هذا حجة لهم عليكم. ويجوز أن يكون هذا تتمة لخطاب الله المؤمنين الذين يطعمون في إيمانهم.

٧٧ ـ ﴿أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ يعني :أيقول اللائمون أو المنافقون من هؤلاء اليهود ما قالوا، ويكتمون من صفات النبي ﷺ ما كتموا، ويحرفون من كتابهم ما حرفوا، ولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون من كفر وكيد، وما يعلنون من إظهار إيمان وود؟ والاستفهام للتعجب من حالهم والتوبيخ لهم.

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾

٧٨ ـ ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون﴾ ذلك الذي تقدم هو شأن علمائهم، يحرفون كتاب الله، ويخرجون من حكمه بالتأويل. وهذا شأن عامتهم، لا علم لهم بشيء من الكتاب، ولا معرفة لهم بالأحكام، وما عندهم من الدين فهو أماني يتمنونها، وتجول صورها في أخيلتهم، وهذه الصور، هي كل ما عندهم من العلم بدينهم، وما هم على بينة منها، وإنما هي ظنون يلهون بها، وهذا هو محل الذم لا مجرد كونهم أميين، فإن الأمي قد يتلقى العلم عن العلماء الثقات، ويعقله عنهم بدليله، فيكون علمه صحيحاً، وهؤلاء لم يكونوا كذلك، وإن في علمائنا وعامتنا مثلاً من الفريقين مصداقاً لحديث[1]: «لتتبعن سَنَنَ من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» قالوا: يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟».

٧٩ ـ ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله﴾ الويل: الهلاك، وتنكيره لتعظيم هوله. والكتاب: الجنس، أي: ويل لأولئك العلماء الذين يكتبون الكتب بأيديهم، ويودعونها آراءهم، ويحملون الناس على التعبد بها، قائلين: إن ما فيها من عند الله، ويمكن الاستغناء بها عن كتاب الله الذي نفهم منه ما لا يفهم غيرنا، يخطبون بذلك قرب الملوك والحكام وودهم، ويبتغون الجاه والمال عندهم بإخضاع العامة لهم ﴿ليشتروا به ثمناً قليلاً﴾ من الفريقين، وكل ما يباع به الحق ويترك لأجله فهو قليل، لأن الحق أثمن الأشياء وأغلاها، وأرفعها وأعلاها ﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾ فالهلاك محيط بهم من جانب الوسيلة ومن جانب المقصد.

وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً ۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓ ۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً

---

(١) قوله: «الحديث: لتتبعن سنن» الخ وهو حديث رواه الشيخان. والمعنيون بهذا الحديث هم شرار هذه الأمة لما رواه أحمد في مسنده بإسناد جيد عن شداد بن أوس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «لَيَحملُنَّ شرارُ هذه الأمة على سَنَنِ الذين خلوا من قبلهم أهلِ الكتاب حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة»، و«القذة» جمع «قُذَذ» وهي: واحدة رياش السهم أي: كما تُقَدَّر كل واحدة منها على قدر صاحبتها ثم تقطع، وهو مثل يضرب للشيئين يتساويان ولا يتفاوتان.

وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾

٨٠ ـ ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾، أي: قليلة، قيل: هي أربعون يوماً مدة عبادتهم العجل، والذي عليه أكثر اليهود أنها سبعة أيام، لأن عُمرَ الدنيا عندهم سبعةُ آلاف سنة، فالإسرائيلي[1] الذي لا تدركه الشفاعة يمكث في النار سبعة أيام، عن كل ألف سنة يوم. ﴿قل أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده﴾، أي: هل عهد الله إليكم ذلك، ووعدكم به، فكان حقاً لكم عنده؟، لأن الله لا يخلف عهده. ﴿أم تقولون على الله ما لا تعلمون﴾، أي: أم تفترون عليه الكذب بإسناد هذا إلى كتابه بغير علم؟، والاستفهام للإنكار، والمعنى: أنه لا بد من أحد الأمرين، إذ لا واسطة بينهما. وقد بطل الأول فتعين الثاني.

٨١ ـ ﴿بلى﴾ حرف تصديق لإيجاب ما في حيز الاستفهام، أي: بلى إنكم تقولون على الله ما لا تعلمون.

ثم بينّ الحق في المسألة مستأنفاً فقال: ﴿من كسب سيئة﴾، أي: فعلة سيئة أصر عليها حتى صارت ملكة له ﴿وأحاطت به خطيئته﴾، أي: أخذت بجوانب إحساسه ووجدانه، كأنه محبوس فيها لا يجد لنفسه مخرجاً منها، بالاسترسال في الذنوب، والتمادي على الإصرار، فأصبحت قلوبهم في غُلْف من ظلمات المعاصي، حتى لم يبق منفذ للنور يدخل إليها منه ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾، أي: هم أصحاب دار العذاب في الآخرة الأحِقَّاء بها دون من لم يصل إلى درجتهم في الدنيا، وهو من في قلبه شيء من نور الإيمان وتوحيد الله تعالى، وما يتبعه من الخير، فهو كلما كسب سيئة تاب منها وأتبعها حسنة فمحتها.

٨٢ ـ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ وأما الذين جمعوا بين الإيمان

---

(١) قوله: «فالإسرائيلي» إلخ يعني: اليهودي. وهذا كما يزعمون. أما تحديد عمر الدنيا بسبعة آلاف سنة فهو غير صحيح ومن وضعهم.

الصحيح وما يلزمه من الأعمال الصالحات ﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾، أي: أولئك دون غيرهم أصحابها الحقيقون بها، بحسب وعد الله تعالى وفضله هم خالدون فيها. وفيه دليل على أن الوعد على الإيمان والعمل معاً، إذ لا ينفك أحدهما عن الآخر[1]، إلا من آمن فمات ولم يتسع له الوقت للعمل، ومن يذنب بجهالة فيبادر إلى التوبة.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

٨٣ ــ ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل﴾ تقدم ذكر أخذ الميثاق عليهم في سياق خطابهم في الآية «٦٣»، وسيذكر كذلك في الآية «٩٣»، وهذا حكاية له ﴿لا تعبدون إلا الله﴾ إلخ، بيان للميثاق، تقول: أخذتُ عليك عهداً تفعل كذا. كما تقول: أن تفعل كذا، سواء، وهو خبر بمعنى النهي، للمبالغة والتأكيد. قرىء[2] «تعبدون» بالفوقانية خطاباً للحاضرين، وبالتحتانية خبراً عن

---

(١) قوله: «إذ لا ينفك أحدهما عن الآخر»، لقد أبعد المؤلف في هذا، فإنه مما لا شك فيه: أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيدخلون الجنة خالدين فيها أبداً تحقيقاً لوعد الله الذي لا خُلْفَ له. وأن من مات كافراً سيدخل النار خالداً فيها أبداً تحقيقاً لوعيد الله أيضاً، وأما من مات مؤمناً وختم الله بخاتمة السعادة على الإيمان، وكان من العصاة ومرتكبي الكبيرة، ومات من غير توبة، فإن أمره إلى الله، إن شاء عذبه على ذنوبه، وإن شاء عفا عنه، وعلى كل حال فإنه سيدخل الجنة جزاء إيمانه، ولن يخلَّد في النار إن دخلها جزاء معصيته، وهذا النوع من الناس ستشملهم شفاعة النبي ﷺ يوم القيامة، فقد روى أحمد وأبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم وغيرهم أن رسول الله ﷺ قال: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»، قال الحاكم في هذا الحديث: صحيح على شرط الشيخين، وأقرَّه الحافظ الذهبي.

(٢) قوله: «قُرىء» يشير به إلى القراءة الصحيحة، وليس إلى القراءة الشاذة، كما هو اصطلاح بعض المفسرين. وقد وضعنا بدلها: «في قراءة» في أكثر المواضع.

الغابرين ﴿وبالوالدين إحساناً﴾، أي: وتحسنون بالوالدين إحساناً، وهو نهاية البر، فيدخل فيه جميع ما يجب من الرعاية والعناية. وقد أكد الله الأمر بإكرام الوالدين في التوراة حتى أنه يوجد فيها الآن: أن من يسب والديه يقتل، وجعل الأمر بالإحسان بالوالدين ثاني الأمر بالتوحيد، أو النهي عن الشرك فهو كقوله تعالى: «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا» ﴿وذي القربى﴾ فإن الإحسان بهم يقوي غرائز الفطرة، ويوثق الروابط الطبيعية بين الأقربين، حتى تبلغ البيوتُ في وحدة المصلحة درجة الكمال، والأمةُ تتألف من البيوت ــ العائلات ــ فصلاحها صلاحها ﴿واليتامى والمساكين﴾ اليتيم: من مات أبوه وهو صغير، وقد قدم الوصية به على الوصية بالمسكين، ولم يقيدها بفقر ولا مسكنة فعلم أنها مقصودة لذاتها. والمسكين: من لا مال له ولا كسب له يكفيه، لا العاصي لله بإذلال نفسه بالسؤال ﴿وقولوا للناس﴾ الذين لا تستطيعون الإحسان إليهم بأموالكم وأعمالكم قولاً ﴿حسناً﴾ قرىء بفتحتين، وبضم وسكون للمبالغة، وهو يشمل كل خير وحسن ومنفعة، كلين القول، والصدق والنصيحة ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ وإنما إقامة الصلاة بالإخلاص لله، والصدق في التوجه إليه، والخشوع لعظمته وجلاله. ولا تكون بمجرد الإتيان بصورة الصلاة ورسومها الظاهرة وحدها، وفي التوراة فرائض مالية، ولكنهم لا يسمونها زكاة. ﴿ثم توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون﴾، أي: ثم كان من أمركم بعد هذا الميثاق الذي فيه سعادتكم أن توليتم عن العمل به وأنتم في حالة الإعراض عنه وعدم الاكتراث له، وهو شر العصيان.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

٨٤ ـ ﴿وإذا أخذنا ميثاقكم﴾، أي: واذكروا أيضاً إذ أخذنا ميثاقكم، كرره لهم بالخطاب لكفرهم بموضوعه، وهو: ﴿لا تسفكون دماءكم﴾ لا يسفك بعضكم دماء بعض، جعله بصيغة الخبر لتأكيده، وجعل دم كل فرد من أفراد الأمة كأنه دم الآخر عينه، حتى إذا سفكه كان كأنه بخع[1] نفسه وانتحر بيده ﴿ولا تخرجون أنفسكم من دياركم﴾ على هذا النسق، وهو: النفي من الوطن، وهذا التعبير المعجز ببلاغته خاص بالقرآن، فهو إرشاد حكيم، مَنْ تدبره علم أنه لا قوام للأمم إلا بالتحقق بما تضمنته هذه الحكم، وشعور كل فرد من أفرادها بأن نفسه نفس الآخرين، ودَمَهُ دمُهم، ومصلحَتَهُ مصلحتهم ﴿ثم أقررتم وأنتم تشهدون﴾، أي: أقررتم بهذا الميثاق وأنتم تشهدون به في كل عصر، فالحجة ناهضة عليكم به إلى اليوم.

٨٥ ـ ﴿ثم أنتم هؤلاء﴾ الحاضرون الشاهدون أنفسكم فاسم الإشارة تأكيد للضمير، أو: منادى ﴿تقتلون أنفسكم﴾، أي: يقتل بعضكم بعضاً في حروبكم مع حلفائكم من الأوس والخزرج قبل جمع كلمتهم بالإسلام ﴿وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان﴾ التظاهر: التعاون، و«تظاهرون» أصله «تتظاهرون»، قرىء بإدغام التاء الثانية في الظاء فشددت. وبحذف إحدى التاءين للتخفيف وهو مقيس مشهور.

كان كل فريق من يهود المدينة وهم قريظة والنضير يظاهر حلفاءه من العرب، وهم الأوس والخزرج ويعاونهم على إخوانه من اليهود بالإثم، كالقتل والسلب، وبالعدوان كعصبيات الحلف، ومنه الإخراج من الديار ﴿وإن يأتوكم أسارى تفادوهم﴾، أي: يفدي كل فريق منكم أبناء جنسه، بعد أن كنتم أسرتموهم وأخرجتموهم بالتظاهر عليهم مع العرب، وقرىء: «أسرى تفدوهم»

---

(١) قوله: «كأنه بخع نفسه» أي: أهلكها.

﴿وهو محرم عليكم إخراجهم﴾، أي: والشأن أن إخراجهم محرم عليكم بميثاق أغلظ من طلب مفاداتهم ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب﴾ وهو فداء الأسرى ﴿وتكفرون ببعض﴾ آخر منه، وهو النهي عن القتل والإخراج؟ أليس من الحماقة والهزء والسخرية أن يدّعي مدّع مثل هذا الإيمان بأهون الأمور، مع الكفر بأعظمها؟ والإيمان لا يتجزأ، فالكفر بالبعض كالكفر بالكل ﴿فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياةالدنيا﴾ وهو الذل الذي يستحيا منه، وقد حصل بما وقع عليهم من القتل والسبي والجلاء من ديار الحجاز، وضَرْبِ الجزية عليهم في غيرها ﴿ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب﴾ وهو عذاب النار ﴿وما الله بغافل عما يعملون﴾، بل هو محيط به لا يخفى عليه منه شيء، وقرىء: «تُردون» و«تعملون» بالخطاب لمناسبة قوله: «منكم».

٨٦ ــ ﴿أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة﴾، أي: جعلوا حظوظهم من الحياة محصورة في متاع الدنيا بدلاً من الآخرة التي جعلوها ثمناً له، بما فرطوا في جنب الله وأهملوا من شريعته، حتى لا يتبعون منها إلا ما يوافق أهواءهم وشهواتهم ﴿فلا يخفف عنهم العذاب﴾ لأن علته ذاتية فيهم، وهي ظلمة أرواحهم وفساد عقائدهم وأخلاقهم، ﴿ولا هم ينصرون﴾ بشفاعة شافع، أو ولاية ولي من دون الله.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾

٨٧ ــ ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل﴾، أي: أتبعناهم به فجاؤوا في قفاه، أي: وراءه تابعين لكتابه، فلم يمر زمن بين موسى وعيسى آخر أنبيائهم إلا وكان فيه نبي مرسل، أو: أنبياء متعددون، يأمرون وينهون ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس﴾ فأمّا البينات فهي: ما يتبين به الحق من الحجج والأمثال والآيات الكونية. وأما روح القدس

فهو روح الوحي الذي يؤيد الله تعالى به أنبياءه في عقولهم ومعارفهم، وصف بذلك لأن التعليم الذي يكون به مقدس أي: معصوم، أو لأنه يقدس النفوس، والجمهور على أن المراد به جبريل ملك الوحي، عليه السلام، وهو من إضافة الموصوف إلى الصفة فهو كحاتم الجود[1] ﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم﴾ عن اتباعه فاتبعتم الهوى، وأطعتم الشهوات ﴿ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾ كذبوا عيسى، وقتلوا زكريا ويحيى. ويروى أنهم قتلوا في يوم واحد مائة وخمسين نبياً. وانظر كيف أورد خبر القتل بصيغة المضارع التي تدل على الحال، لاستحضار تلك الصورة الفظيعة حتى يمثلها في الخيال، وإن مرت عليها القرون والأحوال، لأنها أفاعيل لا تَخْلُقُ[2] جدتها، ودماءٌ لا تطير رغوتها.

وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

٨٨ ـ ﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾ جمع «أغلف»، وهو: ما يحيط به غلاف يمنع أن يصيبه شيء، والمراد أننا لا نعقل قولك ولا ينفذ إلى قلوبنا مفهوم دعوتك يا أبا القاسم ﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾، أي: أن قلوبهم ليست غلفاً لا تفهم الحق بطبعها، وإنما أبعدهم الله تعالى من رحمته بسبب كفرهم بالأنبياء السابقين، وبالكتاب الذي تركوا العمل به وحرفوه اتباعاً لأهوائهم، فهم قد أَنِسُوا بالكفر وانطبعوا عليه ﴿فقليلاً ما يؤمنون﴾، أي: فإيماناً قليلاً جداً يؤمنون، وإنما القلة في الإيمان باعتبار ما يؤمن به من أصول الدين وأحكام الشريعة، وبالنسبة إلى اليقين فيه والعمل به، وقد عَبَّرَ التنزيلُ عما تُرِكَ العملُ به، بالكفر به. أو المراد فلا يؤمن بالنبي ﷺ إلا قليل من يهود المدينة المعاصرين له، ثم آمن من بعدهم كثير منهم في الجملة.

---

(١) قوله: «فهو كحاتم الجود»، وأصله: «حاتم الجواد»، وكذلك «روح القدس» والأصل فيه: «الروح المقدسة» وهو جبريل، عليه السلام، كان يسير معه حيث سار يلهمه المعارف ويسدده.

(٢) قوله: «لا تخلق» بضم اللام، أي: لا تبلي ولا تعتق.

وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾

٨٩ ـ ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم﴾ من التوحيد وأصول الدين الأساسية، وهي البعث والرسالة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو القرآن ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾ الاستفتاح: طلب الفتح، وهو الفصل في الشيء، ومنه الحكم بين الخصوم والنصر، لأنه فصل بين المتحاربين، وكانت اليهود تستفتح على مشركي العرب بالنبي المنتظر، يقولون: إنه سيظهر فينصر كتابُهُ التوحيدَ الذي نحن عليه، ويخذل الوثنية التي تنتحلونها ويبطلها، فيكون مؤيداً لدين موسى. روى محمد بن إسحاق عن أشياخ من الأنصار أن هذا نزل فيهم وفي يهود المدينة، قالوا: كنا قد علوناهم قهراً دهراً في الجاهلية، ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب، وهم يقولون: إن نبياً سيبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه نقتلكم معه قتل عاد وإرم إلخ، وروى الضحاك عن ابن عباس في تفسير: «يستفتحون» يستنصرون، يقولون: نحن نعين محمداً عليهم إلخ، وما روي من أنهم كانوا يستفتحون بشخصه ﷺ لا باتباعه باطل المعنى، ضعيف الرواية منكرُها ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾ على معرفة وبينة كما سيأتي، ذلك أنه راعهم كونه بعث في العرب، فحسدوه، فحملهم الحسد على الكفر به جحوداً وبغياً ﴿فلعنة الله على الكافرين﴾ ولم يقل عليهم، لأن المظهر مبين للعلة، فهو أبلغ وأعم وأشمل.

٩٠ ـ ﴿بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله﴾، أي: بئس شيئاً اشتروا به أنفسهم، هو كفرهم بما أنزل الله مصدقاً لما معهم كما كانوا ينتظرون. «شرى الشيء» و«اشتراه» يستعمل كل منهما بمعنى: باع الشيء،

وبمعنى: ابتاعه، وكل منهما يجوز هنا، وقوله: ﴿بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده﴾ تعليل لكفرهم هم لا لشرائهم، أي: كفروا به لمحض البغي الذي أثاره الحسد كراهة أن ينزل الله الوحي من فضله بمقتضى مشيئته على نبي من بني إسماعيل كما جعله قبله في آل أخيه إسحاق؟ قرىء «ينزل» بالتخفيف من «الإنزال»، وبالتشديد من التنزيل ﴿فباؤوا بغضب على غضب﴾، أي: فرجعوا بغضب عظيم من الله، استوجبوه حديثاً بالكفر بالنبي ﷺ فوق ذلك الغضب الذي لحقهم من قبل ﴿وللكافرين عذاب مبين﴾، أي: مقرون بالإهانة والإذلال لأجل كفرهم، ولهذا لم يقل: «ولهم»، وهو يشمل عذاب الدنيا وعذاب الآخرة لجميع الكافرين.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

٩١ ــ ﴿وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله﴾ لأنه هو الذي أنزله على محمد، ولو أنزل على غيره لوجب الإيمان به، فإن الوحي هو المقصود بالذات، والأنبياء إنما هم مبلغون ﴿قالوا نؤمن بما أنزل علينا﴾، أي: على أنبيائنا، فجعلوا علة الإيمان كونه أنزل عليهم لا كونه منزلاً من الله فهو إيمان عصبية لا هداية ﴿ويكفرون بما وراءه﴾، أي: بما بعده، وهو القرآن، أو ما هو مدلول ولازم لما أنزل عليهم، كالبشارة برسول من بين إخوتهم، أي: ولد إسماعيل ﴿وهو الحق﴾، أي: والحال أنه الحق الثابت في نفسه بالدليل، حال كونه ﴿مصدقاً لما معهم﴾ فهو مؤيد عندهم بالعقل والنقل، وقد كان من

مكابرتهم فيه وعنادهم له ما كان ﴿قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾ بما أنزل إليكم، وليس فيه الأمر بقتل الأنبياء، بل فيه النهي الشديد عن قتل أنفسكم. وعبر عن قتلهم بالفعل الدال على الحال لتصوير ماضيهم في حاضرهم، والتذكير بتأثيره فيهم.

٩٢ ـ ﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده﴾، أي: من بعد هذا المجيء، لا من بعد موسى، فإنهم اتخذوه في عهده ﴿وأنتم ظالمون﴾ لأنفسكم بالشرك بالله تعالى، وتقدم بيان ذلك[١].

٩٣ ـ ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ تقدم هذا النص في الآية «٦٣»، ثم قال هنا: ﴿واسمعوا﴾ ما آتيناكم من هداية الكتاب سماع قبول وطاعة ﴿قالوا سمعنا وعصينا﴾، أي: إنهم قبلوا الميثاق وفهموه، ولكنهم لم يعملوا به، بل خالفوه عالمين متعمدين، كأنهم قالوا «سمعنا وعصينا» ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم﴾، أي: وتغلغلت عبادة العجل في قلوبهم، وامتزجت بوجدانهم كامتزاج الماء بالراح، فلم يبق لعبودية الله الخالصة موضع فيها، بسبب كفرهم السابق، فإشراب الشيء: مخالطته إياه وامتزاجه به، يقال: بياض مشرب بحمرة، أو: هو من الشرب، كأن الشيء المحبوب شرابٌ يساغ، فهو يسري في قلب المحب ويمازجه، كما يسري الشراب العذب البارد في لَهَاتِهِ، وهذا بعينه ظاهر فيمن أشربوا في قلوبهم عبادة بعض أهل البيت، ممن اشتهر بالصلاح والولاية بحق أو بغير حق[٢]، هم يتوجهون إليهم من دون الله ويدعونهم مع الله ﴿قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾ أي: إن صح زعمكم أنكم مؤمنون بشريعة، والإيمان الحقيقي يقتضي العمل، بما له من السلطان على الإرادة، فبئسما يأمركم ذلك الإيمان من الأعمال التي منها عبادةُ العجل، وقتلُ الأنبياء، ونقضُ الميثاق، لكن هذا الزعم

---

(١) قوله: «وتقدم بيان ذلك» أي: في آخر تفسير الآية «٥١» ص ٥٦.

(٢) قوله: «بحق أو بغير حق»، متعلق بالاشتهار بالصلاح والولاية، أي: من أولئك مَنْ كان صالحاً بحق ومنهم من يُظَنُّ به وهو على خلاف ذلك.

مشكوك فيه، بل يصح القطع بعدمه، بدليل الأعمال التي يستحيل أن تكون أثراً له.

قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

٩٤ ـ ﴿قل: إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله﴾، أي: قل أيها الرسول لهؤلاء اليهود، بعد أن أقمت الحجة على كذبهم بدعوى اتباعهم لكتابهم: إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله يخصكم بنعيمها، حال كونها ﴿خالصة من دون الناس﴾، أي: سالمة لكم من الشوائب والعقاب، من دون سائر الناس، وصَدَق قولكم: إنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، وأنكم شعب الله المختار، فلن تمسكم النار إلا أياماً معدودات، لا تزيد على أيام عبادة العجل ولا تتجاوز عابديه ﴿فتمنوا الموت﴾ الذي يوصلكم إلى ذلك النعيم الخالص الدائم، الذي لا منازع لكم فيه ولا مزاحم ﴿إن كنتم صادقين﴾ في دعواكم، فإن لم تتمنوا الموت فما أنتم بصادقين إذ لا يعقل أن يرغب الإنسان عن السعادة ويختار الشقاء عليها، والتمني: هو ارتياح النفس وتشوقها إلى شيء توده، وتحب المصير إليه، وروي عن ابن عباس تفسير التمني بالسؤال والطلب، وهو غير معروف عن غيره من العرب.

٩٥ ـ ﴿ولن يتمنوه أبداً﴾ في وقت ولا حال ما ﴿بما قدمت أيديهم﴾، أي: بسبب ما سبق لهم من الظلم والفساد، وأسند الفعل إلى الأيدي لأن أكثر الأعمال تزاول بها ﴿والله عليم بالظالمين﴾ في حكمهم بأن الدار الآخرة خالصة لهم، وأن غيرهم من الشعوب محروم منها، وكل من كان مفتاتاً مفترياً على الله فهو ظالم مثلهم.

٩٦ ــ ﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة﴾ هذا خبر من الله، مؤكَّد بالقسم، للرسول بأنه يجدهم باختباره لهم أحرصَ الناس على حياة وإن سفلت وساءت. وقيل: على نوع منها، وهي الطويلة الممتعة. كذلك كانوا، وكذلك هم الآن، والظاهر من سيرتهم ونظام معيشتهم أنهم كذلك يكونون إلى ما شاء الله، وإن كان الظاهر أن الكلام خاص بمن كانوا في عصر التنزيل. بل قيل: إن المراد به علماؤهم فقط ﴿ومن الذين أشركوا﴾، أي: وأحرص عليها من المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة فضلاً عن سعادتها ﴿يود أحدهم لو يعمر ألف سنة﴾ بيان لحرصهم، أي: يتمنى أحدهم لو يعمره الله ويبقيه ألف سنة أو أكثر، فإن لفظ «الأَلْف» عند العرب منتهى أسماء العدد، فيعبر به عن المبالغة في الكثرة، لأنهم صاروا ماديين في الأكثر لا يهمهم أمر الآخرة ﴿وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر﴾ أي: وما تعميره الطويل بمزحزحه، أي: منحِّيه ومبعده عن العذاب المعدّ له ولأمثاله، فإنه ميت مهما يطل عمره، وكلُّ ما لَهُ حدٌّ فهو منته إليه ﴿والله بصير بما يعملون﴾ لا تخفى عليه خافية من أمرهم، ولو عرفوه حق معرفته لعلموا أن طول العمر لا يخرجهم من قبضته، ولا ينجّيهم من عقوبته، فإن المرجع إليه، والأمر كله بيده.

قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾

٩٧ ــ ثم لقن رسوله تفنيداً آخر لضرب من جهالتهم وهو: ﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نـزله على قلبك بإذن الله﴾ روي في الصحيح، والمسند، والسنن: أن اليهود قالوا للنبي ولبعض الصحابة، إن جبريل عدوّ اليهود من

الملائكة، وزاد بعضهم أنه ينزل بالعذاب وأن ميكائيل ينزل بالرزق والرحمة، وعدُّوا نزوله بالقرآن مانعاً من إيمانهم به. فأنزل الله على نبيه ﷺ، قل لهم أيها الرسول: من كان عدوّاً لجبريل فهو عدو لوحي الله الذي يشمل التوراة وغيرها، ولهداية الله تعالى لخلقه، وبشراه للمؤمنين، فإنه نزله ـ أي: القرآن ـ على قلبك بإذن الله وطاعة لأمره لا من تلقاء نفسه. فعداوته لا يصح أن تصدهم عن الإيمان بك، وليس للعاقل أن يتخذها تَعِلَّةً وينتحلها عذراً، نزله ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾، أي: حال كونه موافقاً للكتب التي تقدمته في التوحيد والوحي والبشارة به، ومنها التوراة، فآمنوا به لهذه المطابقة والموافقة لا لأن جبريل واسطة في تبليغه وتنزيله، وهذه حجة ثانية، عززها بقوله: ﴿وهدى﴾ أي: هادياً من الضلالات والبدع التي طرأت على الدين فأفسدت أهله، فبين لهم الحق من الباطل فيها ﴿وبشرى للمؤمنين﴾ به، بأن العاقبة لهم، وأنه سينصرهم على من يعاديهم، ويظهر دينهم على الدين كله. وفي «جبريل» لغات، قرىء بأربع منهن في المشهورات: «جبرئيل» كـ«سَلْسَبيل»، و«جبريل» بفتح الراء وحذف الهمزة و«جبرئل» كـ «جَحْمَرِش»، و «جبريل» كـ «قنديل»، وهي أخف وأشهر وهي قراءة الجمهور.

٩٨ ـ ﴿من كان عدواً لله﴾ بكفره بما ينزله من الهداية ﴿وملائكته﴾ برفض الحق والخير الذي فطروا عليه، وكراهة القيام بما يعهد به إليهم ربهم عز وجل ﴿ورسله﴾ بتكذيب بعض وقتل بعض، كما فعل اليهود، أو: الإيمان ببعض والكفر ببعض ﴿وجبريل وميكال﴾ بالتفرقة بينهما، كالتفرقة بين رسل البشر، فيعادي الأول لأنه ينزل بالآيات والنذر، ومن كان عدوّاً لجبريل فهو عدو لميكال، لأن فطرتهما واحدة وحقيقتهما واحدة، مَنْ مقتها وعاداها في أحدهما فقد عاداها في الآخر ﴿فإن الله عدو للكافرين﴾ المعادين له، ولمن ذكر من صفوة عباده، أي: يعاملهم معاملة الأعداء للأعداء. و«ميكال» بوزن «ميعاد»، وقرىء: «ميكائل» و«ميكائيل».

٩٩ ـ ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات﴾ في حقّيتها ودلالتها، يعجز كل أحد أن يأتي بخير منها أو مثلها، في هدايتها أو عبارتها، يؤمن كل عاقل عرفها ﴿وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾ الذين خرجوا من سلامة الفطرة ونور العقل، إلى

ظلماتِ العصبية وحب الرياسة والشهوات والتقليد، فتركوا طلب الحق لذاته، وأَبَوْا قبوله من غيرهم، بدعواهم أنهم أولى به، أو: لاعتذارهم بأن فطرتهم ناقصة لا استعداد فيها لإدراكها على شدة ظهورها، كهؤلاء اليهود الذين يظنون أنهم فوق جميع البشر.

١٠٠ ــ ﴿أوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم﴾ همزة الاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف، أي: أكفروا بالآيات وقالوا ما قالوا، وكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم؟. «النبذ»: طرح الشيء وإلقاؤه، والمراد بالعهود هنا عهودهم للنبي ﷺ: ألا يظاهروا عليه المشركين، كما فعل بنو قريظة وغيرهم، واعتذروا بأنهم نسوا العهد، وسيأتي في سورة «الأنفال» ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ بكتابهم إيمان يقين وإذعان عملي، فيوفوا بالعهد كما أمرهم، بل دينهم عصبية نسبية وتقليد، فهم لا أيمان لهم، أي: لا عهود لهم، لأنه لا إيمان لهم.

وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

١٠١ ـ ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم﴾ تقدم معناه في تفسير الآتين «٤١ و ٨٩» ﴿نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب﴾ وهم الذين أنكروا البشارة به وحرفوها، والمراد به علماؤهم ﴿كتاب الله﴾ الذي يفاخرون به ويحتجون بأنهم اكتفوا بهدايته وبه، فلا حاجة لهم بسواه ﴿وراء ظهورهم﴾ مَثَلٌ لمن يهمل الشيء، كأنه لا يحتاج إليه فينساه ﴿كأنهم لا يعلمون﴾، أي: نبذوه نبذ من لا يعلم أنه كتاب الله، فهم لا يعملون إلا بتقاليدهم، أو كأنهم لا يعلمون ما فيه من البشارة بهذا الرسول ووجوب اتباعه.

١٠٢ ـ ﴿واتبعوا ما تتلو الشياطين﴾ من الإنس في قصصها وأساطيرها، أو: من الجن في وسوستها، أو منهما جميعاً ﴿على ملك سليمان﴾، أي: على عهده وفي أيام ملكه، إذ زعموا أن مُلكه قام على أساس السحر والطلمسات، وأنه ارتد في آخر عمره وعبد الأصنام مرضاة لنسائه الوثنيات ﴿وما كفر سليمان﴾ ولا انتحل السحر ﴿ولكن﴾ قرئت بتشديد النون وبتخفيفها، و ﴿الشياطين﴾ بنصبها ورفعها، وهم الذين يسندون إليه ما انتحلوه من السحر، وما تلبسوا به من الكفر، ﴿كفروا يعلمون الناس السحر﴾ ليفتنوا به العامة، ويضلوهم عن طلب المنافع ودفع المضار، من أسبابها الظاهرة ومناهجها المشروعة.

زعم اليهود أن سليمان سُحر ودُفن السحرُ تحت كرسيه، وأنه أضاع خاتمه الذي كان به ملكه، فوقع في يد آخر وجلس مجلسه للحكم، إلى آخر ما خلطوا فيه التاريخ بالدجل. وروي عنهم: أن سليمان هو الذي جمع كتب السحر من الناس، ودفنها تحت كرسيه، ثم استخرجها الناس وتناقلوها، وقد اتبع دجاجلة المسلمين دجاجلة اليهود في هذا، فانتحلوا استخدام الشياطين بالعزائم والطلسمات، يَعُدُّون أساسها مايسمونه: خاتم سليمان، وهو الشكل السداسي الزوايا الذي يرسمونه لذلك.

وإنما السحر صناعة تؤخذ بالتعليم والتمرين، لا من خوارق العادات، فمنه: الشعوذة الخادعة للأبصار، ومنه: التأثير بخواص الأشياء الخفية عن الجمهور، ومنه: تأثير التوجه النفسي كالتنويم المغناطيسي ﴿وما أنزل على الملكين ببابل﴾، أي: ويعلمونهم ما يدَّعون أنه أنزل على المَلكين في مدينة بابل

القديمة على ضفتي الفرات، التي كانت أعظم مدائن العالم كما وصفها هيرودتس[1] ـ شيخ المؤرخين ـ وغيره، باتساعها وعلومها وفنونها، ومنها السحر والفلك، وكان اليهود يروون قصة غريبة عن ملكين كانا فيها يسمونهما ﴿هاروت وماروت﴾ زعموا أنهما كانا من الملائكة فمسخا رجلين فذكرهما هنا حكاية، وقيل: كانا من الملوك، وقد قرأ ابن عباس: «الملكِين» بكسر اللام، وقالوا عن علمهما: إنه أنزل عليهما، يعنون أنه إلهام لا تلقٍّ بالتعليم، وبنى للمجهول للإيهام، وفي ابن جرير أن الآية نافية للإنزال تكذيباً لليهود ﴿وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾، أي: وما كانا يعلمان أحداً حتى يقولا له: إنما نحن ابتلاء واختبار للناس، نبين لهم ما هو كفر من أعمال السحر، فإياك أن تكفر، وهذه الحكاية عنهما للمحافظة على حسن اعتقاد الناس بفضلهما، إذ كانوا يقولون: هما ملكان. وإننا نسمع الدجاجلة الذين ينتحلون مثل هذا ويوهمون الناس أنهم روحانيون يقولون لمن يعلمونهم الكتابة للمحبة وللبغض: نوصيك بألّا تكتب هذا لجلب امرأة متزوجة إلى حب رجل غير زوجها، وألا تكتب لأحد الزوجين بأن يبغض الآخر، وبأن تخص هذه الفوائد بالمصلحة كالحب بين الزوجين المتباغضين، والتفريق بين العاشقين الفاسقين. وإنما يقولون هذا ليوهموا الناس أن علومهم إلهية، وأن صناعتهم روحانية، وأنهم صحيحو النية. وقد كان اليهود يسندون سحرهم إلى ملكين ببابل، ونرى دجاجلة المسلمين من المغاربة وغيرهم، يسندون خزعبلاتهم إلى «دانيال النبي»، وهذا المعنى يصح على القول بأن قوله تعالى: «وما أنزل» نفي، بحسب توجيهنا السابق، وقال البيضاوي: إن معناه على وجه النفي: إنما نحن مفتونون فلا تكن مثلنا ﴿فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾ صيغة المضارع في هذه الجملة وما قبلها لتصوير ما كان كأنه كائن، فالكلام تصوير للقصة، أو: تتمة لحكايتها، لا حكم بمضمونها، أي: إنهم كانوا يتعلمون منهما ما وضع لأجل التفريق بين الزوجين، وهو نحو ما يسميه الدجاجلة الآن: «كتاب البغضة» وليس في العبارة ما يدل على أن ما يتعلمونه لهذا الغرض هو مؤثر فيه بطبعه، أو بسبب خفي، أو بخارقة لا تعرف له علة، ولا أنه غير مؤثر، وليس فيها بيان

---

(١) هو: رحالة يوناني عاش ما بين عامي ٤٨٤ ـ ٤٢٥ قبل الميلاد.

لما يتعلمونه هل هو كتابة تمائم، أو تلاوة رقى وعزائم، أو أساليب سعاية، أو دسائس تنفير ونكاية، أو تأثير نفساني، أو وسواس شيطاني، وأيُّ شيء من ذلك ثبت علمًا كان تفصيلاً في الواقع لما أجمله القرآن من الحكاية. ولا يجوز لنا أن نتحكم بتفصيل ذلك برأينا، ثم قال بعد حكاية السحر عنهم: ﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾، أي: ليس لهم قوة غيبية وراء الأسباب التي ربط الله بها المسببات، يضرون بها أحداً من الناس، فإذا اتفق أن أصيب أحد بضرر من أعمالهم فإنما ذلك بإذن الله، أي: بسبب من الأسباب التي جرت العادة بأن تحصل بها أو عقبها المسببات، من ضر ونفع، ومنها الوهم، وهو أكثر ما يعزى إليه من التأثير، وهم لا ينفعون أحداً أيضاً بغير سبب، ولم ينف النفع عنهم كالضر لئلا يظن أنه من مقاصدهم، أو أنه مذموم مثله، وهذا الحكم التوحيدي هو المقصد الأول من مقاصد الدين، فالقرآن لا يترك بيانه عند الحاجة، بل عند كل مناسبة، وربما ترد في القرآن قصة مثل هذه القصة لأجل بيان الحق في مسألة اعتقادية كهذه المسألة، لأن إيراد الأحكام في سياق الوقائع أوقع في النفس؛ وأعصى على التأويل والتحريف ﴿ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم﴾، أي: ويتعلمون من منتحلي ذلك ما يضرهم في دينهم لأنه إفساد بين الناس بالخرافات ولا ينفعهم في دنياهم نفعاً حقيقياً له قيمة تذكر. وقد صدق قول الله تعالى، فإننا نرى منتحلي السحر، وما في معناه، أفقر الناس وأحقرهم، ولو عقل السفهاء الذين يختلفون إليهم، يلتمسون منهم المنافع لأنفسهم والإيقاع بأعدائهم، لعلموا أن الشقي في نفسه لا يمكن أن يهب السعادة لغيره ﴿ولقد علموا﴾، أي: ومن المؤكد بالقسم، أن متعلمي السحر قد علموا باختبارهم الحقيقة الآتية: ﴿لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق﴾ اللام في «لمن» للابتداء، و«علموا» معلَّقة عن العمل، أي: إنهم علموا أن من اختار السحر واتخذه بضاعة له بطلب الأشياء به، بدلاً من أسبابها، فليس له أدنى خَلاق، أي: نصيب من نعيم الآخرة، فهم قد اشتروا منافع السحر الدنيوي بالآخرة، وذلك أن التوراة قد حظرت تعليم السحر وجعلته كعبادة الأوثان، وشددت العقوبة على فاعله، وعلى أتباع الجن والشياطين والكهان ﴿وَلَبِئْسَ مَاشَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾، أي: ولبئس السحر شيئاً باعوا به أنفسهم، إذ

اشتروه بها وجعلوها ثمناً له، فخسروا بهذه الصفقة خير الدنيا والآخرة ﴿لو كانوا يعلمون﴾ ذلك علماً تفصيلياً، ويفقهون علة التحريم وسره، ويصدقون بما أوعد الله مرتكبه من العقوبة في الآخرة تصديقاً جازماً، ويتذكرونه وقت العمل، بما للعقيدة من السلطان على الإرادة، لما ارتكبوا ما ارتكبوه مع الإصرار عليه، ولكنهم فقدوا هذا النوع من العلم، فاستحلوا تلك المحرمات بالتأويل، وكذلك فعل الذين اتبعوا سننهم من المسلمين، ولم يعتبروا بهذه الآيات وأمثالها.

١٠٣ ـ ﴿ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير﴾، أي: ولو أنهم استبدلوا الإيمان بما جاء به النبي ﷺ بهذا السحر الخادع واتباع نزغات الشياطين، أو: لو آمنوا بكتابهم إيماناً حقيقياً، ومنه البشارة بالنبي، والأمرُ باتباعه، واتقوا ـ بالعمل به والمحافظة على حدوده ـ مغبةَ ما ينتظره المجرمون من العقوبة على العصيان، لكان ثواب الله لهم على الإيمان الصحيح، والعمل الصالح، خيراً لهم من جميع ما توهموه في المخالفة من المنافع ﴿لو كانوا يعلمون﴾ علماً صحيحاً لظهر أثره في أعمالهم، ولآمنوا بالنبي عليه السلام واتبعوه، فكانوا من المفلحين، ولكنهم مقلدون لا عالمون.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾

١٠٤ ـ ﴿يا أيها الذين آمنوا لاتقولوا: راعنا﴾، أي: لا تقولوا للنبي ﷺ راعنا، تريدون بالمراعاة المراقبة والإمهال، للفهم عنه، كما تقول اليهود له ذلك محرفين للكلمة إلى معنى الرعونة «لياً بألسنتهم وطعناً في الدين»، وسيأتي بيانه في تفسير الآية «٤٦» من سورة «النساء»﴿وقولوا انظرنا﴾ بدلاً من «راعنا»، أي: انتظرنا وأمهلنا حتى نعي ونحفظ عنك ما تلقيه علينا من الكتاب والحكمة ﴿وَاسْمَعُوا﴾ ما يقوله سماعَ تعقل وتدبر وطاعة، لا كاليهود الذين قالوا لنبيهم:

سمعنا وعصينا، كما تقدم في الآية «٩٣» ولنبيكم أيضاً كما يأتي في الآية «٤٦» من سورة «النساء»﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: ولهم هذا العذاب بكفرهم، فما يفعله اليهود من سوء الأدب في خطاب الرسول هو من آثار الكفر الذي يعذبون عليه العذاب المؤلم، فهو لا يصدر عن مؤمن.

١٠٥ ــ ﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم﴾، أي: ما يحب الذين كفروا من اليهود والنصارى، ولا من المشركين أن ينزل عليكم شيء من أنواع الخير من ربكم، وهو يشمل الوحي والنصر والرزق، لأن فيه من قوة الإسلام ورسوخه وانتشاره، ما خيب آمالهم في تربصهم الدوائر بالنبي ﷺ وانتهاء أمره ﴿والله يختص برحمته من يشاء﴾ وقد اختصكم بجعل خاتم النبيين ورحمته للعالمين منكم ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ فمشيئته تجري بمقتضى فضله، لا بأهواء هؤلاء الحاسدين والجاهلين، وقد أنزل عليه «وكان فضل الله عليك عظيمًا»، أسند كلًّا من اختصاص من شاء برحمته، ومن الفضل العظيم إلى اسم الذات الأعظم، لبيان أنهما حقه لذاته، فليس لأحد من عبيده أدنى تأثير في منحهما ولا في منعهما.

* مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾

١٠٦ ــ ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾ النسخ في اللغة: النقل والإزالة للشيء. والإنساء له: جعله منسياً أو تركه، وهو تفسيره بلازمه، وقرىء «أو ننسئها»، أي: نؤخرها. والآية رد على الذين طالبوه ﷺ بالإتيان بآية كونية كآيات موسى عليه السلام. والمعنى: ما ننسخ من آية مما نؤيد به رسلنا، أو ننسها عبادنا بطول عهدها، نأت في تأييد من بعده بخير منها أو مثلها في الدلالة على صدقه. والجمهور: على أن المراد بالنسخ إبطال بعض

الأحكام الشرعية المنزلة بغيرها[1]. ويؤيد الأول استفهام التقرير في قوله تعالى: ﴿ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير﴾، أي: ألم تعلم أيها المؤمن من الذي يتمنى أن يؤتى نبيه من الآيات الكونية مثل ما أُوتي موسى أن الله على كل شيء قدير، وأن اليهود جاحدون مكابرون؟ بلى.

١٠٧ ـ ثم في قوله: ﴿ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض﴾ وإذا كان هذا الملك العظيم لله وحده، فلا شك أنه لا يعجزه أن ينسخ ما شاء من آياته لرسله بمثلها، أو خير منها، كما آتى محمداً ﷺ ما هو خير مما آتى موسى وعيسى؟ بلى. ثم التفت إلى خطاب الأمة بقوله: ﴿وما لكم من دون الله من وليّ ولا نصير﴾، أي: أن وليكم وناصركم هو الله تعالى وحده، فلا تبالوا بمن يقترح على رسولكم الآيات تشكيكاً لكم، ولا ينبغي أن يستهويكم إمكارهم، فيميلكم عن دينكم، فإنه لا قيمة له ولا للمنكرين، إذ ليس في استطاعتهم أن يضروكم أو ينفعوكم، إذا كان الله هو مولاكم وناصركم، ولو كان المراد نسخ الأحكام، لأيده بصفتي العلم والحكمة، بدلاً من القدرة والملك، ويؤيد الأول أيضاً قوله:

أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾

---

(١) قوله: «والجمهور على أن المراد بالنسخ إبطال بعض الأحكام الشرعية المنزلة بغيرها»، هذا هو القول الصحيح، وما ذهب إليه المؤلف في تفسير هذه الآية ليس بقوي. بل هو مردود، فإن هذه الآية هي الدليل الأساس على حصول النسخ في الأحكام الذي لم ينكره سوى اليهود ومَنْ طمس الله على قلبه من هذه الأمة.

١٠٨ ــ ﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل﴾، أي: بل أتريدون أن تسألوا رسولكم كما سأل موسى قومه تبرماً وإعناتاً؟ إذ قالوا له بعد أن رأوا الآيات الكثيرة: «لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة» ﴿ومن يتبدل الكفر بالأيمان فقد ضل سواء السبيل﴾، أي: إن ترك الآيات الموجودة، والإعراض عنها لإعنات النبي ﷺ بسؤال غيرها، لِتكونَ بدلاً منها، هو من اختيار الكفر على الإيمان، والضلالِ عن وسط الطريق المستقيم إلى طرفي التفريط أو الإفراط. وبَدَّلَ وتبدَّل واستبدل، يدل على جعل شيء في موضع آخر بدلاً منه، والباء تقرن بالمبدل منه لا بالبدل، كما تقدم في الآية «٦١».

١٠٩ ــ ويؤيده أيضاً:[1]: ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً﴾، أي: يتمنى كثير من أهل الكتاب الذين أكل قلوبهم الحسد، لبعثة خاتم النبيين منكم: أن يردوكم ــ بما يلقون لكم من الشبهات واقتراح الآيات ــ كفاراً ﴿حسداً من عند أنفسهم﴾، أي: لا عن شبهة دينية، أو غيرة على حق يعتقدونه، بل حسداً من خبث النفوس، وفساد الأخلاق، والجمود على الباطل ﴿من بعد ما تبين لهم الحق﴾، أي: ظهر أكمل الظهور بالآيات التي جاء بها النبي ﷺ، وبانطباق ما يحفظون من بشارات التوراة وغيرها من كتبهم، بنبي آخر الزمان عليه ﴿فاعفوا واصفحوا﴾ عنهم، وعاملوا جميع الناس بعفو القادر على العقاب وصفحه، كما هو مقتضى فضل دينكم ﴿حتى يأتي الله بأمره﴾ فيهم بما تقوم به الحجة عليهم، وهو نقضهم الصريح للعهد والميثاق، وبدؤهم إياكم بالقتال، ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ فهو يؤيدكم بنصره على كل من يبغي عليكم.

١١٠ ــ ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾، أي: أدوا الصلاة في أوقاتها عل أكمل وجوهها، وأعطوا الزكاة لمستحقيها، فإن هاتين الفريضتين أعظم أسباب النصر، فالأولى القوة الروحية الممدة للقوى المعنوية، والثانية عليها مدار

---

(١) قوله: «ويؤيده أيضاً» أي: يؤيد ما ذهب إليه، من أن النسخ الوارد في الآية «١٠٦» لا يعني نسخ الأحكام. خلافاً لما عليه الجمهور، فهذه الآية هي دليلهم على حصول النسخ، وهو الصحيح كما بينا في تعليقنا على الآية المذكورة ص ٨٧.

القوى المادية، وهما أعظم المعدات لسعادة الآخرة أيضاً، ولذلك قال: ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير﴾ قَلَّ أو كثر، لتدخروه لها في الآخرة ﴿تجدوه عند الله﴾، أي: تجدوا جزاءه عنده في دار كرامته، فجعل الجزاء عين العمل، فقوله تعالى: «تجدوه» كقوله: «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره»، ووصل الوعد بالجزاء على العمل بما يبعث المؤمن على الإحسان فيه، ويدل على تحققه، فقال: ﴿إن الله بما تعلمون بصير﴾ فلا يخفى عليه منه شيء، ولا ينقصكم من أجوركم شيئاً، هذا هو الحق في الجزاء، لا ما حكاه من أماني أهل الكتاب.

وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾

١١١ ـ فقوله: ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾، أي: قالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كاد هوداً، وهو جمع «هائد» من قولهم: «إنا هدنا إليك»، فسموا باسم الجمع «هوداً» وبالمضارع «يهود»، وأدخل عليه الألف واللام، فقيل: اليهود ويهود، وقالت النصارى كذلك في أنفسهم، وهو اختصار بديع. وهذه عقيدة الفريقين إلى اليوم ﴿تلك أمانيهم﴾ التي يتمنونها في أنفسهم، وما كل ما يتمنى المرء يدركه ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ قل لهم أيها الرسول هاتوا برهانكم على دعواكم إن كنتم صادقين فيها، فكل من يدعي ما لا برهان له يحكم بكذبه، فكيف إذا قام البرهان على كذبه، مثل هذه الدعوى التي هي افتراء على الله، بأنه يحابي بعض خلقه بألقابهم، ويظلم غيرهم ممن ليس لهم ذلك اللقب.

١١٢ ـ ﴿بلى﴾، أي: إنه يدخلها من لم يكن هوداً ولا نصارى، لأن رحمة الله ليست خاصة بشعب ولا بأصحاب لقب، وإنما مقتضى عدله وحكمته أن منحها لكل من يطلبها ويعمل لها عملها، فقال: ﴿من أسلم وجهه لله﴾ إسلامُ الوجه لله: هو توحيده بالتوجه إليه وحده، وتخصيصه بالعبادة دون سواه

﴿وهو محسن﴾، أي: وهو مع توحيده الخالص محسن في أعماله ﴿فله أجره عند ربه﴾ في الآخرة، وهو أن يدخله الجنة، فإن سبب دخولها الإيمان الصحيح والعمل الصالح ﴿ولا خوف عليهم﴾ مما يأتي فيها من العقاب، ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما فاتهم في هذه الدار، وتقدم مثله في الآية «٦٢».

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾

١١٣ ــ ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء﴾ حقيقي من الدين يُعْتَدُّ به، فالشيء في اللغة: هو الموجود المتحقق. والاعتقادات الخيالية التي لا تنطبق على موجود في الخارج لا تسمى شيئاً ﴿وقالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾ حقيقي من الدين يُعْتَدُّ به، روي أن يهود المدينة تنازعوا مع نصارى نجران عندما قدموا على النبي ﷺ فقال كل منهم ما ذُكِر، على أن كلا منهما يقول ذلك في كل وقت ﴿وهم يتلون الكتاب﴾، أي: يتلو كل منهم كتابه، فكتاب الأولين ــ التوراة ــ يبشر بالمسيح عيسى بن مريم رسولاً منهم، وقد ظهر ولم يؤمنوا به، فهم مخالفون لكتابهم، وكتاب الآخرين ــ الإنجيل ــ يقول بلسان المسيح: إنه جاء متممًا لناموس موسى لا ناقضاً له، وهم قد نقضوه كله، فدينهم واحد، ترك كل منهم بعضه، فلم يؤمن به كله أحد منهم، والكتاب الذي يتلونه حجة عليهم ﴿كذلك﴾، أي: مثل ذلك السخف ﴿قال الذين لا يعلمون مثل قولهم﴾ تعصب كل فريق لملته التي جعلها جنسية دنيوية، وزعم أنها هي المنجية لكل من وُسِمَ بها، ورضى باسمها ولقبها، والحق وراء جميع المزاعم، لا يتقيد بالأسماء ولا الألقاب، وإنما هو إيمان خالص وعمل صالح، ولو اهتدى الناس إلى هذا لما تفرقوا في الدين واختلفوا في أصوله، ولكنهم تعصبوا وتحزبوا لأهوائهم، فتفرقوا واختلفوا في آرائهم، ﴿فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيا كانوا فيه يختلفون﴾ فإنه هو العليم بما عليه كل فريق من حق

وباطل. وقاعدة حكمه بالعدل ما بينه آنفاً من الحق وعدم المحاباة بين الخلق، وتعارف الشعوب والقبائل وتآلفهم فيه، وقد بين شر أعمال أولئك المتعصبين بقوله:

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾

١١٤ ـ ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها﴾، أي: لا أحد أظلم للناس، مِنْ ظُلْم مَنْ منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه بالصلاة والدعاء والتسبيح، وسعى في خرابها الحسي بالهدم، أو المعنوي بالسيطرة على المصلين، وقد فعل هذا الوثنيون والمجوس كالبابليين، ثم اليهود والنصارى في أيام دولهم، وكذا القرامطة من ملاحدة المسلمين، ولا يزال بعض الإفرنج يفعلون مثله في بعض بلاد المسلمين، فقد هدموا بعض المساجد في المغرب، وأخذوا أوقافها ينفقون من ريعها على تنصير أهلها، ومنعوا منها العلم الديني، وجعلوها تحت المراقبة، وإنما الدين الذي احترم جميع المعابد التي يذكر فيها اسم الله فهو دين الإسلام[1]، وإن خلط أهلها الخاضعون

---

(١) قوله: «وإنما الدين الذي احترم جميع المعابد التي يذكر فيها اسم الله فهو دين الاسلام الخ» في قوله هذا أمور يجب التنبيه إليها:

أولها: أن الاسلام لا يحترم معابد الكفرة من أهل الذمة بمعنى أنه يعظمها بل يُقرُّها ويبقيها كما هي.

ثانيها: أن معابد هؤلاء لا يذكر فيها اسم الله، بل اسم ما يعبدون من دون الله.

ثالثها: أن الضمير في قوله تعالى: ﴿يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾ الذي استشهد به المؤلف يعود: إما على المساجد فقط التي هي أقرب المذكورات عملاً بالقاعدة النحوية، وإما هو عائد على الصوامع والبيع أيضاًولكن في زمن أنبيائهم عندما كانت مواضع عبادة صحيحة لله عز وجل، قبل أن يغيروا ويبدلوا، لذلك قال العلماء: إنه لا يجوز أن يقال في معابدهم بعد أن بَدَّلوا: إنها بيوت الله، ولا أن الله تعالى يُعبد فيها.

لحكمه الكفر بالإيمان، كما قال تعالى في تعليل الإذن بالقتال: «ولولا دفع الله الناس بعضَهم ببعض لُهدِّمت صوامع وبيع ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً»، وإنما صرح بعض الفقهاء المحققين، بوجوب هدم المساجد التي بنيت على القبور التي يُدْعَى أصحابها مع الله وينذر لها ويطاف بها، مع قولهم باحترام[1] معابد أهل الذمة، إبطالاً للشرك، ولتكون المساجد لله وحده كما أمر، واحتجوا بهدم النبي ﷺ لمسجد الضرار، فنحن مكلفون أن نقيم ديننا كما أنزله الله، ونمنع من مساجدنا البدع التي لم يأذن بها الله لتكون حجة لله على جميع عباده، أما أهل الكتاب فنقيم على أهل ذمتنا منهم الحجة باللسان، وأما المحاربون فنقيمها عليهم بالسيف والبرهان جميعاً ﴿أولئك ما كان لهم﴾ في حكم الله، وما يرضيه من العدل والإصلاح ﴿أن يدخلوها إلا خائفين﴾ مصلحين، فكيف يدخلونها مفسدين ومخربين؟ وما عساه يوجد في عبادات الأمم من الخرافات، والعبادة الممزوجة بنزعات الوثنية، فهو أهون من التعطيل القاضي بالجحود المطلق، لذلك توعد الله المعتدين الظالمين بقوله: ﴿لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ فأما خزي الدنيا فهو ما يعقبه الظلم من فساد العمران، وناهيك بظلم يحل القيود، ويهدم الحدود، ويغري الناس بالفواحش والمنكرات، ويسهل عليهم سبل الشرور والموبقات، وهو ظلم إبطال العبادة من المساجد، والسعي في خراب المعابد، فإذا وقع هذا الظلم، كان الحاكم الظالم مخذولا في حكمه، والفاتح المفسد غير أمين في فتحه، وإذا أردت تطبيق ذلك على مَنْ نسب إليهم هذا الظلم، فانظر ماذا حل بالرومانيين، وماذا كانت عاقبة المشركين، وبماذا انتهى عدوان الصليبيين، وكيف انقرض حزب القرامطة المجرمين، وإن عقاب الله ليحل بهؤلاء الإفرنج، والماليين البلاشفة المعطلين[2]، فالحروب بينهم تخرب من بلادهم أكثر مما خربوا من مساجدنا، وأما عذاب الآخرة فالله أعلم به ونحن بوعده ووعيده من المؤمنين.

---

(١) إن الاحترام المقصود هو كما تقدم في تعليقنا السابق يعني: الإبقاء عليها كما هي من غير زيادة.

(٢) قوله: «والماليين البلاشفة المعطلين»، يعني بهم الشيوعيين. وأمثالهم من الماديين النافين لوجود الله تعالى، والقائلين: بأن الحياة مادة.

وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

١١٥ ـ ثم بين وجهة الوحدة في العبادة بقوله: ﴿ولله المشرق والمغرب﴾ المراد بالمشرق والمغرب الأرض كلها، لأنهما ناحيتاها اللتان تعرف بهما مواقيت الصلاة ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ فَأَيْنما تُوجِّهوا وجوهكم في صلاتكم بأمر الله، فهناك وجه الله الذي توجه إليه القلوب، فلا توجد جهة لها مزية بذاتها؛ كما أنه لا بقعة في الأرض لها مزية تعبدية بذاتها، وإنما التعبد بتخصيص الله للأمكنة والأزمنة والجهات ﴿إن الله واسع﴾ لا يتحدد ولا يحصر، بل هو فوق كل شيء[٢] بائناً منه، لا ينحصر في جهة، بل يصح أن يتوجه إليه في كل مكان بأمره ﴿عليم﴾ بالمتوجه إليه أينما كان، أي: فاعبد الله حيثما كنت، وتوجه إليه أينما حللت، ولا تقيد نفسك، إلا بما قيدك به ربك.

ومن المعلوم أن أهل الكتاب يلتزمون في صلاتهم جهة معينة، كالتزام النصارى جهة المشرق، وأن استقبال المسلمين للكعبة يقتضي أن يصلي أهل كل قطر من كل جهة إليها، فهم يصلون إلى جميع الجهات متوجهين إليه عز وجل بأمره، وإنما هي عنوان الوحدة وجامعة الملة.

وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾

١١٦ ـ ﴿وقالوا اتخذ الله ولداً﴾ فإن اليهود قالت: عزير ابن الله، والنصارى قالت: المسيح ابن الله، والمشركين قالوا: إن الملائكة بنات الله. وما ذكر عن اليهود والمشركين قاله بعضهم ﴿سبحانه بل له ما في السماوات والأرض كل له قانتون﴾، أي: تنزيهاً له أن يكون له ولد، كما زعم هؤلاء

(٢) قوله: «بل هو فوق كل شيء بائناً منه»، أي: لا يحده زمان ولا يحويه مكان، ولا يقال: إنه في كل مكان لأنه تعالى ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾.

الجاهلون الظانون بالله غير الحق، فإنه لا جنس له، فيكون له ولد منه، بل جميع ما في السماوات والأرض ملك له، قانتون لعزته وجلاله، أي: خاضعون لعبادته مسَخرون لمشيئته، وإنما يكون الولد كالوالد لأنه شعبة منه، لا عبد قانت له.

١١٧ ـ ﴿بديع السماوات والأرض﴾ قال المفسرون: إن البديع بمعنى: المبدع، فهو مشتق من الرباعي «أبدَع» سماعاً، وقالوا: إن الإبداع ـ ومعناه: إيجاد الشيء بصورة مخترعة على غير مثال سبق ـ وهو لا يقتضي سبق المادة، وأما الخلق فمعناه: التقدير، وهو يقتضي شيئاً موجوداً يقع فيه التقدير، وإذا كان هو المبدعَ للسماوات والأرض، والمخترعَ لهما، والموجد لجميع ما فيهما، فكيف يصح أن يُنسب إليه شيء منهما أي أنه جنس له؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴿وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾، أي: إذا أراد إيجاد أمر وإحداثه فإنما يأمره أن يكون موجوداً، فيكون موجوداً، قيل: يخاطب المعدوم باعتبار وجوده في العلم[1]، وقيل: هذا ضرب من التمثيل، أي: أن تعلق إرادته تعالى بإيجاد الشيء يعقبه وجوده، كأمر يصدر فيعقبه الامتثال، فليس بعد الارادة إلا حصول المراد، ويسمونه أمر التكوين، ويقابله أمر التكليف، فالأول: متعلَّقه صفة الإرادة. والثاني: متعلَّقه صفة الكلام، وأمر التكليف يخاطَبُ به العاقل فيسمى: المكلَّف. وأمر التكوين يتوجه إلى المعدوم كما يتوجه إلى الموجود، إذ المراد به جعله موجوداً. قرأ الجمهور «فيكون» في كل موضع بضم النون على تقدير: فهو يكون كما أراد، وقرأه ابن عامر بفتحها في كل موضع إلا في «آل عمران»[2] و«الأنعام» بناء على أن جواب الأمر بالفاء يكون منصوباً.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ

---

(١) قوله: «باعتبار وجوده في العلم» أي: في علم الله تعالى، وهذه العبارة قد تحتمل معنى غير صحيح، لذلك ينبغي أن تكون العبارة كما يلي: «يخاطب المعدوم باعتبار أن وجوده مقدَّر في علم الله تعالى»، وبهذا نخرج من شبهة القول بقدم العالم نوعاً مع إيماننا بأن ما يقدره الله كائنٌ لا محالة.

(٢) قوله: «إلا في آل عمران والأنعام»، أي: في الآية «٤٧» من آل عمران والآية «٧٣» من الأنعام.

مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾

١١٨ ـ ﴿وقال الذين لا يعلمون﴾ وهم الجاهلون بالكتاب والشرائع من مشركي العرب ﴿لولا يكلمنا الله﴾، أي: هلَّا يكلمنا كما كلم هذا الرسول، وهو بشر مثلنا ﴿أو تأتينا آية﴾ من الآيات الكونية التي اقترحناها، يعنون ما حكاه الله تعالى عنهم بمثل قوله: «وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض يَنْبُوعاً»الآيات[1]﴿كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم﴾، أي: مثل هذا القول قال الكفار الذين أرسل الله إليهم الرسل من قبلهم في معناه، وهو أنهم أنكروا على الرسل الاختصاص بالوحي من دونهم، واقترحوا عليهم الآيات تعنتاً وعناداً ﴿تشابهت قلوبهم﴾ لأن الطغيان قد ساوى بينهم، كأن بعضهم أوصى به بعضاً كما قال في سورة «الطور» «أَتَوَاصَوا به؟ بل هم قوم طاغون» ﴿قد بينا الآيات﴾ العلمية العقلية بهذا القرآن، وهي أقوى وأدوم من الآيات الكونية ﴿لقوم يوقنون﴾ بما تدل عليه دلالة علمية، فيؤمنون به إيماناً صحيحاً دون المقلدين الذين لا يطلبون اليقين.

إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾

١١٩ ـ ﴿إنا أرسلناك بالحق﴾ بالعقائد الحق المطابقة للواقع، والشرائع الصحيحة الموصلة إلى سعادة الدنيا والآخرة، حال كونك ﴿بشيراً﴾ لمن يتبع هذا الحق بالسعادتين ﴿ونذيراً﴾ لمن لا يتبعه بشقاء الدنيا وخزي الآخرة ﴿ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾، أي: فلا يضرك تكذيب المذكبين الذين

(١) قوله: «الآيات» أي «٩٠ إلى ٩٣» من سورة «الإسراء».

يساقون بجحودهم إلى الجحيم، لأنك لم تبعث ملزماً لهم، ولا جباراً عليهم، فيعدَّ عدم إيمانهم تقصيراً منك تُسْأَل عنه.

١٢٠ ــ ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾ التي جعلوها جنسية سياسية وعصبية لمنافعهم وتقاليد كل منهم، فهم لا يقرونك على ما جئت به، وإن أقررتهم على ما هم عليه، بل يقاتلونك كلما استطاعوا، وهذا شأنهما الدائم مع أتباعه ﷺ، كما يدل عليه النفي بـ«لن» ﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾، أي: قل أيها الرسول إن الهدى الصحيح هو هدى الله، الذي أنزله على أنبيائه، دون ما أضافه اليه اليهود والنصارى بآرائهم وأَهوائهم، ففرقوا دينهم وكانوا شيعاً، كل شيعة تُكْفِرُ الأخرى، وتقول: إنها ليست على شيء ﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ لأجل استمالتهم أو اكتفاء شرهم فَرَضاً ﴿بعد الذي جاءك من العلم﴾ اليقين، بالوحي المبين، الذي بَيَّنَ ما كان منهم من تحريفهم الكلم عن مواضعه، ونسيانهم حظاً مما ذكِّروا به ﴿ما لك من الله من ولي ولا نصير﴾، أي: لا يسخِّر لك في هذه الحال أحـداً يتولاك أو ينصرك، بمجاراتهم على باطلهم، أو: فإنه تعالى لا يتولاك ولا ينصرك على ذلك، إذ لا يرضيه أن يكون اتباع الهوى طريقاً إلى الهدى، والمراد بهذا الإنذار أمته ﷺ، ليحذروا اتباع أهواء الفريقين، ولا يحاولوا إرضاءهم عبثاً.

١٢١ ــ ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ من الفريقين وهم ﴿يتلونه حق تلاوته﴾، أي: يفهمون أسراره ويفقهون حكمة تشريعه، وفائدة نوط التكليف به، وبشارته بك بدون تقليد ولا تقييد لأنفسهم بظواهر ألفاظه المترجمة المحرفة ﴿أولئك﴾ دون غيرهم من المحرفين له وأصحاب الأماني فيه ﴿يؤمنون به﴾، أي: بالكتاب، إيمانَ إذعان وعمل، أو: بالقرآن أنه الحق الذي يزيل ما بينهم من الخلاف ويهديهم إلى طريق السعادة في الدنيا والآخرة ﴿ومن يكفر به﴾ من الرؤساء المعاندين والمقلدين الجاهلين، وهم الأكثرون ﴿فأولئك هم الخاسرون﴾ لهذه السعادة، المحرومون مما يكون للمؤمنين من ربح المجد والسيادة.

زعم بعض الإفرنج: أن القرآن أطلق في السور المكية القول بإيمان أهل الكتاب، كقوله: «قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب»

وما جاء بهذا التفصيل إلا في المدينة، ويبطله قوله في تلك السورة وهي «الرعد»: «والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه»، أي: الذين اتخذوا الدين أحزاباً سياسية من ينكر بعضه، وهو ما يخالف مذاهبهم، على أنه لم يطلق قوله: «الذين آتيناهم الكتاب» إلا على هؤلاء العلماء المنصفين الذين يتلونه حق تلاوته.

يَـٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

١٢٢ ـ ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعملت عليكم وأني فضلتكم على العالمين﴾ سبق مثلها وكذا التي بعدها في الآيتين «٤٧ و٤٨» ثم أعيد للمناسبة الظاهرة، وهي أنه بعدما ذكر أن الإعراض عن تدبر الكتاب والتفقه فيه هو كفر به، ذكرهم بأنه لا يليق بمن كَرَّمَهُ رَبُّه وفضَّله على غيره من الشعوب، بإيتائه الكتاب، أن يكون حظُّه منه الكفرَ به.

١٢٣ ـ ﴿واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً﴾، أي: احذروا عقاب يومٍ هذه صفته، وهو يوم القيامة، أن تعتذروا عن الإعراض عن فهم كتاب الله، بأن بعض سلفكم كانوا يفهمونه ويتدبرونه، وأنكم استغنيتم بتدبرهم وفهمهم، فإنه يوم لا يغني فيه أحد عن أحد شيئاً ﴿ولا يقبل منها عدل﴾، أي: فداء إن استطاعت بذله ﴿ولا تنفعها شفاعة﴾ من أحد أنبيائهم إن فرض وقوعها ﴿ولا هم ينصرون﴾ من هاتين الجهتين ولا من غيرهما.

* وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾

١٢٤ ـ ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن﴾، أي: واذكر أيها

الرسول لأهل الكتاب ولقومك إذا امتحنه بكلمات من الأمر والنهي، تمحيصاً وإعداداً له لإمامة الناس في الأرض، فأتى بهن تامات لم يقصر في شيء، وقد نكرهن الله وأبهمهن تعظيمًا لشأنهن، ولعل أظهرهن مسألة ذبح ولده ﴿قال إني جاعلك للناس إماماً﴾ الجملة بيان للابتلاء، أو لثمرة إتمام الكلمات، وهو جعله إماماً متبعاً في الحق والخير، لجملة من عرفه من البشر ما بقوا، وكان أساس ذلك وجماعُهُ توحيده تعالى في ربوبيته وألوهيته. وقد عمت الناس الوثنية وأفسدت فطرتهم. وإقامته الحجة عليهم بالقول والفعل ﴿قال ومن ذريتي﴾، أي: قال إبراهيم واجعل من ذريتي أئمة للناس أيضاً. وهو إيجاز في الحكاية عنه لا يعهد مثله إلا في القرآن. ومثله في سورته[1]: «رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي»، فراعى سنة الله في اختلاف استعداد البشر للإمامة، فلا يكونون كلهم أئمة يقتدى بهم، ولا مصلين مخلصين لربهم ﴿قال لا ينال عهدي الظالمين﴾، أي: قال له ربه إنني أعطيك ما طلبت، وسأجعل من ذريتك أئمة للناس، ولكن عهدي بالإمامة لا ينال الظالمين لأنفسهم بالشرك بالله وبالظلم للناس، وبسوء القدوة في الأخلاق والأفعال.

وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾

١٢٥ ـ ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً﴾، أي: واذكر أيضاً «إذ جعلنا البيت الحرام مثابة للناس»، أي مرجعاً يثوبون إليه كلما فارقوه، «وأمنا»، أي: ذا أمن، بأن خلقنا بما لنا من القدرة في قلوب الناس من الميل إلى حجه، والرحلة إليه المرة بعد المرة، من كل فج وصوب، ما كان به مثابة لهم، ومن احترامه وتعظيمه وعدم سفك دم فيه ما كان به أمناً، ولفظ البيت من الأعلام الغالبة على بيت الله تعالى الحرام بمكة، كالنجم على الثريا. كان كل عربي يفهم

---

(١) قوله: «في سورته» أي: في سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

هذا من إطلاق الكلمة ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ قرىء: «واتخذوا» بفتح الخاء على أنه فعل ماض معطوف على «جعلنا»، وبكسرها على أنه أمر، أي: وقلنا اتخذوا، أو قائلين اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، فحذف القول للإيجاز.

ومقام إبراهيم: موضع قيامه في مكة لبناء المسجد، فهو يشمل المسجد الحرام كله، كما قال المحققون من الفقهاء. وصح في الحديث إطلاق هذا الاسم على المكان المعروف به الآن شرقي الكعبة، ولكن الله قال اتخذوا منه[1] ولم يقل اتخذوه مصلى، أي: محلاً للصلاة ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهّرا بيتي﴾ عهد إليه بالشيء: وصاه به، والمراد: أن اللّه كلفهما أن يطهرا ذلك المكان الذي نسبه اليه وسماه بيته، لأنه جعله معبداً يعبد فيه العبادةَ الصحيحة، فمزيته بتخصيص الله له لا بذاته. ولم يذكر ما يجب أن يطهراه منه، ليشمل جميع الرجس، الحسي والمعنوي، كالشرك والأصنام، واللغو والرفث والتنازع ﴿للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾، أي: طهراه لأجل الطائفين حوله، والعاكفين فيه للعبادة، والمقيمي الصلاة، وهم الركع السجود جمع «الراكع» و«الساجد»، والظاهر أن إبراهيم كان مأموراً هو ومن آمن به بهذه العبادات على الوجه المشروع عندنا في المناسك، وقد يخالفه في الصلاة كالعدد في الأفعال والذكر والدعاء والتلاوة في الأقوال.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًـا وَٱرْزُقْ أَهْـلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيـلًا ثُمَّ أَضْـطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّـارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾

١٢٦ ــ ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً﴾، أي: اجعل

---

(١) قوله: «ولكن الله قال الخ»، كان الأولى بالمؤلف أن يقف عند ما صح في الحديث، من أن مقام إبراهيم: هو الحجر ــ المعروف ــ الذي وقف عليه لبناء الكعبة، وهو الثابت في البخاري ومسلم وغيرهما، فلا مجال للرأي في مقابلة النص. وقوله: «شرقي الكعبة» هذا بالنسبة إلى وضعه الآن فهو على بعد عدة أمتار منها، وقد كان سابقاً ملاصقاً للكعبة، لأن إبراهيم عليه السلام كان يقف عليه لبنائها.

هذا المكان المجاور للبيت بلداً آمناً محفوظاً من الأعداء الذين يقصدونه بالسوء، وهو أعم من جعل البيت ذا أمن، أي: أن من دخله يكون فيه آمناً، كما في سورة «آل عمران» ﴿وارزق أهله من الثمرات﴾ جمع «ثمرة» وهي: ما تحمله الأشجار المثمرة، كالنخل والعنب والتين وغيرها ﴿من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾ بدل، أو بيان لأهله، خص المؤمنين بالدعاء، فأجابه الله الرحيم بعباده بقوله: ﴿قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار﴾، أي: وأرزق من كفر أيضاً، فأمتعه بهذا الرزق قليلاً، وهو مدة وجوده فيه، أو في الدنيا، ثم أسوقه إلى عذاب النار سوقاً اضطرارياً، إذ يكون أثراً طبيعياً لأعماله الاختيارية بحسب نظام الأسباب والمسببات، كما يفضي الإسراف في الشهوات أو التعب أو الراحة إلى بعض الأمراض في الدنيا، فالكفار والفساق مختارون في كفرهم وفسقهم، فعقابهم عليهما إنما هو عقاب على أعمال اختيارية ﴿وبئس المصير﴾ الذي يصير وينتهي إليه هو.

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

١٢٧ ـ ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾، أي: واذكر ذلك العهد الذي كان فيه إبراهيم يرفع القواعد من هذا البيت بأمر الله، وولده إسماعيل يساعده على رفعها، وأخرَّ ذكره عن عمله، لإفادة أن إبراهيم هو المأمور بذلك، و«القواعد» جمع «قاعدة»، وهي: ما يقعد ويقوم عليه البناء من الأساس، ورفْعُها: إعلاء البناء عليها، أو إعلاؤها نفسها على الخلاف، و«من البيت» للبيان، وعليه يكون البيت نفس البناء والجدران. ﴿ربنا تقبل منا﴾

الخ، أي: حال كونهما يقولان هذا عند رفعها، أي: يكرران هذا الدعاء، وتقبل الله العمل قبله، ورضى به ﴿إنك أنت السميع﴾ لأقوالنا ﴿العليم﴾ بأعمالنا وبنيتنا فيها.

١٢٨ ـ ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك﴾ المسلم من الإسلام، كالمسلِّم من التسليم والمستسلم، وهو المنقاد الخاضع، والمراد بالكلمة: ما يشمل التوحيد والإخلاص لله تعالى في الاعتقاد والعمل جميعاً﴿ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾[1]، أي: واجعل من ذريتنا أمة مسلمة لك كإسلامنا، ليستمر الإسلام لك بقوة الأمة وتعاون الجماعة ﴿وأرنا مناسكنا﴾، أي: علمنا إياها بالتفصيل، بحيث تكون كالرؤية البصرية في الوضوح، وهي جمع «منسك» بفتح السين في الأفصح من «النسك» ـ بضمتين ـ ومعناه: غاية العبادة، وغلب استعمال «النُّسك» في عبادة الحج خاصة، و«المناسك» في معالمه أو أعماله ﴿وتب علينا﴾، أي: وفقنا للتوبة لنتوب ونرجع إليك من كل حال أو عمل يشغلنا عنك. ويدل عليه قوله تعالى: «ثم تاب عليهم ليتوبوا»، أو المعنى: اقبل توبتنا، ومنه الحديث[2]: «ويتوب الله على من تاب»، و«تاب» ـ بالمثناة ـ كـ«ثاب» ـ بالمثلثة ـ معناه: رجع إلى الشيء، وعُدِّي بـ«على» لأن التوبة من الله تتضمن معنى الرحمة والعطف، كأن الرحمة الإلهية تتحول عن المذنب باقترافه أسباب العقوبة، فإذا تاب عادت إليه، وعَطَفَ ربه عليه ﴿إنك أنت التواب الرحيم﴾، أي: إنك أنت وحدك الكثير التوب على عبادك، وإن كثر تحولهم عن سبيلك، بتوفيقهم للتوبة وقبولها منهم: الرحيم بهم.

١٢٩ ـ ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم﴾، أي: من أنفسهم يعنيان ذريتهما المشتركة، وهي ذرية إسماعيل، وقد أجاب الله تعالى هذه الدعوة بخاتم

---

(١) قوله تعالى: «مسلمة لك» الآية فيه دلالة واضحة على أن «الإسلام» هو دين الله تعالى لم يَرْض للعباد ديناً سواه، وأنه دين كل الأنبياء والرسل أُرسلوا به جميعاً لا بغيره.

(٢) قوله: «ومنه الحديث»، هذا ختام الحديث، ونصه: «لو أن لابن آدم وادياً من ذهب أحب أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب، ويتوب الله على من تاب» رواه الشيخان.

النبيين والمرسلين ﷺ كما ورد في حديث أحمد(١): «أنا دعوة إبراهيم وبشارة عيسى» ﴿يتلو عليهم آياتك﴾، أي: آيات الوحي التي تنزلها عليه فتكون دليلاً على صدقه، ومشتملة على تفصيل آيات الله في خلقه، كبراهين التوحيد والتنزيه، ودلائل النبوة والبعث، وتلاوتها: قراءتها المرة بعد المرة، لترسخ في النفس، وتؤثر في القلب ﴿ويعلمهم الكتاب﴾ مصدر «كتب» يقال: «كتب، كتاباً، وكتابة». والمعنى: يخرجهم من الأمية إلى العلم بالكتابة ﴿والحكمة﴾ هي في كل شيء: معرفة سره وفائدته، والمراد بها أسرار الأحكام الدينية والشرائع والآداب ومقاصدها ﴿ويزكيهم﴾، أي: يطهر نفوسهم من العقائد الباطلة والأخلاق الذميمة، وينزع منها العادات الرديئة، ويعوّدها الأعمال الحسنة التي تطبع في النفوس ملكات الخير، ويبغض إليها الأعمال القبيحة التي تغريها بالشر ﴿إنك أنت العزيز﴾، أي: القوي الغالب على أمره، فلا يَعْجِزُ ولا يغلب على أمر ﴿الحكيم﴾ الذي يحكم الوضع، ويتقن العمل ويحسن الصنع.

وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾

١٣٠ ــ ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم﴾، أي: ديانته التي عرف بها واشتهر، وهي توحيد الربوبية وإخلاص العبودية للذي فطر السماوات والأرض، حنيفاً مائلاً عن جميع نزغات الشرك، أي: لا أحد يأباها ﴿إلا من سفه نفسه﴾، أي: امتهنها واستخف بها، فكيف ترغبون عنها وتنتحلون

(١) قوله: «كما ورد في حديث أحمد» أي: هذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده ورواه محمد بن عساكر في تاريخه وهو حديث صحيح، ورواه أيضاً أبو داود الطيالسي والديلمي بلفظ: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة أخي عيسى، ولما ولدتُ خرج من أمي نور أضاء ما بين المشرق والمغرب». راجع صحيح الجامع الصغير رقم (١٤٧٦).

لأنفسكم مللاً تخالفها ﴿ولقد اصطفيناه في الدنيا﴾ اخترناه واختصصناه بهذه الملة فجعلناه إماماً للناس، وجعلنا في ذريته الكتاب والنبوة ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ لجوار الله، بعمله بهذه الملة، ودعوته وإرشاده الناس بها.

١٣١ ـ ﴿إذ قال له ربه أسلم﴾، أي: إذ دعاه إلى الإسلام بما أراه من آياته، ونصب له من بيناته، فأجاب الدعوة و﴿قال أسلمت لرب العالمين﴾ وجهي، فلا أتوجه إلى غيره بعبادة مّا.

١٣٢ ـ ﴿ووصى بها﴾، أي: بالملة، أو الخصلة التي ذكرت أخيراً ﴿إبراهيم بنيه ويعقوب﴾ بنيه أيضاً، إذ قال كل منهما لولده: ﴿يا بني إن الله اصطفى لكم الدين﴾، أي: اختاره لكم بهدايتكم إليه، وجعل الوحي فيكم ﴿فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾، أي: فحافظوا على الإسلام لله والإخلاص في الانقياد إليه، بحيث لا تتركوا ذلك لحظة واحدة، لئلا تموتوا فيها، فتموتوا غير مسلمين، فإن الإنسان لا يضمن من حياته بين الشهيق والزفير، ويتضمن هذا النهي إرشاد من كان منحرفاً عن الإسلام إلى عدم اليأس، وأن يبادر بالرجوع إليه والاعتصام بحبله لئلا يموت على غيره.

أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

١٣٣ ـ ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي؟﴾ هذا إضراب وانتقال إلى استفهام اليهود عما هو حجة عليهم. ويجوز أن يكون معناه: أكنتم غائبين أم كنتم شهداء حاضرين، عندما احتضر جدكم يعقوب، فسأل بنيه عما يعبدون من بعده، ـ سؤال تقرير ـ ليشهدوه على أنفسهم بالتوحيد الخالص ﴿قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم

وإسماعيل وإسحاق﴾ عرفوا الإله بالإضافة إليه وإلى آبائه، لأنهم ورثوا توحيده عنهم. وذكروا إسماعيل فيهم للتغليب، أو لتشبيه العم بالأب ﴿إلهاً واحدًا﴾، أي: نعبده حال كونه الهاً واحداً، أو نخص بالعبادة إلهاً واحداً لا نشرك معه أحداً بدعاء، ولا توجه في قضاء حاجة، أو تقرب بنذر، ولا غير ذلك من العبادات ﴿ونحن له مسلمون﴾، أي: والحال أننا نحن منقادون مذعنون مستسلمون له وحده.

١٣٤ ــ ﴿تلك أمة﴾ الأمة هنا: الجماعة المتحدة فيما تَؤُمُّهُ، والمشار إليه يعقوب وآباؤه وأبناؤه ﴿قد خلت﴾ مضت وذهبت من هذا العالم ﴿لها ما كسبت﴾ من عمل تجزى به ﴿ولكم ما كسبتم﴾ من عمل تجزون به، ولا يجزى أحد بعمل غيره ﴿ولا تسألون﴾ يوم الحساب والجزاء ﴿عما كانوا يعملون﴾ في حياتهم ولا يسألون عما تعملون كذلك، بل كلٌّ يُسأل عن عمله، ويجزى به، دون عمل غيره، فلا ينتفع أحد بعمل غيره، ولا يتضرر به من حيث هو عمله لا من حيث الاقتداء به.

وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾

١٣٥ ــ ﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾ بيان لعقيدة الفريقين في التفرق في الدين، و«أو» للتوزيع أو التنويع، أي: إن اليهود يدعون إلى اليهودية التي هم عليها، ويحصرون الهداية فيها، والنصارى يدعون إلى النصرانية

التي هم عليها، ويحصرون الهداية فيها، ولو صدق أي واحد منهما لما كان إبراهيم مهتدياً، لأنه لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، وكيف وهم متفقون على كونه إمام الهدى والمهتدين ﴿قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾، أي: قل لهم أيها الرسول: لا يهودية ولا نصرانية، بل نتبع، أو اتبعوا ملة إبراهيم حال كونها الملة الحنيفية القائمة على الجادة، بلا انحراف ولا زيغ، العريقة في التوحيد والإخلاص، بلا وثنية ولا شرك، وإذن نَتَّفِقَ جمعياً على الإسلام.

١٣٦ ـ ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا﴾ وهو القرآن ﴿وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾، أي: أنبيائهم فالأسباط أولاد يعقوب وذريتهم، وهم اثنى عشر سبطاً كما تقدم، أي: لا تكن دعوتكم الى شيء خاص بكم يفصل بينكم وبين سائر أهل الشرائع[1] السماوية في العقيدة، بل انظروا الى جهة الجمع والاتفاق، وادعوا الى أصل الدين وروحه الذي لا خلاف فيه ولا نزاع، وهو ما أوحاه الله إلى جميع الأنبياء والمرسلين ﴿وما أوتي موسى وعيسى﴾ وهو التوراة والإنجيل ﴿وما أوتي النبيون من ربهم﴾ من وحي خاص بهم لم يكن تشريعاً يُكْتَبُ ويدعى إليه ﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾ أي: سواء منهم من له كتاب يؤثر، ومن ليس له ذلك، نؤمن بالجميع إجمالاً، ونأخذ التفصيل عن خاتمهم، الذي بَينَّ لنا أصل ملتهم التي كانوا عليها، وزادنا من الحكم والأحكام، ما يناسب هذا الزمان وما بعده من الأزمان، والعمدة في الدين على إسلام القلب لله تعالى ﴿ونحن له مسلمون﴾، أي: مذعنون منقادون لما أنزل عليهم دون ما ابتدع بعدهم.

١٣٧ ـ ﴿فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به﴾ من توحيد الله وتنزيهه وعدم التفريق بين رسله ﴿فقد اهتدوا﴾ ولم يكن لهم مندوحة عن الإيمان بالقرآن ومن أنزل عليه ﴿وإن تولوا﴾، أي: أعرضوا عما تدعوهم إليه، من الرجوع إلى

---

(١) قوله: «أهل الشرائع»، كانت في الأصل: «أهل الأديان»، وهذا غير صحيح لأنه ليس ثمة «أديان سماوية» بل دين سماوي واحد هو «الإسلام» كما قال تعالى: «إن الدين عند الله الإسلام» ولكن هناك «شرائع سماوية» كما قال تعالى: «لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً» وهذه الشرائع ينسخ بعضها بعضاً لأنها أحكام وتشريعات وكانت شريعة محمد ﷺ الناسخة لجميع ما سبقها من الشرائع السماوية.

أصل دين الأنبياء ولبابه، بإيمان كإيمانكم ﴿فإنما هم شقاق﴾، أي: إن أمرهم محصور في العداوة والمشاقة، أي: الإيذاء والإيقاع في المشقة، أو شق العصا بتحري الخلاف، والتعصب لما يفصلهم ويبينهم منكم ﴿فسيكفيكهم الله﴾، أي: يكفيك إيذاءهم ومكرهم السيء، ويؤيد دعوتك وينصر أمتك ﴿وهو السميع﴾ لما يقولون فيك ﴿العليم﴾ بما يكيدون لك.

١٣٨ ـ ﴿صبغة الله﴾، أي: صبغنا بما ذكر من ملة إبراهيم صبغة الله وفطرته التي فطرنا عليها، وهي: ما صبغ الله به أنبياءه ورسله والمؤمنين من عباده على سنة الفطرة، فلا دخل فيه للتقاليد الوضعية، ولا لآراء الرؤساء وأهواء الزعماء والصبغة في أصل اللغة: صيغة للهيئة، من صبغ الثوب إذا لونه بلون خاص ﴿ومن أحسن من الله صبغة﴾، أي: لا أحسن من صبغته، فهي جماع الخير الذي يؤلف بين الشعوب والقبائل، ويزكي النفوس ويطهر العقول والقلوب، وأما ما أضافه أهل الكتاب إلى الدين من آراء أحبارهم ورهبانهم فهو من الصنعة الإنسانية، والصبغة البشرية، قد جعلوا الدين الواحد مذاهب متفرقة مفرقة، والأمة الواحدة شيعاً متنافرة متمزقة ﴿ونحن له﴾ وحده ﴿عابدون﴾ فلا نتخذ أحبارنا وعلماءنا أرباباً يزيدون في ديننا وينقصون، ويحلون لنا بآرائهم ويحرمون، ويمحون من نفوسنا صبغة الله الموجبة للتوحيد، ويثبتون مكانها صبغة البشر المغرية بالشرك والتنديد، والعصبيات بمحض التقليد.

قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

١٣٩ ـ ﴿قل أتحاجوننا في الله﴾ بدعواكم الاختصاص بالقرب منه، وزعمكم أنكم أبناء الله وأحباؤه، وأنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً

أو نصارى، فمن أين جاءكم هذا القرب والاختصاص بالله دوننا ﴿وهو ربنا وربكم﴾ ورب العالمين، فنسبة الجميع إليه واحدة: هو الخالق وهم المخلوقون، وهو الرب وهم المربون، وإنما يتفاضلون بالأعمال البدنية والنفسيـة ﴿ولنا أعمالنا﴾ التي تختص آثارها بنـا، إن خيراً فخيـر وإن شراً فشـر ﴿ولكم أعمالكم﴾ كذلك؛ وروح الأعمال المشروعة كلها الإخلاص، فهو وحده الذي يجعلها مقرِّبةً لصاحبها من الله تعالى، ووسيلة لمرضاته ﴿ونحن له مخلصون﴾ من دونكم، فإنكم اتكلتم على أنسابكم وأحسابكم، واغتررتم بما كان من صلاح آبائكم وأجدادكم، واتخذتم لكم وسطاء وشفعاء تعتمدون على جاههم، مع انحرافكم عن صراطهم.

١٤٠ ـ ﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيـل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصرى﴾، أي: أتقولون إن هذا الامتياز لكم علينا هو من الله، والحال أنه ربنا وربكم إلـخ؟ أم تقولون إن امتياز اليهودية والنصرانية التي أنتم عليها، بأن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا عليها؟ إن كنتم تقولون هذا فإن الله يكذبكم فيه، وأنتم تعلمون أيضاً أن اسمي اليهودية والنصرانية حدثاً بعد هؤلاء، وقرىء[1]: «أم يقولون» بالالتفات ﴿قل أأنتم أعلم أم الله؟﴾، أي: إذا كان الله قد ارتضى للناس ملة إبراهيم باعترافكم وتصديق كتبكم، وذلك قبل وجود اليهوديّة والنصرانية، فلماذا لا ترضون أنتم تلك الملة لأنفسكم؟ أأنتم أعلم بالمرضي عند الله، أم الله أعلم بما يرضيه؟ لا شك أن الله يعلم وأنتم لا تعلمون؛ ﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾، أي: لا أحد أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله، كما تكتمون ما عندكم عن إبراهيم وبنيه، ومن شهادة كتبكم بوعده لهم ببعثة محمد ﷺ ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ مما تبدون من الباطل وتكتمون من الحق فهو يفضحكم به.

١٤١ ـ ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم﴾ وكل منكما يجزي بكسبه ﴿ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ وإنما تسألون عن أعمالكم وتجزون بها، فلا ينفعكم ولا يضركم سواها. وهذه قاعدة يثبتها كل عقل سليم.

---

(١) قوله: «وقرىء» يشير به المؤلف إلى القراءة الصحيحة لا الشاذة.

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾

كان أنبياء بني إسرائيل يصلون إلى صخرة بيت المقدس، وقد صلى النبي والمسلمون إليها زمناً، وكان النبي ﷺ يتشوق لاستقبال الكعبة، ويتمنى لو حول الله القبلة إليها، بل كان يجمع بين استقبالها واستقبال الصخرة في مكة، فيصلي في جهة الجنوب مستقبلاً للشمال، فلما هاجر منها إلى المدينة تعذر هذا الجمع، فتوجه إلى الله تعالى بجعل الكعبة هي القبلة، فأمره الله بذلك بعد ستة عشر شهراً كانوا يصلون فيها إلى الصخرة، وقد ابتدأ الكلام في هذه المسألة ببيان ما يقع من اعتراض اليهود على التحويل، وأخبار الله نبيه والمؤمنين به قبل وقوعه، وتلقينهم الحجة البالغة عليه، والحكمة السديدة فيه، قال تعالى:

١٤٢ ــ ﴿سيقول السفهاء من الناس: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟﴾ السفه والسفاهة: الاضطراب في الرأي والفكر، أو الأخلاق. قال البيضاوي في تفسير السفهاء: هم الذين خفت أحلامهم، واستمهنوها بالتقليد والإعراض عن النظر، يريد المنكرين لتغيير القبلة من المنافقين واليهود والمشركين. وفائدة تقديم الإخبار، توطين النفس وإعداد الجواب له، وولّاه عن الشيء: صرفه عنه، والاستفهام للإنكار والتعجب. والمعنى: سيقول سفهاء الأحلام السخفاء: أيُّ شيء جرى لهؤلاء المسلمين فحولهم وصرفهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، وهي قبلة النبيين من قبلهم؟ ﴿قل: لله المشرق والمغرب﴾، أي: قل أيها الرسول لهم، إن المشرق والمغرب وسائر الجهات كلها لله تعالى لا فضل لجهة منها بذاتها على جهة، وإن لله أن يخصص منها ما شاء فيجعله قبلة

لمن شاء ﴿يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ وهو صراط الاتباع لوحي الله في عبادته، والاعتدال في الأفكار والأخلاق والأعمال في هدايته.

١٤٣ ـ ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾، أي: وعلى هذا النحو من الهداية جعلناكم أمة وسطاً. قالوا: إن الوسط هو العدل والخيار، وذلك لأن الزيادة على المطلوب في الأمر إفراط، والنقص عنه تفريط وتقصير، وكل منهما ميل عن الجادة القويمة، فهو شر ومذموم، فالخيار هو الوسط بين طرفي الأمر وصاحبه يرى أحدهما من جانب، وثانيهما من الجانب الآخر.

وكان الناس قبل ظهور الإسلام قسمين:

قسم تقضي عليه تقاليده بالمادية المحضة، فلا همَّ له إلا الحظوظ الجسدية كاليهود والمشركين.

وقسم تحكم عليه تقاليده بالروحانية الخالصة وترك الدنيا وما فيها من اللذات الجسمانية، كالنصارى والصابئين وطوائف من وثنيِّـي الهند أصحاب الرياضات النفسية، وأما الأمة الإسلامية فقد جمع الله لها في دينها بين الحقين، حقِّ الروح وحق الجسد، فهي روحانية جثمانية استكملت جميع حقوق الإنسانية، فإن الإنسان جسم وروح، حيوان[1] وملك. فكأنه قال: جعلناكم أمة وسطا تعرفون الحقين، وتبلغون الكمالين ﴿لتكونوا شهداء﴾ بالحق ﴿على الناس﴾ الجسمانيين: بما فرطوا في جنب الدين، والروحانيين: إذ أفرطوا وكانوا من الغالين ﴿ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ لأنه هو المثال الأكمل لمرتبة الوسط. وإنما تكون هذه الأمة وسطاً باتباعها له في سيرته وشريعته، وهو القاضي بين الناس فيمن اتبع سنته ومن ابتدع لنفسه تقاليد أخرى أو حذا حذو المبتدعين. فكما تشهد هذه الأمة على الناس بسيرتها وارتقائها الجسدي والروحي بأنهم قد ضلوا عن القصد، يشهد لها الرسول بما وافقت فيه سنته، وما كان لها من الأسوة الحسنة فيه، بأنها استقامت على صراط الهداية المستقيم ﴿وما جعلنا

---

(١) قوله: «حيوان وملك»، أي: فيه شهوات وميول كسائر الحيوان، واستعداد للكمال بما وهبه الله من عقل.

القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه﴾، أي: وما جعلنا القبلة فيما مضى هي الجهة التي كنت عليها إلى اليوم، ثم أمرناك بالتحول عنها إلى الكعبة، إلا ليكون علمنا الغيبي بحقيقة أمرهما ومآلهما علم شهادة بوقوع متعلَّقة، وهو الذي يترتب عليه الجزاء. أي: إن الله تعالى يختبر المؤمنين بما يظهر به صدق الصادقين، وريب المرتابين، وعاقبة المنافقين، ليرتب عليه الجزاء ﴿وإن كانت لكبيـرة﴾، أي: وإن القبلة أو قصتها في نسخها، والتحول عنها، لكبيرة الشأن، شديدة الوقع فيما كان من أمر الناس، أو: ما كانت إلا كبيرة يشق التحول عنها ﴿إلا عَلَىَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾، أي: هداهم إلى المعرفة به والعلم بحكم شرعه، فعقلوا أن التعبد بها إنما يكون بطاعة الله بها، لا بسر في ذاتها أو مكانها، وإن حكمتها اجتماع الأمة عليها، الذي هو من أسباب وحدتهم وجمع كلمتهم ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ الباعث لكم على اتباع الرسول في الصلاة والقبلة، فلو كان نسخ القبلة مما يضيع الإيمان، بنقضه أو نقصه، أو فوت ثواب ما كان قبله، لما نسخها. روى أحمد والترمذي وغيرهما أن بعض المسلمين تساءلوا عما كان من الصلاة إلى بيت المقدس فكانت هذه الجملة جواباً لهم ﴿إن الله بالناس لرؤوف﴾ قرىء بالمد والقصر ﴿رحيم﴾ الجملة استئناف، لبيان علة النفي فيما قبلها. والتحقيق أن معنى الرأفة أو متعلَّقها: الرفق بالضعيف، كالطفل واليتيم والمبتَلى، والعناية بهم، وأما متعلَّق الرحمة فهو أعم، يشمل الإحسان العام والخاص.

قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾

١٤٤ ـ ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾أيها الرسول ـ وهو تردده المرة بعد المرة فيها ـ انتظاراً لما ترجوه من نزول الأمر بتحويل القبلة عن بيت المقدس ﴿فلنولينك قبلة ترضاها﴾، أي: فلنجعلنك متولياً قبلة تحبها وترضاها ﴿فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام﴾ توليةُ الوجهِ المكانَ أو الشيءَ هي: جعله قبالته وأمامه. والتولي عنه: جعله وراءه. والشطر في الأصل: القسم المنفصل من الشيء. تقول: جعله شطرين، ومنه شطر البيت من الشعر، وهو المصراع منه، ويطلق على النحو والجهة، وهو المراد هنا.

فالواجب استقبال جهة الكعبة في حال البعد عنها وعدم رؤيتها، ولا يجب استقبال عينها إلا على من يراها بعينه، أو يلمسها بيده أو بدنه ﴿وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾، أي: وفي أيِّ مكان كنتم أيها المؤمنون فاستقبلوا جهته بوجوهكم في صلاتكم. وهذا يقتضي أن يصلي المسلمون في بقاع الأرض إلى جميع الجهات لا كالنصارى الذين يلتزمون جهة المشرق، ويقتضي أن يعرفوا موقع البيت الحرام وجهته حيثما كانوا، ولذلك وضعوا علم سمت القبلة وتقويم البلدان ـ الجغرافية الفلكية الأرضية ـ ﴿وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنهم الحق من ربهم﴾، أي: أن تولي المسجد الحرام هو الحق المنزل من الله على نبيه، أو: يعلمون أن أمر القبلة كغيرها من أمور الدين، هو ما جاء به الوحي عن الله تعالى، وأنه الحق لا محيص عنه، ﴿وما الله بغافل عما يعملون﴾ فهو المطلع على الظواهر والضمائر، الحسيب على ما في السرائر، الرقيب على الأعمال، وعليه الحساب والجزاء، وقرىء: «تعملون» بالتاء للخطاب.

١٤٥ ـ ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك﴾، أي: وتالله لئن جئتهم بكل آية على نبوتك، وكل حجة على صدقك، ما تبعوا قبلتك، فضلاً عن ملتك، فلا يحزنك قولهم ولا إعراضهم، ولا تحسبن الآيات والدلائل مقنعة أو صارفة لهم عن عنادهم، فهم قوم مقلدون لا نظر لهم ولا استدلال ﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾ بالأَوْلى، فإنك الآن على قبلة إبراهيم الذي يجلّونه جميعاً، ولا يختلف في حقية ملته أحد منهم، فهي الأجدر بالاجتماع عليها ﴿وما بعضهم بتابع قبلة بعض﴾ لأن كلاً منهم قد جمد بالتقليد

على ما هو عليه ﴿ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين﴾ أي: ولئن فرض أن تتبع ما يهوونه من الصلاة إلى قبلتهم ــ أو غير ذلك ــ اجتهاداً منك تقصد به استمالتهم إلى دينك، من بعد ما جاءك الحق اليقين بالنص المانع من الاجتهاد، والعلم الذي لا مجال معه للظن، إنك إذ تفعل هذا فرضاً ــ وما أنت بفاعله ــ تكون من زمرة الظالمين ــ وحاشاك ــ، أفرده بالخطاب مع أن المراد به أمته، ليتنبه الغافل، ويعلم المؤمنون أن اتباع أهواء الناس ولو لغرض صحيح هو من شأن الظالمين لأنفسهم وللناس، مهما يكن فاعله عظيماً.

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾

١٤٦ ــ ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾، أي: يعرفون النبي ﷺ بما في كتبهم من البشارة به كما يعرفون أبناءهم الذين يتولون تربيتهم وحياطتهم، قال عبد الله بن سلام، رضي الله عنه، وكان من علماء اليهود وأحبارهم: أنا أعلم به مني بابني، لأني لست أشك في محمد أنه نبي، فأما ولدى فلعل والدته خانت ﴿وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾، أي: إن بعضهم ليكتمون الحق والحال أنهم يعلمون أنه الحق، ويدخل فيه أمر القبلة، وليسوا كلهم كذلك، فإن منهم من اعترف بالحق وآمن واهتدى به، ومنهم من كان يجحده عن جهل، ولو علم به لجاز أن يقبله، وهَذا من دقة حكم القرآن على الأمم بالعدل.

١٤٧ ــ ﴿الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾ الامتراء: الشك والتردد، وإنما يعرض لمن لا يعرفون الحق. والمعنى: أن هذا الذي أنت عليه أيها الرسول هو الحق، أو أن جنس الحق في الدين هو الوحي من عند ربك

المعتني بشأنك، فلا تكونن من فريق الممترين. والنهي في هذه الآية كالوعيد في الآية السابقة وجه الخطاب به إلى النبي ﷺ والمراد أمته، من كان منهم غير راسخ في الإيمان.

١٤٨ ـ ﴿ولكل وجهة هو مولّيها﴾ وقرىء «مولّاها» أي: لكل أمة من الأمم وجهة توليها في صلاتها، فلم تكن جهة من الجهات قبلةً في كل ملة بحيث تعد ركناً ثابتاً في الدين، كتوحيد الله تعالى والإيمان بالبعث والجزاء، فهي من مميزات الملل ومشخصاتها ﴿فاستبقوا الخيرات﴾، أي: ابتدروا كل نوع من أنواع الخير بالعمل، وليحرص كل منكم على سبق غيره إليها. وهذا الأمر عام موجه إلى أمة الدعوة[1]، لا خاص بالمؤمنين ﴿أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً﴾، أي: ففي أيِّ جهة، وأي مكان تقيمون، فالله تعالى يأتي بكم ويجمعكم ليوم الحساب، إذ البلاد والجهات لا شأن لها في أمر الدين لذاتها ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ فلا يعجزه الإتيان بالناس وجمعهم على بعد المسافات بينهم، فالتصريح بالقدرة تذكير بالدليل على الدعوى.

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

١٤٩ ـ ﴿ومن حيث خرجت فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام﴾،

---

(١) قوله: «إلى أمة الدعوة»، وهم كل العالمين، لأنه ﷺ مرسل إليهم جميعاً في كل زمان ومكان، وقد دعاهم جميعاً إلى الإيمان بما جاءهم به ولا تزال دعوته قائمة وستظل إلى يوم القيامة، أما أمة الاجابة فهم أمته ﷺ الذين أسلموا واهتدوا، وهؤلاء هم المعنيون بقوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾.

أي: ومن أيِّ بقعة حللت، فول وجهك في صلاتك شطر المسجد الحرام، فهو حكم عام في كل زمان ومكان، لا يختص ببلاد دون أخرى ولا بحضر دون سفر. وقد كان الأمر بالتحويل نزل على النبي ﷺ وهو في الصلاة، فأعلمه ــ بصيغة الأمر ــ أنه ليس خاصاً بتلك الصلاة، ولا بذلك المكان ﴿وإنه للحق من ربك﴾، أي: وإن توليتك إياه لهو الحق المحكم بوحي ربك، فلا ينسخ ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾، أي: إنكم أيها المخاطبون باتِّباع النبي في كل ما يجيء به من أمر الدين، تحت نظر الحق دائمًا، فهو لا يغفل عن أعمالكم. وفي الكلام التفات عن خطاب النبي ﷺ إلى خطاب جميع المكلفين، بما فيه من التعريض والتهديد للمنافقين.

وقرىء: «يعملون» بالتحتية، يعني المجادلين في القبلة، يقول تعالى لنبيه ﷺ: لا يحزنك أمرهم فإن الله تعالى هو الذي يتولى جزاءهم، وما هو بغافل عن فسادهم وفتنتهم.

١٥٠ ــ ﴿ومن حيث خرجت فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ ابتدأ هذه الآية بصيغة الأمر الواردة في الآية قبلها، وقرن بها صيغة الأمر السابقة، وجمع فيها بين خطاب النبي وخطاب الأمة، ليرتب على ذلك التعليل وبيان حِكَمِهِ، وهي ثلاث:

الأولى: قوله ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾ فإن أهل الكتاب كانوا يعلمون أن النبي الذي يبعث من ولد إسماعيل، يكون على قبلته وهي الكعبة، فجعل بيت المقدس قبلةً دائمة له حجة على أنه ليس هو النبي المبشر به، وإن المشركين يرون أن نبياً من ولد إبراهيم جاء لإحياء ملته، لا ينبغي له أن يستقبل غير بيت ربه الذي بناه وكان يصلي هو وإسماعيل إليه، فَدَحِضَتْ حجة الفريقين، وكُبِتَ المنافقون مِنْ ورائهم ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾، أي: لكن الذين ظلموا منهم يظلون يلغطون بالاحتجاج جهلاً أو عناداً للإضلال، كقول اليهود: رجع إلى قبلة قومه لإرضائهم وسيرجع إلى دينهم، وقولهم: رجع إلى قبلتنا وسيرجع إلى ديننا، وقول المنافقين: إنه مضطرب متردد لا يثبت على قبلة.

ولا قيمة لما يقول هؤلاء الظالمون فإنهم هم السفهاء كما وصفوا في الآية

الأولى: ﴿فلا تخشوهم﴾ إذ لا مرجع لكلامهم من الحق، ولا تمكُّن له في النفس، لأنه لا يستند إلى برهان عقلي، ولا إلى هدي سماوي ﴿واخشوني﴾ أنا، فلا تعصوني بمخالفة ما جاءكم به رسولي عني، فإنني القدير على نصركم في الدنيا، وجزائكم في الآخرة.

الحكمة الثانية قوله: ﴿ولأتم نعمتي عليكم﴾ باستقلال قبلتكم في بيت ربكم الذي بناه جدكم، وجعل الأمم فيها تبعاً لكم، وهو من إكمال دينكم، وبيانه: أن النبي عربي من ولد إبراهيم، وبلسان العرب نزل عليه الكتاب، وهم قومه الذين بعث فيهم أولاً، وظهرت دعوته فيهم وامتدت منهم وبهم إلى سائر الأمم، فأتم الله عليهم النعمة بتوجيه جميع شعوب الإسلام إلى بلادهم إلى نهاية العالم.

الحكمة الثالثة: ﴿ولعلكم تهتدون﴾، أي: وليرجى لكم بذلك دوام الاهتداء إلى الحق والرسوخ فيه، والثبات عليه ببنائه على البرهان والمصلحة. فإنما يتم الرجاء بتمام أسبابه.

كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

١٥١ ـ ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم﴾، أي: يتم نعمته عليكم باستيلائكم على بيته الذي جعله قبلة لكم، كما أتمها عليكم بإرساله رسولاً منكم، فالقبلة في بلادكم، والرسول من أمتكم، والخطاب للعرب كما هو ظاهر ﴿يتلو عليكم آياتنا﴾ الدالة على أن ما جاء به من التوحيد والهداية هو الحق من عند الله ـ وهي آيات القرآن ـ باعتبار ما اشتملت عليه من الآيات العقلية والعلمية على أصول العقائد والقواعد، فهي في نفسها آيات على الرسالة، وتلاوتها: تكرارها المؤثر ﴿ويزكيكم﴾، أي: ويطهر نفوسكم من خرافات الوثنية وسَفْسَاف الأخلاق، ويخلِّقها بالأخلاق الحميدة، بما لكم فيه من حسن الأسوة،

لا بالقهر والقسوة. وقد زكاهم ﷺ من ذلك كله، باقتدائهم بأخلاقه العظيمة، في عباداته الكاملة وآدابه العالية، وجمعهم بعد تلك الفرقة، وألف الله بينهم على يديه حتى صاروا كرجل واحد ﴿ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾، أي: الكتاب الإلهي، أو: الكتابة التي تخرجون بها من ظلمة الأمية والجهل إلى نور العلم والحضارة، ويجوز الجمع بين المعنيين.

وأما الحكمة فهي: العلم المقترن بأسرار الأحكام ومنافعها، الباعث على العمل، كما تقدم قريباً[1] ﴿ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾، أي: ويعلمكم مع الكتاب والحكمة، ما لم يسبق لكم به علم: من شؤون العالم، ونظام البيوت، والمعاشرة الزوجية، وسياسة الحروب والأمم، وكرر الفعل ليدل على أنه جنس آخر غير ما تقدم، وهو اجتهاده ﷺ وحسن تنفيذه للوحي.

١٥٢ ـ ﴿فاذكروني﴾ في قلوبكم بما شرعت من أمر القبلة وبما أتممت عليكم من النعمة، وبكل ما أنعمت عليكم من ثمرات ذلك ﴿أذكركم﴾ بإدامتها وتمكينها، والزيادة عليها من النصر والسلطان وغير ذلك من أسباب السعادة، واذكروني بألسنتكم بأسمائي الحسنى، والتحدث بنعمي التي لا تحصى، والثناء عليّ بها سراً وجهراً، أذكركم في الملأ الأعلى، برضائي عنكم وقربي منكم ﴿واشكروا لي﴾ هذه النعم بالعمل بها، وتوجيهها إلى ما وُجدت لأجله من الخيرات والمصالح، أزدْكم منها ﴿ولا تكفرون﴾، أي: لا تكفروا نعمي بإهمالها، أو صرفها إلى غير ما وجدت لأجله ـ بحسب الشرع والسنن الإلهية ـ انتزعْها منكم.

وقد امتثل المسلمون هذه الأوامر فسعدوا، ثم تركوها بالتدريج فشقوا، فحل بهم ما نرى كما قال: «وإذ تأذّن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد» فإذا عادوا عاد الله عليهم بما كان أعطى سلفهم، وإلا كانوا من الهالكين.

---

(١) قوله: «كما تقدم قريباً»، أي: في تفسير الآية «١٢٩» من سورة «البقرة».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

١٥٣ ــ ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة﴾، أي: استعينوا على إقامة دينكم والدفاع عنه ــ وعلى سائر ما يشق عليكم من مصائب الحياة ــ بالصبر، وهو: توطين النفس على احتمال المكاره، وبالصلاة التي تكبر بها الثقة بالله عز وجل، وتصغر بمناجاته فيها كل المشاق ﴿إن الله مع الصابرين﴾ الذي صار الصبر وصفاً لازماً لهم، والمعية هنا: معيَّة المعونة والظفر، ومن كان الله معينه وناصره فلا يغلبه شيء.

١٥٤ ــ ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات﴾، أي: لا تقولوا في شأنهم هم أموات كغيرهم، صاروا في ظلمة العدم، إنهم ليسوا أمواتاً بهذا المعنى ﴿بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾ بحياتهم، إذ ليست في عالم الحس الذي يدرك بالمشاعر، بل حياة خاصة بهم في عالم الغيب، غير التي يعتقدها جميع المليين في جميع الموتى، من بقاء أرواحهم بعد مفارقة أشباحهم، لقوله تعالى: «أحياء عند ربهم يرزقون»، والمعتمد في هذه الحياة: أنها حياة غيبية تمتاز بها أرواح الشهداء على سائر أرواح الناس، بها يرزقون وينعمون ولكننا لا نعرف حقيقتها، ولا حقيقة الرزق الذي يكون لها[1] ولا نقيس عليها أرواح غير

---

(١) قوله: «ولا حقيقة الرزق الذي يكون لها» في صحيح مسلم والترمذي من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: أن أرواحهم ــ لا أجسادهم ــ تكون في حواصل طير خضر تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى قناديل تحت العرش. أي: فلا علاقة لها بأمر الدنيا وأهلها.

الشهداء، ولا نبحث عن ذلك، لأنه من عالم الغيب الذي نؤمن به، ونفوض الأمر فيه إلى الله تعالى.

١٥٥ - ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات﴾، أي: ولنمتحننكم أيها المؤمنون ببعض ضروب الخوف من الأعداء، والمصائب المعتادة في المعايش والآجال، كالخسارة في التجارة، والجدب في الزراعة، والموت والقتل في سبيل الله، وأكد هذا بصيغة القسم لتوطين الأنفس عليه، والعلم بأن الانتساب إلى الإيمان لا يقتضي سعة الرزق وقوة السلطان، وانتفاء المخاوف والأحزان في الدنيا، بل يجري ذلك بسنن الله تعالى في وقوع المصائب بأسبابها، والمؤمن الموفق من يستفيد من مجاري الأقدار، إذ يتربى ويتأدب بمقاومة الشدائد والأخطار ﴿وبشر الصابرين﴾ على ما يقع لهم من هذا البلاء الإلهي، بحسن العاقبة في الأمور كلها، ولم يذكر المبشَّر به إيذاناً بعمومه.

١٥٦ - ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾، أي: قالوا معبرين به عن حالهم ومقتضى إيمانهم: إنا عبيد لله وهو مالك أمرنا، والمتصرف بنا في الدنيا، وإنا إليه راجعون في الآخرة فيجزينا بكل ما ابتلانا به وما صبرنا عليه منه، وليس المراد بالقول مجرد النطق بهذه الكلمة، وإن كانوا لا يعقلون لها معنى.

ولا ينافي الصبر والتثبت ما يكون من مقاومة أسباب المصائب، بسنن الله تعالى، ولا من حزن الإنسان عند نزول المصيبة، بل ذلك من الرحمة ورقة القلب، ولو فقد الإنسان هذه الرحمة لكان قاسياً، لا يرجى خيره ولا يؤمن شره، وإنما الجزع المذموم، هو الذي يحمل صاحبه على ترك الأعمال المشروعة لأجل المصيبة، والأخذ بعادات وأعمال مذمومة ضارة ينهى عنها الشرع ويستقبحها العقل، دون الأعمال المشروعة والأسباب النافعة.

١٥٧ - ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾ أي: أولئك الصابرون المحتسبون، ينزل عليهم من ربهم ما يحول دون تبريح المصائب بهم،

من أنواع صلواته العامة، كهدايتهم للأسباب المخففة لبعض المصائب، والصارفة لبعض، وللاستفادة منها، ورحمته الخاصة في نفس المصيبة، من حسن العزاء، وبرد الرضى والتسليم للقضاء، فهي رحمة خاصة، يحسد الملحدون عليها المؤمنين، فإن الكافر المحروم من هذه الرحمة في المصيبة، تضيق عليه الدنيا بما رحبت، حتى أنه ليبخع نفسه إذا لم يَعُدْ له رجاء في الأسباب التي يعرفها، وينتحر بيده، ويكون من الهالكين ﴿وأولئك هم المهتدون﴾، أي: إلى ما ينبغي عمله في أوقات المصائب والشدائد، من تدبير في الحرب والكسب، ومداراة للأهل، إذ لا يستحوذ الجزع على نفوسهم ولا يذهب البلاء بالأمل من قلوبهم، فيكونون هم الفائزين بخير الدنيا والراحة فيها، المستعدين لسعادة الآخرة، بعلو النفس وتزكيتها، دون أهل الجزع وضعف الإيمان.

* إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾

١٥٨ ـ ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ الصفا والمروة: علما جبلين، أو: طرفاهما بمكة، والمسافة بينهما سبعمائة وستون ذراعاً ونصف، والصفا: تجاه البيت الحرام. وقد عَلَتْهما المباني وصار ما بينهما سوقاً[١]. والشعائر جمع «شعيرة»، وهي كالشعار والشعارة، تطلق على المكان أو الشيء الذي يُشعر بأمر له شأن، وأُطلق على معالم الحج ومواضع النسك، وتسمى «مشاعر»جمع «مَشْعَر»، وعلى العمل الاجتماعي المخصوص الذي هو عبادة ونسك، ففي آية أخرى:«لا تحلوا شعائر الله» أي:مناسك الحج ومعالمه. و«الشعائر» لم تطلق في القرآن إلا على مناسك الحج الاجتماعية، وألحق بها بعضهم ما في معناها من

---

(١) قوله: «وصار ما بينهما سوقاً»، يذكر المؤلف ما كان في زمنه، أما في أيامنا فإن المسعى بين الصفا والمروة خاص للساعين، والتطوُّف بهما سهل وميسور، بعد أن أزيل السوق بالكلية في التوسعة الكبيرة للحرم وجعل ما حوله ساحات وطرق واسعة، وبني فوق المسعى بناء لائق، يسعى به أيام الازدحام، وأصبح مع الحرم الشريف تحفة من تحف العصر النادرة ولله الحمد.

عبادات الإسلام الاجتماعية كالأذان وصلاة الجمعة والعيدين ﴿فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾ حجُّ البيت: قصدُه للنسك، والإتيان بالمناسك المعروفة هنالك. والاعتمار: أداء مناسك العمرة، وهي دون مناسك الحج، فليس في العمرة وقوف بعرفة، ولا مبيت بمزدلفة، ولا رمي جمار في مِنى. و«الجناح» بالضم: الميلُ إلى الإثم، كجنوح السفينة إلى وحل ترتطم فيه، والإثم: نَفْسُهُ[1]، و«يطوف» بتشديد الطاء والواو، أصله: «يتطوّف» من التطوّف وهو تكرار الطواف أو تكلّفه. والمعنى: فليس عليه شيء من جنس الجناح، وهو الميل والانحراف عن جادة النسك، في التطوف بهما، وهو الذي عرف في الاصطلاح: بالسعي بين الصفا والمروة، فإنه من مناسك الحج، مشـروع بالإجماع والعمل المتواتر، سـواء كان ركناً كما يقول مالك والشافعي وغيرهما، أو واجباً كما يقول الحنفية، أو مندوباً كما روي عن أحمد، وقالوا في حكمة التعبير عنه بنفي الجناح الذي يصدق بالمباح: إنه للإشارة إلى تخطئة المشركين، الذين كانوا ينكرون كون الصفا والمروة من الشعائر[2]، وأن السعي بينهما من مناسك ابراهيم، فهو لا ينافي الطلب جزماً. وكذلك قوله تعالى: ﴿ومن تطوع خيراً﴾ في هذا التطوف وغيره، كأن كرر الحج أو العمرة، فزاد على الفريضة، أي: تحمله طوعاً، فإن التطوع في اللغة: الإتيان بما في الطَّوع، أو: بالطاعة، أو: تكلُّفها، أو الإكثار منها ﴿فإن الله شاكر عليم﴾ أي: فإن الله يثيبه، لأنه شاكر يجزي على الإحسـان، عليم بما يستحق من الجزاء. وروى البخاري عن ابن عباس، رضي الله عنهما، ما يدل على أن للسعي بين الصفا والمروة أصـلاً من ذكرى نشأة الدين الأولى بمكة في عهد إبراهيم وإسماعيل، كغيره من شعائر

---

(١) قوله: «والإثم نفسه»، أي: نفس معنى «الجُناح».

(٢) قوله: «الذين كانوا ينكرون كون الصفا والمروة من الشعائر»، بل كانوا لا يطَّوَّفون بينهما، لأنه كان على الصفا صنم يقال له: «إساف»، وعلى المروة صنم يقال له: «نائلة»، لذلك تحرَّج المسلمون بعد ذلك من السعي بين الصفا والمروة ــ مع أن الصنمين أزيلا مع غيرهما من الأصنام ــ فنزلت الآية نافية وجود مانع من ذلك ومؤكّدة أن السعي بينهما من شعائر الله التي أمر بها.

الله، وهو: سعي هاجر أم إسماعيل بينهما، والوقوف عليهما سبع مرات، تطلب الغوثَ لفقد الماء.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾

١٥٩ ـ ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات﴾ النصوص والحجج على الحق والعقائد الصحيحة ﴿والهدى﴾ العبادات والشرائع المزكية للأنفس، ويدخل في «البينات»: البشارات والدلائل المبينة لنبوة محمد ﷺ ﴿من بعد ما بيناه للناس في الكتاب﴾ وهو اسم جنس، يشمل جميع كتب الأنبياء، أي: بينا ما ذكر ﴿أولئكَ﴾ أي: الذين يكتمون البينات والهدى في الحال والاستقبال ﴿يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ أما لعن الله لهم فهو: حرمانهم من رحمته الخاصة بالمؤمنين في الدنيا والآخرة، وأما لعن اللاعنين لهم: فمعناه أنهم بفعلتهم هذه أصبحوا موضع لعنة اللاعنين من الملائكة والناس كما يأتي.

١٦٠ ـ ﴿إلا الذين تابوا﴾ عن الكتمان ﴿وأصلحوا﴾ عملهم بالأخذ بتلك البينات عن النبي ودينه، والهدى الذي جاء به ﴿وبينوا﴾ ما كانوا يكتمونه، أو: بيّنوا إصلاحهم وجاهروا بعملهم الصالح وأظهروه للناس ﴿فأولئك أتوب عليهم﴾ أي: أرجع وأعود عليهم بالرحمة والرأفة، بعد الحرمان المعبر عنه باللعنة ﴿وأنا التواب الرحيم﴾ أي: الكثير التوبة، الواسع الرحمة، فإن العبد كلما أذنب وتاب توبة صحيحة قُبِلَتْ توبته حتى لا ييأس من رحمة ربه، إن هو عاد إلى ذنبه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾

١٦١ ــ ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ في هذه الآية وما بعدها بيان شرط استحقاق اللعن الأبدي، الذي يلزمه الخلود في دار الهوان، للكاتمين ما أنزل الله، ولغيرهم من الكفار، وهو أن يموتوا على كفرهم، وبيان للاعنين لهم، أي: هم أهل ومحل للعنة الله، والملائكة المقربين، والناس أجمعين، حتى أمثالهم الكافرين، فإن الكافر إذا ذكر له الكفر وصفات أهله وعنادهم واستكبارهم عن الحق لعنهم.

١٦٢ ــ ﴿خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾، أي: ماكثين في هذه اللعنة، وما تقتضيه من شدة العذاب لا يخرجون منها، ولا يخفف عنهم من عذابها، «ولا هم ينظرون»، أي: لا يؤخرون ويمهلون ليتوبوا ويصلحوا.

وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

١٦٣ ــ ﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو﴾ أي: وإلهكم الحق الحقيق بالعبادة إله واحد، لا مستحق لها إلا هو، فلا تشركوا به أحداً في ألوهيته ولا في ربوبيته. ﴿الرحمن الرحيم﴾ أي: الكامل الرحمة الذاتية له، والرحمة المبذولة لعباده، فلا ينبغي أن يعرض العبد عن أسباب رحمته اعتماداً على رحمة سواه، ممن يظن أنهم مقربون عنده، فحسب المؤمن من رحمة الله التي وسعت كل شيء، أن يستغني بالتصدي لها عن رجاء سواها.

١٦٤ ــ ثم بين الآيات الكونية على وحدانيته ورحمته فقال: ﴿إن في خلق السماوات والأرض﴾ وتكوينهما بهذا النظام والسنن، التي يدهش المتأملين

بعض ظواهرها، فكيف حال من اطلع على ما اكتشف العلماء من عجائبها، الدالة على أن ما لم يعرفوه أعظم مما عرفوه منها ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ وهو أن يجيء أحدهما فيذهب الآخر، ويطول هذا فيقصر ذاك، وكل ذلك بحُسْبانٍ مطردٍ في جميع الأقطار والبلدان، ومثله اختلاف الفصول، باختلاف مواقع العرض والطول ﴿والفلك التي تجري في البحر﴾ الفلك ــ بالضم ــ اسم للسفينة ولجمعها ﴿بما ينفع الناس﴾، أي: في أسفارهم وتجاراتهم، وما يعرف في هذا العصر بالمشاهدة والاختبار أكثر مما كان يعرف في العصور السالفة، إذ كانت الفلك كلها شراعية، فلم يكن البخار يسير أمثال هذه البواخر والبوارج العظيمة التي تحكي[1] مدناً كبيرة. وكل ذلك من رحمة الله الذي خلق هذه الأشياء وهدى إليها الإنسان ﴿وما أنزل الله من السماء من ماء﴾ المراد بالسماء هنا: السحاب، وقد شرح كيفية تكوينه ونزوله العلماء الذين تكلموا في الكائنات، بمعنى قوله تعالى: «الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله»، فحرارة الهواء تبخر المياه والرطوبات، فتثيرها الرياح في الجو حتى تتكاثف ببرودتها، وتكون كسفاً من السحاب يتحلل منه الماء ويخرج من خلاله، وينزل بثقله إلى الأرض ﴿فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة﴾ أي: أوجد بسببه الحياة في الأرض الميتة بالنبات، وإنما حياته الظاهرة بالنمو والتغذي والنتاج، «وبثَّ» أي: نشر وفرّق في أرجائها، من جميع أنواع الأحياء التي تدب عليها، وهي لا تعد ولا تحصى، فبالماء حدثت حياة الأرض بالنبات، وبه استعدت لظهور أنواع الحيوان فيها ﴿وتصريف الرياح﴾ أي: تدبيرها وتوجيهها على حسب الإرادة، ووفق الحكمة والنظام، والرحمة العامة، في مواقع الأرض المختلفة في الحرارة والبرودة ﴿والسحاب المسخر بين السماء والأرض﴾ أي: الغيم المذلل المسحوب في الجو لإنزال المطر في البلاد المختلفة، ذكر السحاب هنا بعد ذكر

---

(١) قوله: «تحكي مدناً كبيرة»، أي: تَشبهها في كبرها فهي سفن كبيرة تحمل آلاف البشر والأطنان من الأثقال، كما قال تعالى في وصفها: ﴿وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام﴾ أي: السفن كالجبال. جمع «عَلَم» ومنه قول «الخنساء» في رثاء أخيها «صخر»:

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

تصريف الرياح لأنها هي التي تثيره وتجمعه، وهي التي تسوقه إلى حيث يمطر، وتفرق شمله أحياناً فيمتنع المطر ﴿لآيات لقوم يعقلون﴾ أي: إن في هذه الأجناس كلها لدلائل ظاهرة للذين يعقلون، فإنهم هم الذين ينظرون في أسبابها، ويدركون حِكَمها وأسرارها، ويميزون بين منافعها ومضارها، ويستدلون بما فيها من الإتقان والإحكام، والسنن التي قام بها النظام، على وحدانية مبدعها وحكمته، وفضله ورحمته، وعلى استحقاقه للعبادة دون غيره.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾

١٦٥ ـ ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله﴾، أي: ومن الناس الذين لا يعقلون هذه الآيات، طوائف يجعلون من بعض خلق الله أنداداً، أي: نظراء له فيما هو خاص به، يحبونهم كحبه، أي: من نوع حبهم إياه جل ثناؤه، لا يخصونه بنوع من الحب إذ لا يرجون منه شيئاً إلا وقد جعلوا لأندادهم مثله، أو ضرباً من التوسط الغيبي فيه، فهم كفار مشركون بهذا الحب ﴿والذين آمنوا أشد حباً لله﴾ من كل ما سواه، لأن حبهم له خاص به سبحانه لا يشركون به غيره، فحبهم ثابت كامل، لأن متعلَّقه هو الكمال المطلق الذي يستمد منه كل كمال، وأما متخذو الأنداد فإن حبهم متوزع متزعزع لا ثبات له ولا استقرار ﴿ولو يرى الذين ظلموا﴾ قرىء: «يرى» بفتح التحتية وضمها، و«ترى» بالفوقية على الخطاب للنبي ﷺ، أو لكل سامع. أي: لو يعلم أو يشاهد الذين ظلموا أنفسهم بتدنيسها بالشرك

والمعاصي، وظلموا الناس بما غشوهم به من أقوالهم وأفعالهم، فحملوهم على أن يتخذوا الأنداد مثلهم، أو: لو تراهم أيها المخاطب ﴿إذ يرون العذاب﴾، أي: حين يرون العذاب واقعاً بهم ﴿أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد مذاب﴾ أن القدرة لله جميعاً، لا قوة تشاركه في جزائهم بشفاعة ولا وساطة عنده، وأنه شديد العذاب، لرأوا أمراً هائلاً عظيمًا يندمون معه ندماً عظيمًا.

١٦٦ ــ ﴿إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا﴾ هذا بدل من قوله: «إذ يرون العذاب»، أي: إذ يتبرأ المتبوعون من متخذي الأنداد من التابعين، وقرىء بالعكس، ومعناهما: يتبرأ كل من الآخر، وعبر عنه بالماضي تصويراً له بأنه وقع بالفعل ﴿ورأوا العذاب﴾، أي: والحال أنهم قد رأوا العذاب الذي هو جزاؤهم ماثلاً لهم في ذلك اليوم، فلا ينفعهم التبرؤ ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾، أي: الروابط التي كانت بينهم في الدنيا، فلا ينفع رئيس مرؤوساً ولا يدفع عنه بجاهه.

١٦٧ ــ ﴿وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا﴾، أي: نتمنى لو أن لنا رجعة إلى الدنيا لنتبرأ من اتّباع هؤلاء المضلّين ونتنصّل من رياستهم، أو: لنتّبع سبيل الحق ونأخذ بالتوحيد الخالص، ونهتدي بكتاب الله وسنة رسوله، ثم نعود إلى هنا ــ الآخرة ــ فنتبرّأ من هؤلاء الضّالين كما تبرّؤوا منا ﴿كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم﴾، أي: يظهر لهم أن أعمالهم حسرة وشقاء عليها، أي: هي التي كونت هذه الحسرات في النفس ولكن لا يظهر ذلك إلا في الدار الآخرة التي تسعد فيها كل نفس بتزكيتها[1]، وتشقى بتدسيتها ﴿وما هم بخارجين من النار﴾ إلى الدُّنيا صحيحي العقيدة ليصلحوا أعمالهم، فيشفوا غيظهم من رؤسائهم وأندادهم، ولا إلى الجنة لأن علة دخولهم في النار هي ذواتهم بما طبعتها عليه خرافات الشرك والمعاصي.

---

(١) قوله: «تسعد فيها كل نفس بتزكيتها، وتشقى بتَدْسيتها»، هذا معنى قوله تعالى: ﴿قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دسَّاها﴾، والتدسية: هو النقص والإخفاء بالفجور. وأصل «دسَّى»: «دَسَسَ».

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

١٦٨ ــ ﴿يأيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً﴾، أي: كلوا من كل ما يؤكل في الأرض، حال كونه حلالاً في نفسه، طيّباً في كسبه، والحلال هو الأصل، والحرام ما حرّمه الله تعالى بنص قطعي، وهو قليل معروف ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ قرأ الأئمة: «خطوات» بضمتين، جمع «خطوة» بالضم، وهي ما بين القدمين، وبفتحتين: جمع «خطوة» وهي المرة، من «خطا يخطو في مشيه» والمعنى: لا تتّبعوا سيرته في الإغواء المبينة في الآية التالية. وعلّل النهي بكونه عدوّاً للناس بَيِّنَ العداوة. والعلم بعداوته لنا لا يتوقف على معرفة ذاته، وإنما يعرف بأثره، وهو وحي الشر، وخواطر الباطل والسوء في النفس.

١٦٩ ــ ﴿إنما يأمركم بالسوء والفحشاء﴾ دون غيرهما من الحق والخير، فأما السوء: فهو كل ما يسوءك وقوعه أو عاقبته، وأما الفحشاء: فكل ما يفحش قبحه في أعين الناس من المعاصي والآثام، وقد فصلت في آيات أخرى، وفي الأحاديث الصحيحة ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ أي: ويأمركم أن تقولوا على الله في دينه الذي دان به عباده ما لا تعلمون علم اليقين أن الله شرعه لهم، من عقائد وأوراد وأعمال تعبدية. وشعائر دينية، أو تحليل ما الأصل فيه التحريم، وتحريم ما الأصل فيه الإباحة.

فالقول على الله بغير علم اعتداء على حق الربوبية بالتشريع، وهو شرك صريح، وهذا أقبح ما يأمر به الشيطان فإنه الأصل في إفساد العقائد، وتحريف الشرائع.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾

١٧٠ ــ ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله﴾ ولا تتّبعوا من دونه أولياء، يشرعون لكم ويحلّون ويحرّمون عليكم بآرائهم ﴿قالوا: بل نتبع ما ألفينا عليهم آباءنا﴾ وهو ما تقلدناه من سادتنا وكبرائنا وشيوخ علمائنا، فإنهم أعلم بما أنزل الله منا ﴿أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾ الهمزة للإنكار والتعجب، وهي داخلة على فعل حُذِفَ للعلم به من القرينة، و «لو» للغاية، لا تحتاج إلى جواب. والتقدير: أيتّبعون ما أَلْفَوا ــ أي: وجدوا ــ عليه آباءهم في كل حال، وفي كل شيء، ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً من عقائد الدين، ولا يهتدون في أحكامه وأعماله بوحي من الله، جاءهم به رسول من عند الله؟ أي: حتى في تجرّدهم من دليلي العقل والنقل. هذا ما أفهمه.

وقال البيضاوي: أي: لو كان آباؤهم جهلة لا يفكرون في أمر الدين ولا يهتدون إلى الحق لاتَّبعوهم. وهو دليل على المنع من التقليد لمن قدر على النظر أو الاجتهاد، وأما اتِّباع الغير في الدين إذا علم بدليل ما أنه محق كالأنبياء والمجتهدين في الأحكام، فهو في الحقيقة ليس بتقليد، بل اتِّباع لما أنزل الله أ. هـ.

وأقول: إنما يتّبع العالم الثقة فيما يبلغه عن الله أو رسوله، وأما الأخذ باجتهاده[1] فهو اتّباع له في ظنّه، لا لما أنزل الله.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾

١٧١ ــ ﴿ومثل الذين كفروا﴾، أي: صفتهم في تقليدهم لآبائهم ورؤسائهم ﴿كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء﴾، أي: كصفة الراعي للبهائم السائمة، الذي ينعق ويصيح بها في سوقها إلى المرعى، ودعوتها

---

(١) قوله: «وأما الأخذ باجتهاده فهو اتّباع له في ظنه، لا لما أنزل الله»، يحتاج إلى توضيح، ملخصه: أن المجتهد هو المتمكن من معرفة الأدلة ويبذل طاقته في تحصيل الحكم الشرعي منها، فما يتوصل إليه يعتبر حكمًا شرعياً ظنياً، يصح العمل به.

إلى الماء، وزجرها عن الحمى، فتجيب دعوته، وتنزجر بزجره بما ألفت من نعاقه بالتكرار، وهي لا تعقل مما يقول شيئاً، ولا تفهم له معنى ﴿صُمٌّ﴾ لا يسمعون الحق سماع تدبر وفهم ﴿بُكْمٌ﴾ لا ينطقون به عن اعتقاد وعلم ﴿عُمْيٌ﴾ لا ينظرون في آيات الله في أنفسهم وفي الآفاق حتى يتبين لهم أنه الحق ﴿فهم لا يعقلون﴾ مبدأ ما هم فيه ولا غايته.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾

١٧٢ ــ ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ الطيبات: ما طاب كسبه من الحلال، والأمر هنا للوجوب لا للإباحة، أو: لازمُهُ وهو عدم تحريم شيء منها، والامتناع عنها تديناً لتعذيب النفس أو تقليد رؤسائهم ﴿واشكروا لله﴾ الذي خلقها لكم، وسخر لكم أسبابها ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾، أي: إن كنتم تخصونه بالعبادة وتؤمنون بانفراده بالسلطة والتدبير، فاشكروا له خلق هذه النعم وإباحتها لكم، ولا تجعلوا له أنداداً تطلبون منهم الرزق أو تتبعونهم بالتحليل والتحريم.

١٧٣ ــ ﴿إنما حرّم عليكم الميتة﴾ هذا حصر لمحرمات الطعام من الحيوان بصيغة «إنما»، بعدما سبق في آية سورة «الأنعام» من حصر التحريم في هذه الأربعة بصيغة الإثبات بعد النفي[1].

حرم الميتة لما في الطباع السليمة من استقذارها، ولما يتوقع من ضررها، فإنها إما أن تكون ماتت بمرض سابق، أو بعلة عارضة، وكلاهما لا يؤمن ضرره، وفي معنى الميتة: كل ما زالت حياته بغير قصد الذكاة، كالمنخنقة

---

(١) يعني قوله تعالى: «قل لا أجد فيما أوحي إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة..» الآية «١٤٥» منها.

والموقوذة ـ الى آخر[1] ما ذكر في آية «المائدة» ﴿والدّم﴾، أي: المسفوح، كما في آية «الأنعام» فإنه قذر لا طيب، ومظنة الضرر كالميتة ﴿ولحم الخنزير﴾ فإنه قذر، وأشهى غذاء إليه القاذورات والنجاسات، وهو ضار في جميع الأقاليم ولا سيما الحارة كما ثبت بالتجربة، وأكل لحمه من أسباب الدودة الوحيدة القتالة[2]، ويقال: إن له تأثيراً سيئاً في إضعاف العفة والغيرة ﴿وما أُهلّ به بغير الله﴾، أي: ما ذكر اسم غير الله عليه عند ذبحه، كالذي يقربونه لمن يعبدون من صنم أو إنسان، والإهلال: رفع الصوت، وكان ذلك من عادتهم عند الذبح لها. والمنع من هذا ديني محض، لأنه من أعمال الوثنية، فكل من أَهَلّ لغير الله على ذبيحة فإنه يتقرب الى من أهلَّ باسمه تقرب عبادة، وذلك من الإشراك، ومنه ما يذبح من النذور والقربان للمسيح أو السيد البدوي أو غيرهما[3] ﴿فمن اضطر﴾ إلى الأكل مما ذكر بأن لم يجد ما يسد به رمقه سواه، حال كونه ﴿غير باغ﴾ له، أي: غير طالب له راغب فيه لذاته ﴿ولا عاد﴾ متجاوز قدر الضرورة ﴿فلا إثم عليه﴾ لأن الإلقاء بنفسه إلى التهلكة بالموت جوعاً أشد ضرراً من أكل هذه

---

(١) قوله: «إلى آخر ما ذكر في آية المائدة» يعني قوله تعالى: «حرمَت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير» الآية الثالثة منها.

(٢) قوله: «وأكل لحمه من أسباب الدودة الوحيدة القتالة»، لقد أثبت الطب في أيامنا أن أكل لحم الخنزير يسبب مرضاً خطيراً يعرف بـ «التِّريشينوز» قَلَّ أن يحصل لمن يصاب به شفاء، ولا يؤثر في خبث لحمه أن يربى في مزارع خاصة، أي: إن عدم أكله القاذرات والجرذان لا يجعل لحمه سليمًا كما يزعم البعض، بل هو خبيث ومضر، وعلى كل حال فإن تحريم لحمه قطعي لا شك فيه، بصرف النظر عن الحكمة والسبب.

(٣) قوله: «للمسيح أو السيد البدوي أو غيرهما»، وكذلك ما يفعله بعض الجهلة أيضاً من ذبح الذبائح بين أيدي: حاكم أو عظيم أو قادم من حج أو سفر تكريماً له، فإن هذا مما ذبح لغير الله تعالى. وهذه عادة شاعت ـ ويا للأسف ـ في بعض بلاد المسلمين، إذ يحيون ويستقبلون كبراءهم بذبح الذبائح لهم.

أما إذا أراد أحد أن يذبح لقدوم مسافر شكراً لله تعالى، فإن بإمكانه أن يفعل ذلك من دون أن يكون الذبح بين يدي من يُكرِّمه، فيذبحه على اسم الله عز وجل وشكراً له تعالى من غير إشراك في هذا العمل.

المحرمات التي هي مظنة الضرر. وقيل: إن المراد بالباغي الخارج على المسلمين من العصاة، والعادي: المعتدي عليهم بقطع الطريق، وقيس عليه: العاصي بسفره وهو مذهب الشافعي رحمه الله ﴿إن الله غفور رحيم﴾ إذ حرم على عباده الضار، وجعل الضرورات بقدرها، لينتفي الحرج والعسر عنهم، ووكل تحديدها الى اجتهادهم، فهو يغفر لهم خطأهم فيه لتعذر ضبطه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

١٧٤ ــ ﴿إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب﴾، أي: الذين يخفون شيئاً مما أنزل الله من كتابه، فلا يبلغونه للناس مهما يكن موضوعه، أو يخفون معناه عنهم بتأويله أو تحريفه، أو وضع غيره في موضعه برأيهم واجتهادهم ﴿ويشترون به ثمناً قليلاً﴾، أي: يستبدلون بما يكتمونه ثمناً قليلاً من متاع الدنيا الفاني، كالرشوة والجُعْل على الفتاوى الباطلة، أو قضاء الحاجات عند الله تعالى، وغير ذلك من المنافع الموقتة، إذ اتخذوا الدين تجارة ﴿أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار﴾، أي: أولئك الكاتمون لكتاب الله، والمتجرون به، ما يأكلون في بطونهم من ثمنه إلا ما يكون سبباً لدخول النار، وانتهاء مطامعهم بعذابها ﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة﴾ قالوا: إن عدم الكلام كناية عن الإعراض عنهم والغضب عليهم، وهي كناية مشهورة شائعة إلى اليوم. وقيل: لا يكلمهم بما يحبونه كما يناجي أولياءه المؤمنين المتقين، وهذا لا ينافي سؤالهم عن كفرهم وإجرامهم لإقامة الحجة عليهم ﴿ولا يزكيهم﴾ أي: لا يطهرهم من ذنوبهم بالمغفرة والعفو، وقد ماتوا وهم مصرون على كفرهم ﴿ولهم عذاب أليم﴾، أي: شديد الألم.

١٧٥ ــ ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾، أي: أولئك المجزيون على كتمانهم واتجارهم بما ذكر، هم الذين اشتروا الضلالة بالهدى في الدنيا فجعلوه ثمناً لها، فأما الهدى: فهو كتاب الله وشرعه، «ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين»، وأما الضلالة: فهي العماية التي لا يهتدي بها الإنسان لمقصده، وتكون باتباع الهوى وآراء الناس في الدين، وليس لأحد أن يقول في الدين برأيه، وإنما اجتهاد الرأي في القضاء حيث لا نص ﴿والعذاب بالمغفرة﴾، أي: واستبدلوا أسباب العذاب بأسباب المغفرة في الآخرة، وهذا أثر ما قبله، فإن متبع الهدى هو الذي يستحق المغفرة لما يفرط منه وما يُلِمُّ هو به من السوء، ومتبع الضلال هو المستحق للعذاب ﴿فما أصبرهم على النار﴾ هذا تعجيب من صبرهم على عذاب النار الذي تعرضوا له، بما ذكر من عملهم الموصوف في الآيتين بجهلهم، والمراد: أن حالهم في تهوكهم[1] وانهماكهم في العبث بدين الله يفضي إلى ذلك، وهو الذي جعل موضع التعجب للتنفير.

١٧٦ ــ ﴿ذلك بأن الله نزّل الكتاب بالحق﴾، أي: ذلك الحكم الذي تقرر في شأنهم، هو بسبب أن الكتاب جاء بالحق، والحق لا يغالب ولا يقاوم، فمن غالبه غُلِبَ، ومن خذله خذل ﴿وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد﴾، أي: في خلاف جعل كل فريق منهم في شق وتفرق عداء بعيد عن سبيل الحق، فأنى يهتدون إليه، وكل منهم يخالف الآخر بما ابتدعه من مذهب أورأي فيه، حتى صار ــ أي: الكتاب ــ وقد أنزل لإزالة الاختلاف أعظم أسبابه.

لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟

(١) قوله: «وفي تَهَوّكهم»، التهوُّك: التحيرُ.

وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

١٧٧ ــ ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾ البر بكسر الباء لغة: التوسع في الخير، وقرىء بالنصب والرفع. وشرعاً: ما يتقرب به إلى الله تعالى من الإيمان والأخلاق والأعمال الصالحة، وتوجيه الوجوه إلى المشرق أو المغرب ليس هو البر ولا منه، بل ليس في نفسه عملاً صالحاً كما تقدم في آيات تحويل القبلة ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين﴾ قرىء «ولكن» بالتشديد وبالتخفيف، أي: ولكن جملة البر هو من آمن بالله إلخ، وفيه الإخبار عن المعنى بالذات، وهو أسلوب بليغ يصور لك المعنى في نفس الموصوف به، فيفيدك أن البر هو الإيمان وما يتبعه من الأعمال، باعتبار اتحادهما وتلبس المؤمن البار بهما معا، من حيث أن الإيمان باعث على الأعمال وهي منبعثة عنه وأثر له، تستمد منه وتمده وتغذيه، وأصول هذا الإيمان الخمسة المذكورة هنا: وهي الإيمان بألوهية الله وربوبيته وحده، وما يجب من تنزيهه وكماله المفصل في كتابه، والإيمان باليوم الآخر وما فيه من الحساب والجزاء. والإيمان بالملائكة والكتب الإلهية، والنبيين التي نزلت عليهم بما في القرآن من إجمال وتفصيل ﴿وآتى المال على حبه﴾، أي: وأعطى المال لأجل حبه تعالى، أو: على حبه إياه ــ أي ــ: المال ﴿ذوي القربى﴾، أي: الأقربين للمعطي، وهم أحق الناس بالبر والصلة، فإن الإنسان إذا احتاج وفي أقاربه غني، فإن نفسه تتوجه إليه بعاطفة الرحم والفطرة، فمن قطع الرحم ورضي بأن ينعم وذوو قرباه بائسون فهو بريء من الفطرة والدين، وبعيد من الخير والبر ﴿واليتامى﴾ فإنهم لموت آبائهم تتعلق كفالتهم وكفايتهم بأهل الوجد واليسار من المسلمين، كيلا تسوء حالهم، وتفسد تربيتهم، فيكونوا مصائب على أنفسهم وعلى الناس ﴿والمساكين﴾ أهل السكون والعفة من الفقراء، فإنهم لما قعد بهم العجز عن كسب ما يكفيهم، وسكنت نفوسهم للرضى بالقليل عن مد كف الذليل، وجبت مساعدتهم ومواساتهم على المستطيع ﴿وابن السبيل﴾ المنقطع في السفر لا يتصل بأهل ولا قرابة، حتى كأن

السبيل أبوه وأمه، ورحمه وأهله[١] ﴿والسائلين﴾ الذين تدفعهم الحاجة العارضة إلى تكفف الناس. وأخرهم لأنهم يسألون فيعطيهم هذا وهذا. وقد يسأل الإنسان لمواساة غيره. والسؤال محرم شرعاً إلا لضرورة يجب على السائل أن لا يتعداها، ﴿وفي الرقاب﴾ أي: في تحريرها وعتقها، وهو يشمل ابتياع الأرقاء وعتقهم، وإعانة المكاتبين الذين يشترون أنفسهم من ساداتهم بأقساط منجّمة على أداء نجومهم، ومساعدة الأسرى على الافتداء ﴿وأقام الصلاة﴾، أي: أداها على أكمل وجه وأقومه وأدامها، وهذا هو الركن الروحاني الركين للبر ﴿وآتى الزكاة﴾ المفروضة، أي: أعطاها مستحقيها، وقلما تذكر آية الصلاة في القرآن إلا ويقرن بها إيتاء الزكاة، فالصلاة مهذبة للروح، والمال ـ كما يقولون ـ قرين الروح، فبذله في سبيل الحق هو الركن الثاني من أركان البر العملية ﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾ وهذا انتقال من البر في الأعمال الشخصية إلى البر في الأخلاق الأعمال الاجتماعية، وأولها: الوفاء بالعهود والعقود التي يعاهدون عليها الله، أو: الناس، من مالية واجتماعية وسياسية وحربية، والوفاء قوام النظام وأساس العمران ﴿والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس﴾ البأساء: اسم من البؤس، وهو الشدة والفقر، والضراء: ما يضر الإنسان من نحو مرض أو جرح، أو فَقْد محبوب من مال وأهل، والبأس: الشدة، وفسروه باشتداد الحرب، وهو أعم. والصبر يحمد في هذه المواطن وفي غيرها، وخص هذه الثلاث بالذكر، لأن من صبر فيها كان في غيرها أصبر، لما في احتمالها من المشقة على النفس، والاضطراب في القلب ﴿أولئك الذين صدقوا﴾، أي: أولئك الأبرار الراسخون في أصول الإيمان الخمسة، والمنفقون للمال في مواضعه الستة، والمقيمون للصلاة الروحية الاجتماعية، والمؤتون للزكاة التي عليها مدار أمور الملة المالية والسياسية، والموفون بعهودهم الثلاثة: الدينية والمالية والحربية، والصابرون في مواقف الشدة الثلاثة، هم الذين صدقوا الله في دعوى الإيمان، دون الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ﴿وأولئك هم المتقون﴾ الذي تشهد لهم بالتقوى أعمالهم وأحوالهم، والتقوى:

---

(١) فيعطى «ابن السبيل» من مال الزكاة ما يساعده على العودة إلى بيته، ولو كان غنياً ولا يجب عليه إعادة ما أخذه أو إنفاق مثله بعد ذلك.

أن تجعل بينك وبين سخط الله وعقابه وقاية، بأن تتحامى أسباب خذلانه في الدنيا، وعذابه في الآخرة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾

١٧٨ ــ ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى﴾ القصاص في أصل اللغة: يفيد المساواة، ومعناه هنا: أن يُقتل القاتل، لأنه في نظر الشريعة مساو للمقتول فيؤخذ به، فالغرض من الآية شرعية القصاص بالعدل والمساواة، وإبطال ذلك الامتياز الذي كان للأقوياء على الضعفاء، ولذلك قال: ﴿الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى﴾، أي: إن هذا القصاص لا هوادة فيه ولا جور، فإذا قتل حُرٌّ حراً يقتل هو به لا غيره من سادات القبيلة، ولا أكثر من واحد. وإذا قتل عبد عبداً يقتل هو به لا سيده، ولا أحد الأحرار من قبيلته، وكذلك المرأة إذا قتلت تُقتل هي، ولا يقتل واحد فداء عنها، خلافاً لما كانت عليه الجاهلية في ذلك كله. فالقصاص على القاتل نفسه أياً كان لا على أحد من قبيلته. فما كانت عليه العرب في الثأر يبين هذا المعنى من الآية، ولكن مفهوم اللفظ بحد ذاته وسياق مقابلة الأصناف بالأصناف يفهم أنه لا يقتل فريق بفريق آخر، وهو غير مراد على إطلاقه، فقد جرى العمل من زمن الرسول ﷺ إلى الآن، على قتل الرجل بالمرأة، واختلفوا في قتل الحر بالعبد، والاختلاف في قتل الرجل بالمرأة أضعف، ولهذه الخلافات زَعَم بعضهم أن في الآية نسخاً ﴿فمن عفي له من أخيه شيء﴾، أي: فمن عفا له أخوه في الدين من أولياء الدم عن شيء من حقهم في القصاص، ــ ولو واحدا منهم إن تعددوا ــ وجب اتباعه، وسقط القصاص كما يأتي، وإنما يعفو من له حق طلب القصاص، وقد جعل الله هذا الحق لأولياء المقتول وهم

عصبته ﴿فاتباع بالمعروف وأداء إليه باحسان﴾، أي: من ناله شيء من هذا العفو، فالواجب في شأنه أو قضيته تنفيذ العفو وثبوت الدية، وعبر عن الأول باتباع العفو بالمعروف. وهو واجب على الإمام الحاكم وعلى العافي وغيره من الأولياء، وإن لم يعفوا فعليهم أن لا يرهقوا القاتل من أمره عسراً، بل يطلبون منه الدية بالرفق والمعروف الذي لا يستنكره الناس، وعبر عن الثاني بالأداء إليه بإحسان، وهو واجب على القاتل بأن لا يمطل ولا ينقص، ولا يسيء في صفة الأداء. ويجوز العفو عن الدية أيضاً، كما في قوله تعالى في سورة «النساء»: «ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصَّدَّقوا»، هذا هو الظاهر في الآية، فلا حاجة إلى ذكر ما قالوه من احتمال غيره ﴿ذلك تخفيف من ربكم ورحمة﴾ ذلك الذي شرع لكم من حكم العفو، تخفيف ورخصة ورحمة من ربكم سبحانه بهذه الأمة، إذ رغبها في التراحم والتعاطف، والعفو والإحسان، ﴿فمن اعتدى بعد ذلك﴾، أي: بعد العفو عن الدم والرضى بالدية، بأن انتقم من القاتل ﴿فله عذاب أليم﴾ قيل: معناه أنه يتحتم قتل الولي العافي أو غيره إذا قتل القاتل بعد العفو، ولا يجوز العفو عنه، بل يقتله الحاكم وإن عفا عنه ولي المقتول، والجمهور على أن حكمه حكم القاتل ابتداء، وعليه مالك والشافعي، والمراد بالعذاب الأليم عذاب الآخرة.

١٧٩ ـ ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ هذا تعليل لشرعية القصاص، وبيان لحكمته، وقد بينت هذه الآية حكمة القصاص بأسلوب بليغ لا يسامى، وعبارة لا تحاكى، واشتهر أنها من أبلغ آي القرآن، التي تُعجز في التحدي فرسانَ البيان، ومن دقائق البلاغة فيها أن جعل فيها الضد متضمناً لضده وهو الحياة، في الإماتة التي هي القصاص، وعرَّف القصاص ونكر الحياة، للإشعار بأن في هذا الجنس من الحكم نوعاً من الحياة عظيمًا ﴿يا أولي الألباب﴾ خص بالنداء أصحاب العقول، مع أن الخطاب عام، للتنبيه على أن ذا اللب هو الذي يعرف قيمة الحياة والمحافظة عليها، ويعرف ما تقوم به المصلحة العامة وما يتوسل به إليها، وهو مرتبتان: القصاص وهو العدل، والعفو وهو الفضل ﴿لعلكم تتقون﴾ الاعتداء وتكفون عن سفك الدماء.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾

١٨٠ ـ ﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت﴾، أي: فرض الله عليكم يا معشر المؤمنين إذا حضرت الواحدَ منكم أسبابُ الموت وعلاماته ﴿إن ترك خيراً﴾، أي: إن كان له مال كثير يتركه لورثته ﴿الوصية للوالـدين والأقربين بالمعروف﴾، أي: كتب عليكم في هذه الحالة أن توصوا للوالدين والأقربين بشيء من هذا الخير، بالوجه المعروف الذي لا يستنكر لقلته بالنسبة إلى ذلك الخير، ولا بكثرته الضارة بالورثة، بأن لا يزيد الموصى به لهم ولغيرهم من الأجانب عن ثلث المتروك للوارثـين، والوصيـة: الاسم من «الإيصاء والتوصية»، وتطلق على الموصى به من عين أو عمل، وهي مندوبة في حالة الصحة، وتتأكد في المرض، وظاهر الآية أنها تجب عند حضور أمارات الموت للوالدين والأقربين، وفيه خلاف. وأما الثانية[1] فهي خلافية والجمهور على أن الآية منسوخة بآية المواريث أو: بحديث[2]: «لا وصية لوارث»، أو: بهما جميعا على أن الحديث مبين للآية. قال البيضاوي: وكان هذ الحكم في بدء الإسلام فنسخ بآية المواريث وبقوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله أعطى كل ذي حق حقه ألا لا وصية لوارث»، وفيه نظر لأن آية المواريث لا تعارضه بل تؤكده من حيث أنها تدل على تقديم الوصية مطلقا، والحديث من الآحاد، وتلقي الأمة له

---

(١) قوله: «وأما الثانية» أي: المسألة الثانية ويعني بها الوصية للوالدين والأقربين.

(٢) قوله: «أو بحديث: لا وصية لوارث»، وهو حديث صحيح، سيأتي بعد سطرين تام نصه. رواه أحمد ــ وحسَّنه ــ وأبو داود والترمذي، وقواه ابن خزيمة، ورواه الدارقطني وغير من ذكرنا، وهذا حديث صحيح تلقته الأمة بالقبول، بل جزم الشافعي في «الأم» بأن هذا المتن متواتر، فإنه قال: إنه نقل كافة عن كافة، وهو أقوى من نقل واحد.

بالقبول لا يلحقه بالمتواتر، اهـ، أي: والظني من الحديث لا ينسخ القطعي منه، فكيف ينسخ القرآن وكله قطعي؟ ﴿حقاً على المتقين﴾، أي: حق ذلك الذي كتب عليكم من الوصية، أو: حققته حقاً على المتقين لي، المطيعين لكتابي، والمتبادر: أن معنى المكتوب المفروض، وبه قال بعضهم هنا، وقال آخرون: إنه للندب، ويؤيد الفرضية قوله تعالى في وعيد المبدلين له:

١٨١ ـ ﴿فمن بدله﴾، أي: بدل ما أوصى به الموصي ﴿بعدما سمعه﴾ من الموصي، أو: علم به علماً صحيحاً من كتابة الوصية ـ وهو مشروع كما سيأتي ـ ومن الحكم بها ﴿فإنما إثمه على الذين يبدلونه﴾ من ولي ووصي وشاهد، وقد برئت منه ذمة الموصي، وثبت أجره عند الله تعالى ﴿إن الله سميع﴾ لما يقوله المبدلون في ذلك ﴿عليم﴾ بأعمالهم فيه فيجازيهم عليها. وقد قال بوجوب الوصية بعض علماء السلف[1].

١٨٢ ـ ﴿فمن خاف من موص جنفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه﴾ «الجنف» بالتحريك: الخطأ. و«الإثم» يراد به تعمد الإجحاف والظلم، و«الموصي»: فاعل الإيصاء. وقرىء «موصٍّ» بالتشديد من التوصية، والمعنى: إن خرج الموصي في وصيته عن المعروف والعدل، خطأً أو عمداً، فتنازع الموصى لهم فيه، أو تنازعوا مع الورثة، فينبغي أن يوسط بينهم من يعلم ويصلح بينهم، ولا إثم عليه في هذا الإصلاح إذا وُجد فيه شيء من تبديل الجنف والحيف، لأنه تبديل باطل إلى حق، وإزالة مفسدة بمصلحة ﴿إن الله غفور رحيم﴾ لمن وقع منه لحسن نيته، وإخلاصه في إصلاحه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ

---

(١) قوله: «وقد قال بوجوب الوصية بعض علماء السلف»، ولكن الذي عليه الفتوى في المذاهب الأربعة أن الوصية غير واجبة، وهذا ما يدركه المتأمل في آيات المواريث من سورة «النساء». وقد أوجبتها بعض القوانين في المحاكم الشرعية في بعض البلاد الإسلامية.

فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

١٨٣ ـ ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم﴾، أي: فرض عليكم كما فرض على المؤمنين من أهل الملل قبلكم، فهو تشبيه الفرضية بالفرضية، ولا تدخل فيه صفته ولا عدة أيامه. وفي قصتي زكريا ومريم عليهما السلام: أنهم كانوا يصومون عن الكلام، أي: مع الصيام عن مباشرة الزوجية والشراب والطعام، قال البيضاوي: إن الصوم في اللغة: الإمساك عما تنازع إليه النفس، لا مطلق الإمساك كما قول الجمهور ﴿لعلكم تتقون﴾ هذا تعليل لكتابة الصيام ببيان فائدته الكبرى وحكمته العليا، وهو أنه يُعِدُّ نفس الصائم لتقوى الله تعالى، بترك شهواته الطبيعية المباحة الميسورة امتثالاً لأمره، واحتساباً للأجر من عنده، فتتربى بذلك إرادته على مَلَكة ترك الشهوات المحرمة والصبر عنها، فيكون اجتنابها أيسر، وأقرب على النهوض بالطاعات والمصالح والاصطبار عليها، فيكون الثبات عليها أهون، ولعلها تدل على إعداد النفس لما يرجى من الخير بأسبابه.

١٨٤ ـ ﴿أياماً معدودات﴾، أي: فرض عليكم الصيام أياماً معينات بالعدد، أو قليلات، وهي أيام شهر رمضان لا دائمًا ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر﴾ فأفطر، لأن ذلك مباح له ﴿فعدة من أيام أخر﴾، أي: فعليه صيام عدة من أيام أخر، غير تلك الأيام المعدودات بعدد التي لم يصمها، وكل من المريض والمسافر عرضة ومظنة لاحتمال المشقة بالصيام. ولا يشترط في الرخصة وقوع المشقة بالفعل ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾، أي: يتحملون الصيام

بمشقة شديدة، فهو مشتق من طاقة الحبل أو الخيط، وهي: الفتلة الواحة من فتله، وهي أدنى القوى، وهم: الشيوخ الضعفاء والزمنى، وأمثالهم ممن يشق عليهم لسبب دائم ﴿فدية طعام مسكين﴾ فعليهم إذا أفطروا فدية طعام مسكين ـ عن كل يوم يفطرون فيه ـ من أوسط ما يطعمون منه أهليهم في العادة الغالبة، لا أعلاه ولا أدناه، يُطْعَمُ المسكين بقدر كفايته أكلة واحدة[1]، أو بقدر شبع المعتدل الأكلة ﴿فمن تطوع خيراً﴾ بأن زاد على تلك الأيام المعدودات ﴿فهو خير له﴾ لأن فائدته وثوابه له ﴿وأن تصوموا خير لكم﴾، أي: والصيام خير لكم عظيم، لما فيه من رياضة الجسد والنفس، وتربية الارادة وتغذية الإيمان بالتقوى، وتقويته بمراقبة الله تعالى وابتغاء مرضاته. قال أبو أمامة للنبي ﷺ مرني بأمر آخذه عنك قال: «عليك بالصوم فإنه لا مثل له» رواه النسائي بسند صحيح ﴿إن كنتم تعلمون﴾ وجه الخيرية فيه، لا إن كنتم تصومون تقليداً أو اتباعاً لعادات الخلطاء المعاشرين من غير فقه، ولا علم بسرّ الحكم، وكونه لمصلحتكم، لأن الله غني عنكم.

١٨٥ ـ ﴿شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن﴾، أي: تلك الأيام المعدودات أيام شهر رمضان، والحكمة في تخصيصه بهذه العبادة هي أنه الشهر الذي أنزل فيه القرآن ببعثة محمد خاتم النبيين ﷺ بالرسالة العامة الدائمة إلى آخر الزمان، والمراد بدء إنزاله وأوله ﴿هُدًى للنَّاسِ وبينات من الهدى﴾، أي: وآيات بينات واضحات لا لبس في حقيتها، ولا خفاء في حكمة أحكامها، من جنس الهدى الذي جاء به الرسل من قبل ولكنه أبينه وأكمله ﴿والفرقان﴾ الذي يفرق المهتدي به بين الحق والباطل، ويفصل بين الفضائل والرذائل، فحق أن يعبد الله تعالى فيه ما لا يعبد في غيره تذكراً لإنعامه بهذه الهداية وشكراً عليها ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ أي: وإذا كان الأمر كذلك، فمن حضر منكم دخول الشهر ـ وهو مقيم غير مسافر ـ فليصمه، وإنما يكون ذلك في أكثر البلاد

---

(١) قوله: «أكلة واحدة»، ما ذكره المؤلف في بيان «الفدية» روى مثله الدارقطني عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وذلك أن أَنَساً ضعف عاماً عن الصوم فصنع جَفْنَةً من ثريد فدعا ثلاثين مسكيناً فأشبعهم. وأخرج الدارقطني أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه عين قدر الإطعام بـ «نصف صاع من حنطة» عن كل يوم.

التي تتألف السنة فيها من اثنى عشر شهراً. وشهوده فيها يكون برؤية هلاله، فعلى كل من رآه أو ثبتت عنده رؤية غيره له أن يصوم، فإن لم يره أحد في الليل الثلاثين من شعبان كان أول رمضان ما بعده. ومن كان في بعض الأقاليم التي ليس فيها شهور معتدلة كالقطبين الشمالي والجنوبي وما يقرب منهما فعليه أن يصوم عدد تلك الأيام بتقدير أيامها بأيام البلاد المعتدلة ﴿ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أُخر﴾ أعيد ذكر الرخصة بعد تعظيم أمر الصوم في نفسه وتأكيده، لئلا يتوهم أن تأكيده ناسخ لها ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ هذا تعليل لما قبله، أي: يريد فيما شرعه من هذه الرُّخصة في الصيام وسائر ما يشرعه لكم من الأحكام، أن يكون دينكم يسراً تاماً لا عسر فيه ﴿ولتكملوا العدة﴾ وقرىء: «لتكملوا» بالتشديد من التكميل، واللام للتعليل، وهي معطوفة على التعليل المستفاد من قوله: «يريد الله بكم اليسر»، كأنه قال: رخص لكم في حالي المرض والسفر، لأنه يريد بكم اليسر، وأن تكملوا العدة، فمن لم يكملها أداءً لعذر المرض أو السفر، أكملها قضاءً بعده. وقيل: إنها لتقوية الفعل ﴿ولتكبروا الله على ما هداكم﴾ إليه من الأحكام النافعة لكم، بأن تذكروا عظمته وكبرياءه وحكمته في إصلاح عباده، وأنه يربيهم بما يشاء من الأحكام، ويؤدبهم بما يختار من التكاليف، ويتفضل عليهم عند ضعفهم بالرخص اللائقة بحالهم ﴿ولعلكم تشكرون﴾ له هذه النعم كلها، بالقيام بها على وجهها، وإعطاء كل من العزيمة والرخصة حقها.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

١٨٦ ــ ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾ هذا التفات عن خطاب المؤمنين كافة بأحكام الصيام، إلى خطاب الرسول ﷺ يعلمهم به ما يراعونه في هذه العبادة وغيرها، من الطاعة والاخلاص، والتوجه إليه وحده بالدعاء، جعل بأسلوب الفتوى على تقدير السؤال، لتنبيه الأذهان، والمراد: أن يؤمنوا بأن الله تعالى قريب منهم، ليس بينه وبينهم حجاب ولا ولي ولا شفيع يبلغه دعاءهم وعبادتهم، أو يشاركه في إجابتهم أو إثابتهم، ليتوجهوا إليه وحده حنفاء

مخلصين له الدين ﴿أجيب دعوة الداع﴾ منهم بنفسي من غير واسطة ﴿إذا دعان﴾ وتوجه إلي وحدي في طلب حاجته. ومن دعا معه غيره وجعله واسطة بينه وبينه فهو مشرك به لا يستحق إجابة دعائه ﴿فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي﴾، أي: وإذ كنت قريباً منهم مجيباً لدعوة من دعاني منهم، فليستجيبوا هم لي بتحري ما أمرتهم به من الإيمان والأعمال النافعة لهم، كالصيام وغيره مما أدعوهم إليه، وكما أجيب دعوتهم بقبول عبادتهم، وتولي إعانتهم ﴿لعلهم يرشدون﴾، أي: بالجمع بين الإيمان والإذعان للأمر والنهي. و«الرشد والرشاد»: ضد الغي والفساد.

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

١٨٧ ـ ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾، أي: أحل الله لكم فيها ما هو محرم في نهارها، من الرفث إلى نسائكم، وهو كناية عن الإفضاء إليهن ومباشرتهن، وأصل الرفث في اللغة: الحديث مع النساء بما هو خاص بشأن المباشرة الزوجية، أو: أعم ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾ اللباس مصدر كالقتال، أي: كل منكم يلابس الآخر ويخالطه، أو: كل منكم ستر للآخر مانع له بالإحصان من الاكتشاف لغيره ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾، أي: تنتقصونها بعض ما أحل الله لها من اللذات، فيكون بمعنى التخون: أي: النقص من الشيء[1].

---

(١) قوله: «أي: النقص من الشيء» هو آخر ما اختصره المؤلف، رحمه الله، وطبعه من مختصره لتفسير المنار، الذي كان ينوي إنجازه، ولكنه توفي قبل ذلك وهذا القسم الذي اختصره يقارب =

أو معناه: تخونون أنفسكم، إذ تعتقدون شيئاً ثم لا تلتزمون العمل به، فهو مبالغة من الخيانة، ﴿فتاب عليكم وعفا عنكم﴾، أي: إن الله قبل توبتكم، وعفا عن خيانتكم أنفسكم.

﴿فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ المباشرة هنا: كناية عن المباضعة الزوجية، وحقيقتها: مسُّ كُلٍّ بشرة الآخر، أي: ظاهر جلده، فهي كالملامسة في حقيقتها وكنايتها وهي من نزاهة القرآن، والمعنى: فالآن باشروهن إذ أحل لكم الرفث إليهن بالنص الصريح، النافي لما فهمتم من الإجمال في كتابة الصيام عليكم، فالأمر بالمباشرة للإباحة الناسخة أو النافية لذلك الحظر. ولا يكره لهما الاستمتاع بالمباشرة الزوجية بل هو مطلوب لإحصان كل منهما للآخر وصده عن الحرام. ولما قال ﷺ: «وفي بُضْع أي: جماع ـ أحدكم صدقة» قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟» قالوا نعم. قال: «فكذلك إذا وضعها في الحلال» ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾ أي: ويباح لكم الأكل والشرب كالمباشرة، عامة الليل، حتى يتبين لكم بياض الفجر فمتى تبين وجب الصيام. والخيط الأبيض: هو أول ما يبدو من الفجر الصادق، ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ فُهم من غاية وقت الأكل والشرب في الجملة السابقة مبدأُ الصيام، وذكر في هذه غايته وهي ابتداء الليل بغروب قرص الشمس وما يلزمه من ذهاب شعاعها عن جدران البيوت والمآذن، ولا يلزم أهل الأغوار والقيعان

= الجزء ونصف الجزء من أجزاء القرآن الكريم الثلاثين، فقمنا بعونه تعالى باختصار ما تبقى من «تفسير المنار» والتعليق حيث تدعو الحاجة، وهذا القسم عبارة عن تسعة أجزاء ونصف الجزء وزيادة، وهو من قوله: «أو معناه: تخونون أنفسكم» إلى أول الجزء الحادي عشر، وبالتحديد أول الآية «٩٤» من سورة «التوبة» وهي قوله تعالى: ﴿يعتذرون إليكم﴾ الآية. حيث سبق للمؤلف أن اختصر من أولها حتى آخر الآية «٤٨» من سورة «يوسف» عليه السلام وهي قوله تعالى: ﴿إلا قليلا مما تحصنون﴾ أي: ما مقداره جزءان إلا بضع آيات. ثم تابعنا اختصار سورة «يوسف» إلى آخرها مما فسره المؤلف منها ومن تتمتها للأستاذ العلامة الشيخ محمد بهجت البيطار، وهذا القسم يزيد قليلاً عن ربع الجزء الثالث عشر من أجزاء القرآن الكريم، وقد بينا ذلك في المقدمة فارجع إليها.

ذهاب شعاعها عن شناخيب الجبال العالية بعيدة كانت أو قريبة، وإنما العبرة بمغيب الشمس في أفقهم الذي يتلوه إقبال الليل. قال ﷺ: «إذا أدبر النهار وأقبل الليل وغابت الشمس فقد أفطر الصائم» متفق عليه. وزاد فيه البخاري: «من ههنا» عند ذكر الليل والنهار، والإشارة إلى المغرب والمشرق، وللمباني العصرية الشامخة حكمها في ذلك. ﴿ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد﴾ هذا استثناء من عموم إباحة المباشرة. والمقام مقام بيان وإيضاح لا يبقى معه للإبهام ولا للإيهام مجال، أي: ولا تباشروا النساء حال عكوفكم في المساجد للعبادة، فالمباشرة تبطل الاعتكاف ولو ليلاً كما تبطل الصيام نهاراً ﴿تلك حدود الله﴾ الإشارة إلى الأحكام التي تقدمت كلها، وسميت حدوداً لأنها حدت الأعمال، وبينت أطرافها وغاياتها حتى إذا تجاوزها العامل خرج عن حد الصحة وكان عمله باطلاً، والحد: طرف الشيء ومايفصل بين شيئين، أو «حدود الله»: محارمه المبينة بالنهي عنها أو بتحديد الحلال المقابل لها وقوله ﴿فلا تقربوها﴾ هو أبلغ في التحذير من قوله في آية أخرى «فلا تعتدوها» لأنه يرشد إلى الاحتياط، فمن قرب من الحد أوشك أن يعتديه. كالشاب يداعب امرأته في النهار، يوشك أن لا يملك إربه فيقع في المباشرة المحرمة، أو يفسد صومه بالإنزال، وكالمبالغة في المضمضة للصائم، وتعديه يتحقق بالوقوع فيما بعده، فالنهي عن الأول يفيد كراهته وشدة تحريم ما بعده، ولم ينهنا الله في كتابه عن قرب حدوده إلا في هذه الآية، وفي الزنا، ومال اليتيم، وقد تعدد فيه الوعيد على تعديها، وهذان من كبائر الإثم التي قلما يسلم من قربها من الوقوع فيها. ﴿كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾ أي: على هذا النحو من بيان أحكام الصيام، في أوله وآخره، وحقيقته، وعزيمته ورخصته، وفائدته وحكمته، يبين الله آياته للناس أتم البيان وأكمله، ليعدهم للتقوى، والتباعد عن الوهم والهوى.

وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

١٨٨ ـ الكلام كما تقدم: في سرد الأحكام العملية، ولما فرغ من أحكام الصيام وفيها حكم أكل الإنسان مال نفسه في وقت دون وقت، مهد لحكم أكل مال غيره بذكر الحدود العامة، والنهي عن قربها ثم قال: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ الخطاب لعامة المكلفين، والمراد: لا يأكل بعضكم مال بعض، واختار لفظ «أموالكم» وهو يصدق بأكل الإنسان مال نفسه، للإشعار بوحدة الأمة وتكافلها، وللتنبيه على أن احترام مال غيرك وحفظه، هو عين الاحترام والحفظ لمالك، لأن استحلال التعدي وأخذ المال بغير حق يعرض كل مال للضياع والذهاب، ففي هذه الإضافة البليغة تعليل للنهي، وبيان لحكمة الحكم، كأنه قال: لا يأكل بعضكم مال بعض بالباطل، لأن ذلك جناية على نفس الآكل، من حيث هو جناية على الأمة التي هو أحد أعضائها، لا بد أن يصيبه سهم من كل جناية تقع عليها، فهو باستحلاله مال غيره يجرِّيء غيره على استحلال أكل ماله عند الاستطاعة، والمراد بالأكل مطلق الأخذ، والتعبير عن الأخذ بالأكل، معروف في اللغة، تجوزوا فيه قبل نزول القرآن، ومنشؤه أن الأكل أعم الحاجات من المال وأكثرها، وإن كان بعض الناس يفضل غير الأكل من الأهواء ينفق فيه المال، فإن هذا لا ينفي أن الحاجة إلى الأكل وتقويم البنية أعظم وأعم. وأما الباطل: فهو ما لم يكن في مقابلة شيء حقيقي، وهو من البطل والبطلان، أي: الضياع والخسار، فقد حرمت الشريعة أخذ المال بدون مقابلة حقيقية يعتد بها، ورضاء مَنْ يؤخذ منه، وكذلك إنفاقه في غير وجه حقيقي نافع. ومنه تحريم الربا لأنه أكل لأموال الناس بدون مقابل من جانب المعطي، ويدخل في هذا الباب التعدي على الناس بغصب المنفعة بأن يسخر بعضهم بعضاً في عمل لا يعطيه عليه أجراً، أو ينقصه من الأجر المسمى أو أجر المثل، ويدخل فيه سائر ضروب التعدي والغش والاحتيال كما يقع من السماسرة فيما يذهبون فيه من مذاهب التلبيس والتدليس، إذ يزينون للناس السلع الرديئة والبضائع المزجاة، ويسولون لهم فيورطونهم، وكل من باع أو اشترى مستعيناً بإيهام الآخر ما لا حقيقة له ولا صحة بحيث لو عرف الخفايا وانقلب وهمه علماً لما باع أو لما اشترى فهو آكل لماله بالباطل. وبعد أن ذكر الأكل مجملاً عاماً، بين نوعاً منه خصه بالنهي عنه

مع دخوله في العام، لما يقع من الشبهة فيه لبعض الناس، إذ يعتقد بعضهم أن الحاكم ـ الذي هو نائب الشارع في بيان الحق ومنفذ الشرع ـ إذا حكم لإنسان بشيء، ولو بغير حق فإنه يحل له ولا يكون من الباطل فقال تعالى: ﴿وتدلوا بها إلى الحكام﴾ أي: ولا تلقوا بها إلى الحكام رشوة لهم ﴿لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾ إبطالاً لهذا الاعتقاد، ليعلم أن الحق لا يتغير بحكم الحاكم، بل هو ثابت في نفسه، وليس على الحاكم إلا بيانه وإيصاله إلى مستحقه بالعدل، وقد نقل النووي في شرح مسلم أن الشافعي حكى الإجماع على أن حكم الحاكم لا يحلل الحرام، لحديث[1] أم سلمة عند الجماعة: مالك وأحمد والشيخين وأصحاب السنن وهو أن النبي ﷺ قال: «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليَّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له بنحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار». والإدلاء: بمعنى الإلقاء، وقالوا: إنه في الأصل: إلقاء الدلو، واختير هذا التعبير لأنه يشعر بعدم الروية، والضمير في قوله تعالى ﴿بها﴾ قيل: إنه يرجع إلى الأموال، والمعنى: لا تلقوها إليهم بالرشوة، وقالوا: إن الرشوة رشاء الحكم، وقيل: إن المراد ولا تلقوا بحكومة الأموال إلى الحكام. والفريق من الشيء: الجملة والطائفة منه. و«الإثم»: فسره بعضهم بشهادة الزور وبعضهم باليمين الفاجرة، وهو أعم من ذلك والمراد بالعلم في قوله: «تعلمون» ما يشمل الظن، وهو احتراس عمن يأكل معتقداً أنه حقه.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾

١٨٩ ـ ﴿يسألونك عن الأهلة قل: هي مواقيت للناس والحج﴾ أي: مواقيت لهم في صيامهم وحجهم من العبادات، وفي نحو عدد النساء، وآجال

---

(١) قوله: «لحديث أم سلمة» هي: أم المؤمنين زوج النبي ﷺ، هند بنت حذيفة المخزومية، وقيل: بنت سهل، رضي الله عنها.

العقود من المعاملات، فإن التوقيت بها يسهل على العالم بالحساب والجاهل به، وعلى أهل البدو والحضر، فهي مواقيت لجمع الناس وأما السنة الشمسية فإن شهورها تعرف بالحساب فهي لا تصلح إلا للحاسبين، ولم يقدروا على ضبطها إلا بعد ارتقاء العلوم الرياضية بزمن طويل. وقد ورد في أسباب نزول الآية: أن بعضهم سأل النبي عن الأهلة مطلقاً، وأن بعضهم سأل لم خلقت؟ والروايتان عند ابن أبي[1] حاتم. ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ روى البخاري وابن جرير الطبري عن البراء بن عازب، رضي الله عنه، قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره فأنزل الله الآية. وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما، قال: كانت قريش تدعى الـحُمْس[2] وكانوا يدخلون من الأبواب في الإحرام، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الإحرام، فبينا رسول الله ﷺ في بستان إذ خرج من بابه وخرج معه قطبة بن عامر الأنصاري فقالوا: يا رسول الله إن قطبة بن عامر رجل فاجر، وإنه خرج معك من الباب، فقال له: «ما حملك على ما فعلت؟» قال: رأيتك فعلته ففعلتُ كما فعلتَ قال: «إني رجل أحمسي»[3] قال له: فإن ديني دينك، فأنزل الله الآية. وبعد أن أعلمهم الله تعالى في ذلك بين لهم البر الحقيقي فقال: ﴿ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ أي: إن البر هو تقوى الله تعالى بالتخلي عن المعاصي والرذائل، وعمل الخير، والتحلي بالفضائل، واتباع الحق واجتناب الباطل، فأتوا البيوت من أبوابها، وليكن باطنكم عنواناً لظاهركم بطلب الأمور كلها من مواضعها، واتقوا الله رجاء أن تفلحوا في أعمالكم، وتبلغوا غاية

---

(١) قوله: «عند ابن أبي حاتم» هو العالم المفسر: عبد الرحمن بن محمد الرازي المتوفي عام سبعة وعشرين وثلاثمائة هجرية، وأخرج ابن عساكر وأبو نعيم أنه ﷺ سئل: ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط، ثم يزيد حتى يعظم ويستدير، ثم لا يزال ينقص ويدق، حتى يعود كما كان، لا يكون على حال واحد، فنزلت.

(٢) قوله: «الـحُمْس» بسكون الميم ــ جمع «أَحْمَس» وهم: المتشدِّدون المشدِّدون على أنفسهم من أهل الجاهلية.

(٣) قوله ﷺ: «إني رجل أَحْمَسي» معناه: إني لا أَدين بذلك الذي تفعلونه أنتم بل متمسك بشرع الله تعالى.

آمالكم، فمن يتق الله يجعل له من أمره يسراً. و«الأهلة»: جمع هلال، وهو القمر في ليلتين أو ثلاث من أول الشهر على الأشهر، وقالوا: إنه مأخوذ من استهل الصبي إذا صرخ حين الولادة، وأهل بالحج رفع صوته بالتلبية، وأهلّ بذكر الله وباسم الله. وأَهَلَّ القوم واستهلوا رأوا الهلال.

وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾

١٩٠ ـ ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ يقول: أيها المؤمنون الذين تخافون أن يمنعكم مشركو مكة عن زيارة بيت الله والاعتمار فيه، نكثاً منهم للعهد، وفتنةً لكم في الدين، وتكرهون أن تدافعوا عن أنفسكم بقتالهم في الإحرام والشهر الحرام، إنني أذنت لكم في القتال على أنه دفاع في سبيل الله، لتتمكنوا من عبادته في بيته، وتربية لمن يفتنكم عن دينكم وينكث عهدكم، لا لحظوظ النفس وأهوائها، والضراوة بحب التسافك، فقاتلوا في هذه السبيل الشريفة من يقاتلكم ﴿ولا تعتدوا﴾ بالقتال فتبدأوهم، ولا في القتال فتقتلوا من لا يقاتل، كالنساء والصبيان والشيوخ والمرضى، أو: من ألقى إليكم السلم وكف عن حربكم، ولا بغير ذلك من أنواع الاعتداء كالتخريب وقطع الأشجار، علل الإذن بأنه مدافعة في سبيل الله وسيأتي تفصيله في الآية التالية، وعلل النهي بقوله: ﴿إن الله لا يحب المعتدين﴾ أي: إن الاعتداء من السيئات المكروهة عند الله تعالى لذاتها، فكيف إذا كان في حال الإحرام، وفي أرض الحرم والشهر الحرام؟ ثم قال:

وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾

١٩١ ـ ﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ أي: إذا نشب القتال فاقتلوهم

أينما أدركتموهم وصادفتموهم، ولا يصدنكم عنهم أنكم في أرض الحرم، إلا ما يستثنى في الآية بشرطه ﴿وأخرجوهم من حيث أخرجوكم﴾ أي: من المكان الذي أخرجوكم منه، وهو مكة، فقد كان المشركون أخرجوا النبي وأصحابه المهاجرين منها، بما كانوا يفتنونهم في دينهم، ثم صدوهم عن دخولها لأجل العبادة، فرضي النبي والمؤمنون على شرط أن يسمحوا لهم في العام القابل بدخولها لأجل النسك والإقامة فيها ثلاثة أيام. ثم زاد التعليل بياناً، فقال: ﴿والفتنة أشد من القتل﴾ أي: إن فتنتهم إياكم في الحرم عن دينكم بالإيذاء والتعذيب والإخراج من الوطن، والمصادرة في المال، أشد قبحاً من القتل، إذ لا بلاء على الإنسان أشد من إيذائه واضطهاده وتعذيبه على اعتقاده الذي تمكن من عقله ونفسه، ورآه سعادة له في عاقبة أمره. و«الفتنة» في الأصل: مصدر فتن الصائغ الذهب والفضة إذا أذابها بالنار ليستخرج الزَّغَلَ منهما. ثم استعملت للفتنة في كل اختبار شاق، وأشده الفتنة في الدين وعن الدين، ومنه قوله تعالى «أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون؟» وغير ذلك من الآيات.

وفسر بعضهم الفتنة هنا وفي الآية الآتية: بالشرك، ثم استثنى من الأمر بقتل هؤلاء المحاربين في كل مكان أدركوا فيه، المسجد الحرام فقال: ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه﴾ أي: إن من دخل منهم المسجد الحرام يكون آمناً إلا أن يقاتل هو فيه، وينتهك حرمته، فلا أمان له حينئذٍ.

ولما كان القتل في المسجد الحرام أمراً عظيمًا يُتَحَرَّج منه، أكد الإذن فيه بشرطه ولم يكتف بما فهم من الغاية، فقال: ﴿فإن قاتلوكم فاقتلوهم﴾ ولا تستسلموا لهم، فالبادىء هو الظالم، والمدافع غير آثم ﴿كذلك جزاء الكافرين﴾ أي: إن من سنة الله تعالى أن يجازي الكافرين مثل هذا الجزاء فيعذبهم في مقابلة تعرضهم للعذاب بتعدي حدوده فيكونوا هم الظالمين لأنفسهم. وقرأ حمزة والكسائي: «ولا تقتلوهم»، «حتى يقتلوكم» «فإن قتلوكم فاقتلوهم» من: «قتل» الثلاثي ويُخَرَّج: على أن قتل بعض الأمة كقتل جميعها لتكافلها. والمراد: حتى لا يقتلوا أحداً منكم فإن قتلوا أحداً فاقتلوهم، وهو أسلوب عربي بليغ، ثم قال:

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٩٢﴾

١٩٢ - ﴿فان انتهوا﴾ عن القتال فكفوا عنهم، أو عن الكفر فإن الله يقبل منهم، ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ يمحو عن العبد ما سلف، إذا هو تاب عما اقترف، ويرحمه فيما بقي، إذا هو أحسن واتقى «إن رحمة الله قريب من المحسنين».

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٩٣﴾

١٩٣ - ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ عطف على «قاتلوا» في الآية الأولى، فتلك بينت بداية القتال، وهذه بينت غايته، وهي: أن لا يوجد شيء من الفتنة في الدين[١]، أي: حتى لا تكون لهم قوة يفتنونكم بها ويؤذونكم لأجل الدين، ويمنعونكم من إظهاره، أو الدعوة إليه ﴿ويكون الدين لله﴾ وفي آية سورة الأنفال «ويكون الدين كله لله» أي: يكون دين كل شخص خالصاً لله، لا أثر لخشية غيره فيه، فلا يفتن لصده عنه ولا يؤذي فيه، ولا يحتاج فيه إلى الدهان والمداراة، أو الاستخفاء أو المحاباة، وقد كانت مكة إلى هذا العهد قرار الشرك، والكعبة مستودع الأصنام، فالمشرك فيها حر في ضلالته، والمؤمن مغلوب على هدايته، قال: ﴿فإن انتهوا﴾ أي: في هذه المرة عما كانوا عليه ﴿فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ أي: فلا عدوان عليهم لأن العدوان إنما يكون على الظالمين تأديباً لهم ليرجعوا عن ظلمهم، ففي الكلام إيجاز الحذف واستغناء عن المحذوف بالتعليل الدال عليه. ويجوز أن يكون المعنى: فإن انتهوا عما كانوا عليه من القتال والفتنة، فلا عدوان بعد ذلك إلا على من كان منهم ظالماً بارتكابه ما يوجب القصاص. أي: فلا يحاربون عامة وإنما يؤخذ المجرم بجريمته.

﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾

---

(١) قوله: «أن لا يوجد شيء من الفتنة في الدين»، هذا قول غير قوي لأن سياق الآية واضح في أن المراد بـ«الفتنة» الشرك، وهو الصحيح في معنى الآية خلافاً لما اعتمده المؤلف أي: قاتلوهم حتى لا يبقى شرك، ولا يكون دين غير الإسلام.

فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

١٩٤ ـ ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص﴾ ذكر هذه القاعدة حجة لوجوب مقاصة المشركين على انتهاك الشهر الحرام بمقابلتهم بالمثل، ليكون شهر بشهر جزاء وفاقاً. وفي جملة: «والحرمات قصاص» من الإيجاز ما ترى حسنه وإبداعه ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ وإنما يتحقق هذا فيما تتأتى فيه المماثلة، وسمى الجزاء اعتداء للمشاكلة، وقد استدل الإمام الشافعي بالآية وعلى وجوب قتل القاتل بمثل ما قتل به، بأن يُذبح إذا ذبح ويخنق إذا خنق، ويغرق إذا أغرق، وهكذا. والقصد أن يكون الجزاء على قدر الاعتداء بلا حيف ولا ظلم، وأزيد على هذا ما هو أولى بالمقام وهو المماثلة في قتال الأعداء كقتل المجرمين بلا ضعف ولا تقصير، فالمقاتل بالمدافع والقذائف النارية أو الغازية السامة يجب أن يقاتل بها، وإلا فاتت الحكمة لشرعية القتال، وهي: منع الظلم والعدوان، والفتنة والاضطهاد، وتقرير الحرية والأمان والعدل والإحسان. وهذه الشروط والآداب لا توجد إلا في الإسلام، ولذلك قال تعالى بعد شرح القصاص والمماثلة: ﴿واتقوا الله﴾ فلا تعتدوا على أحد، ولا تظلموا في القصاص بأن تزيدوا في الإيذاء. وأكد الأمر بالتقوى بما بيَّن من مزيتها وفائدتها فقال: ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ بالمعونة والتأييد، فإن المتقي هو صاحب الحق، وبقاؤه هو الأصلح، والعاقبة له في كل ما ينازعه به الباطل، لأن من أصول التقوى اتقاء جميع أسباب الفشل والخذلان.

ولما كان الجهاد بالنفس وهو القتال، يتوقف على الجهاد بالمال، أمرهم به فقال:

١٩٥ ـ ﴿وأنفقوا في سبيل الله﴾ وهو عطف على «قاتلوا» رابط لأحكام

القتال والحج بحكم الأموال السابق[1]، فهناك ذكر ما يحرم من أكل المال مجملاً، وههنا ذكر ما يجب من إنفاقه منه كذلك، و«سبيل الله»: هو طريق الخير والبر والدفاع عن الحق. ثم ذكر علة هذا الأمر وحكمته فقال: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ بالإمساك عن الإنفاق في الاستعداد للقتال، فإن ذلك يضعفكم، ويمكن الأعداء من نواصيكم، فتهلكون. ويدخل في النهي التطوُّح[2] في الحرب بغير علم بالطرق الحربية كما يدخل فيه كل مخاطرة غير مشروعة، بأن تكون لاتباع الهوى لا لنصر الحق وتأييد حزبه. وقال بعضهم: يدخل فيه الإسراف الذي يوقع صاحبه في الفقر المدقع فهو من قبيل «كلوا واشربوا ولا تسرفوا». وفي أسباب النزول عن أبي أيوب الأنصاري، رضي الله عنه، قال: نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه، قال بعضنا لبعض سراً: إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعز الإسلام، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله يرد علينا ما قلنا: «وأنفقوا» الآية، فكانت التهلكة: الإقامة على الأموال وإصلاحها وتَرْكَنا الغزو، رواه أبو داود والترمذي ـ وصححه ـ وابن حبان والحاكم وغيرهم. ثم قال تعالى ﴿وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾ الأمر بالإحسان على عمومه، أي: أحسنوا كل أعمالكم وأتقنوها، فلا تهملوا إتقان شيء منها، ويدخل فيه التطوع بالإنفاق.

وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى

(١) قوله: «بحكم الأموال السابق» أي: في قوله تعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ الآية ١٨٨. ص ١٤٤.

(٢) قوله: «والتطوح» أي: قذف نفسه في الحرب.

ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

١٩٦ ـ ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ العطف والتعبير بالإتمام، ظاهران في أن السياق في الكلام عن الحج، ولذلك لم يقل هنا: «كتب عليكم الحج» كما قال في الصيام. وقد كان الحج معروفاً في الجاهلية، لأنه فرض على عهد إبراهيم وإسماعيل، فأقره الإسلام في الجملة، ولكنه أزال ما أحدثوا فيه من الشرك والمنكرات، وزاد ما زاد فيه من المناسك والعبادات. والمراد بإتمام الحج والعمرة: الإتيان بهما تامين ظاهراً بأداء المناسك على وجهها، وباطناً بالإخلاص لله تعالى وحده، دون قصد الكسب والتجارة، أو الرياء والسمعة فيهما، ولا ينافي الإخلاص البيع والشراء في أثناء الحج، إذا لم تكن التجارة هي المقصودة في الأصل. وسيأتي التفصيل في حكم التجارة في الحج في تفسير «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم»، وأما الرياء وحب السمعة فإذا كان هو الباعث على الحج فالحج ذنب للمرائي لا طاعة، ومن الناس من يحج ليقال له: الحاج فلان، أو: ليحتفل بقدومه، وهذا من أخس ضروب الرياء، ومنهم يقترض بالربا ويحج، فيريد أن يعبد الله بأنكر المنكرات.

أمر بالإتمام، ثم ذكر حكم ما عساه يحول دونه فقال: ﴿فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي﴾ «الحصر والإحصار» في اللغة: الحبس والتضييق، يقال: حصره عن السفر وأحصره عنه إذا حبسه ومنعه، وقال بعض أئمة اللغة إن الإحصار هو المنع بسبب الناس، والحصر: بسبب المرض، وقال بعضهم بالعكس، وقوله تعالى الآتي بعد «فإذا أمنتم» ، يرجِّح أن المراد بالإحصار منع العدو، أي: إن منعتم من إتمام النسك فعليكم ما تيسر لكم وسهل حصوله وثمنه من الهدي، وهو ما يهدي الحاج والمعتمر إلى البيت الحرام من النَّعم ليذبح ويفرق على فقرائه،وذهب الجمهور إلى أن المراد بـ «ما استيسر»:الشاة وهي أدناه وقال ابن عمر وعائشة وابن الزبير: جمل أو بقرة، والمتبادر من الآية أن على كل أحد ما استيسر له من بدنة أو بقرة أو شاة،قال ابن عباس: وما عظم فهو أفضل.

والجمهور على أن يذبحه حيث أحصر ولو في الحل ويتحلل، لأنه عليه الصلاة والسلام ذبح عام الحديبية بها وهي من الحِلّ على الأرجح. وقال الحنفية: يبعث به إلى الحرم ويجعل للمبعوث بيده يوم أمارة فإذا جاء اليوم وغلب على ظنه أنه ذبح تحلل.

ثم قال: ﴿ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله﴾ الدخول في الحج أو العمرة يكون بالإحرام، وهو: نية النُسك عند الابتداء به بالتلبية، ولبس غير المخيط، من إزار ورداء، مع كشف الرأس للرجل، ولبس النعلتين العربيين، والخروج منها[1] ـ ويعبر عنه بالإحلال والتحلل ـ يكون بحلق الرأس، أو تقصير شعره، فالنهي عن الحلق هنا عبارة عن النهي عن الإحلال قبل بلوغ الهدي إلى المكان الذي يحل ذبحه فيه، وهو في حال الإحصار حيث يحصر الحاج، وإلا فالكعبة لقوله تعالى «هدياً بالغ الكعبة»، وقوله «ثم محلها إلى البيت العتيق»، واستدل الحنفية بهذا على عدم جواز نحر الهدي في محل الإحصار، وحجة الجمهور: فعل النبي ﷺ في الحديبية، وأن الأصل في الهدي أن يبلغ الكعبة، لأنه مهدي إليها، وحال الإحصار حال ضرورة، ولا سيما إحصار السنة التي أنزلت فيها الآية، فقد كانت الكعبة في أيدي المشركين، فلا يعقل أن يأمر الله تعالى بإرسال الهدي إليها فيكون غنيمة لهم، على أن إبلاغه محله في حال الإحصار يكون متعذراً أو متعسراً، فكيف يتوقف الإحلال عليه؟ والهدي: جمع «هَدْية»، كـ«تَمْر» و«تَمْرَة»، و«المحل» بكسر الحاء: اسم مكان من «حَلَّ يَحِل حلاً» أي: صار حلالاً، ضد «حرم يحرم» إذا صار حراماً. ثم ذكر حكم من يؤذيه عدم الحلق فقال: ﴿فمن كان منكم مريضاً﴾ مرضاً ينفعه فيه الحلق ويضره عدمه ﴿أو به أذى من رأسه﴾ كقمل أو جرح ﴿ففدية من صيام أو صدقة أو نسك﴾ أي: فعليه إن حلق فدية من هذه الأجناس الثلاثة على التخيير. أخرج البخاري من حديث كعب بن عُجْرة قال: وقف عليّ رسول الله ﷺ بالحديبية ورأسي يتهافت قملاً، فقال: «يؤذيك هَوَامُّك؟» قلت: نعم، قال: «فاحلق رأسك» قال: فنزلت هذه الآية وذكرها، فقال النبي ﷺ: «صم

---

(١) قوله: «منها» أي: من الحج والعمرة.

ثلاثة أيام أو تصدق بفرقٍ بين ستة أو أنسك بما تيسر»، قال البخاري: وعنه رضي الله عنه أنه قال: نزلت فيَّ خاصة وهي لكم عامة. والفَرْقَ:[1] مكيال بالمدينة يسع ستة عشر رطلاً، والمراد هنا: ما يكال فيه من تمر وغيره من الأقوات. وقوله: «بين ستة»، أي: من المساكين، والنسك ههنا: قال ابن عبد البر، لا خلاف بين العلماء في أنه شاة. ثم قال تعالى: ﴿فإذا أمنتم﴾ الإحصار، وذهب خوف العدو، قال بعض الفقهاء: ومثله المرض، أو كنتم في حال أمن وسعة ﴿فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي﴾ أي: فمن تمتع بمحظورات الإحرام، بسبب العمرة، أي: أدائها بأن أتمها وتحلل، وبقي متمتعاً إلى زمن الحج، ليحج من مكة، فعليه ما استيسر له من الهدي، أي: فعليه دمُ جَبْرٍ، أقله شاة ـ لأنه أحرم بالحج من غير الميقات ـ يذبحه يوم النحر أو قبله جوازاً عند بعضهم، أو: المعنى فمن قام بأعمال العمرة قبل الحج منتهياً إليه فعليه ذلك ﴿فمن لم يجد﴾ الهدي لعدمه، أو عدم المال ﴿فصيام ثلاثة أيام في الحج﴾ أي: فعليه صيامها في أيام الإحرام بالحج، وتمتد إلى يوم النحر[2]، وقال أبو حنيفة: في أَشْهُرِهِ بين الإحرامين، وهذا أوسع ﴿وسبعة إذا رجعتم﴾ من الحج إلى بلادكم، ويَصْدُقُ بالشروع في الرجوع، وعليه الأئمة الثلاثة، وغيرهم من السلف قالوا بجزئه الصوم في الطريق ولا يتضيق عليه إلا إذا وصل إلى وطنه، وقال مالك: إذا رجع من منى فلا بأس أن يصوم، وقال أبو حنيفة معناه: إذا فرغتم من أعمال الحج، فيجوز الصوم عنده قبل الشروع بالرجوع إلى الوطن، وقوله تعالى: ﴿تلك عشرة كاملة﴾ إشارة إلى الثلاثة والسبعة، مبين لجملة العدد الواجب، كما بُيِّنَ تفصيله، ومزيلٌ لوهم من عساه يتوهم: أن الواو العاطفة للسبعة للتخيير، كما عليه بعض العرب في مثل: جالس الحسن وابن سيرين. وروي أن بعض العرب كانوا يستعملون عدد السبعة للكثرة في الآحاد كما يستعملون عدد السبعين لغاية الكثرة فالفذلكة تزيل

---

(١) قوله: «والفرق» هو بفتح الفاء وسكون الراء، وقد تفتح الراء أيضاً.

(٢) قوله: «وتمتد إلى يوم النحر»، أي: ولكن لا يصومه للنهي عن صيام أيام العيدين.

وهم هؤلاء أيضاً ولذلك أكدها بقوله: «كاملة». ثم بَيـنَّ تعالى: أن التمتع بالعمرة مضمـومة إلى الحـج، أو إلى، وقت الإحرام بـالحج ومـا يتبعه من الأحكام، خاص بالآفاقيين دون أهل الحرم، فقال: ﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ وذلك أن أهل الآفاق، هم الذين يحتاجون إلى هذا التمتع، لما يلحقهم من المشقة بالسفر إلى الحج وحده، ثم السفر إلى العمرة وحدها، هذا ما عليـه الحنفية، فلا متعة ولا قران عندهم لحاضري المسجد الحرام، وقال غيرهم كالشافعية: إن الإشارة إلى أقرب مذكور، وهو الجزاء على التمتع من الهدي أو بدله لأن الآفاقي إذا تمتع يحرم بالحج من مكة لا من الميقات، فيكون حجه ناقصاً يجبر بالهدي، أو بدله إذا لم تجده، ثم ختم الآية بالأمر بتقوى الله المقصودة من كل أمر ونهي، والإعلام بشدة عقوبته لمن لم يتقه فقال: ﴿واتقوا الله﴾ بالمحافظة على امتثال هذه الأوامر والنواهي وغيرها من ضروب الهداية التي فيها سعادتكم ﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ بما جعل عاقبة التفريط والإضاعة شديدة على المفرطين في الدنيا والآخرة، فإذا علمتم ذلك علمًا صحيحاً، رُجي لكم الاستمساك بحبل التقوى وكنتم من المفلحين. وأما من لم يكن على صحة علم بسر وعيد الله تعالى، بأن ظن أنه تعالى يخلفه، وإن لم يتب ويتق صاحبه، فهو من الخاسرين.

ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾

١٩٧ ــ قوله تعالى: ﴿الحج أشهر معلومات﴾ معناه أن الوقت الذي يؤدي فيه الحج، أشهر يعلمها الناس، وهي: شوال وذو القعدة وذو الحجة، أي: إنه يؤدى في هذه الأشهر، ولا يلزم أن يكون من أول يوم منها إلى آخر يوم، بل معناه: أنه يصح الإحرام به من غُرَّة أولها، وتنتهي أركانه وواجباته في أثناء آخرها، فالوقوف: في التاسع من ذي الحجة، وبقية المناسك في أيام العيد، وهي يوم النحر الذي فسر به قوله تعالى «يوم الحج الأكبر»، وأيام

التشريق، وجوز بعض السلف تأخير طواف الإفاضة إلى آخر ذي الحجة.
﴿فمن فرض فيهن الحج﴾ أي: أوجبه وألزمه نفسه بالشروع فيه ﴿فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾ تقدم تفسير الرفث في آيات الصيام[1]، وأنه كناية عن الجماع. والفسوق: الخروج عن حدود الشرع بأي فعل محظور، وقيل: إن المراد به الذبح للأصنام خاصة، وخصه بعضهم بالسباب والتنابز بالألقاب. والجدال: هو المراء بالقول، وهو يكثر عادة بين الرفقة والخدم في السفر لأن مشقته تضيق الأخلاق. هذا هو المشهور. والنكتة في منع هذه الأشياء تعظيم شأن الحرم وتغليظ أمر الإثم فيه، إذ الأعمال تختلف باختلاف الزمان والمكان، فللملأ آداب غير آداب الخلوة مع الأهل، ويقال في مجلس الأخوان، ما لا يقال في مجلس السلطان، ويجب أن يكون المرء في أوقات العبادة والحضور مع الله تعالى على أكمل الآداب وأفضل الأحوال، وأما السر فيها فهو أن يتمثل الحاج أنه بزيارته لبيت الله تعالى مقبل على الله تعالى قاصد له، فيتجرد عن عاداته ونعيمه، وينسلخ من مفاخره ومميزاته على غيره، بحيث يساوي الغني الفقير، ويماثل الصعلوك الأمير، وفي حديث أبي هريرة في الصحيحين: «من حج ولم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»، وذلك أن الإقبال على الله تعالى بتلك الهيئة، والتقلب في تلك المناسك على الوجه المشروع، يمحو من النفوس آثار الذنوب وظلمتها، ويدخلها في حياة جديدة، لها فيها ما كسبت وعليها ما اكتسبت. ثم قال تعالى بعد النهي عن هذه المحظورات: ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾ وفيه التفات إلى الخطاب، ويشعر العطف بمحذوف تقديره: أن اتركوا هذه الأمور الممنوعة في الحج، لتخلية نفوسكم وتصفيتها، وحلوها بعد ذلك بفعل الخير لتتم لكم تزكيتها، فإن النفوس بعد ذلك تكون أشد استعداداً للإتصاف بالخير، والله لا يضيع عليكم أقل شيء منه، لأنه عالم به وبأنكم وافقتم فيه سنته وشريعته. ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾ قالوا: إن هذا نزل في ردع أهل اليمن عن ترك التزود زعماً أنه من مقتضى التوكل على الله، فقد أخرج البخاري وأبو داود والنسائي

---

(١) قوله: «في آيات الصيام» هي الآيات ١٨٣ وما يليها من سورة البقرة ص ١٣٨.

وغيرهم عن ابن عباس أنه قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون: نحن متوكلون، ثم يقدمون فيسألون الناس، فنزلت، والزاد هو زاد الأعمال الصالحة، وما تدخر من الخير والبر، كما يرشد إليه التعليل في قوله «فإن خير الزاد التقوى» والمعنى من التقوى معروف، وهو: ما به يتقى سخط الله، وليس ذلك إلا البر والتنزه عن المنكر[1] ﴿واتقون يا أولي الألباب﴾ يعني: من كان له لب وعقل فليتقني، فإنه يكون على نور من فائدة التقوى، وأهلاً للإنتفاع بها ويدخل في فعل الخير والطاعة الأخذُ بالأسباب كالتزود، وتحامي وسائل الحاجة إلى السؤال المذموم والله أعلم.

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾

١٩٨ ــ قوله عز وجل: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ متصل بما قبله، واقع موقع الاستدراك والاحتراس، مما عساه يسبق إلى الفهم من الأمر بالتزود من التقوى، وهو أن أيام الحج لا يباح فيها غير أعمال البر والخير، فيحرم فيها ما كانت عليه العرب في الجاهلية من التجارة والكسب في الموسم، كما يحرم الرفث والفسوق والجدال الذي هو من لوازم التجارة غالباً،

---

(١) قوله: «وليس ذلك إلا البر والتنزُّه عن المنكر»، لا يرى المؤلف أن معنى الآية يتطابق مع سبب نزولها الذي أشار إليه، بل يراها عامة كما ذكر. ونقول: إن سبب النزول لا يتعارض مع المعنى الذي ذكره المؤلف، فالله تعالى أمر أولئك الذين لم يكونوا يحملون زاداً لسفرهم، بالتـزود، لافتاً إلى أمر أسمى من ذلك وأرفع ألا وهو زاد الآخرة، الذي هو تقوى الله عز وجل، فقال لهم: ﴿وتزودوا﴾ لحجكم وسفركم بما تحتاجون إليه من مؤونة ومال، ولا تنسوا أن خير زاد وأبقاه وأنفعه لكم هو زاد التقوى. وبذلك يحصل الجمع بين المأثور والمعنى العام للآية. وسبب النزول رواه البخاري، وأبو داود، والنسائي.

والترفه بزينة اللباس المخيط، والحلق والإفضاء إلى النساء، فأزال هذا الوهم من الفهم، وعلمنا: أن الكسب في أيام الحج مع ملاحظة أنه فضل من الله غير محظور، لأنه لا ينافي الإخلاص له في هذه العبادة، وإنما الذي ينافي الإخلاص هو أن يكون القصد إلى التجارة، بحيث لو لم يرجُ الكسب لم يسافر لأجل الحج. فالمراد من الآية: أن الكسب مباح في أيام الحج، إذا لم يكن هو المقصود بالذات، وأنه مع حسن النية وملاحظة أنه فضل من الله تعالى يكون فيه نوع عبادة، وأن التفرغ للمناسك في أيام أدائها أفضل، والتنزه عن جميع حظوظ الدنيا في تلك البقاع الظاهرة أكمل. ﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام﴾ الإفاضة من المكان: الدفع منه، مستعار من: إفاضة الماء، وأصله أفضتم أنفسكم، ويقال أيضاً: أفاض في الكلام إذا انطلق فيه كما يفيض الماء ويتدفق، و«عرفات» معروفة، وهي: موقف الحاج في النسك، يجتمع فيها كل عام ألوف كثيرة من الناس، وقد جاء هذا الاسم بصيغة الجمع، وقيل: إنه جمع وضع لمفرد «كأذرعات» وهو مرتجل، وذكروا وجوهاً للتسمية أحسنها: أنه يتعرف فيه الناس إلى ربهم بالعبادة، أو أنه يشعر بتعارف الناس فيه، و«عرفة»: اسم لليوم الذي يقف فيه الحجاج بعرفات، وهو تاسع ذي الحجة. والوقوف بعرفات أعظم أركان الحج وكلها موقف. والمشعر الحرام: جبل المزدلفة يقف عليه الإمام، ويسمى قزح (بضم ففتح)، وسمي «مشعراً» لأنه معلَّم للعبادة ووصف بالحرام لحرمته، والمعنى: أنه يطلب من الحاج إذا دفع من عرفات إلى المزدلفة، أن يذكر الله عند المشعر الحرام فيها بالدعاء والتكبير والتهليل والتلبية، وقيل بصلاة العشائين جمعاً. والمبيت بمزدلفة ــ وتسمى «جمعاً» ــ من جملة المناسك. والقرآن لم يبين كل المناسك بل المهم، وبين النبي ﷺ الباقي بالعمل وقال: «لتأخذوا عني مناسككم فإني لا أدري، لا أحج بعد حجتي هذه» رواه مسلم. ثم قال: ﴿واذكروه كما هداكم﴾ أي: اذكروه ذكراً حسناً، كما هداكم هداية حسنة، إذا أنجاكم من الشرك واتخاذ الوسطاء، كما كنتم في الجاهلية تذكرونه مع ملاحظة غيره بينكم وبينه لا يفرغ قلبكم له. وكانوا يقولون في التلبية: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك». فالكاف للتشبيه لا للتعليل كما قيل ﴿وإن كنتم من قبله لمن

الضالين﴾ أي: وإنكم كنتم من قبله من زمرة الضالين عن الحق، في عقائدكم وأعمالكم، الراسخين في الضلال.

١٩٩ ـ ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ جعل بعضهم الخطاب هنا لقريش خاصة، إذ ورد في حديث عائشة عند الشيخين: أن قريشاً ومن دان دينهم وهم الحُمْسُ(١) كانوا يقفون في الجاهلية بمزدلفة ترفعاً عن الوقوف مع العرب في عرفات، فأمر الله نبيه أن يأتي عرفات ثم يقف بها، ثم يفيض منها، أي: إبطالاً لما كانت عليه قريش، فالمراد بهذه الإفاضة: الدفع من عرفات كالأولى، قال: و«ثُمَّ» للترتيب في الذكر، ولكن المتبادر: أن المراد بالإفاضة هنا الدفع من مزدلفة، لأنه ذكر الدفع من عرفات في خطاب المؤمنين كافة، وهو لا يكون إلا بعد الوقوف، فعلم أنهم سواء في الوقوف بعرفات وفي الإفاضة منها إلى المزدلفة، وقوله: «ثم» يفيد أن الإفاضة من مزدلفة يجب أن تكون مرتبة على الإفاضة من عرفات ومتأخرة عنها، ففيه تأكيد إبطال تلك العادة، وقوله: ﴿من حيث أفاض الناس﴾ يشعر بأنه لا معنى للامتياز في الموقف ترفعاً عن الناس، إذ كانوا بعد ذلك يتساوون في الإفاضة، فإن غير قريش من العرب كانوا يفيضون من المزدلفة أيضاً، فالآية تتضمن إبطال ما كانت عليه قريش مع كون المراد بالإفاضة فيها: الدفع من مزدلفة، ولعل هذا هو المراد من الأثر وأنه روي بالمعنى، وقوله: ﴿واستغفروا الله﴾ يراد به الاستغفار مما أحدثوا بعد إبراهيم من تغيير المناسك، وإدخال الشرك وإعماله فيها، وإلا فهو استغفار من الضلال الذي ذكرهم به في الآية قبلها، ومن عامة الذنوب في الحج وغيره، وهذا هو الذي يوجه إلى من بعد أولئك الذين أسلموا في الصدر الأول بعد أن كانوا مشركين ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي: واسع المغفرة والرحمة لمن استغفره تائباً منيباً.

فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا

---

(١) قوله: «وهم الحمس» تقدم بيان من هم في تفسير الآية ١٨٩. ص ١٤٦.

فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ * وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

٢٠٠ ــ ﴿فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا﴾ كان للعرب في الجاهلية مجامع في الموسم يفاخرون فيها بآبائهم ويذكرون أنسابهم وفعالهم، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم يقول الرجل منهم: كان أبي يطعم ويحمل الحمالات ــ أي: يحمل الديات ــ ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم، فأنزل الله هذه الآية. فأمرهم الله تعالى بأن يذكروا الله تعالى بعد قضاء المناسك، وهي أعمال الحج، كما كانوا يذكرون آباءهم في الجاهلية أو أشد من ذكرهم إياهم. وقد كان في حجة الوداع أن خطب النبي في اليوم الثاني من أيام التشريق فأرشدهم إلى ترك تلك المفاخرات. وروى أحمد من حديث أبي نضرة قال: حدثني من سمع خطبة النبي ﷺ في أوسط أيام التشريق، فقال: «يا أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، أبلغت؟» قالوا: بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقوله تعالى «أو أشد ذكراً» معناه: اذكروه أشد من ذكركم آباءكم وفيه من الإيجاز ما ترى حسنه. ثم بين تعالى أن الذين يذكرونه فيدعونه على قسمين: ﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق﴾ «الخلاق»: النصيب والحظ، ذكر تعالى أن هذا الفريق يطلب حظ الدنيا مطلقاً، ولم يقل إنه يطلب حسنة فيها، لأن من كانت الدنيا كل همه لا يبالي أكانت شهواته وحظوظه حسنة أم سيئة، فهو يطلب الدنيا من كل باب، ويسلك إليها كل طريق، لا يميز بين نافع لغيره ولا ضار، فباستيلاء حب الدنيا

عليه، لم يكن للآخرة موضع من نفسه يرجوه ويدعو الله فيه، كما أنه لا يخاف ما توعد الله به المجرمين فيها فيلجأ إليه تعالى بأن يقيه شره، وبالله ما أبلغ حذف مفعول: «آتنا» في هذا المقام،فهو من دقائق الإيجاز التي تحار فيها الأفهام، وتعجز عنها قرائح الأنام، فإنه بدلالته على العموم يشمل كل ما يعنى به أفراد هؤلاء الناس المتفاوتي الهمم المختلفي الأهواء، من الحظوظ والشهوات، حسنها وقبيحها، خيرها وشرها، كبيرها وخسيسها، وما لا يليق ذكره منها. وقد اختلف المفسرون في تعيين هذا الفريق، فقيل: هم الكفار الذين لا يؤمنون بالآخرة، واستدلوا بما روي عن ابن عباس وأنس من دعاء المشركين في ذلك المقام بحظوظ الدنيا، وقيل: هم المسلمون الذين لم تمس أسرار الدين وحكمه قلوبهم، ولم تشرق أنوار هدايته على أرواحهم، بل اكتفوا بالتقليد في رسومه الظاهرة، فكان همهم في الدنيا دون الآخرة، ولا شك أن هذا القسم موجود في المسلمين كما وجد في كل أمة.

٢٠١ ـ ﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة﴾ أي: ومنهم من يطلب خير الدنيا والآخرة جميعاً، لا حظوظ الدنيا وحدها كيفما كانت. وقد اختلف المفسرون في تعيين الحسنة، هل هي العافية؟ أو الكفاف؟ أو المرأة الصالحة؟ أو الأولاد الأبرار؟ أو المال الصالح؟ أو العلم والمعرفة؟ أو العبادة والطاعة؟ وروي بعض هذه الأقوال عن بعض السلف، ولعل كل ذي قول يطلقها على المهم عنده، والظاهر أن «حسنة» وصف لمحذوف أي: حياة حسنة، وانظر بم تكون حياة المرء حسنة فيكون سعيداً في الدنيا فمن دعا الله تعالى دعاء إجمالياً فليدعه بسعادة الدنيا والآخرة، والحياة الطيبة فيهما، يكن مهتدياً بالآية، ومن كانت له حاجة خاصة فدعاه لها من حيث هي حسنة فهو مهتد بها، على أنهم اختلفوا في حسنة الآخرة أيضاً فقيل: الجنة، وقيل: الرؤية[1]. ﴿وقنا عذاب النار﴾ أي: احفظنا من الشهوات والذنوب المؤدية إليها، فطلب الحياة الحسنة في الدنيا، يكون بالأخذ بأسبابها المجربة في الكسب

(١) قوله: «وقيل الرؤية» أي: رؤية الله تعالى الثابتة للمؤمنين المحسنين في الجنة، حيث يكرمهم الله تعالى برؤيته رؤية تليق بذاته تعالى. وقد نفى الرؤية بعض الفرق الضالة.

والنظام في المعيشة، وحسن معاشرة الناس بآداب الشريعة والعرف، وقصد الخير في الأعمال كلها، وتوقي الشرور كلها.

وطلب الحياة الحسنة في الآخرة يكون بالإيمان الخالص، ومكارم الأخلاق والعمل الصالح بقدر الاستطاعة.

وطلب الوقاية من النار يكون بترك المعاصي واجتناب الرذائل والشهوات المحرمة مع القيام بالفرائض المحتمة.

ثم قال تعالى بياناً لمن يسأل عن حظ هؤلاء:

٢٠٢ ـ ﴿أولئك لهم نصيب مما كسبوا﴾ الإشارة بـ«أولئك» إلى الذين يطلبون سعادة الدارين، والحسنة في المنزلتين، لأن حكم الفريق الذي يطلب الدنيا وحدها قد علم من قوله تعالى «وما له في الآخرة من خلاق» ﴿والله سريع الحساب﴾ يوفي كل كاسب أجره عقب عمله بحسبه، لأن سنته مضت بأن تكون الرغائب آثار الأعمال، فهو يوفي كل عامل عمله بلا إبطاء، وكما يكون الجزاء سريعاً في الدنيا كذلك يكون في الآخرة، فإن أثر الأعمال الصالحة يظهر للمرء عقب الموت، وهو أول قدم يضعها في باب عالم الآخرة. وهذا أحسن بيان لما قالوه في تفسير سريع الحساب من أنه إجابة الدعاء. والأكثرون على أن المراد حساب الآخرة، واختلفوا في كيفية ذلك على أقوال، أقربها إلى التصور: أن سرعة الحساب عبارة عن إطلاع كل عامل على عمله، أو إعلامه بما له مما كسب.

٢٠٣ ـ ﴿واذكروا الله في أيام معدودات﴾ حكى القرطبي عن الحافظ ابن عبد البر وغيره: الإجماع على أن الأيام المعدودات هي أيام منى، وهي أيام التشريق الثلاثة، من حادي عشر ذي الحجة إلى ثالث عشره، ويؤيده حديث عبد الرحمن بن يعمر عند أحمد وأصحاب السنن الأربعة وغيرهم قال: إن ناساً من أهل نجد أتوا رسول الله ﷺ وهو واقف بعرفة، فسألوه، فأمر منادياً ينادي: «الحج عرفة من جاء ليلة جمع ـ أي: مزدلفة ـ قبل طلوع الفجر فقد أدرك، أيامُ منى ثلاثة أيام فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه»

وأردف رجلاً ينادي بهن، أي: أركب رجلاً وراءه ينادي بهذه الكلمات، ليعرف الناس الحكم وهو أن من أدرك عرفة ولو في الليلة التي ينفر بها الحاج إلى المزدلفة للمبيت فيها وهي الليلة العاشرة من ذي الحجة، فقد أدرك الحج، وأن أيام منى ثلاثة وهي التي يرمون فيها الجمار وينحرون فيها هديهم وضحاياهم، فمن فعل ذلك في اليومين الأولين منها جاز له، ومن تأخر إلى الثالث جاز له، بل هو الأفضل لأنه الأصل وفيه زيادة في العبادة. فالحديث مفسر للأيام المعدودات، وعليه العمل عند أهل العلم كما قال الترمذي في جامعه. وقد جعل الله تعالى التخيير في التعجيل والتأخير مشروطاً بالتقوى فقال: ﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى﴾ أي: من استعجل في تأدية الذكر عند هذه الأعمال التعبدية المعلومة، وهي رمي الجمرات في يومين من تلك الأيام المعدودات فلا حرج عليه، ومن أتمها كذلك إذا اتقى في كل منهما الله تعالى ووقف عند حدوده، فإن تحصيل ملكة التقوى هي الغرض من الحج ومن كل عبادة، والوسيلة الكبرى إليها كثرة ذكر الله تعالى بالقلب مع اللسان، حتى يغلب على مراقبته في جميع الأحوال، فيكون عبداً له لا للأهواء والشهوات، وإنما تلك الأعمال مذكرات للناسي. ثم أمر بالتقوى بعد الإعلام بمكانتها، فقال: ﴿واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾ أي: اتقوه في حال أداء المناسك، وفي جميع أحوالكم، وكونوا على علم يقين بأنكم تجمعون وتساقون إليه في يوم القيامة، فيريكم جزاء أعمالكم والعاقبة للمتقين «تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً»، فإن العلم بذلك هو الذي يؤثر في النفس فيبعثها على العمل وأما من كان على ظن أو شك، فإنه يعمل تارة ويترك أخرى لتنازع الشكوك قلبه. ومن فوائد هذا الأسلوب أن تكرار الأمر بالذكر وبيان مكانة التقوى ثم الأمر بها تصريحاً في هذه الآيات التي فيها من الإيجاز ما هو في أعلى درجات الإعجاز، حتى سكت عن بعض المناسك الواجبة للعلم بها، كل ذلك يدلنا على أن المهم في العبادة ذكر الله تعالى الذي يصلح النفوس وينير الأرواح، حتى تتوجه إلى الخير وتتقي الشرور والمعاصي فيكون صاحبها من المتقين. ثم يرتقي في فوائد الذكر وثمراته فيكون من الربانيين.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾

٢٠٤ ـ ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا﴾ يقال: أعجبه الشيء، إذا راقه واستحسنه ورآه عجباً، أي: طريفاً غير مبتذل، والخطاب عام، وفي قوله: «في الحياة الدنيا» وجهان: أحدهما: أن من الناس فريقاً يعجبك قوله وأنت في هذه الحياة لأنك تأخذ بالظواهر، وهو منافق اللسان يظهر خلاف ما يضمر، ويقول ما لا يفعل فهو يعتمد على خلابة لسانه، في غش معاشريه وأقرانه، يوهمهم أنه مؤمن صادق، نصير للحق والفضيلة، خاذل للباطل والرذيلة، متق لله في السر والعلن، مجتنب للفواحش ما ظهر منها وبطن، لا يريد للناس إلا الخير، ولا يسعى إلا في سبيل النفع ﴿ويشهد الله على ما في قلبه﴾ أي: يحلف بالله أن ما في قلبه موافق لما يقول ويدعي. وفي معنى الحلف أن يقول الإنسان: الله يعلم أو يشهد بأنني أحب كذا وأريد كذا. قال العلماء: إن هذا آكد من اليمين، ولا خلاف في أن من قاله كاذباً يكون مرتداً لأنه نسب الجهل إلى الله تعالى وأقول إن أقل ما يدل عليه عدم المبالاة بالدين ولو لم يقصد صاحبه نسبة الجهل إلى الله عز وجل فهو قول لا يصدر إلا عن المنافقين الذين «يخادعون الله والذين آمنوا» فإن أحدهم ليبالغ في الخلابة والتودد إلى الناس بالقول ﴿وهو ألد الخصام﴾ أي: وهو في نفسه أشد الناس مخاصمة وعداوة لمن يتودد إليهم، أو هو أشد خصمائهم، على أن «الخصام» جمع: «خصم» كـ «كعاب» جمع «كَعْب» وهو المختار، واللَّدَدُ: شدة الخصومة، وفيه وجه آخر قاله بعضهم، وهو: أن الخصام بمعنى الجدال أي: وهو قوي المعارضة في الجدل، لا يعجزه أن يختلب الناس، ويغشهم

بما يُظهر من الميل إليهم وإسعادهم في شؤونهم ومصالحهم. وأما بيان سوء حاله، وفساد أعماله، فهو في الآيتين التاليتين، وقد مهد لهما بقوله تعالى: «في الحياة الدنيا»، والتمهيد في بداية الكلام، للمراد منه في غايته، من ضروب البلاغة وأفنانها. وفي الآية وجه آخر ذهب إليه بعض المفسرين وهو: أن الظرف «في الحياة الدنيا» متعلق بالقول قبله، أي يعجبك قوله إذا تكلم في شؤون الحياة الدنيا وأحوالها، وطرق جمع المال وإحراز الجاه فيها، لأن حبها قد ملك عليه أمره، والميل إلى لذاتها وشهواتها قد استحوذ على قلبه، وصار هو المصرف لشعوره ولبه، فينطلق لسانه ـ ومثله قلمه ـ في كل ما يستهوي أصحاب الجاه والمال، ويستميل أهل السيادة والسلطان، ولكنه إذا تكلم في أمر الدين جاء بالخطل والحشو، ووقع في التخليط واللغو، فلا يحسن وقع قوله في السمع، ولا يكون له تأثير في النفس وذلك أن روح المتكلم تتجلى في قوله، وضميره المكنون يظهر في لحنه قال تعالى «ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم، ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم» وفي الـحِكَم: كل كلام يبرز وعليه كسوة من القلب الذي عنه صدر، ولهذا كان إرشاد المخلصين نافعاً، وخداع المنافقين صادعاً. وعلى هذا الوجه في التفسير تكون جملة «ويشهد الله» وصفاً مستقلاً غير حال مما قبله، أي: أنه لا يحسن إلا الكلام في الدنيا ليعجب السامع ويخدعه، ولكنه يزعم أن قلبه مع الله، وأنه حسن السريرة.

٢٠٥ ـ ﴿وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيهـا﴾ في تفسير «التولي» هنا قولان: «أحدهما، أن صاحب الدعوى القولية إذا أعرض عن مخاطبه وذهب إلى شأنه، فإن سعيه يكون على ضد ما قال، يدعي الصلاح والإصلاح وحب الخير، ثم هو يسعى في الأرض بالفساد، ذلك أنه لا هم له إلا في الشهوات واللذات والحظوظ الخسيسة، فهو يعادي لأجلها أهل الحق والفضيلة ويؤذيهم لأنه ألد خصم لهم للتناقض والتضاد في الغرائز والسجايا، ويعادي أيضاً المزاحمين له فيها من أمثاله المفسدين، فلا يكون له هم وراء التمتع وأسبابه إلا الكيد للناس ومحاولة الإيقاع بهم، فهو يُفسد باعتدائه على الأموال والأعراض ﴿ويهلك الحرث والنسل﴾ بما يكون من أثر إفساده في اعتدائه، وهو ذهاب ثمرات الحرث، وهو الزرع، والنسل: وهو ما تناسل من الحيوان، وكأنه إشارة

إلى مكاسب أهل الحضارة وأهل البادية، وفي هذا عبرة كبرى للذين يقطعون الزرع ويقتلون البهائم بالسم وغيره انتقاماً ممن يكرهونهم. والقول الآخر: أن المراد بـ«تولىَّ»: «صار والياً له حكم ينفذ، وعز يستبد به»، وإفساده حينئذٍ يكون بالظلم مخرب العمران، وآفة البلاد والعباد، وإهلاكه الحرث والنسل يكون إما بسفك الدماء والمصادرة في الأموال، وإما بقطع آمال العاملين من ثمرات أعمالهم، وفوائد مكاسبهم، ومن انقطع أمله انقطع عمله ولا حرث ولا نسل إلا بالعمل، وقد شرحَتْ لنا حوادث الزمان وسير الظالمين هذه الآية فقرأنا وشاهدنا أن البلاد التي يفشو فيها الظلم تهلك زراعتها، وتتبعها ماشيتها، وتقل ذريتها، وهذا هو الفساد والهلاك الصوريان. ويفشو فيها الجهل، وتفسد الأخلاق، وتسوء الأعمال حتى لا يثق الأخ بأخيه، ولا يثق الابن بأبيه، فيكون بأس الأمة بينها شديداً، ولكنها تذل وتخنع للمستعبدين لها، وهذا هو الفساد والهلاك المعنويان، وفي التاريخ الغابر والحاضر من الآيات والعبر، ما فيه ذكرى ومزدجر. ولما كان هذا المفسد يشهد الله على هداية قلبه، عند من يظن أنه يجهل حقيقة أمره، قال تعالى بعد بيان عمله في الإفساد: ﴿والله لا يحب الفساد﴾ أي: إن إفساد هذا المنافق ظاهر في الوجود، والظاهر عنوان الباطن، فإفساده في عمله دليل على فساد قلبه، وكذبه في إشهاد الله عليه «والله لا يحب المفسدين»، لأنه لا يحب الفساد. وفي الآية دليل على أن تلك الصفات الظاهرة المحمودة لا تكون محمودة مرضية عند الله تعالى إلا إذا أصلح صاحبها عمله، فإن الله تعالى لا ينظر إلى الصور والأقوال، وإنما ينظر إلى القلوب والأعمال، وهي ترشدنا إلى التمييز بين الناس بأعمالهم وسيرتهم، وعدم الانغرار بزخرف القول، فإن الناس إذا انصرفوا من مجالس القول، لم يكن لهم بد من سعي وعمل، والعمل إما خير وإصلاح، وإما شر وإفساد، وكل إناء ينضح بما فيه.
ولما كان الإفساد يصدر تارة عن الجهل وسوء الفهم، وأحياناً عن فساد الفطرة وسوء القصد، وكان من يعمل السوء بجهالة سريع التوبة، مبادراً إلى قبول النصيحة، وكان شأن الآخر الإصرار على ذنبه، كالمستهزيء بربه، ذكر من صفة المفسد ما يميز بينه وبين المخطيء، فقال:

٢٠٦ ــ ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم﴾ أي: أنه إذا أُمِرَ بمعروف أو

نِهَيَ عن منكر، يسرع إليه الغضب، ويعظم. وهذا الوصف ظاهر جداً في تفسير التولي بالولاية والسلطة، فإن الحاكم الظالم المستبد يكبر عليه أن يرشد إلى مصلحة، أو يحذر من مفسدة، لأنه يرى أنَّ هذا المقام الذي ركبه وعلاه، يجعله أعلا الناس رأياً وأرجحهم عقلاً، بل الحاكم المستبد الذي لا يخاف الله تعالى، يرى نفسه فوق الحق كما أنه فوق أهله في السلطة، فيجب أن يكون أَفِنُ[1] رأيه خيراً من جودة آرائهم، وإفساده نافذاً مقبولاً دون إصلاحهم، فكيف يجوز لأحد منهم أن يقول له: اتق الله في كذا؟ لقد كان العلماء ينصحون للخلفاء والملوك المسلمين، فيأخذون بالنصح بحسب مكانهم من الدين، وأما الطغاة البغاة الذين ليس لهم من الإسلام إلا ما يخدعون به العامة من إتيان المساجد في الجمع والأعياد، والمواسم المبتدعة، فإنهم يؤذون من يشير إشارة ما، إلى أنهم في حاجة إلى تقوى الله في أنفسهم، أو في عيال الله الذين سُلِّطوا عليهم، وحمل التولي على الوجه الآخر لا يتنافى مع أخذ العزة بالإثم من جراء الأمر بالتقوى، فإن في طبع كل مفسد النفور ممن يأمره بالصلاح والاحتماء عليه، لأنه يرى أمره بالتقوى والخير تشهيراً به، وصرفاً لعيون الناس إلى مفاسده التي يسترها بزخرف القول وخلابته، ولكن التعبير أظهر في إرادة الولاة والسلاطين. وقد يبلغ نفور المفسدين في الأرض من الحق والداعين إلى الخير إلى حد استثقالهم والحقد عليهم، والسعي في إيذائهم وإن لم يأمروهم بذلك، إذ يرون أن الدعوة إلى الخير والنهي عن المنكر على إطلاقهما كافيان في فضيحتهم، فلا يطيقون رؤية دعاة الخير ولا يرتاحون إلى ذكرهم، بل يتتبعون عوراتهم وعثراتهم ليوقعوا بهم وينفروا الناس عن دعوتهم، فإن لم يظفروا بزلة ظاهرة التمسوها بالتحريف والتأول، أو الاختراع والتقول. هذه آثار المفسدين في الأرض عند العجز عن الإيقاع بالآمر بالتقوى، وإن قدروا حبسوا وضربوا، ونفوا وقتلوا، ولذلك قال عز وجل فيمن يأنف من الأمر بالتقوى: ﴿فحسبه جهنم﴾ أي: هي مصيره، وكفاه عذابها جزاء على كبريائه وحميته الجاهلية. ثم وصف جهنم وهي دار العذاب في الآخرة بقوله: ﴿ولبئس المهاد﴾ المهاد: الفراش يأوي إليه المرء

---

(١) قوله: أفن رأيه» أي: فاسده.

للراحة، واللام واقعة في جواب قسم محذوف، فالله تعالى يقسم تأكيداً للوعيد: بأن الذي يرى عزته مانعة له عن الإذعان للأمر بتقوى الله سيكون مهاده ومأواه النار، وهي بئس المهاد وشره، لا راحة فيها، ولا اطمئنان لأهلها. وأنت ترى من هذا التقرير ومن كون التقسيم حقيقياً في نفسه شارحاً لما عليه البشر في حياتهم، متصلاً بما قبله ملتئماً معه في السياق أن الكلام عام، وما روي من أن له سبباً خاصاً لا ينافي عمومه[1].

٢٠٧ ـ ثم ذكر الفريق الآخر المقابل لمن تأخذه العزة إذا ذكر بالله تعالى فقال: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾ وكان مقتضى المقابلة أن يوصف هذا الفريق بالعمل الصالح، مع عدم الدعوى والتبجح بالقول، أو مع مطابقة قوله لعمله، وموافقة لسانه لما في قلبه، والآية تضمنت هذا الوصف وإن لم تنطق به فإن من يشري أي: يبيع نفسه لله لا يتحرى إلا العمل الصالح وقول الحق، مع الإخلاص في القلب، فلا يتكلم بلسانين، ولا يقابل الناس بوجهين، ولا يؤثر على ما عند الله عرض الحياة الدنيا، وما عند كبرائها ومترفيها من القصور، ومتاع الزينة والغرور، لقد ذكر الله تعالى هذا الشراء في آيات أخرى، تشرح هذه الآية وتفسرها، وتبين أن المؤمنين باعوا، وأن الله قد اشترى، كقوله عز وجل «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة» إلى قوله « فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » ، وقد وصف هؤلاء المؤمنين في الآية التي بعدها بما يجب على المؤمن أن يجعله معها ميزاناً للإيمان وأهله. فنفس المؤمن: لله لا للشهـوة واللذة البهيمية والمكـر الشيطاني، فمن آثر شهوته على مرضاة ربه، والتزام حدوده، والمحافظة على هدي دينه، فلا وزن له في سوق هذا البيع ولا قيمة. ولقد نعلم أنه ليكبر هذا القول على المفتونين بزينة الحياة الدنيا، ولذاتها، وقصورها، وخمورها وحورها، وإن كانوا يزعمون أنهم من زعماء الدين، وخدمته المخلصين لأن الحق مر في مذاق المبطلين. ثم إن هذا البيع لا يتحقق إلا إذا كان المؤمن يجود بنفسه وبماله في سبيل الله إذا مست الحاجة لذلك فكيف إذا ألجأت إليه الضرورة كجهاد

---

(١) قوله: «وما روي من أن له سبباً خاصاً إلخ» روي أنها نزلت في رجال من المنافقين، وقيل: في الأخنس بن شريق الثقفي.

أعداء الملة والأمة عند الاعتداء عليهما أو الاستيلاء على شيء من دار الإسلام، وحينئذٍ يكون فرضاً عينياً على جميع الأفراد، فمن قدر على الجهاد بنفسه وجب عليه، ومن قدر عليه بماله وجب عليه، ومن قدر عليه بهما معاً وجب عليه.
وسبيل الله هي الطريق الموصلة إلى مرضاته، وهي التي يحفظ بها دينه ويصلح بها حال عباده. ومعنى هذا أنه لا يكتفي من المؤمن أن يكتسب بالحلال، ويتمتع بالحلال، وينفع نفسه ولا يضر غيره، وأن يصلي ويصوم، لأن كل هذا بعمله لنفسه خاصة، بل يجب أن يكون وجوده أوسع، وعمله أشمل وأنفع، فيساعد على نفع الناس ودرء الضرر عنهم، بحفظ الشريعة، وتعزيز الأمة بالمال والأعمال، والدعوة إلى الخير، ومقاومة الشر، ولو أفضى ذلك إلى بذل روحه.
فإن قصر في واجب يتعلق بحفظ الملة وعزة الأمة من غير عذر شرعي فقد آثر نفسه على مرضاة الله تعالى، وخرج من زمرة كملة المؤمنين الذين باعوا أنفسهم لله تعالى، وكان أكبر إجراماً ممن يقصر في واجب لا يضر تقصيره فيه إلا بنفسه.
ثم بين أنه ما شرع هذا إلا رأفه بعباده، فقال: «والله رؤوف بالعباد» إذ يرفع همم بعضهم، ويعلي نفوسهم، حتى يبذلوها في سبيله، لدفع الشر والفساد عن عباده، وتقرير الحق والعدل والخير فيهم ولولا ذلك لغلب شر أولئك المفسدين في الأرض حتى لا يبقى فيها صلاح «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض» وإن هذا يؤيد ما قلناه في إزالة وهم من يتوهم أن بيع النفس يؤذن بترك الدنيا، وأن لا يمتع المؤمن نفسه بلذاتها، ولو كان كذلك وهو من تكليف ما لا يطاق، لما قرنه الله تعالى باسمه الرؤوف الدال على سعة رحمته بعباده، فيا لله ما أعجب بلاغة كلام الله، وما أعظم خذلان المعرضين عن هداه.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾

٢٠٨ ـ ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة﴾ «السلم»: المسالمة والانقياد والتسليم، فيطلق على الصلح والسلام، وعلى دين الإسلام، قرأ ابن كثير ونافع والكسائي «السَّلم» بفتح السين، والباقون بكسرها، وهما لغتان، وقد فسره بعض المفسرين بالصلح، وبعضهم بالإسلام، وقال في تفسير «كافة»: حال من السلم، أي: في جميع شرائعه فهي تفيد وجوب أخذ الإسلام بجملته، وأقول: إن أساسها الاستسلام لأمر الله والإخلاص له، ومن أصولها الوفاق والمسالمة بين الناس، وترك الحروب والقتال بين المهتدين به، واللفظ يشمل جميع معانيه التي يقتضيها المقام، والأمر بالدخول فيه يشعر بأنه حصن منيع للداخلين في كنفه، وهو للكاملين منهم أمر بالثبات والدوام كقوله تعالى « يا أيها النبي اتق الله » ، ولمن دونهم: أمر بالتمكن منه وتحري الكمال فيه، «ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين» «الخطوات»: جمع خطوة بالضم وبالفتح، وهما: ما بين قدمي من يخطو، بنقلها في المشي[1]، أي: لا تسيروا سيره وتتبعوا سبله، في التفرق في الدين أو الخلاف والتنازع مطلقاً. وسبل الشيطان وخطواته: هي كل أمر يخالف سبيل الحق والخير والمصلحة، وهي ما عبر عنه بالسبل في قوله تعالى: «وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرَّق بكم عن سبيله» هذا هو المتبادر من خطوات الشيطان في هذا المقام. ومن خطواته طرق الفواحش والمنكرات كلها ولذلك قال تعالى في سورة «النور»: « ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر» ، وأما كون الشيطان عدواً مبيناً فذاك أن جميع ما يدعو إليه ظاهر البطلان، بين الضرر لمن تأمل وعقل، فمن لم يدرك ذلك في مبدأ الخطوات، أدركه في غايتها، عندما يذوق مرارة مغبتها، لا سيما بعد تذكير الله تعالى وهدايته عباده إلى ذلك.

٢٠٩ ـ ﴿فإن زللتم من بعدما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾ أي: فإن زللتم وحِدتم عن صراط الله، وهو «السَّلم» إلى خطوات

---

(١) قوله: «وهما ما بين قدمي من يخطو بنقلها في المشي» هذا دمج لمعنى «الخطوة» بضم الخاء وفتحها، بيانه: أنها بالفتح المرة الواحدة، أي: فِعْلُ الخطو، وبالضم: المسافة ما بين القدمين، تقول: «سار مائة خُطْوة» أي: مسافتها.

الشيطان، وهي طرق الخلاف والافتراق والباطل والشر، من بعد أن بـينَّ الله تعالى لكم أن سبيله واحدة وهي السَّلم، وأن الشيطان لكم عدو مبين، وأمركم أن تتخذوه عدواً وتجتنبوا طرقه وخطواته، فاعلموا أن أمامكم أمراً جليلاً، وأخذاً وبيلاً، ذلك أن الله تعالى لعزته، لا ينسى من ينسى سننه، ويزل عن شريعته، بل يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

إن ظن المغرورين بأنه يكون لهم السلطان والخلافة في الأرض، بمجرد دعوى الإيمان والإسلام، من غير إقامة العدل في الناس، والعمارة والإصلاح في الأرض، هو من الهزء بآيات الله في كتابه، وآياته في خلقه، فإنها متفقة على أن الأرض يرثها عباد الله الصالحون لعمارتها وإقامة العدل فيها.

ثم بين تعالى غاية الوعيد المشار إليه في ألاسمين الكريمين، فقال:

٢١٠ ــ ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة﴾ الاستفهام في الآية بمعنى النفي، و«ينظرون» بمعنى: ينتظرون، وهي كثيرة الاستعمال بهذا المعنى في الكتاب العزيز، ولا سيما في أمور الآخرة كقوله تعالى: «فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة» «ما ينظرون إلا صيحة واحدة»، وإتيان الله تعالى فسره بعضهم بإتيان أمره، أي: عذابه كقوله في آية أخرى: «هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك» وهذا الاستعمال من أساليب العرب المعروفة من حذف المضاف وإسناد الفعل إلى المضاف إليه مجازاً فهو على حد «واسأل القرية» ومن المفسرين من قال: إن الإسناد حقيقي وإنما حذف المفعول للعلم به من الوعيد السابق، أي: هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله بما وعدهم به من الساعة والعذاب؟ وعَدَّهُ آخرون من المتشابهات، فقالوا: إن الله تعالى يأتي بذاته ولكن لا كإتيان البشر، بل إتيانه من صفاته التي لا نبحث عن كيفيتها، اتباعاً للسلف. ومما يدلنا على أن المراد بالآية ما ذكرنا قوله تعالى «ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً»، مع الآيـات الكثيرة الناطقة: بأن قيام الساعة وخراب العالم يكون «إذا السماء انشقت» وانتثرت كواكبها إلخ، وإنما يأتي بذلك الله تعالى بتغيير هذا النظام الذي وضعه لارتباط الكواكب وحفظ كل كـوكب في فلكه ــ وأمـا «ظلل الغمام» فهي: قـطع

السحاب، والأولى[1] هي: جمع «ظلة» بالضم،كـ«غُرَف»جمع «غرفة»وهي: ما أظلك، والثاني: جمع «غمامة»، كسحاب وسحابة وزناً ومعنى، سمي بذلك لأنه يغم السماء، أي: يسترها، وخص بعضهم الغمام بالسحاب الأبيض، وزاد بعض آخر: الرقيق، وفيه أن الأبيض الرقيق لا يمطر، والعرب تسمي البَـرَدَ: حَبَّ الغمام. وذكر المفسرون: أن إتيان أمر الله أو عذابه في الغمام، عبارة عن مجيئه من حيث ترجى الرحمةُ بالمطر، وذلك أبلغ في تمثيل هول العذاب وفظاعته لأن الخوف إذا جاء من موضع الأمن كان خطبه أعظم، والعذاب إذا فاجأ من حيث ترجى الرحمة كان وقعه آلم كما وقع لعاد قوم هود «قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم»، ويجب أن تكون هذه الآيات عبرة للمؤمن ترغبه في المبادرة إلى التوبة، لئلا يفاجئه وعد الله تعالى وهو غافل، فإن لم يفاجئه قيام الساعة العامة التي بها يهلك هذا العالم كله، فاجأه قيام قيامته بموته بغتة، فإن لم يمت بغتة جاءه مرض الموت بغتة، حتى لا يقدر على العمل، وتدارك الزلل. وإذا حملنا بعض الآيات على بعض، واستخرجنا المعنى من مجموعها، كان لنا أن نقول: إذا وقعت الواقعة، وقرعت القارعة، وكورت الشمس، وتناثرت الكواكب، وانشقت السماء شقاً، ورجت الأرض رجاً، وبست الجبال بساً، فكانت أولاً كالعهن المنفوش، ثم صارت هباءً منبثاً، فإن مادة هذا الكون تعود كما كانت قبل التكوين، أي: مادة سديمية، وهي ما عبر عنه في بدء التكوين: بالدخان، وفي الحكاية عن الخراب: بالغمام. وإن كثيراً من علماء الهيئة الغربيين ليتوقعون خراب هذا العالم، بقارعة تحدث من اصطدام بعض الكواكب ببعض، بحيث يبطل الجذب العام، الذي به قام هذا النظام، وهو في معنى ما ورد من تشقق السماء بالغمام، وهذا المعنى لم يخطر ببال أحد على عهد نزول القرآن. وأما إتيان الملائكة هنا فهو بمعنى نزولهم في قوله: «ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا» أي: وتأتيهم الملائكة الموكلة بكل ما قضاه الله يومئذٍ.وقوله: ﴿وقضي الأمر﴾ جملة حالية، أي: كيف ينتظرون غير ذلك وهو أمر قضاه الله

---

(١) قوله: «الأولى» أي: من الكلمتين وهو «الظلل».

وأبرمه، فلا مفر منه ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ فيضع كل شيء في موضعه الذي قضاه.

﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾

٢١١ ـ ﴿سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة﴾ أي: كم جاءهم أنبياؤهم بالآيات البينات، وكم بلاهم الله تعالى بالحسنات والسيئات، ولم يغن ذلك عنهم، ولا صدهم عن خلافهم وشقاقهم، بل بدل الذين كفروا منهم قولاً غير الذي قيل لهم وبدلوا نعمة الله كفراً ﴿ومن يبدل نعمة الله﴾ عليه بالآيات الدالة على الحق، والوحدة الداعية إلى الشكر ﴿من بعد ما جاءته﴾ بالبيان، وأبرهت بالبرهان، بجعلها مثاراً للتفرق والاختلاف، وجعل الأمة الواحدة شيعاً وأحزاباً، ومذاهب وفرقاً، بسوء التأويل وعصبيات الرياسة والسياسة ﴿فإن الله شديد العقاب﴾ لمن تنكب سنته، وخالف شرعته، وهؤلاء هم المبدلون منهم، فالعقاب الشديد نازل لا محالة بهم، ولم يقل: فإن الله يعاقبهم، ليشعرنا بأن هذا من سننه العامة، فحذرنا أن نكون من المخالفين المبدلين توهماً أن العقاب خاص ببعض الغابرين، كما يلغو كثير من الجاهلين.

٢١٢ ـ ﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا﴾ هذا بيان معلل لما قبله من الوعيد لمن يبدل نعمة الله كفراً، ولا سيما نعمة آيات الله تعالى، في هداية الملة إلى وحدة الأمة، فالكفر فيها هو كفر النعمة[1]، لا إنكار وجود الله تعالى

(١) قوله: «فالكفر فيها هو كفر النعمة لا إنكار وجود الله تعالى ولا الشرك به»، يعني: أن المراد بالذين كفروا في هذه الآية، كافرو النعمة من المسلمين، فهو يجعل المسلمين فئتين: =

ولا الشرك به كما زعم بعضهم، وسببه الافتتان بزينة الحياة الدنيا الزائلة، وإيثارها على حياة الآخرة الباقية، والمقام مقام الأمر بالاتفاق في الدين، والأخذ بجميع أحكامه وشرائعه والنهي عن التفرق فيها، والمسلمون هم المخاطبون بالوعيد على التفرق، واتباع خطوات الشيطان، فبعد أن أمرنا تعالى ونهانا، وتوعد من يَزِلُّ عن سبيله منا بعدما جاءنا من البينات، ذكَّرنا بحال من سبقنا من أهل الكتاب الذين نزل بهم عذاب التفرق والخلاف في الدنيا، ولم يمنعه عنهم أنهم أهل الكتاب، ذلك أنهم لم يجتمعوا على الكتاب لاختلاف أئمتهم وأحبارهم في التأويل والتأليف؛ وكان كل فريق منهم يعتذر عن تركه العمل بالتوراة، بأنه متبع لبعض الأحبار الذين هم أعلم منه بها ﴿ويسخرون من الذين آمنوا﴾ إيماناً حقيقياً يحمل على العمل، يسخرون من فقرائهم، لأنهم محرومون من زينتهم وإن كانوا راضين من الله، مغتبطين بما منحهم من الإيمان والرجاء بالآخرة. ومن أغنيائهم لأنهم لا يَتَنَوَّقون[1] في النعيم، بل يرون الكياسة في الاستعداد لما بعد الموت بترقية النفس بالاعتقاد الصحيح المؤيَّدْ بالبينات، والتحلي بالفضائل وأحاسن الأخلاق، ويعدون الفضل في القيام بحقوق الناس وخدمة الأمة، والإفاضة من فضل المال على العاجزين والبائسين

= فئة مؤمنة إيماناً حقيقياً، وأخرى كفرت بنعمة الله عليها، وغرتها الحياة الدنيا، وهذه الفئة تسخر من تلك.

ونقول: إن هذا المعنى مع أن له وجهاً قاله البعض، فهو غير قوي لسببين:

أولهما: إن أطلاق «الذين كفروا» ينصرف عادة إلى الكافرين بالله تعالى والمشركين به، ولم يصرفه عن هذا المعنى صارف.

وثانيهما: أن معنى الآية ــ على اعتبار أن «الذين كفروا» هم المشركون ــ لا يتغير ولا يضطرب، بل ينسجم انسجاماً واضحاً، وذلك لأن أظهر أوصاف الكافر ــ كما قال المؤلف نفسه ــ أن تكون زينة الدنيا أكبر همه، يؤثرها على كل شيء، ولا يزحزحه أمر الدين عن شيء يقدر عليه من زينتها ومتاعها، وهؤلاء الكفرة بالله تعالى يسخرون من الذين آمنوا ويستهزئون بهم، ويحتقرونهم، وهذا ما هو حاصل بالفعل بين المؤمنين والكافرين في كل عصر وزمان.

(١) قوله: «لا يتنوَّقون»، «التَنَوُّق» في الأمر: التأنُّق فيه.

وكلما أنفقوا في سبيل الله درهماً، عده أولئك المستهزئون مغرماً. قال تعالى رداً على هؤلاء الساخرين الذين يرون أنهم في زينتهم ولذاتهم خير من أهل اليقين في نزاهتهم وتقاتهم: ﴿والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة﴾ فإذا استعلى بعضهم على بعض المؤمنين طائفةً من الزمن، في هذه الحياة القصيرة الفانية بما يكون لهم من الأتباع والأنصار، والمال والسلطان، فإن المؤمنين المتقين يكونون أعلى منهم مقاماً يوم القيامة، في تلك الحياة العلية الأبدية.

وبعد أن ذكر تعالى ما يمتاز به المؤمن المتقي، على الكافر ــ بتبديل النعمة وتفريق الكلمة ــ وهو العلو في دار الكرامة، أخبرنا أن رزق الدنيا ونعيمها ليس خاصاً فيها بتقي ولا شقي، بل هو مبذول لكل أحد، وأنه قد يأتي من حيث لا يظن المرء ولا يحتسب فقال: ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ «الحساب»: التقدير، أي: من غير تقدير له على حسب الإيمان والتقوى، والكفر والفجور. وفيه وجه آخر: وهو أنه كناية عن السعة وعدم التقتير والتضييق، كقولهم: ينفق فلان بغير حساب، أي: ينفق كثيراً. والمعنى: أنه بذل العطاء في الدنيا لكل أحد بخلق الأرزاق وإقدار الناس على الكسب، وقيل: إن المعنى، بغير حساب عليه من أحد، فهو الذي خلق ورزق، وهو الذي قدر فهدى، من غير محاسبة أحد ولا مراجعته.

كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾

تطلق «الأمة» في كتاب الله تعالى بمعنى: الملة، أي: العقائد وأصول الشريعة، كما في قوله تعالى في سورة «الأنبياء»: «إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا

ربكم فاعبدون»، بعدما ذكر من شأن جماعة الأنبياء صلوات الله عليهم، كما قال في سورة «المؤمنون»: «يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم. وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون»، رجح كثير من المفسرين أن المراد من الأمة في الآيتين: الملة، أي: العقائد وأصول الشرائع، أي: أن جميع الأنبياء ورسل الله على ملة واحدة ودين واحد كما قال: «إن الدين عند الله الإسلام»، وقال كثير منهم: إن الأمة في هذه الآية، بمعنى: الجماعة كما هي في قوله تعالى «وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون» أي: جماعة، وتكون بمعنى: السِّنين كما في قوله تعالى «ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة» وبمعنى الإمام الذي يُقتدى به كما في قوله «إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله»، وبمعنى: إحدى الأمم المعروفة كما في قوله «كنتم خير أمة أخرجت للناس» وهذا المعنى الأخير لا يخرج عن معنى الجماعة على ما ذكرنا وإنما خصصه العرف تخصيصاً.

وقد حمل جمهور من المفسرين لفظ «الأمة» في الآية على الملة، ثم اختلفوا فيم كانت الملة؟ فقال جمهورهم: إنها ملة الهدى والدين القويم، فيكون معنى الآية في رأيهم:

٢١٣ ــ ﴿كان الناس أمة﴾ أي: ملة ﴿واحدة﴾ قيمة الدين، صحيحة العقائد، جارية في أعمالها على أحكام الشرائع ﴿فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ ولما وجدوا أن المعنى لا يكون قويماً، لأنه لا معنى لإرسال الرسل إلى الأمم الصالحة المهتدية ليحكموا بينهم فيما يختلفون فيه، قالوا: لا بد من تقدير في العبارة فيكون الكلام: «كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين»، والقرينة على هذه القضية المقدرة قوله فيما بعد: «ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه». وذهبت طائفة أخرى وفي مقدمتهم ابن عباس وعطاء والحسن إلى أن الأمة الواحدة: أمة الضلال، التي لا تهتدي بوحي، ولا تقف في أعمالها عند حد شريعة، واحتجوا على قولهم بهذا التعقيب في الآية، فإنه جعل بعثة الرسل تابعة لوحدة الأمة، ولا تكون كذلك حتى تكون

تلك الوحدة قاضية بالحاجة إلى إرسالهم، ليحكموا بينهم في الاختلاف الذي يقع فيهم، بسبب الفساد في العقائد، والذهاب مع الأهواء الضالة في الأعمال، واعتداء بعضهم على بعض لذلك، وانتهاكهم حرمة ما أمر الله برعاية حرمته، فيجب أن تكون وحدة الأمة وحدةً في الباطل حتى يَرِدَ الحقُّ عليه فيزهقه، وأما لو كانت الأمة واحدة في الهدى واتباع الحق فلا معنى لجعل بعثة الرسل مترتبة عليها كما هو ظاهر. ونقول: إن الناس لم يكونوا أمة واحدة قط، لا بمعنى أنهم كانوا جميعاً على الخير والهدى، لأن الله خلق الإنسان على غريزة تبعد به عن الاتحاد على الحق، والاتفاق على العدل، ولا بمعنى أنهم كانـوا جميعاً عـلى الضلال، كما تراه من صريح النسق الشريف، فكان الناس ولا يزالون، منهم المحسن والمسيء، والمهتدي والضال، سنة الله في هذا الخلق. لكنك تجد في سورة «يونس» نصاً صريحاً، في أن الله تعالى شاء أن يكون الناس أمة واحدة، قال تعالى: «وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون» ولا يمكنك أن تحمل «كان» على معناها من المضي، لأن الحصر يبعد ذلك بالمرة، فالمراد منه، أن الناس كانوا ولا يزالون أمة واحدة، ونشأ عن هذه الوحدة نفسها اختلافهم، وأن يكون منهم الضال والمهتدي، والعادل والمعتدي، حتى يوفي كلاً جزاءه في الدار الأخرى. ولهذا بعث فيهم الرسل عليهم الصلاة والسلام، ليكونوا لهم أئمة في الإيمان، وأسوة في العمل الصالح. فهل يمكنك مع هذا أن تحمل وحدة الأمة على وحدة العقيدة والعمل؟ ليس ذلك بممكن لأن الناس ليسوا أمة واحدة بذلك المعنى، بل هم مختلفون، فلا ريب أنه يجب حمل وحدة الأمة على معنى آخر، وهو ذلك الذي نختاره في الآية التي نحن بصدد تفسيرها. لقد خلق الله الإنسان أمة واحدة، أي: مرتبطاً بعضه ببعض في المعاش، لا يسهل على أفراده أن يعيشوا في هذه الحياة الدنيا إلى الأجل الذي قدره الله لهم إلا مجتمعين، يعاون بعضهم بعضاً، ولا يمكن أن يستغني بعضهم عن بعض، فكل واحد منهم يعيش ويحيا بشيء من عمله، لكن قواه النفسية والبدنية قاصرة عن توفيته جميع ما يحتاج إليه، فلا بد من انضمام قوى الآخرين إلى قوته فيستعين بهم في بعض شأنه، كما يستعينون به في بعض شأنهم، وهذا الذي يعبرون عنه بقولهم «الإنسان

مدني بالطبع» يريدون بذلك: أنه لم يوهب من القوي ما يكفي للوصول إلى جميع حاجاته، بل قدر له أن تكون منزلة أفراده من الجماعة منزلة العضو من البدن، لا يقوم البدن إلا بعمل الأعضاء كما لا تؤدي الأعضاء وظائفها إلا بسلامة البدن. فلما كان الناس أمة واحدة ولا يمكن أن يكونوا بمقتضى فطرهم إلا كذلك وهم إنما يعملون بمقتضى آرائهم، وينحون في أعمالهم نحو المنافع التي يرونها لازمة لقوام معيشتهم، ولم يمنحوا من قوة الإلهام ما يُعَرِّف كلاً منهم وجه المصلحة في حفظ حق غيره، لتوفير المنفعة بذلك لنفسه، لما كانوا كذلك، كان لا بد لهم من الاختلاف، وكان من رحمة الله بهم أن يرسل إليهم مبشرين ومنذرين.

فترتيب بعثة الرسل على وحدة الأمة في الآية التي نفسرها يكون على هذا المعنى:

إن الناس أمة واحدة، لا بد لهم أن يعيشوا تحت نظام واحد، يكفل لهم ما يحتاجون إليه مدة بقائهم في هذه الدنيا، ويضمن لهم ما به يسعدون في الحياة الأخرى، ولا يمكنهم في هذ الوحدة، ومع تلك الوصلة اللازمة بمقتضى الضرورة، أن يتفقوا على تحديد ذلك النظام، مع اختلاف الفطر وتفاوت العقول، وحرمانهم من الإلهام الهادي لكل منهم إلى ما يجب عليه لصاحبه، لما كانوا كذلك، كان من لطف الله ورحمته بهم أن يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، يبشرونهم بالخير والسعادة في الدنيا والآخرة، إذا لزم كل منهم ما حُدِّد له، ولم يعتد على حق غيره، وينذرونهم بخيبة الأمل، وحبوط العمل، وعذاب الآخرة إذا اتبعوا شهواتهم الحاضرة ولم ينظروا في العاقبة.

ثم أراد الله تعالى أن يقيم الدليل، على أن الاهتداء بهدى الأنبياء ضروري للبشر، وأنه لا غنى لهم عنه، مهما بلغوا من كمال العقل، فقال: إن الله قضى أن يكون الناس أمة واحدة يرتبط بعضهم ببعض، ولا سبيل لعقولهم وحدها إلى الوصول إلى ما يلزم لهم، في توفير مصالحهم، ودفع المضار عنهم فبعث الله النبيين مبشرين ومنذين، وأيدهم بالدلائل القاطعة على صدقهم، وعلى أن ما يأتون به إنما هو من عند الله تعالى، القادر على إثابتهم وعقوبتهم،

العالم بما يخطر في ضمائرهم، الذي لا تخفى عليه خافية من سرائرهم فقال تعالى: «وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه» الإتيان بهذه القضية بعد وصف الأنبياء بالمبشرين المنذرين، يدل على أن التبشير والإنذار عمل يسبق إنزال الكتب، لأن الأنبياء أول ما يبعثون ينبهون قومهم إلى ما غفلوا عنه، ويحذرونهم عاقبة ما يكونون فيه، من عادة سيئة، أو خلق قبيح، أو عمل غير صالح، فإذا تهيأت الأذهان لقبول ما بعد ذلك من تشريع الأحكام وتحديد الحدود، أنزل الله الكتب[1] لبيان ما يريد حمل الناس عليه مما هو صالح لهم على حسب استعدادهم، ثم في قوله: «وأنزل معهم الكتاب»، وعود الضمير على جميع النبيين ما يفيد: أن الله أنزل مع كل نبي كتاباً، معجزاً كان أو غير معجز، طويلاً كان أم قصيراً، دوِّن وحفظ، أم لم يدون ولم يحفظ ليؤدي من سلف إلى خلف، وقوله: «ليحكم بين الناس» قرأ أبو جعفر يزيد بن القعقاع بضم الياء وفتح الكاف، والباقون بفتح الياء وضم الكاف. أما على رواية يزيد فالمعنى: أن الله أنزل الكتب مع النبيين بالحق، أي: بيان ما يجب أن يعتقد به مما هو منطبق على الواقع، وبيان ما يجب أن يعمل به، مما هو صالح لا مفسدة فيه، ليقع الحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه من الأمرين، و«الحاكم»: هو المتولي للفصل بين الناس في الخصومات بالنسبة إلى الأعمال، والمرشد إلى صحيح العقائد على مقتضى ما جاء في الكتاب النازل بالحق، والمبين لما ينطبق على نصوصه من الأعمال التي يحكم فيها الحاكمون. أما على القراءة الأخرى، فالحكم مسند إلى الكتاب نفسه، فالكتاب ذاته هو الذي يفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه، وفيه نداء على الحاكمين بالكتاب أن يلزموا حكمه، وأن لا يعدلوا عنه إلى ما تسوله الأنفس وتزينه الأهواء، ﴿وما اختلف فيه إلا الذين

---

(١) قوله: «أنزل الله الكتب لبيان ما يريد حمل الناس عليه إلخ» بيانه: أن الدين جانبان جانب العقيدة، وهو: الإيمان الصحيح وذلك بتوحيد الخالق بأسمائه وصفاته وربوبيته وألوهيته. وجانب الشريعة، وهو الأحكام وبيان الفرائض والحلال والحرام، فكل رسول كان يبدأ بدعوة الناس إلى الإيمان، ثم بعد أن تطمئن قلوب المؤمنين بالإيمان، كان ينزل الله تعالى على الرسول تكاليف الشريعة وأحكامها، هذا ما قصد المؤلف أن يقوله، لا أن الكتاب لا ينزل شيء منه إلا بعد أن تتهيأ الأذهان لقبوله.

أوتوه من بعدما جاءتهم البينات بغياً بينهم﴾ قد عرفت فيما سبق أن الناس بحكم اشتراكهم في الأعمال، وضرورة اشتباكهم في المعاملات، عرضةٌ للاختلاف في الحق، لأنّ عقولهم وحدها ليست كافية في الهداية إليه على الوجه الذي يحفظ جامعتهم من الاضطراب، ويؤدي بهم إلى السعادة العظمى في المآب، فلا يصح بعد ذلك أن يعود الضمير في «فيه» إلى الحق، فلا يقال: وما اختلف في الحق إلا الذين أوتوه من بعدما جاءتهم البينات، فإن الحق يختلف فيه الناس قبل مجيىء البينات الأولى، ولا أعجب مما ذكره بعض المفسرين من أن النص في الآية دليل على أن الناس لم يكن منهم اختلاف في الحق إلا بعد بعثة الأنبياء وإرسال الرسل وإنزال الكتب، أما فيما قبل ذلك فكانوا متفقين على الحق فكأن رذيلة الاختلاف والتفرق لم تقع في العالم الإنساني إلا ببعثة الرسل، والقول بمثله من أغرب ما ينسب إلى صاحب دين ما فما بالك به إذا صدر عن مسلم؟ والحق أن الضمير في قوله «وما اختلف فيه» يعود إلى «الكتاب»، وهو استدراك على ما عساه يقال: إذا كان الناس في جامعتهم مستعدين للتخالف بمقتضى فطرتهم إذا تركت وحدها، ولا غنى لهم عن هداية تعليمية تأتيهم من الله تعالى ولهذا بعث الأنبياء ليكونوا قادة للفطرة إلى ما هو خير الدنيا والآخرة، فما بال الناس بعد إنزال الكتب لا يزالون مختلفين، ولا يرتفع من بينهم ذلك الخلاف الذي كان يخشى منه إفساد جماعتهم وهلاك خاصتهم؟ فقد كانوا يختلفون على جلب المنافع والتوسع في مطالب الشهوات، ولم تكن لديهم في ذلك آلة يستعملها كل منهم في نيل مطلبه من صاحبه سوى القوة أو الحيلة، وبعد إنزال الكتب قد انضم إلى تلك الآلات آلة أخرى ربما كانت أقوى من سواها وهي آلة الإقناع بالكتاب، فيتخذ الواحد منهم كلمة من الكتاب أو أثراً مما جاء به وسيلة إلى تسخير غيره لما يريد، وذلك بقطع الكلمة أو الأثر عن بقية ما جاء بالكتاب والآثار الأخر، ولَيِّ اللسان به وتأويله بغير ما قصد منه، وما هَمُّ المؤول أن يعمل بالكتاب، وإنما كل ما يقصد هو أن يصل إلى مطلب لشهوته، أو عضد لسطوته، سواء عليه هدمت أحكام الله أم قامت، اعوجت السبيل أم استقامت، ثم يأتي ضال آخر يريد أن ينال من هذا ما نال هذا من غيره، فيحرف ويؤول حتى يجد المخدوعين بقوله

ويتخذوهم عوناً على ذلك الخادع الأول، فيقع الخلاف والاضطراب، وآلة المختلفين في ذلك هي الكتاب، وقد شوهد ذلك في الأزمان الغابرة بين اليهود وبين من سبقهم وبين النصارى، ولا يزال الأمر على ما كان عليه عند هاتين الطائفتين إلى اليوم، وكم حروب وقعت بين المسلمين أنفسهم حتى قصمت ظهورهم، ودمرت ما كان من قواهم، وما كان آلة المبطلين في تلك المشاغب إلا دعوى الدين. وحمل الناس على الحق المبين. والله يعلم إنهم لكاذبون فيما يقولون. وإنهم لخاطئون فيما يفعلون، وما كلمة الدين ودعوى تأييد الكتاب إلا وسائل لإرضاء الشهوة، وتمكين الظالم من السطوة. هذا هو الدين الإلهي الذي قدر الله أن يكون هداية للبشر فوق الهدايات التي وهبها لهم من الحواس والعقول، فإذا لم يهتد بها الذين أوتوها ــ وهم علماء الدين ــ وبغوا بالتأويل، وكثرة القال والقيل، فهل يهمس ذلك جانبها بعيب؟ ماذا يقول القائل في أولئك الذين يؤتيهم الله العقل ثم لا يستعملونه فيما أوتي لأجله؟ هل تنقص حالهم هذه من منزلة العقل وتدل على أن العقل ليس من نعم الله على الإنسان؟ ماذا يقول القائل في أولئك الذين لهم أبصار وأسماع، ولكن يخبط الواحد منهم في سيره، فلا يستعمل بصره في معرفة الطريق التي يسير فيها، أو في وقاية رجليه من الشوك الواقع عليها، أو التباعد عن حفرة يتردى فيها، وربما كانت نظرة واحدة تقيه من التهلكة لو وجهها نحوها. وقد يسمع من الأصوات التي تنذره بالخطر القريب منه ثم لا يبالي بما يسمع، حتى يصيبه ما ليس له مدفع. فهل تحط حال هؤلاء الناس من قيمة السمع والبصر؟ هذه الآية الكريمة ترفع من شأن الدين وتعلو به إلى أرفع مقام من مقامات الهدايات الإلهية، وتدفع عنه مطاعن أولئك السفهاء، الذين تغشى أعينهم حجب الظواهر، فتقف بهم دون معرفة السرائر، يناديهم الحق فلا يصل إليهم إلا صدى صوت الباطل، ثم يرفع النص الكريم مقام المؤمنين الصادقين، ويحلهم من الكرامة أعلى عليين، إذ يقول بعدما ذكر جناية أهل الخلاف: ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ «الإذن» هنا: التيسير والتوفيق، والذين آمنوا: هم أهل الإيمان الصادق في كل دين، أو: هم المؤمنون بمحمد ﷺ، وعلى كل فالله جل شأنه يخبرنا وهو أصدق القائلين بأن المؤمنين،

هم الذين يهتدون لما اختلف الناس فيه من الحق، أي: يصلون إلى الحق الذي تختلف مزاعم الناس فيه، فيزعم كل واحد أنه عليه حكم المصادفة والاتفاق، والذي حمله على زعمه إنما هو الهوى والميل إلى الشقاق، وهو في الحالتين على الباطل، لأن موافقة الحق على غير بصيرة لا تعد هداية إليه.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾

٢١٤ ـ ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم﴾ إلخ، الخطاب موجه إلى الذين هداهم الله تعالى إلى السِّلم، والخروج من ظلمة الخلاف إلى نور الكتاب، الذي أنزل لإزالته في زمن النزول، وفي كل زمن يأتي بعده. وتوجيهه ـ أولاً وبالذات ـ إلى أهل الصدر الأول من المسلمين، الذين كانوا خير أمة أخرجت للناس، أكبر عبرة وموعظة لمن يأتي بعدهم، ويحسبون أنهم بمجرد الانتماء إلى الإسلام يكونون أهلاً لدخول الجنة، جاهلين سنة الله تعالى في أهل الهدى منذ خلقهم، وهي تحمل الشدائد والمصائب، والضرر والإيذاء، في طريق الحق وهداية الخلق، و«أم» ههنا: هي الواقعة في طريق الاستفهام، وهي تشعر بمحذوف دل عليه الكلام في وصف الذين خلوا من قبلنا، وما نالوا من البأساء والضراء، كأنه يقول: «قد خلت من قبلكم أمم أوتوا الكتاب ودعوا إلى الحق فآذاهم الناس في ذلك فصبروا وثبتوا. أفتصبرون مثلهم على المكاره، وتثبتون ثباتهم على الشدائد؟ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة وتنالوا رضوان الله تعالى من غير أن تفتنوا في سبيل الحق، فتصبروا على ألم الفتنة، وتؤذوا في الله فتصبروا على الإيذاء، كما هي سنة الله تعالى في أنصار الحق وأهل الهداية في كل زمان؟» وإذا جعلت «أم» بمعنى الإضراب والاستفهام معاً بطل هذا المعنى، الذي يملك النفس ويؤثر في الوجدان.

قيل: إن الآية نزلت في غزوة «أُحد» حين غلب المشركون المؤمنين وشجوا رأس النبي ﷺ وكسروا رَبَاعِيَتَهُ. وقيل: إنها نزلت في غزوة «الأحزاب» إذ اجتمع المشركون مع أهل الكتاب، وتحالفوا على الإيقاع بالمسلمين وقطع دابرهم، وأصاب المؤمنين يومئذٍ ما أصابهم من الجهد والشدة، والجوع والحاجة، وضروب الأذى، وإذ انتقض المنافقون على المؤمنين الصادقين، وقالوا كما قال الذين في قلوبهم مرض: «ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً».

وإذ جاءهم الأعداء من فوقهم ومن أسفل منهم، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وظنوا بالله الظنون، وإذ ابتلي المؤمنون وزُلزلوا زلزالاً شديداً، وإذ رأى المؤمنون الصادقون الأحزاب متحزبة عليهم، فقالوا على قلتهم وضعفهم وجوعهم وعريهم: «هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليما». أمثال هؤلاء يخاطبهم الله تعالى بقوله: «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم»، أي: وإلى الآن لم يصبكم ما أصاب الذين سبقوكم بالإيمان والهدى، والدعوة إلى الحق من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فالمراد بالمثل: الوصف العظيم، والحالة التي لها شأن، بحيث يضرب بها المثل. أي: لم تكن لكم هذه الحالة الشديدة إلى الآن. وهذا النفي المستغرق مما يوجه الأذهان إلى طلب العلم بما أصاب أولئك الأقوام، ولذلك وصله بالبيان فقال: ﴿مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين معه متى نصر الله﴾ البأساء: الشدة تصيب الإنسان في غير نفسه وبدنه، كأخذ المال والإخراج من الديار، وتهديد الأمن، ومقاومة الدعوة، والضراء: ما يصيب الإنسان في نفسه كالجرح والقتل وأما الزلزال فهو الاضطراب في الأمر، يتكرر حتى يكاد يزل صاحبه عنه، وهذا الحرف فيه لفظ «زَلَّ» مكرراً ومعناه: زلق وانحرف، فزلزله بمعنى: هَزَّه وَدَعَّهُ ليزله عما هو عليه، أي: إنهم وصلوا إلى درجة حدوث الاضطراب والإشراف على الزلل في مجموعهم، كما قال تعالى في المؤمنين يوم «الأحزاب»: «وزلزلوا زلزالاً شديداً»، والآية التي نفسرها تصرح: بأن بعض السابقين كانوا أشد زلزالاً من هذا الذي وقع للمسلمين في يوم الأحزاب. ولعل الغاية التي وصلوا

إليها ولم يصل إليها سلفنا هي قوله تعالى «حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله» أي: حتى وصلوا إلى غاية من الشدائد والأهوال، لم يروا فيها منفذاً لسبب من أسباب الفوز، لأن قوة أعداء الحق أحاطت بهم من كل جانب، ودنت حتى أخذت بأكظامهم، فاعتقدوا أن وقت العناية الإلهية والنصر الذي وعد الله به من ينصر الحق قد حان وقته أو أبطأ فاستعجلوه بقولهم: «متى نصر الله؟» فأجابهم تعالى: ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾ بأن نصرهم وكفَّ عنهم شر أهل البغي، وأيد دعوتهم وجعل كلمتهم العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى، وكان الله قوياً عزيزاً، وحاصل معنى الآية: لوم المؤمنين على ذلك الحسبان، وبيان أن ما كانوا فيه من الشدة والألم في وقعة الأحزاب، أو وقعة أُحد ــ إن صح أن الآية نزلت في ذلك الوقت، أو في عامة أحوالهم قبل فتح مكة، إذ كانوا يألمون من منازعة المشركين واليهود والمنافقين ويقاسون من جحودهم وكيدهم ما يقاسون ــ كل ذلك قليل في جنب ما قاسى غيرهم ممن سبقهم بالإيمان والهدى إذ كان استعداد البشر أضعف وقسوتهم أشد وعنادهم أقوى.

يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾

٢١٥ ــ ﴿يسألونك ماذا ينفقون﴾ إلخ، متصل بما قبله في المغزى، فإن الآيات السابقة دلت على أن حب الناس لزينة الحياة الدنيا، هو الذي أغراهم بالشقاق والخلاف، وأن أهل الحق والدين هم الذين يتحملون البأساء والضراء في سبيل الله وابتغاء مرضاته، ومنها ما يصيبهم في أنفسهم وأموالهم، وذلك مما يرغِّب الإنسان في الإنفاق في سبيل الله، وبذلك المال كبذل النفس كلاهما من آيات الإيمان، فكأن السامع لما تقدم تتوجه نفسه إلى البذل فيسأل عن طريقه، فجاء بعده السؤال مقروناً بالجواب. وقد ورد في أسباب النزول أن السؤال وقع بالفعل. أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال: سأل المؤمنون رسول الله ﷺ أين يضعون أموالهم؟ فنزلت الآية، وأخرج ابن المنذر عن أبي حيان أن

عمرو بن الجموح سأل النبي ﷺ: ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها؟ فنزلت. وروى أحمد والنسائي من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «تصدقوا»، فقال رجل: عندي دينار، قال: «تصدق به على نفسك»، قال: عندي دينار آخر، قال: «تصدق به على زوجك»، قال: عندي دينار آخر، قال: «تصدق به على ولدك»، قال: عندي دينار آخر، قال: «تصدق به على خادمك»، قال: عندي دينار آخر، قال: «أنت أبصر به» ورواه أبو داود[1]، ولكنه قدم الولد على الزوجة، ورواه أيضاً الشافعي وابن حبان والحاكم ولم يذكروا أن ذلك كان سبب نزول الآية. وقد زعم كثير من المفسرين أن الجواب غير مطابق للسؤال، لأنه بيان لمن ينفق عليه لا لما ينفق، وخرجوها على «أسلوب الحكيم» كأنه قال: إنه ينبغي السؤال عمن ينفق عليه، لا عن جنس ما ينفق أو نوعه، وليس ما قالوا بصواب، فإن جعل السؤال بـ «ما» خاصاً بالسؤال عن الماهية والحقيقة، هو من اصطلاح علماء المنطق، لا من أساليب العربية. فليس المراد السؤال عن جنس ما ينفق أو نوعه، من ذهب أو فضة، أو بر أو شعير، وإنما السؤال عن كيفية الإنفاق وتوجيهه إلى الأحق به، وذلك مفهوم لكل عربي، وليس أسلوب القرآن جارياً على مذهب أرسطو في منطقه، وإنما هو بلسان عربي مبين. وحينئذٍ يكون الجواب مطابقاً للسؤال. وقيل: إن السؤال كان عن الأمرين، ما يُنْفَقُ، وأين يُنفَقُ، فذكر في إيراده عنهم الأول وحذف الثاني، للعلم به ودلالة الجواب عليه فإنه ذكر فيه الأمرين: وهو قوله تعالى ﴿قل ما أنفقتم من خير﴾ وهذا هو الـمُنْفَقُ، والخير هو المال، وتقدم في تفسير: «إن ترك خيراً الوصية للوالدين»، أن الأكثرين قيدوه بالكثير، ولكن قوله هنا: «من خير» يعم القليل والكثير، لدخول «من» التبعيضية عليه وتنكيره. وقال بعضهم إن التعبير عن المال بالخير يتضمن كونه حلالاً، فكأنه قال: إن الإنفاق والتصدق يكون من فضل المال الكثير الحلال الطيب، وأما بيان المصروف فهو قوله: ﴿فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ قدم «الوالدين» لمكانتهما، وفسروا «الأقربين» بالأولاد وأولادهم، ولا شك أن أقرب الناس إلى المرء أولاده إن وجدوا، وإلا كان أقربهم إليه بعد والديه إخوتُه، وما اختير لفظ «الأقربين»

---

(١) والحاكم وإسناده صحيح، انظر «زاد المسير» ١/٢٣٣.

هنا، إلا لبيان أن العلة في التقديم القرابة فمن كان أقرب كان أحق بالتقديم.
وكأن الذين حملوا لفظ الأقربين على الأولاد خاصة أرادوا جعل الآية للنفقة الواجبة في الفقه، وهي تجب للوالدين والأولاد عند الحاجة بالإجماع، والنفقة في الآية أعم، وهؤلاء اليتامى والمساكين، لا يجب على فرد معين من المكلفين الإنفاق على يتيم أو مسكين معين منهم، من حيث أنه يتيم أو مسكين، ولكنهم أحق بالصدقة المفروضة والمندوبة بعد الأقربين، فالآية عامة في النفقة وأحق الناس بها. ثم قال تعالى: ﴿وما تفعلوا من خير﴾ كالإنفاق في موضعه بتقديم الأحق فالأحق به ممن ذكر، وهو ما يوجد في كل زمان ومكان، وممن لم يذكر في هذه الآية وذكر في غيرها، كالرجل تعرض له الحاجة فتدفعه إلى السؤال ــ لا من يتخذ السؤال حرفة وهو قادر على الكسب، وكالمكاتَب يساعد على أداء نجومه، وكغيره من وجوه الإنفاق من أعمال الخير ﴿فإن الله به عليم﴾ لا يغيب عنه فينسى الجزاء والمثوبة عليه، بل يجزي به مضاعفاً.

كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾

٢١٦ ــ ﴿كتب عليكم القتال﴾ إلخ قالوا: إن هذه أول آية فرض فيها القتال، وكان ذلك في السنة الثانية من الهجرة، وقد كان القتال[١] ممنوعاً فأذن فيه بعد الهجرة بقوله تعالى في سورة «الحج»: «أُذن للذين يقاتَلُون بأنهم ظُلِمُوا» الآيات[٢] ثم كُتِبَ في هذه السنة، أما قوله تعالى: ﴿وهو كره لكم﴾ فقد عده بعضهم من المشكلات إذ كيف يكره المؤمنون ما يكلفهم الله تعالى إياه، وفيه سعادتهم، وحمله جمهور المفسرين على الكره الطبيعي والمشقة، وهذا لا ينافي الرضى به والرغبة في القيام بأعبائه، من حيث أنه مما أمر الله به، وجعل فيه المصلحة لحفظ دينه، كما جاء في آيات الإذن به من سورة «الحج» المشار إليها.
وقوله: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم﴾ معناه: أن من الأشياء المكروهة طبعاً، ما تأتونه وأنتم ترجون نفعه

(١) قوله: «وكان القتال ممنوعاً» كان غير مأذون فيه، ثم أُذن فيه، ثم فُرض.
(٢) قوله: «الآيات» أي: «٣٩ إلى ٤٠» من سورة الحج.

وخيره، كشرب الدواء البشع المر، ومن الأشياء المستلذة طبعاً، ما يتوقع فاعلها الضر والأذى في نفسه، أو من جهة منازعة الناس له فيه. هذا تقرير ما قاله المفسرون ولا يظهر على هذا معنى وجيه لقوله عز وجل ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ لأن هذا مما يعلمه الناس ويتوقعونه، لا مما هداهم الكتاب إليه بعد أن كانوا غائبين عنه.

والصواب: أن «عسى» في مثل هذا المقام تفيد أن ما دخلت عليه من شأنه أن يقع، لا أنه مرجو من المتكلم ومتوقع، وأن الكره محمول على غير ما حملوه عليه. ذلك أن النبي ﷺ بُعِثَ والعرب في قتال مستحر، ونزاع مستمر، وكان الغزو للسلب والنهب، من أعظم أسباب الكسب، وكان الصحابة قد ألفوا القتال واعتادوه ومرنوا عليه، فلم يكن عندهم مكروهاً بالطبع، ولكنهم كانوا يرون أنفسهم فئة قليلة حملت هذا الدين واهتدت به، ويخشون أن يقاوموا المشركين بالقوة فيهلكوا، ويضيع الحق الذي هُدُوا إليه، وكلفوا إقامته والدعوة إليه.

وثَمَّ وجه آخر: وهو أن كرههم للقتال لم يكن خوفاً على أنفسهم أن يبيدوا، ولا على الحق الذي حملوه أن يضيع، وإنما هو حب السلام والرحمة بالناس، التي أودعها القرآن في نفوسهم، وثبتها الإيمان في قلوبهم، واختيار مصابرة الكفار ومجادلتهم بالدليل والبرهان، دون مجالدتهم بالسيف والسنان، رجاء أن يدخلوا في السلم كافة، ويتركوا خطوات الشيطان، وعلى هذا الوجه يظهر من معنى «وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم» ما لا يظهر في المعنى الذي قبله، ويفيد قوله: «والله يعلم وأنتم لا تعلمون» أن قياسكم جميع الكافرين على أنفسكم، وتوقعكم أن يزين لهم من الإيمان ما زين لكم، هو من الأقيسة الباطلة، فإن الاستعداد في الناس يتفاوت تفاوتاً عظيمًا، فمنهم من ساءت خليقته، وأحاطت به خطيئته، حتى لم يبق لروح الحق منفذ إلى عقله، ولا لحب الخير طريق إلى قلبه، فلا تنفع فيه الدعوة، ولا ترجى له الهداية، ومثل هذا الفريق في الأمة كمثل الدم الفاسد في الجسم إذا لم يخرج منه فإنه يفسده، ولم يأمر الله بقتالهم، إلا رحمة بمجموع الأمة أن تفسد بهم، فلا يقاسون على من سلمت فطرتهم وحسنت سريرتهم، وأنتم أيها المؤمنون لا تعلمون كنه استعداد

الناس ولا ما يكون من أثره في مستقبلهم، وإنما الله هو الذي يعلم ذلك فامتثلوا أمره.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾

بعد ما بيَّنَ سبحانه أن القتال كتب على هذه الأمة فلا مفر منه، وإن كرهه المؤمنون خشية أن يضيع الحق بهلاك أهله، أو لما أودع القرآن قلوبهم من الرحمة والرجاء بجذب الناس إلى الإيمان بجاذب الدليل والحجة، ـ وهو الأرجح ـ بين سبحانه مسألة لا بد في هذا المقام من بيانها للحاجة إلى العلم بها، على أنه وقع السؤال عنها، وهي: مسألة القتال في الشهر الحرام، فقد كانت العرب تحرم القتال في الأشهر الحرم، وهي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، وكان النبي ﷺ يقر الناس على غير القبيح مما كانوا عليه، وتركُ القتال أربعة أشهر من السنة حسن، لأنه تقليل للشر فقال تعالى:

٢١٧ ـ ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه﴾[1] أي: عن القتال

---

(١) قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام﴾ ملخص سبب نزولها: أن جماعة من الصحابة بقيادة عبد الله بن جحش الأسدي، أخرجهم النبي ﷺ بعد رجوعه من «بدر الأولى المعروفة بغزوة سفوان» ليأتوا بأخبار قريش، ولم يأمرهم بقتال، فالتقوا نفراً من أهل مكة، فقام الصحابة بقتل أحدهم ـ عمرو بن الحضرمي ـ وأسروا اثنين منهم، واستقاوا العير التي كانت معهم فقدموا بها على رسول الله ﷺ فقال لهم: «والله ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام» فأوقف رسول الله ﷺ العير والأسيرين فلم يأخذ منها شيئاً، فندم الصحابة على ذلك وعنفهم إخوانهم المسلمون، وقالت قريش: قد سفك محمد الدم الحرام، واستحل الشهر الحرام، فنزل قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام..﴾ الآية، هذا ما رواه الطبراني في «الأوسط»، والبيهقي في «السنن» وغيرهما وقد ذكره المؤلف بتمامه في الأصل.

فيه، وقدم ذكره للعناية به، ونكر القتال في السؤال والجواب لتنويعه، كأنه قيل: أيصح أن يقع فيه قتال ما؟ ﴿قل قتال فيه كبير﴾ أي: إن أيَّ قتال فيه وإن كان صغيراً في نفسه، أمر كبير، مستنكر وقوعه فيه، لعظم حرمته، وقال بعضهم: معناه ذنب كبير، وهذا تقرير لحرمة القتال في الشهر الحرام، قال ابن جريج: حلف لي «عطاء» بالله، أنه لا يحل للناس الغزو في الحرم، ولا في الأشهر الحرم إلا على سبيل الدفع، وأن هذا حكم باق إلى يوم القيامة. وقال بعضهم: إنه منسوخ بقوله تعالى في سورة «التوبة» « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» وأنكر بعضهم هذا لأنه نسخ للخاص بالعام وفيه خلاف. وعبارة البيضاوي: والأولى منع دلالة الآية على حرمة القتال في كل الشهر الحرام مطلقاً، لأن لفظ «قتال» فيها نكرة في حيز مثبت، فلا تَعُمُّ. ﴿وصد عن سبيل الله﴾ أي: وصد الناس ومنعهم عن الطريق الموصل إليه تعالى وهو الإسلام، وهو الذي يفعله المشركون من اضطهاد المسلمين، وفتنتهم عن دينهم، إذ يقتلون من يسلم أو يؤذنونه في نفسه وأهله وماله، ويمنعونه من الهجرة إلى النبي، عليه الصلاة والسلام، ﴿وكفر به﴾ أي: بالله تعالى ﴿والمسجد الحرام﴾ أي: وصد عن المسجد الحرام، وهو منع المؤمنين من الحج والاعتمار ﴿وإخراج أهله منه﴾ وهم النبي ﷺ والمهاجرون، وذلك كقوله في آيات الإذن بالقتال في سورة «الحج»: «الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله»، كل واحدة من هذه الجرائم التي عليها المشركون ﴿أكبر عند الله﴾ من القتال في الشهر الحرام، فكيف بها وقد اجتمعت؟ ثم صرح بالعلة العامة لمشروعية القتال، وهي: فتنة الناس عن دينهم، فقال: ﴿والفتنة أكبر من القتل﴾ وكان المشركون[1] يفتنون المؤمنين عن دينهم بإلقاء الشبهات، وبما عُلِمَ من الإيذاء والتعذيب. وكان عمار يعذب بالنار يكوي بها ليرجع عن الإسلام، وكان النبي ﷺ يمر به فيرى أثر النار به كالبرص ومات ياسر في العذاب وأعطيت

---

(١) قوله: «وكان المشركون يفتنون المؤمنين عن دينهم إلخ»، هذا ما اعتمد المؤلف في معنى «الفتنة» هنا وفي الآية «١٩٣» المتقدمة ص ١٤٩، وهذا قول غير قوي، بل الصحيح أن «الفتنة» في الآيتين تعني: الشرك، أي: شرككم بالله أكبر من القتال في شهر الحرام. قاله ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم. وقد بيّنا ذلك ص ١٤٩ أيضاً.

سمية أم عمار لأبي جهل يعذبها وكانت مولاة لعمه أبي حذيفة بن المغيرة وهو الذي عهد إليه بتعذيبها فعذبها عذاباً شديداً رجاء أن تفتن في دينها، فلم تجبه لما يسأل، ثم طعنها في فرجها بحربة فماتت، رضي الله عنها، وكانت عجوزاً كبيرة، وكان أبو جهل يقول لها مع ذلك: ما آمنت بمحمد إلا أنك عشقته لجماله ـ يؤذيها بالقول كما يؤذيها بالفعل ـ وكان يلبس عمار درعاً من الحديد في اليوم الصائف يعذبه بحره.

وكان أمية بن خلف يعذب بلالاً يفتنه فكان يجيعه ويعطشه ليلة ويوماً ثم يطرحه على ظهره في الرمضاء، أي: يضعه على الرمل المحمي بحرارة الشمس الذي ينضج اللحم، ويضع على ظهره صخرة عظيمة ويقول له لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ﷺ وتعبد اللات والعزى، فيأبى ذلك، وهانت عليه نفسه في الله عز وجل، وكانوا يعطونه للولدان فيربطونه بحبل ويطوفون به في شِعاب مكة وهو يقول: «أَحَدٌ، أحد».

وحكى خباب، رضي الله عنه عن نفسه، قال: لقد رأيتني يوماً وقد أوقدت لي نار وضعوها على ظهري فما أطفأها إلا ودك ـ دهن ـ ظهري، فهذا نموذج من فتنة المشركين لضعفاء المسلمين، وما امتنع منهم إلا من له عصبة من قومه عز عليهم إسساله[1] فمنعوه حمية وأنفة للقرابة.

على أن النبي ﷺ على منعة قومه ومكانتهم بين العرب لم يسلم من إيذائهم فقد وضعوا سلا الجزور ـ كرش البعير المملوء فرثا ـ على ظهره وهو يصلي، وخاف أصحابه تنحيته عن ظهره حتى نحته السيدة فاطمة، رضي الله عنها، وتعرضوا له بضروب من الإيذاء كفاه الله شرها، كما قال تعالى: «إنا كفيناك المستهزئين» وسيجيء ذكرهم وبيان إيذائهم في موضعه إن شاء الله تعالى ولذلك قال تعالى: ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾ عاد إلى خطاب المؤمنين الذين كانوا يكرهون القتال لما تقدم، فأعلمهم أن أولئك المشركين لا هم لهم إلا منع الإسلام من الأرض، فترك

---

(١) قوله: «إسساله» أي: تركه ليهلك.

قتالهم هو الذي يبيد الحق وأهله وانتظار إيمانهم بمجرد الدعوة، طمع في غير مطمع، والقتال في الشهر الحرام، أهون من الفتنة عن الإسلام، لو لم يَحْتَفَّ بها غيرها من الآثام، كيف وقد قارنها الصد عن سبيل الله، والكفر به، والصد عن المسجد الحرام، وإخراج أهله منه والاعتداء بالقتال والاستمرار عليه.
وقوله: «إن استطاعوا» يفيد الشك في استطاعتهم، وعدم الثقة بها لأن من عرف الإسلام معرفة صحيحة لا يرجع عنه إلى الكفر وهو الباطل المفضوح، وهكذا كان وهكذا يكون، فلا يزال الكفار يقاتلوننا ليردونا عن ديننا إن استطاعوا، ولم يستطيعوا. ولما ذكر الردة التي يبغونها بقتالهم بين حكمها، فقال: ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي: ومن يرجع منكم عن الإسلام إلى الكفر، حتى يموت عليه فرضاً، فأولئك المرتدون هم الذين بطلت وفسدت أعمالهم في الدارين، حتى كأن واحدهم لم يعمل صالحاً قط، لأن الرجوع عن الإيمان إلى الكفر يشبه الآفة تصيب المخ والقلب، فتذهب بالحياة، فإن لم يمت المصاب بعقله وقلبه، فهو في حكم الميت لا ينتفع بشيء وكذلك الذي يقع في ظلمات الكفر بعد أن هدي إلى نور الإيمان، تفسد روحه ويظلم قلبه، فيذهب من نفسه أثر الأعمال الصالحة الماضية، ولا يعطي شيئاً من أحكام المسلمين الظاهرة، فيخسر الدنيا والآخرة. يقول بعض الفقهاء: إن المرتد تبطل أعماله حتى كأنه لم يعمل خيراً قط، وحتى إنه يجب عليه إعادة نحو الحج إذا رجع إلى الإسلام، وتطلق منه امرأته طلاقاً بائناً فلا تعود إليه إذا هو عاد إلى الإسلام إلا بعقد جديد. ويقول غيرهم: إن حبوط العمل مشروط بالموت على الكفر، فإذا ارتد المسلم مدة ثم عاد لا تجب عليه إعادة نحو الحج، وأما امرأته فإنها تكون موقوفة إلى انتهاء العدة، فإن عاد إلى الإسلام قبل انقضاء عدتها كانت على عصمته، وإن عاد بعد انقضاء العدة فإنها لا ترجع إليه إلا بعقد جديد. وللردة أحكام أخرى عند الفقهاء تطلب من كتبهم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

٢١٨ ـ ولما ذكر حال المشركين وحكم المرتدين، ناسب أن يذكر جزاء المؤمنين المهاجرين والمجاهدين، لأن الذهن يتوجه إلى طلبه فقال: ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله﴾ المهاجرة: مفارقة الأوطان والأهل، وهي من: «الـهَـجْر» ضد «الوصل». ولما هاجـر النبـي ﷺ من مكة فراراً بنفسه وبقومه من أذى قريش وفتنتهم، إلى المدينة التي عاهده من آمن من أهلها على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم، وجب على كل مسلم أن يتبعه في هجرته ليعتز الإسلام بأهله، ويقدر المؤمنون باجتماعهم على الدفاع عن أنفسهم. واستمر وجوب الهجرة على من قدر إلى فتح مكة، إذ خذل الله المشركين وجعل كلمتهم السفلى. وقد اختلف الفقهاء في حكم الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام في مثل عصرنا هذا ويؤخذ من علة وجوب الهجرة في عهد التشريع أنها تجب بمثل تلك العلة في كل زمان ومكان، فلا يجوز لمؤمن[1] أن يقيم في بلاد يفتن فيها عن دينه، بأن يؤذي إذا صرح باعتقاده أوعمل بما يجب عليه، وإن كان حكام تلك البلاد من صنف المسلمين، ومن ذلك أن لا يقدر المسلمون على التصريح قـولاً وكتابـة بكل مـا يعتقدون، ولا يمكنوا من القيام بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجمع عليه منها. وأما المجاهدة: فهي من الجهد وهو المشقة وليس خاصاً بالقتال. والرجاء هو توقع المنفعة من أسبابها. فالمؤمنون الذين هاجروا مع الرسول أو هاجروا إليه للقيام بنصرة الحق، والذين بذلوا جهدهم في مقاواة الكفار ومقاومتهم، هم الذين يرجون رحمة الله تعالى وإحسانه رجاء حقيقياً ﴿والله غفور رحيم﴾ واسع المغفرة للتائبين المستغفرين، عظيم الرحمة بالمؤمنين المحسنين، ولا سيما المهاجرين المجاهدين.

---

(١) قوله: «فلا يجوز لمؤمن أن يقيم في بلاد يفتن فيها عن دينه إلخ» إن ما ذكره المؤلف حق، ولكن: إلى أين يهاجر هذا المؤمن في عصرنا؟ فلو استطاع مؤمن أن يفلت من حيث يقيم في بلاد الاضطهاد هل تقبله دولة من الدول التي يستطيع أن يحفظ فيها دينه؟ . . . لا . . . لأن الدخول إلى تلك الدول في أيامنا والإقامة فيها غير ميسورين لكل إنسان ولا في كل آن، وهذه من مصائب هذا الزمان.

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾

٢١٩ ـ قال السيوطي في أسباب النزول: روى أحمد من حديث[1] أبي هريرة قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر فسألوا رسول الله ﷺ عنهما فأنزل الله ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ الآية فقال الناس: ما حرم علينا إنما قال: «إثم كبير»، وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوم من الأيام صلى رجل من المهاجرين أمَّ أصحابه في المغرب فخلط في قراءته فأنزل الله آية أغلظ منها: «يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى» الآية ثم نزلت آية أغلظ من ذلك «يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ــ إلى قوله ــ فهل أنتم منتهون» قالوا: انتهينا رَبَّنا. وروى أحمد وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي وغيرهم عن عمر أنه قال: اللهم بَيِّـن لنا في الخمر بياناً شافياً فإنها تذهب بالمال والعقل. فنزلت هذه الآية فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في سورة «النساء»: «يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى» فكان ينادي رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة «أن لا يقربن الصلاة سكران» فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في «المائدة» فدعي عمر فقرئت عليه فلما بلغ: «فهل أنتم منتهون» قال عمر: انتهينا انتهينا.

ويظهر من مجموع هذه الروايات أن القطع بتحريم الخمر والنهي عنها كان بعد تمهيد بالذم والنهي عن السكر في حال قرب الصلاة، وأوقات الصلوات متقاربة فمن ينهي عن قرب الصلاة وهو سكران فلا بد أن يتجنب السكر في أكثر الأوقات لئلا تحضر الصلاة وهو سكران وهو الذي تدل عليه الجملة الحالية «وأنتم سكارى» التي قيد بها النهي وفي هذا من الحكمة في التدريج بالتكليف

(١) والحديث أيضاً عند أبي داود، والترمذي، والنسائي.

ما لا يخفي. ولفظ «الخمر» منقول من مصدر: «خمر الشيء» بمعنى ستره وغطاه، يقال: «خمرت الشيء» إذا سترته والوجه في النقل: إن هذا الشراب يستر العقل ويغطيه، أو هو من «خامره» بمعنى خالطه، يقال خامره الداء أي خالطه أو بمعنى التغير، يقال: خَمِرَ الشيء كـ«عَلِمَ» إذا تغير عما كان عليه، والعصير يتغير فيكون خمراً، أو بمعنى الإدراك من «خمر العجين» ونحوه فاختمر أي بلغ وقت إدراكه وقال ابن الأعرابي إنه يقال سميت الخمر خمراً لأنها تركت حتى اختمرت واختمارها تغير رائحتها، وجميع هذه المعاني ظاهرة في هذه الأشربة المسكرة كلها كما قال ابن عبد البر، أخرج أبو داود عن عمر بن الخطاب قال: «نزل تحريم الخمر يوم نزل وهو من خمسة من العنب والتمر والحنطة والشعير والذرة، والخمر ما خامر العقل» ولا شك أن غيره مثله. والأحاديث الصحيحة صريحة في ذلك ومنها حديث الصحيحين وأبي داود والترمذي والنسائي: «كل مسكر خمر» وروي بزيادة «وكل خمر حرام» وكان النبي ﷺ والخلفاء يجلدون كل من سكر ويعبرون عن ذلك بحد الخمر أو عقوبته، وأما الميسر: فهو القمار، واشتقاقه من «يسر» إذا وجب، أو من اليسر بمعنى السهولة لأنه كسب بلا مشقة ولا كد، أو من اليسار وهو الغني لأنه سببه للرابح، أو من اليسر بمعنى التجزئة والاقتسام يقال: يسروا الشيء إذا اقتسموه. قال الأزهري الميسر الجزور ــ الجمل ــ كانوا يتقامرون عليه، سمي ميسراً لأنه يجزأ أجزاء، فكأنه موضع التجزئة، وكل شيء جزأته فقد يسرته، والياسر: الجازر، أي: لأنه يجزىء لحم الجزور، ثم صار يقال للمتقامرين: جازرون لأنهم سبب الجزر والتجزئة، وهذا هو الأصل. وأما كيفيته عند العرب فهي أنه كان لهم عشرة قداح ــ جمع قِدْح بالكسر ــ وتسمى الأزلام والأقلام ــ وهي: الفذ والتوأم والرقيب والحلس ــ كـ«كَتِف» ــ والمسبل والمعلَّى والنافس والمنيح والسَّفيح والوغد ــ لكل واحد من السبعة الأولى نصيب معلوم من جزور ينحرونها ويجزئونها عشرة أجزاء أو ثمانية وعشرين جزءاً، وليس للثلاثة الأخيرة شيء فللفذ سهم، وللتوأم سهمان، وللرقيب ثلاثة، وللحلس أربعة، وللنافس خمسة، وللمسبل ستة، وللمعلى سبعة وهو أعلاها، ولذلك يضرب به المثل لمن كان أكبر حظاً أو نجاحاً من غيره في كل شيء مفيد له فيقال: «صاحب القِدْح المعلى» وكانوا يجعلون هذه الأزلام في الربابة وهي الخريطة، ويضعونها على يد عدل يجلجلها ويدخل يده فيخرج منها واحداً باسم

رجل، ثم واحداً باسم رجل إلخ، فمن خرج له قدح من ذوات الأنصباء أخذ النصيب الموسوم به ذلك القدح، ومن خرج له قدح لا نصيب له لم يأخذ شيئاً، وغرم ثمن الجزور كله. وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء ولا يأكلون منها، ويفتخرون بذلك ويذمون من لم يدخل فيه، لا خلاف بين الفقهاء في أن كل قمار محرم ومنها المراهنة على سباق الخيل وقمار «اليانصيب» المعروفان في عصرنا، فإنهما من شر القمار الذي ترجع جميع أنواعه إلى كونها من أكل أموال الناس بالباطل. ﴿قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ قرأ حمزة والكسائي «كثير» بالمثلثة من الكثرة، وقرأ الباقون «كبير» من الكبر. والإثم: كل ما فيه ضرر وتَبِعه، من قول وعمل، أي: قل أيها الرسول إن في تعاطي الخمر والميسر إثم كثير المفاسد وذنب كبير الضرر وإنما كان إثم الخمر كبيراً لأن مضراتها والتبعات التي تعقبها كبيرة، والضرر يكون في البدن والنفس والعقل والمال، ويكون في التعامل وارتباط الناس بعضهم ببعض. ولا يوجد إثم من الإثام يدخل ضرره في كل شيء، كالخمر من الأفعال، والكذب من الأقوال، ومن مضرات الميسر: إفساد التربية بتعويد النفس الكسل وانتظار الرزق من الأسباب الوهمية، وإضعاف القوة العقلية، بترك الأعمال المفيدة في طرق الكسب الطبيعية، وإهمال الياسرين ـ المقامرين ـ للزراعة والصناعة والتجارة التي هي أركان العمران. ومنها وهو أشهرها: تخريب البيوت فجأة بالانتقال من الغنى إلى الفقر في ساعة واحدة، فكم من عشيرة كبيرة نشأت في الغنى والعز وانحصرت ثروتها في رجل أضاعها عليها في ليلة واحدة، فأصبحت غنية وأمست فقيرة لا قدرة لها على أن تعيش على ما تعودت من السعة، ولا ما دون ذلك. وأما المنافع في الخمر: فأهمها التجارة فقد كانت ولا تزال مورداً كبيراً للثروة ومادة عظيمة للتجارة، ولولا ذلك لغلب علماء الإفرنج على جهالهم، وأبطلوا عمل الخمور وبيعها، حتى لا يبقى منها إلا ما يعمل سراً كما هو شأن الناس في اللذات الممنوعة. وقد كانت العرب تسخو في شراء الخمر ما لا تسخو في غيرها. وجملة القول: أن الله تعالى قد هدانا لأن نعلم مضرات الخمر والميسر ببحثنا لنكون على بصيرة في تحريمها علينا، وأننا نرى الأمم التي لا تدين بالإسلام ولم تخاطب من الله تعالى بهذه الهداية، قد اهتدت إلى

ما لم نهتد إليه من تلك المضار، وأنشأت تؤلف الجمعيات للسعي في إبطال هاتين الجريمتين، ونحن الذين منحنا تلك الهداية منذ ثلاثة عشر قرناً ونيف، أنشأنا نأخذ عن تلك الأمم ما أنشأت هي تقاومه وتذمه، حتى إن السكر قد غلب في رؤساء دنيانا، والميسر قد انتشر في أمرائنا وكبرائنا، ثم فشا فيمن دونهم تقليداً لهم، قال تعالى ﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ ــ قال السيوطي في كتاب «أسباب النزول»: أخرج ابن أبي حاتم من طريق سعيد أو عكرمة عن ابن عباس: أن نفراً من الصحابة، حين أُمروا بالنفقة في سبيل الله، أتوا النبي ﷺ فقالوا: إنا لا ندري ما هذه النفقة التي أمرنا في أموالنا، فما ننفق منها؟ فأنزل الله «ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو». وليس المعنى: أن السؤال الأول عن الخمر والميسر نزل وحده ثم نزل هذا السؤال بعده، بل المراد: أن هذه الأسئلة كانت مما يقع من الصحابة، فأنزل الله هذه الآيات بياناً لهذه الأحكام وإجابة للسائلين عندما استعدوا للأخذ بها، وما ورد يدل على أن المراد أي جزء من أموالهم ينفقون، وأي جزء منها يمسكون، يكونوا ممتثلين لقوله «وأنفقوا في سبيل الله» ومتحققين بقوله «ومما رزقناهم ينفقون» فسألوا ماذا ينفقون؟ فأجيبوا بأن ينفقوا العفو، وهو الفضل والزيادة عن الحاجة، وعليه الأكثر، وقال بعضهم إن العفو نقيض الجهد، أي: ينفقون ما سهل عليهم وتيسر لهم مما يكون فاضلاً عن حاجتهم وحاجة من يعولون. والزيادة أمر مجمل يحتاج إلى بيان، فهل المراد حاجة اليوم أو الشهر أو السنة؟ رجح بعضهم الأخير لأن النبي ﷺ أدخر لأهله قوت سنة، ولكن القرآن أطلق العفو ليقدره كل قوم في كل عصر بحسب ما يليق بحالهم، لأنه خطاب عام ليس خاصاً بأهل جزيرة العرب، ولا بحال الناس في زمن البعثة. والمراد بهذا الإنفاق ما وراء الزكاة المفروضة المحدودة كصدقة التطوع، على الأفراد وعلى المصالح العامة، وقد ورد في الأحاديث الصحيحة ما يؤيد هذا، فقد أخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غني وابدأ بمن تعول» وأخرج ابن خزيمة من حديثه أيضاً أن النبي ﷺ قال: «خير الصدقة ما أبقت غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول، تقول المرأة: أنفق علي أو طلقني، ويقول مملوكك: أنفق علي أو بعني،

ويقول ولدك: إلى من تكلني». وقوله تعالى: ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾ معناه: مثل هذا النحو وعلى هذه الطريقة من البيان، قد قضت حكمة الله بأن يبين لكم آياته في الأحكام المتعلقة بمصالحكم ومنافعكم، وذلك بأن يوجه عقولكم إلى ما في الأشياء من المضار والمنافع ﴿لعلكم تتفكرون﴾ فيظهر لكم الضار منها أو الراجح ضرره، فتتركوه على بصيرة واقتناع بأنكم فعلتم ما فيه المصلحة، كما يظهر لكم النافع فتطلبوه.

فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾

٢٢٠ ــ ثم بين جل شأنه أن هذا البيان المعد للتفكر ليس خاصاً بمصالح الدنيا وحدها، ولا بطلب الآخرة على انفرادها، وإنما هو متعلق بهما جميعاً، فقال: ﴿في الدنيا والآخرة﴾ أي: تتفكرون في أمورهما معاً، فتجتمع لكم مصالح الجسد والروح فتكونون أمة وسطاً، وأناسي كاملين، لا كالذين حسبوا أن الآخرة لا تنال إلا بترك الدنيا وإهمال منافعها ومصالحها بالمرة، فخسروها وخسروا الآخرة معها، لأن الدنيا مزرعة الآخرة، ولا كالذين انصرفوا إلى اللذات الجسدية كالبهائم ففسدت أخلاقهم وأظلمت أرواحهم، وكانوا بلاء على الناس وعلى أنفسهم، فخسروا الآخرة والدنيا معها. ثم قال تعالى: ﴿ويسألونك عن اليتامى﴾ إلخ أخرج أبو داود والنسائي والحاكم وغيرهم عن ابن عباس قال: لما نزلت «ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن» و «إن الذين يأكلون أموال اليتامى» الآية، انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله «ويسألونك عن اليتامى» الآية ذكره السيوطي في «أسباب النزول» نعم: إن آيات الوصية في اليتامى كثيرة، ومنها ما نزل في مكة كقوله تعالى:

«ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن» في سورة «الإسراء»،وقوله تعالى: «فأما اليتيم فلا تقهر» في سورة «الضحى»،وقوله عز وجل: «فذلك الذي يدع اليتيم» في سورة «الماعون»، جعل دعَّ اليتيم ـ وهو دفعه وجره بعنف ـ أول آيات التكذيب بالدين ولذلك تأثم الصحابة عليهم الرضوان من مخالطة اليتامى بعد نزول آية «النساء»، وإن كان العادة جارية بتسامح الناس في مؤكلة الخلطاء والشركاء، من غير تدقيق، فكان بعضهم يأبى القيام على اليتيم وبعضهم يعزل اليتيم عن عياله فلا يخالطونه في شيء حتى إنهم كانوا يطبخون له وحده، ثم إنهم فطنوا إلى أن هذا على ما فيه من الحرج عليهم لا مصلحة فيه لليتيم بل هو مفسدة له في تربيته ومضيعة لماله، وفيه من القهر المنهي عنه ما لا يخفى، ومن هنا جاءت الحيرة واحتيج إلى السؤال عن طريق الجمع بين الأمرين، والتوحيد بين المصلحتين، بأن يعيش اليتيم في بيت كافله عزيزاً كريماً كأحد عياله، ويسلم الكافل من أكل شيء من ماله بغير حق، وكان من فضل الله تعالى ورحمته أن أنزل الوحي في إزالة الحيرة وكشف الغمة،فقال لنبيه: ﴿قل﴾ لهؤلاء السائلين عن القيام على اليتامى وكفالتهم، وعن المصلحة في عزلهم أو مخالطتهم: ﴿إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾ يعني: أي إصلاح لهم خير من عدمه، فلا تتركوا شيئاً مما تعلمون أن فيه صلاحاً لهم في أموالهم وأحوالهم، من تربية وتهذيب، هذا ما أفاده تنكير «إصلاح»، وإن تخالطوهم لرؤيتكم الخير لهم في المخالطة في المعيشة فهم إخوانكم في الدين، وإنما شأن الإخوان المخالطة في المعاشرة. ﴿والله يعلم المفسد من المصلح﴾أي. إنه لم يكل أمر مخالقة اليتامى إلى حكم نزعة القرابة، وعاطفة الأخوة من قلوبكم إلا وهو يعلم ما تضمر هذه القلوب من قصد الإصلاح لهم أو الإفساد، فعليكم أن تراقبوه في أعمالكم ونياتكم، وتعلموا أن سيحاسبكم على مثقال الذرة مما تعملون لهم.

والمصلح: هو من يأتي بالإصلاح عملاً، والمفسد: هو من يأتي بالإفساد فعلاً، وحال كل منهما ظاهرة للعيان، ثم بين لنا سبحانه وتعالى منته علينا ورحمته بنا، بما أذن لنا من مخالطة اليتامى فقال: ﴿ولو شاء الله لأعنتكم﴾ أي: أوقعكم في العنت، وهو: المشقة وما يصعب احتماله، بأن يكلفكم القيام

بشؤون اليتامى وتربيتهم وحفظ أموالهم، ولا يأذن لكم بمخالطتهم، ولا بأكل لقمة واحدة من طعامهم، ولكنه لسعة رحمته لا يكلف نفساً إلا وسعها، وما جعل عليكم في الدين من حرج، ولذلك أباح لكم مخالطة اليتامى على أن تعاملوهم معاملة الإخوة، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم، وقد عفا عما جرى العرف على التسامح فيه، لعدم استغناء الخلطاء عنه، وَوَكَّلَ ذلك إلى ذمتكم وأمركم بمراقبته فيه، وهو الرقيب المهيمن الذي لا يخفى عليه شيء من عملكم ولا من قصدكم ونيتكم ﴿إن الله عزيز حكيم﴾ فلو شاء إعناتكم لَعَزَّ على غيره منعه من ذلك، إذ لا عزة تعلو عزته، ولكن مضت حكمته بأن تكون شريعته جامعة لمصالح عباده، جارية على سنن الفطرة المعتدلة التي فطرهم عليها.

وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

٢٢١ ـ ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمِّن﴾[1] هذا معطوف على مفهوم ما قبله من الأمر بالإصلاح، والنهي عن الإفساد، ومعناه: لا تتزوجوا النساء المشركات ما دمن على شركهن ﴿ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم﴾ أي: والله إن أمة ـ أي: مملوكة ـ مؤمنة بالله ورسوله، خير من مشركة حرة، ولو أعجبتكم المشركة بجمالها وبغيره. وأصل الأمة: «أموة» بالتحريك، يقال: «امَتِ الجارية» صارت أمة، وأمَّيتها بالتشديد: جعلتها أمة، وتأَمَّت صارت أمةً. ﴿ولا تنكحوا المشركين﴾ أي: لا تزوجوهم المؤمنات ﴿حتى يؤمنوا﴾ فيصيروا أكفاء لهن ﴿ولعبد مؤمن خير من مشرك﴾ أي: ولمملوك مؤمن خير من مشرك حر ﴿ولو أعجبكم﴾ المشرك بنسبه أو قوته أو ماله، وجملة القول: أن هؤلاء الذين أشركوا وهم الذين بينكم وبينهم غاية الخلاف والتباين في

---

(١) قوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾ الآية. لقد فصلنا القول في زواج المسلمة غير المسلم في تعليقنا على تفسير قوله تعالى: ﴿والمحصنات من المؤمنات﴾ الآية الخامسة من سورة «المائدة» ص ٢٨٠ من الجزء الثاني لهذا المختصر وما يليها.

الاعتقاد، لا يجوز لكم أن تتصلوا بهم برابطة الصهر لا بتزويجهم ولا بالتزوج منهم، وأما الكتابيات: فقد جاء في سورة «المائدة» أنهن حل لنا، وسكت هنا عن تزويج الكتابي المسلمة، وقالوا: إنه على أصل المنع وأيدوه بالسنة والإجماع. وقد فسر الجمهور: الأْمة والعبد في الآية بالرقيق، أي: إن الأْمة المملوكة المؤمنة خير من الحرة المشركة ولو أعجبكم جمالها، وكذلك القن المؤمن خير من الحر المشرك وإن كان معجباً، وتعلم منه خيرية الحر المؤمن والحرة المؤمنة بالأولى. بيان ذلك أن ليس المراد بالزوجية قضاء الشهوة الحسية فقط وإنما المراد بها تعاقد الزوجين على المشاركة في شؤون الحياة والاتحاد في كل شيء، وإنما يكون ذلك بكون المرأة محل ثقة الرجل يأمنها على نفسه وولده ومتاعه، عالماً أن حرصها على ذلك كحرصه، والمشركة ليس لها دين يحرم الخيانة، ويوجب عليها الأمانة، ويأمرها بالخير، وينهاها عن الشر، فهي موكولة إلى طبيعتها، وما ترتبت عليه في عشيرتها، وهو خرافات الوثنية وأوهامها، فقد تخون زوجها، وتفسد عقيدة ولدها. وأما الكتابية فإنها تدين بوجوب عمل الخير وتحريم الشر ويوشك أن يظهر للمرأة من معاشرة الرجل حقية دينه وحسن شريعته والوقوف على سيرة من جاء بها وما أيده الله تعالى به من الآيات البينات فتؤمن وتؤتى أجرها مرتين، إن كانت من المحسنات في الحالين، ومثل هذه الحكمة لا تظهر في تزويج الكتابي بالمؤمنة، فإنه بما له من السلطان عليها، وبما يغلب عليها من الجهل والضعف في بيان ما تعلم، لا يسهل عليها أن تقنعه بحقية ما هي عليه، بل يخشى أن يزيغها عن عقيدتها ويفسد منها دون أن تصلح منه، وهذا المعنى يفهم من تعليل النهي عن مناكحة المشركين في قوله عز وجل: ﴿أولئك يدعون إلى النار﴾ أشار بأولئك إلى المذكورين من المشركين والمشركات، أي: من شأنهم الدعوة إلى أسباب دخول النار بأقوالهم وأفعالهم، وصلة الزواج أقوى مساعد على تأثير الدعوة، لأن من شأنها أن يتسامح معها في شؤون كثيرة، وكل تساهل وتسامح مع المشرك أو المشركة محظور محذور الشر، بما يخشى منه أن يسري شيء من عقائد الشرك للمؤمن أو المؤمنة بضروب الشُّبَه والتضليل التي جرى عليها المشركون ﴿والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه﴾ أي: إن دعوة الله التي عليها المؤمنون هي الموصلة إلى الجنة والمغفرة، بإذن الله

وإرادته وهدايته وتوفيقه، فهي مناقضة لدعوة المشركين، وهي ما هم عليه من الشرك الموصل إلى النار بسوء اختيار أصحابه له، ففيه المقابلة بين المشركين والمؤمنين، وهي أنهما على غاية التباين، وفيه أن ما عليه المشركون هو من سوء اختيارهم وقبح تصرفهم في كسبهم، وأن ما عليه المؤمنون لم يكن بوضعهم وعملهم، وإنما هو الدين الذي هو وضع الله بلغه عنه رسله بإذنه، وهدى إليه خلقه. ﴿ويبين آياته للناس﴾ أي: يوضح الدلائل على أحكام شريعته للناس، فلا يذكر لهم حكمًا إلا ويبين لهم حكمته وفائدته، بما يظهر لهم به أن المصلحة والسعادة فيما شرعه لهم ﴿لعلهم يتذكرون﴾ يتعظون، فيستقيمون، فإن الحكم إذا لم تعرف فائدته للعامل، لا يلبث أن يمل العمل به، فيتركه وينساه، وإذا عرف علته ودليله وانطباقه على مصلحته ومصلحة من يعيش معهم، فأجدر به أن يحفظه ويقيمه على وجهه ويستقيم عليه، ومن هنا قال الفقهاء، إن الحكم يدور مع العلة وجوداً وعدماً، وإن ما يشارك المنصوص في العلة يعطى حكمه.

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾

٢٢٢ ـ ﴿ويسألونك عن المحيض﴾ أي: عن حكمه، والمحيض: هو الحيض المعروف، وهو الدم الذي يخرج من الرحم على وصف مخصوص في زمن معلوم، لوظيفة حيوية صحية تُعد الرحم للحمل بعده، إذا حصل التقليح المقصود من الزوجية لبقاء النوع. فالمحيض كالحيض، مصدر: كالمجيء والمبيت، ويطلق على زمان الحيض ومكانه، والمرأة «حائض» ـ بدون تاء» لأنه وصف خاص، وجمعه «حُيَّض» بتشديد الياء ـ كراكع وركع ـ وورد حائضة وجمعه حائضات، ولا حاجة إلى تقدير محل المحيض فإنما يسأل الشارع عن الأحكام ﴿قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى

يطهرن﴾ قدم العلة على الحكم ورتبه عليها ليؤخذ بالقبول من المتساهلين الذين يرون الحجر عليهم تحكمًا، ويُعلم أنه حكم للمصلحة لا للتعبد كما عليه اليهود، والمراد من النهي عن القرب: النهي عن لازمه الذي يقصد منه وهو الوقاع، والمعنى: أنه يجب على الرجال ترك غشيان نسائهم زمن المحيض، لأن غشيانهن سبب للأذى والضرر، وإذا سلم الرجل من هذا الأذى فلا تكاد تسلم منه المرأة لأن الغشيان يزعج أعضاء النسل فيها، إلى ما ليست مستعدة له ولا قادرة عليه، لاشتغالها بوظيفة طبيعية أخرى، هي إفراز الدم المعروف. وقد جاء هذا الحكم وسطاً بين إفراط الغلاة الذين يعدون المرأة الحائض وكل من يمسها أو يمس ثيابها أو فراشها من النجاسات، وتفريط المتساهلين الذين يستحلون ملابستها في الحيض على ما فيه من الأذى والدنس.

وقد أفادت عبارة الآية الكريمة تأكيد الحكم إذ أمرت باعتزال النساء في زمن المحيض، وهو كناية عن ترك غشيانهن فيه، ثم بينت مدة هذا الاعتزال بصيغة النهي. والحكمة في التأكيد هي مقاومة الرغبة الطبيعية في ملابسة النساء وإيقافها دون حد الإيذاء. وكان يظن بعض الناس أن الاعتزال وترك القرب حقيقة لا كناية، وأنه يجب الابتعاد عن النساء في المحيض وعدم القرب منهن بالمرة، ولكن النبي ﷺ بين لهم أن المحرم إنما هو الوقاع. عن أنس بن مالك: أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت فسأل أصحاب النبي ﷺ عن ذلك فأنزل الله عز وجل ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى﴾ إلى آخر الآية فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا الجماع» رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن. وفي حديث حزام بن حكيم عن عمه أنه سأل رسول الله ﷺ: مايحل لي من امرأتي وهي حائض؟ قال: «لك ما فوق الإزار» أي: ما فوق السرة، رواه أبو داود، وقد حمل بعضهم النهي على من يخاف على نفسه الوقاع، وكأن السائل كان كذلك، وقال بعضهم: إن هذا الحديث مخصص للحديث الأول ولما في معناه، فلا يجوز الاستمتاع إلا بما فوق السرة والركبة، وهو تخصيص بالمفهوم، والخلاف فيه عند الأصوليين معلوم.

﴿فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله﴾ «الطُّهر» في قوله تعالى «حتى يطهرن»: انقطاع دم الحيض، وهو ما لا يكون بفعل النساء، وأما التطهر:

فهو من عملهن، وهو يكون عقب الطهر، واختلفوا في المراد منه فقال بعض العلماء: هو غسل أثر الدم، وقال مجاهد وعكرمة: إن انقطاع الدم يحلها لزوجها ولكن تتوضأ، والجمهور على أن المراد به الاغتسال بالماء إن وجد ولا مانع منه، وإلا فالتيمم. والأمر بإتيانهن: لرفع الحظر في النهي عن قربهن وبيان شرطه وقيده. والظاهر أن المراد بلفظ الأمر في قوله: «فأتوهن من حيث أمركم الله» الأمر التكويني أي: فأتوهن من المأتى الذي بَرَأ الله تعالى الفطرة على الميل إليه، ومضت سنته بحفظ النوع به، وهو موضع النسل. ﴿إن الله يحب التوابين﴾ الذين إذا خالفوا سنة الفطرة بغلبة سلطان الشهوة، فأَتوا نساءهم في زمن المحيض، أو في غير الـمَأْتَـى الذي أمر الله به، يرجعون إليه تائبين، ولا يصرون على فعلهم السيىء ﴿ويحب المتطهرين﴾ من الأحداث والأقذار، ومن إتيان المنكر، بل هؤلاء أحب إليه من الذين يقعون في الدنس، ثم يتوبون منه.

٢٢٣ ـ ثم قال تعالى ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ بَـيَّـنَ في الآية السابقة حُكْمَ المحيض، وأحل غشيان النساء بعده، وبَـيَّـنَ في هذه الآية حكمة هذا الغشيان التي شرع الزواج لأجلها، وكان من مقتضى الفطرة، وهي الاستنتاج والاستيلاد، لأن الحرث: هو الأرض التي تستنبت، والاستيلاد كالاستنبات، وهذا التعبير على لطفه ونزاهته وبلاغته وحسن استعارته، تصريح بما فهم من قوله عز وجل. «فأتوهن من حيث أمركم الله» أو بيان له، فهو يقول: إنه لم يأمر بإتيان النساء الأَمرَ التكويني، بما أودع في فطرة كل من الزوجين من الميل إلى الآخر، والأمر التشريعي بما جعل الزواج من أمر الدين وأسباب المثوبة والقربة، إلا لأجل حفظ النوع البشري بالاستيلاد كما يحفظ النبات بالحرث والزرع، فلا تجعلوا استلذاذ المباشرة مقصوداً لذاته فتأتوا النساء في المحيض حيث لا استعداد لقبول زراعة الولد وعلى ما في ذلك من الأذى. وهذا يتضمن النهي عن إتيانهن في غير المأتى الذي يتحقق به معنى الحرث ﴿وقدموا لأنفسكم واتقوا الله﴾ فهذه أوامر تدل على أن هنا شيئاً يرغب فيه وشيئاً يرغب عنه ويحذر منه. أما ما يرغب فيه فهو ما يقدم للنفس

وهو ما ينفعها في المستقبل ولا أنفع للإنسان في مستقبله من الولد الصالح، فهو ينفعه في دنياه كما هو ظاهر، وفي دينه من حيث أن الوالد سبب وجوده وصلاحه، فالأمر بالتقديم للنفس، يتضمن الأمر باختيار المرأة الودود الولود التي تعين الرجل على تربية ولده بحسن خلقها وعملها، كما يختار الزراعة في الأرض الصالحة، التي يرجى نماء النبات فيها، وإيتاؤه الغلة الجيدة ويتضمن الأمرَ بحسن تربية الولد وتهذيبه. وأما ما يحذر منه ويُتّقى الله فيه فهو إخراج النساء عن كونهن حرثاً، بإضاعة مادة النسل في المحيض، أو بوضعها في غير موضع الحرث، وكذلك اختيار المرأة الفاسدة التربية وإهمال تربية الولد. فإن الأمر بالتقوى ورد بعد النهي عن إتيان النساء في المحيض والأمر بإتيانهن من حيث أمر الله تعالى، وهو موضع الحرث، والأمر بالتقديم لأنفسنا، فوجب تفسير التقوى بتجنب مخالفة هذا الهدى الإلهي. وقوله تعالى: ﴿واعلموا أنكم ملاقوه﴾ إنذار للذين يخالفون عن أمره بأنهم يلاقون جزاء مخالفتهم في الآخرة كما يلاقونها في الدنيا، بفقد منافع الطاعة والامتثال، وتجرع مرارة عاقبة المخالفة والعصيان، ثم قرن إنذار العاصين بتبشير المطيعين، فقال: ﴿وبشر المؤمنين﴾ الذين يقفون عند الحدود، ويتبعون هدى الله تعالى في أمر النساء والأولاد، وقد حذف ما به البشارة ليفيد أنه عام يشمل منافع الدنيا ونعيم الآخرة.

وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَـٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾

٢٢٤ ـ ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾ «العُرْضة» بالضم: كالغرفة لها معان، أظهرها هنا اثنان: أحدهما أن تكون بمعنى المانع المعترض دون

الشيء، أي: لا تجعلوا الله تعالى مانعاً بينكم وبين عمل الخير، بأن تحلفوا به على تركه فتتركوه تعظيمًا لاسمه، ويؤيد هذا المعنى ما رواه ابن جرير في سبب نزول الآية، وهو حلف أبي بكر، رضي الله عنه، على ترك الإنفاق على مسطح بعد أن خاض في قصة الإفك، وفيه نزل: «ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى» الآية. ويؤيده أيضاً: أحاديث في الصحيحين وغيرهما، منها قوله ﷺ: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه»، ذلك أن الإنسان يسرع إلى لسانه الحلف أنه لا يفعل كذا وقد يكون خيراً، وليفعلن كذا وقد يكون شراً، والله تعالى لا يرضى بأن يكون اسمه حجاباً دون الخير، أو محضاءً للشر. والمعنى الثاني للعرضة ما يعرض للشيء، أي: ما ينصب ليعرض له الشيء كالهدف السهام، يقال: فلان عرضة للناس، إذا كانوا يقعون فيه ويعرضون له بالمكروه والمعنى على هذا الوجه: لا تكثروا الحلف بالله تعالى، فالذي يجعل الله عرضة لأيمانه هو كالحلاف في قوله تعالى «ولا تطع كل حلاف مهين» فكثير الحلف حليف المهانة، ومن أكثر الحلف قلَّت مهابته وكثر حنثه واتهم بالكذب. قال الإمام الشافعي: ما حلفت بالله صادقاً ولا كاذباً، ومَذَامُّ كثرة الحلف أنه يقلل ثقة الإنسان بنفسه وثقة الناس به، فهو يشعر بأنه لا يصدَّق فيحلف، ولهذا وصفه الله تعالى بالمهين، وكثيراً ما يعرض نفسه للخطأ إذا حلف على المستقبل، ثم أنه لا يكون إلا قليل الخشية والتعظيم لله تعالى لا يهمه إلا أن يرضي الناس ويكون موثوقاً به عندهم، وقوله تعالى: ﴿أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس﴾ على الوجه الأول بيان للأيمان، لأنها بمعنى المحلوف عليه، أي: لا تجعلوه مانعاً لما حلفتم على تركه من البر والتقوى والإصلاح بين الناس، بل إذا حلف أحدكم على ترك البر أو التقوى، أو الإصلاح فليكفِّر عن يمينه وليفعل البر والتقوى والإصلاح، فلا عذر لأحد في ترك ذلك ولا يرضي الله تعالى أن يكون اسمه مانعاً منه.

وأما على الوجه الثاني: فهو لتعليل النهي، أي: لا تجعلوه تعالى معرضاً لأيمانكم لأجل البر والتقوى والإصلاح، فإن كثير الحلف، لا يكون أهـلاً لذلك، لما تقدم من كونه مهيناً، غير معظِّم لله تعالى، وعرضةً للكذب والحنث،

وغير موثوق بقوله، فلا يرضاه الناس مصلحاً بينهم، ثم قال: ﴿والله سميع عليم﴾ أي: «سميع» لما تلفظون به من الحلف وغيره، «عليم» بما يترتب على كثرة الحلف، فعليكم أن تراقبوه وتتذكروا عند داعية كل قول وعمل، أنه سميع لأقوالكم عليم بأفعالكم. هذا الختم للآية يتضمن الوعيد على كثرة الحلف، فإذا دخل فيه ما يجري في الكلام من قصد وروية كقول الإنسان: أيْ والله، لا والله، وعُدَّ هذا مما يؤاخذ عليه ويجري فيه الحكم السابق، كان الحرج عظيمًا، وقد رفع الله هذا الحرج بقوله:

٢٢٥ ــ ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ فاللغو: أن يقع الكلام حشواً غير مقصود به معناه، فهو يقول: إن هذه الألفاظ التي تسبق إلى اللسان عادة ولا يقصد بها عقد اليمين، لغو من القول لا تعد أيماناً حقيقية، فلا يؤاخذكم الله تعالى بها، بفرض الكفارة عليها ولا بالعقاب ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ بأن تقصدوا جعل اسمه الكريم عرضة للابتذال، أو مانعاً لصالح الأعمال، فإن الله لا ينظر إلى صوركم وأقوالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، ﴿والله غفور حليم﴾ يغفر لعبده ذلك ولا يؤاخذ به، ولا يتعجل بالعقوبة على هذا اللمم الذي يضعف العبد عن التوقي منه.

بعد بيان هذه الأحكام في الأيمان العامة، انتقل إلى حكم اليمين الخاصة، فقال:

٢٢٦ ــ ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر﴾ إلخ فالإيلاء، من المرأة: أن يحلف الرجل أنه لا يقربها، وهو مما يكون من الرجال عند المغاضبة والغيظ، وفيه امتهان للمرأة، وهضم لحقها، وإظهار لعدم المبالاة بها، فترك المقاربة الخاصة المعلومة ضراراً معصية، والحلف عليه حلف على ما لا يرضى الله تعالى به لما فيه من ترك التواد والتراحم بين الزوجين وما يترتب على ذلك من المفاسد في أنفسهما وفي عيالهما وأقاربهما ولذلك أنزل الله فيه هذا الحكم، وهو: التربص مدة أربعة أشهر، وقد قيل: إن هذه هي المدة التي لا يشق على المرأة البعد فيها عن الرجل، وهي كافية لتروي الرجل في أمره، ورجوعه إلى رشده ﴿فإن فاؤوا﴾ أي: رجعوا إلى نسائهم بأن حنثوا في اليمين

وقاربوهن في أثناء هذه المدة أو آخرها ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ يغفر لهم ما سلف برحمته الواسعة، لأن الفيئة توبة في حقهم.

٢٢٧ ـ ﴿وإن عزموا الطلاق﴾ أي: صمموا قصده، وعزموا على أن لا يعودوا إلى ملامسة نسائهم ﴿فإن الله سميع عليم﴾ أي: فليراقبوا الله تعالى عالمين أنه سميع لإيلائهم وطلاقهم، عليم بنيتهم فيه، فإن كانوا يريدون به إيذاء النساء ومضارتهن فهو يتولى عقابهم، وإن كان لهم عذر شرعي بأن كان الباعث على الإيلاء تربية النساء لأجل إقامة حدود الله، وعلى الطلاق اليأس من إمكان المعاشرة بالمعروف، فهو يغفر لهم، والمعنى: أن من حلف على ترك غشيان امرأته فلا يجوز له أن يتربص أكثر من أربعة أشهر، فإن تاب وعاد قبل انقضائها لم يكن عليه إثم، وإن أتمها تعين عليه أحد الأمرين: الفيئةُ والرجوعُ إلى المعاشرة الزوجية، أو الطلاق، وعليه أن يراقب الله تعالى فيما يختاره منهما.

وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَـٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾

٢٢٨ ـ ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ إلخ المراد بالمطلقات: الأزواج اللواتي تحقق فيهن معنى الزوجية وهن الحرائر ذوات الحيض، بقرينة السياق، ومعنى التربص مدة ثلاثة قروء: هو أن لا تتزوج المطلقة حتى يمر عليها ثلاثة قروء، وهي جمع «قرء» بضم القاف[1] وفتحها، ويطلق في اللغة على حيض المرأة وعلى طهرها منه، والأصل فيه الانتقال من الطهر إلى الحيض، فالمالكية والشافعية وآل البيت على أن القرء هو الطهر، والحنفية والحنابلة في أصح الروايتين على أن القرء هو الحيض، وأدلة الأولين

---

(١) قوله: «بضم القاف وفتحها»، إن الفتح هو الأغلب، وقد تُضَمُّ.

أقوى. وأورد الحكم بلفظ الخبر دون الأمر وغيره من ضروب الإنشاء ـ كقوله كتب على المطلقات كذا ـ لتأكيده والاهتمام به، كأنه يقول إن هذا التربص واقع كذلك لا محالة، كما يقول الشيخ عبد القاهر الجرجاني في هذا النوع من الإسناد الخبري في مقام الأمر، فعندما يقال: «المطلقات» يلتفت ذهن السامع ويكون متهيئاً لسماع ما يقال عنهن، فإذا قيل: «يتربصن بأنفسهن» إلخ ـ وفيه الإسناد والحكم ـ يتقرر عنده أنه مأمور به أمراً مؤكداً كأنه قال: إننا أمرناهن بذلك، وفرضناه عليهن فامتثلن الأمر وجرين عليه بالاستمرار، حتى صار شأناً من شؤونهن اللازمة لهن لا ينصرفن عنه، بل لا يخطر في البال مخالفتهن له. وفي التعبير بقوله: «يتربصن بأنفسهن» من الإبداع في الإشارة، والنزاهة في العبارة، ما عهد في كل القرآن، ولم يبلغ مراعاة مثله إنسان، فالكلام في المطلقات وهن معرضات للزواج، وخلو من الإزواج، والأنسب فيه ترك التصريح بما يتشوفن إليه، والإكتفاء بالكناية عما يرغبن فيه، على إقرارهن عليه، وعدم إيئاسهن منه، مع اجتناب إخجالهن، وتوقي تنفيرهن أو التنفير منهن، وقد جمع هذه المعاني قوله تعالى: « يتربصن بأنفسهن » على ما فيه من الإيجاز، الذي هو من مواقع الإعجاز، فأفاد أنه يجب عليهن أن يملكن رغبتهن ويكففن جماح أنفسهن، إلى تمام المدة المعدودة، ولكن بطريق الرمز والتلويح، لا بطريق الإبانة والتصريح، فإن التربص في حقيقته وظاهر معناه: التريث والانتظار، وهو يتعلق بشيء يتريث عنه، وينتظر زوال المدة المضروبة دونه، ولولا كلمة «بأنفسهن» لما أفادت الجملة تلك المعاني الدقيقة والكنايات الرشيقة، وما كان ليخطر على بال إنسان يريد إفادة حكم العدة أن يزيد هذه الكلمة على قوله: «يتربصن ثلاثة قروء». ثم بين تعالى حكمة هذا التربص بالزواج في سياق حكم آخر، فقال ﴿ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن﴾ كما كن يفعلن أحياناً في الجاهلية، إذ كانت المرأة تتزوج بعد فراق رجل بآخر ويظهر لها أنها حبلى من الأول فتلحق الولد بالثاني، فهذا محرم في الإسلام، لأنه شر ضروب الغش والزور والبهتان، ينفي عن قوم من هو منهم، ويلحق بآخرين من ليس منهم. ﴿إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ وهذا وعيد شديد وتهديد عظيم، كأنه يقول: إذا كن يعرفن من أنفسهن الإيمان بالله، الذي أنزل الحلال والحرام

لمصلحة الناس، وباليوم الآخر، الذي يكون فيه الجزاء بالقسطاس، فلا يكتمن ما خلق الله في أرحامهن. ﴿وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحا﴾ هذا لطف كبير من الله سبحانه وتعالى وحرص من الشارع على بقاء العصمة الأولى، فإن المرأة إذا طلقت لأمر من الأمور، سواء كان بالإيلاء أو غيره، فقلما يرغب فيها الرجال، وأما بعلها المطلِّق فقد يندم على طلاقها، ويرى أن ما طلقها لأجله لا يقتضي مفارقتها دائمًا، فيرغب في مراجعتها ولا سيما إذا كانت العشرة السابقة جرت على طريقتها الفطرية، فأفضى كل منهما إلى الآخر بسره حتى عرف عُـجْرَه وبُـجْرَه، وتمكنت الإلفة بينهما على علاتها. وإذا كانا قد رزقا الولد، فإن الندم على الطلاق يسرع إليهما لأن الحرص الطبيعي على العناية بتربية الولد وكفالته بالإشتراك تغلب بعد زوال أثر المغاضبة العارضة على النفس، ولما كانت إرادة الإصلاح بردِّ الرجل امرأته إلى عصمته إنما تتحقق بأن يقوم بحقوقها، كما يلزمها أن تقوم بحقوقه، ذكَر جل شأنه حقوق كل منهما على الآخر بعبارة مجملة تعد ركناً من أركان الإصلاح في البشر، وهي قوله تعالى: ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾ هذه كلمة جليلة جداً، جمعت على إيجازها ما لا يؤدى بالتفصيل إلا في سَفْر كبير، فهي قاعدة كلية، ناطقة بأن المرأة مساوية للرجل في جميع الحقوق، إلا أمراً واحداً عبر عنه بقوله ﴿وللرجال عليهن درجة﴾ وسيأتي بيانه[1] وقد أحال في معرفة ما لهن وما عليهن على المعروف بين الناس ومعاشراتهم ومعاملاتهم في أهليهم. وما يجري عليه عرف الناس هو تابع لشرائعهم وعقائدهم وآدابهم وعاداتهم، فهذه الجملة تعطي الرجل ميزاناً يزن به معاملته لزوجه في جميع الشؤون والأحوال، فإذا هَمَّ بمطالبتها بأمر من الأمور يتذكر أنه يجب عليه مثله بإزائه، ولهذا قال ابن عباس، رضي الله تعالى عنهما: إنني لأتزين لامرأتي كما تتزين لي، لهذه الآية. وليس المراد بالمثل المثلُ بأعيان الأشياء وأشخاصها، وإنما المراد أن الحقوق بينهما متبادلة وأنهما أكفاء، فما من عمل تعمله المرأة للرجل إلا وللرجل عمل يقابله لها، إن لم يكن مثله في شخصه، فهو مثله في جنسه، فهما متماثلان في الحقوق

---

(١) قوله: «سيأتي بيانه» أي: في تفسيره هذه الآية وهي ٣٤ من سورة «النساء».

والأعمال، كما أنهما متماثلان في الذات والإحساس والشعور والعقل، أي أن كل منهما بشر تام له عقل يتفكر في مصالحه، وقلب يحب ما يلائمه ويسر به، ويكره ما لا يلائمه وينفر منه، فليس من العدل أن يتحكم أحد الصنفين بالآخر ويتخذه عبداً يستذله ويستخدمه في مصالحه ولا سيما بعد عقد الزوجية والدخول في الحياة المشتركة التي لا تكون سعيدة إلا باحترام كل من الزوجين الآخر والقيام بحقوقه. وأما قوله تعالى: «وللرجال عليهن درجة» فهو يوجب على المرأة شيئاً وعلى الرجل أشياء. ذلك أن هذه الدرجة هي درجة الرياسة والقيام على المصالح المفسرة بقوله تعالى: «الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم».

فالحياة الزوجية حياة اجتماعية ولا بد لكل اجتماع من رئيس لأن المجتمعين لا بد أن تختلف آراؤهم ورغباتهم في بعض الأمور، ولا تقوم مصلحتهم إلا إذا كان لهم رئيس يرجع إلى رأيه في الخلاف لئلا يعمل كل على ضد الآخر فتنفصم عروة الوحدة الجامعة، ويختل النظام، والرجل أحق بالرياسة لأنه أعلم بالمصلحة، وأقدر على التنفيذ بقوته وماله، ومن ثم كان هو المطالب شرعاً بحماية المرأة والنفقة عليها، وكانت هي مطالبة بطاعته في المعروف، فإن نشزت عن طاعته كان له تأديبها بالوعظ والهجر والضرب غير المبرح إن تعين تأديباً. وختم الآية بقوله عز وجل: ﴿والله عزيز حكيم﴾ إن لذكر العزة والحكمة ههنا وجهين: أحدهما: إعطاء المرأة من الحقوق على الرجل مثل ما له عليها، بعد أن كانت مهضومة الحقوق عند العرب وجميع الأمم، والثاني: جعل الرجل رئيساً عليها، فكأن من لم يرض بهذه الأحكام الحكيمة يكون منازعاً لله تعالى في عزة سلطانه، ومنكراً لحكمته في أحكامه، فهي تتضمن الوعيد على المخالفة كما عهدنا من سنة القرآن.

ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ

فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

٢٢٩ ـ كان للعرب في الجاهلية طلاق ومراجعة في العدة ولم يكن للطلاق حد ولا عدد فإن كان لمغاضبة عارضة عاد الزوج فراجع واستقامت عشرته، وإن كان لمضارة المرأة رجع قبل انقضاء العدة واستأنف طلاقاً ثم يعود إلى ذلك المرة بعد المرة أو يفيء ويسكن غضبه، فكانت المرأة ألعوبة بيد الرجل يضارها بالطلاق ما شاء أن يضارها، فكان ذلك مما أصلحه الإسلام من أمور الاجتماع. وكان سبب نزول الآية ما أخرجه الترمذي والحاكم وغيرهما عن عائشة وأورده السيوطي في أسباب النزول قالت: كان الرجل يطلق امرأته ما شاء أن يطلقها وهي امرأته إذا ارتجعها وهي في العدة وإن طلقها مائة مرة وأكثر، حتى قال رجل لامرأته: والله لا أطلقك فتبيني، ولا آويك أبداً، قالت: وكيف ذلك؟ قال أطلقك فكلما همت عدتك أن تنقضي راجعتك. فذهبت المرأة فأخبرت النبي ﷺ فسكت حتى نزل القرآن: ﴿الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾. وقد صرح جماهير العلماء ومنهم الحنفية بأن الطلاق الشرعي هو ما كان مرة بعد مرة، وإن جمع الثنتين أو الثلاث بدعة، وأنه حرام قال أبو زيد الدبوسي في «الأسرار» وهذا هو قول عمر وعثمان وعلي وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعمران بن الحصين وأبي موسى الأشعري وأبي الدرداء وحذيفة وهم أعلم الصحابة، رضي الله عنهم. فهذا هو الطلاق المشروع في كتاب الله تعالى وهو الطلاق الرجعي على هذه الصفة وبهذا العدد، وأما الطلاق البات البائن فلم يرد في كتاب الله تعالى، والفقهاء والمحدثون متفقون على أن حكم الطلاق البائن بلفظ الثلاث أو تكرار اللفظ لا يؤخذ من هذه الآية ولا من آية أخرى من القرآن، ولذلك وقع فيه الخلاف من الصدر الأول إلى الآن، ولم يذكر الخلاف بعد الأئمة الأربعة عن

أحد من إتباعهم إلا عن بعض الحنابلة وجمهور الأمة على أن من قال لامرأته: أنت طالق ثلاثاً تبين منه كما لو طلقها ثلاث مرات، فالطلاق في الآية يراد به نوع منه وهو الرجعي، وأما البائن فلم يذكر. وقوله تعالى: «فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان» فيه وجهان أحدهما أن معناه: فالواجب عليكم، إمساك للمرأة مع المعاشرة بالمعروف، وإما تسريحها بإمضاء الطلاق مع الإحسان إليها في المعاملة والتمتيع بمال لائق به، وهو ما سيأتي بيانه قريباً، ويستلزم اتقاء الإهانة والإساءة. والوجه الثاني: أنه ليس لكم بعد المرتين إلا أحد الأمرين الإمساك بالمعروف أو التسريح أي: الطلاق بالإحسان، بعد أن فرض سبحانه الإحسان على من اختار التسريح حرم عليهم أخذ شيء من المرأة فقال: ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا﴾ ويدخل في ذلك المهر وغيره مما يعطيه الرجل امرأته على سبيل التمليك. ومحل هذا الحكم إذا كان الزوج هو الذي اختار فراق المرأة ورغب عنها، وأما إذا كانت هي الراغبة عند الطالبة لفراقه، وخاف أن تتوسل إليه بالنشوز وسوء العشرة لكراهتها إياه أو لسوء خلقها، لا لمضارته لها، فلا جناح عليهما حينئذٍ فيما يأخذه منها لإطلاق سراحها، إذ لا يكلف خسارة امرأته وماله بغير ذنب منه، ولذلك قال تعالى: ﴿إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله﴾ التي حدها للزوجين من حسن المعاشرة والمماثلة في الحقوق، مع ولاية الرجل، والتعاون على القيام بأمر المنزل وتربية الأولاد، وعدم المضارة لقوله وغير ذلك، وذلك بأن تخاف المرأة أن تعصي الله في أمر زوجها، ويخاف هو أن يخرج عن الحد المشروع في مؤاخذة الناشز، ويخافا معاً سوء العشرة ﴿فإن خفتم أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ الجناح: الإثم، أي: لا جناح عليها فيما تعطيه إياه ليخلعها، لأن طلبها الطلاق إنما يحظر لغير هذا العذر، ولا جناح عليه فيما يأخذ لأجل ذلك لأنه برضاها واختيارها، من غير إكراه منه ولا مضارة، والخوف هنا على ظاهره وهو توقع المكروه، وفسره بعضهم بالظن وبعضهم بالعلم، وقد جعل بعض المفسرين الخطاب الأول للأزواج والثاني للحكام، وجعل بعضهم الخطاب للحكام أولاً وآخراً لتناسق النظم بتناسق الضمائر، ثم ختم الآية بوعيد من يخالف هذه الأحكام، فقال: ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها﴾ أي: هذه الأوامر

والنواهي، هي حدود الله للمعاملة الزوجية، فلا تتجاوزوها بالمخالفة ﴿ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾ الذين صار الظلم وصفاً لازماً لهم، متمكناً من أنفسهم والظلم آفة العمران ومهلك الأمم، وإن ظلم الأزواج للأزواج أعرق في الإفساد وأعجل في الإهلاك من ظلم الأمير للرعية، لأن رابطة الزوجية أمتن الروابط وأحكمها فَتْلاً في الفطرة، فإذا فسدت الفطرة فساداً انتكث به هذا الفتل، وانقطع هذا الحبل.

ثم بعد أن بين الله سبحانه وتعالى أن الطلاق مرتان، وأنه يكون بلا عوض، وقد يكون بعوض، قال:

٢٣٠ ـ ﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره﴾ أي: فإن طلقها بعد المرتين طلقة ثالثة، وهي التسريح بإحسان، فلا يملك مراجعتها بعد ذلك إلا إذا تزوجت بآخر زواجاً صحيحاً مقصوداً، حصل به ما يراد بالزواج من الغشيان، والنكاح له إطلاقان: العقد، وما وراء العقد، وهو المقصود منه الذي يكنى عنه بالدخول. وقد ذهب سعيد بن المسيب إلى أن الحل بمجرد العقد، وهو خلاف ما عليه الجماهير من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إذ قالوا: لا بد من المخالطة الزوجية أخذاً من إسناد النكاح إلى المرأة مع العلم بأن المرأة لا تتولى العقد، ومن تسمية من تنكح زوجاً، وهذا هو الموافق لحديث العُسَيْلَة الصحيح والمنطبق على الحكمة في منع المراجعة. فقد روى الشافعي وأحمد والبخاري ومسلم وغيرهم من حديث عائشة قالت جاءت امرأة رفاعة القرظي إلى رسول الله ﷺ فقالت: إني كنت عند رفاعة فطلقني فبتَّ طلاقي فتزوجني عبد الرحمن بن الزبير وما معه إلا مثل هُدْبة الثوب، فتبسم النبي ﷺ، وقال: «أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك» و«العُسَيلة»: كناية عن أقل ما يكون من تغشي الرجل للمرأة. وذكر السيوطي في أسباب النزول: أن هذه الآية نزلت في امرأة رفاعة هذه واسمها عائشة بنت عبد الرحمن بن عتيك ورفاعة بن وهب بن عتيك بن عمها. وقال المفسرون والفقهاء في حكمة ذلك: إنه إذا علم الرجل أن المرأة لا تحل له بعد أن يطلقها ثلاث مرات إلا إذا نكحت زوجاً غيره فإنه يرتدع، لأنه مما تأباه

غيرة الرجال وشهامتهم، ﴿فإن طلقها﴾ الزوج الثاني ﴿فلا جناح عليهما﴾ أي: الزوج الثاني والمرأة ﴿أن يتراجعا﴾ وقيل: المراد الزوج الأول والمرأة، وحكمته هي إزالة وهم من يتوهم أن الزوج الأول يكون أحق بها، ولا تظهر لنا حكمة في قولهم: إن المراد الزوج الأول والمرأة. وعلى كل من القولين لا بد في التراجع من مراعاة شرطه وهو قوله: ﴿إن ظنا أن يقيما حدود الله﴾ أي: ترجح عند كل منهما أنه يقوم بحق الآخر على الوجه الذي حده سبحانه تعالى، فلا بد من حسن القصد وسلامة النية من كل من الزوجين، ﴿وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون﴾ الإشارة بتلك إلى الأحكام في الآية أو الآيتين، يبينها في كتابه لأهل العلم بفائدتها، وما فيها من المصلحة، ومن علم المصلحة في شيء كان مندفعاً بطبعه إلى العمل به، وإقامته على الوجه الذي تتحقق به الفائدة منه.

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾

٢٣١ - ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن﴾ هو زمن العدة، ومعنى بلغن أجلهن: قاربن إتمام العدة، قال القرطبي: هذا إجماع لم يفهم أحد من الآية غيره، وهو مبني على قاعدة ما قارب الشيء يعطي حكمه تجوزاً، قرينته العرف، يقول المسافر: بلغنا البلد، أو وصلنا إليه، إذا دنا منه وشارفه، وقوله: ﴿فأمسكوهن بمعروف أوسرحوهن بمعروف﴾ معناه: فاعزموا أحد الأمرين: إمساك المرأة بالمراجعة أو إطلاق سبيلها، وليكن ما تختارونه من أحد الأمرين بالمعروف الذي شرع لكم في آية: «الطلاق مرتان» السابقة ﴿ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا﴾ أي: ولا تراجعوهن إرادة مضارتهن وإيذائهن للاعتداء عليهن، بتعمد ذلك، فالضرار: بمعنى الضرر، وذكر بالصيغة التي تأتي للمشاركة للإشعار بأن

ضره إياها يستلزم ضرها إياه، فالرجال يضرون أنفسهم بإيذاء النساء، ويؤيد هذا قوله: ﴿ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه﴾ في الدنيا، بسلوك طرق الشر والاعتداء التي لا راحة لضمير صاحبها، وبجعل المرأة وعصبتها أعداء له، يناصبونه ويناوئونه، والعدو القريب أقدر على الإيذاء من العدو البعيد، وبتنفير الناس منه حتى يوشك أن لا يصاهره أحد، وظلم نفسه في الآخرة أيضاً بما خالف أمر الله وتعرض لسخطه. ثم قال تعالى: ﴿ولا تتخذوا آيات الله هزواً﴾ وهذا وعيد بعد وعيد، وتهديد لمن يعتدي حدود الله في هذه الأحكام أيَّ تهديد، والسبب فيه حمل المسلمين على احترام صلة الزوجية، وتوقي ما كانوا عليه في عهد الجاهلية، فقد كانوا يتخذون النساء لعباً، ويعبثون بطلاقهن وإمساكهن عبثاً، بعد التحذير من التهاون بحقوق النساء وجعل العابث بأحكام الله فيها مستهزئاً بآياته ــ وفي ذلك من الوعيد والترهيب ما فيه ــ أراد تعالى أن يقرر هذه الأحكام في النفوس بباعث الترغيب فيها بالتذكير بفوائدها ومزاياها، وبيان المنة في هداية الدين التي هي منها، فقال: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم، وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به﴾ أي: امتثلوا ما ذكر آنفاً من أمر ونهي، وتذكروا نعمة الله تعالى عليكم، بالفطرة السليمة في الرابطة الزوجية وما أنزله عليكم من آيات الأحكام المكملة للفطرة في الزوجية والحكمة فيها، حال كونه يعظكم بالجمع بينهما ــ أي: الأحكام وحكمتها ــ فإن معرفة الشيء مع حكمته هي التي تحدث العظة، والعبرة الباعثة على الامتثال. ﴿واتقوا الله﴾ أمَر بعد كل ما تقدم من التأكيد والتشديد والتهديد، بتقواه بامتثال أمره ونهيه، زيادةً في العناية بأمر النساء، وصلة الزوجية، وهو ما تقتضيه البلاغة في هذا المقام، ﴿واعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾ هو أبلغ في موضعه من كل ما تقدم من التأكيد والتشديد في حقوق النساء، لأن الإنسان قد يراعي الأحكام الظاهرة بغير إخلاص، فيطبق العمل على الحكم على وجه يعلم أن من ورائه ضرراً. فهذه الجملة تذكره بأن الله تعالى لا يخفى عليه شيء مما يسره العبد أو يعلنه، فلا يرضيه إلا التزام حدوده والعمل بأحكامه، مع الإخلاص وحسن النية، حتى يكون ظاهره كباطنه في الخير، ولا يتم له ذلك إلا بمراقبة الله تعالى في عمله.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1] ﴿٢٣٢﴾

٢٣٢ ـ ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن﴾ الأجل: آخر المدة المضروبة، والمراد به انقضاء العدة لا قربها، كما في الآية التي قبلها. قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: دل سياق الكلامين على افتراق البلوغين، ذلك أن الإمساك بمعروف، والتسريح بمعروف في الآية السابقة، لا يتأتى بعد انقضاء العدة، لأن انقضاءها إمضاء للتسريح، لا محل معه للتخيير، وإنما التخيير يستمر إلى قرب انقضائها، والنهي عن العضل في هذه الآية يقتضي أن المراد ببلوغ الأجل انقضاؤها إذ لا محل للعضل قبله لبقاء العصمة ﴿فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن﴾ حكم جديد غير الأحكام السابقة، هو تحريم العَضْل، أي: منع المرأة من الزواج، وقد كان من عادات الجاهلية أن يتحكم الرجال في تزويج النساء، إذ لم يكن يزوج المرأة إلا وليها، فقد يزوجها بمن تكره، ويمنعها ممن تحب لمحض الهوى. وقال المفسرون: إن الرجال المطلقين كانوا يفعلون ذلك بتحكم الرجل بمطلقته فيمنعها أن تتزوج أنفة وكبراً أن يرى امرأته تحت غيره، فكان يصد عنها الأزواج بضروب من الصد والمنع، كما كان يراجعها في آخر العدة لأجل العضل، وقد أثبت الإسلام الولاية للأقربين، وحرم العضل والمنع من الزواج، وأن يزوِّج الولي المرأة بدون إذنها، فجمع بين المصلحتين. ﴿إذا تراضوا بينهم بالمعروف﴾ أي: إذا تراضى مريدو التزوج من الرجال والنساء، بأن رضي كل من الرجل والمرأة بالآخر زوجاً. وقوله: «بينهم» يشعر بأن لا نُكْر في أن يخطب الرجل المرأة إلى نفسها، ويتفق معها على التزوج بها، ويحرم حينئذٍ عضلها، أي: امتناع الولي أن يزوجها منه، إذا كان ذلك التراضي في الخطبة بالمعروف شرعاً وعادة، بأن لا يكون هناك محرم، ولا شيء يخل بالمروءة ويلحق

---

(١) للمؤلف السيد محمد رشيد رضا رسالة جامعة في «حقوق النساء» وهي طبع المكتب الإسلامي.

العار بالمرأة وأهلها، ﴿ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ أي: ذلك الذي تقدم من الأحكام والحدود المقرونة بالحكم والترغيب والترهيب، يوعظ به أهل الإيمان بالله والجزاء على الأعمال في الآخرة، فإن هؤلاء هم الذين يتقبلونه ويتعظون به فتخشع له قلوبهم، ويتحرون العمل به قبولاً لتأديب ربهم، وطلباً للانتفاع به في الدنيا، ورجاء في مثوبته ورضوانه في الأخرى. وأما الذين لا يؤمنون بما ذُكر حق الإيمان فإن وعظهم به لا ينفع، وقول لا يسمع، لأنهم يتبعون في معاملة النساء أهواءهم، ويقلدون ما وجدوا عليه آباءهم وعشراءهم ﴿ذلكم أزكى لكم وأطهر﴾ «الزكاء»: النماء والبركة في الشيء، والمشار إليه في «ذلكم»: هو النهي عن عضل النساء بقيده وشرطه، والمراد أنه مزيد في نماء متبعيه وصلاح حالهم ما بعده مزيد يفضله، وأنه أطهر لأعراضهم وأنسابهم، وأحفظ لشرفهم وأحسابهم، لأن عضل النساء والتضييق عليهن مدعاة لفسوقهن، ومفسدة لأخلاقهن، وسبب لفساد نظام البيوت وشقاء الذراري، مثِّل في نفسك حال امرأة تزوجت رجلاً فعرفها وعرفته، وأحبها وأحبته، ثم غضب مرة وطلقها، وبعد انقضاء العدة ندم على ما فعل، وأحب أن يعود إلى امرأته التي تحبه، واعتادت الأنس به والسكون إليه، فعضلها وليها اتباعاً لهواه، واعتزازاً بسلطته، ألا يكون ذلك مضيعة لولدهما ومغواة لهما؟

ومَثِّل أيضاً ولياً يمنع موليته من الزواج بمن تحب، ويزوجها بمن تكره اتباعاً لهواه أو عادة قومه، كما كانت العرب تفعل، وانظر أترجو أن يصلح حالهما، ويقيما حدود الله بينهما؟ أم يخشى أن يغويهما الشيطان بالآخر ويغويه بها، ويستدرجها في الغواية فلا يقفان إلا عند نهاية حدودها؟ وهكذا مثل كل مخالفة لهذه الأحكام تجدها مفسدة ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ أي: يعلم سبحانه ما لكم في ذلك من الزكاء والطهر، وسائر المصالح، ودفع المفاسد، وأنتم لا تعلمون ذلك كله، علماً صحيحاً خالياً من الأهواء والأوهام.

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾

٢٣٣ـ ﴿والوالدات يرضعن أولادهن﴾ أمر جاء بصيغة الخبر للمبالغة في تقريره على نحو ما تقدم من قوله «والمطلقات يتربصن»، وزعم بعضهم أنه خبر على بابه، أي: إن شأن الوالدات ذلك، وأنت ترى أنه لا فائدة في الإخبار عن الواقع المعلوم للناس في مقام بيان الأحكام، وكأن صاحب هذا القول أراد أن يقوي به قول الفقهاء الذين يرون أنه لا يجب على الوالدة إرضاع ولدها إلا إذا تعينت مرضعاً بأن كان لا يقبل غير ثديها كما يعهد من بعض الأطفال، أو كان الوالد عاجزاً عن استئجار ظئر ترضعه، أو قدر ولم يجد الظئر، على أن هؤلاء الفقهاء لم يروا جعل الخبر بمعنى الأمر مانعاً من حكمهم هذا، فقد حملوه على الندب في حال الاختيار، وقالوا: لأن لبن الأم أنفع للولد من لبن الظئر، وخاصة إذا لم يكن ولد الظئر في سنه.

والظاهر: أن الأمر للوجوب مطلقاً فالأصل أنه يجب على الأم إرضاع ولدها إن لم يكن هناك عذر مانع من مرض ونحوه، ولا يمنع الوجوب جواز استنابة الظئر عنها مع أمن الضرر، لأن هذا الوجوب للمصلحة لا للتعبد، فهو كالنفقة على القريب بشرطها، فإذا اتفق الوالدان على استئجار ظئر ورأيا أنها تقوم مقام الوالدة فلا بأس كما في مسألة الفصال الآتية: ﴿حولين كاملين﴾ والحول: العام والسنة، وهو في الأصل مصدر: حال يحول إذا مضى، وإذا تغير وتحول، فالعام والحول يطلقان على صيفة وشتوة كاملتين، وأما السنة فهي تبتدىء من أي يوم عددته من العام إلى مثله، اهـ. ملخصاً من المصباح. وقد حددت مدة الرضاعة التامة بسنتين كاملتين مراعاة للفطرة بالنسبة إلى ضعف الأطفال، في أقل البيوت أو البيئات استعداداً للعناية بالتربية، واللبن: هو الغذاء الموافق لكل طفل في هذه المدة، وهذه المدة هي التي تثبت بها حرمة الرضاعة في النكاح، ومن العجب أن ترى الفقهاء اختلفوا في مدة الرضاعة بعد تحديد الله

سبحانه لها فقال بعضهم هي ثلاثون شهراً، وقال بعضهم ثلاث سنين، ولكن الجماهير على أن مدتها التامة لا تزيد على حولين كاملين وقد تنقص إذا رأى الوالدان ذلك لأن قوله تعالى:﴿لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ أجاز الاقتصار على ما دون الحولين ولم يحدد أقل المدة، بل وكله إلى اجتهاد الوالدين الذي تراعى فيه صحة الطفل، ﴿وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف﴾ المولود له هو: الأب، ووجه اختيار هذا التغيير على لفظ: الوالد والأب، هو الإشعار بأن الأولاد لآبائهم، لهم يُدعَون وإليهم يُنسَبون، وأن الأمهات أوعية مستودعة لهم. فالتعبير بالمولود له، مقابل التعبير بالوالدات، واختير للتنبيه على علة وجوب النفقة، كأنه يقول: إن هؤلاء الوالدات قد حملن وولدن لك أيها الرجل، وهذا الولد الذي يرضعنه ينسب إليك، ويحفظ سلسلة نسبك من دونهن، فعليك أن تنفق عليهن ما يكفيهن حاجات المعاش من الطعام واللباس ليقمن بذلك حق القيام.

ولما كان المكلفون من الرجال، يتفاوتون في الإعسار والإيسار بالنفقة، فمنهم من لا يقدر على اللائق بالمرأة في عرف الناس، ومنهم من يقدر على أكثر من ذلك، عقب تعالى هذا الأمر بقوله: ﴿لا تكلف نفس إلا وسعها﴾ فسر بعضهم «الوسع» بالطاقة، وهو غلط لأن الوسع ضد الضيق، وهو ما تتسع له القدرة ولا يبلغ استغراقها، وأما الطاقة: فهي آخر درجات القدرة، فليس بعدها إلا العجز المطلق كأنها آخر طاقة ـ أي: فتلة من الطاقات التي يتألف منها الحبل ـ والمعنى: أن المطلوب التوسع في النفقة من السعة، أي: بحيث لا ينتهي إلى الضيق. وقد بسط هذا الإيجاز في سورة «الطلاق» بقوله تعالى في هذا المقام: «لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا». ﴿لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب:«لا تضار» بالضم، تبعاً لقوله:«لا تكلف نفس»، والباقون بالفتح، وكلاهما جائز في اللغة، وهو نهي عن المضارة صريح، والأول نهيٌ في المعنى خبرٌ في اللفظ، وقالوا: إن الكلام تفصيل لما يفهم من سابقه وتقريب له إلى الفهم. والصواب أنه يفيد مع تعليل

الأحكام السابقة حكماً جديداً عاماً، فمنع الرجل المرأة من إرضاع ولدها إضرار بها بسبب ولدها، والتضييق عليها في النفقة مع الإرضاع إضرار بها بسبب ولدها، وامتناعها هي من إرضاعه تعجيزاً للوالد بالتماس الظئر أو تكليفه من النفقة فوق وسعه إضرار به بسبب ولده، فالعلة في الأحكام السابقة: منع الضرار من الجانبين، بإعطاء كل ذي حق حقه بالمعروف، وهو يتناول تحريم كل ما يأتي من أحد الوالدين للإضرار بالآخر، كأن تقصِّر هي في تربية الولد البدنية أو النفسية لتغيظ الرجل، وكأن يمنعه هو من أمه ولو بعد مدة الرضاع أو الحضانة، فالعبارة نهي عام عن المضارة بسبب الولد لا يقيد، ولا يخصص بوقت دون وقت أو حال دون حال أو شخص دون شخص. أما قوله: ﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾ فمعطوف على قوله: «وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف» وما بينهما معترض للتعليل، أو التفسير لما قبله، من كون ذلك بالمعروف، وإن أفاد حكماً جديداً. وقد اختلفوا في الوارث، هل هو وارث المولود له أي: الأب، لأن الكلام فيه؟ أو وارث الولد، لأنه وليه تجب عليه نفقته؟ واختلف القائلون بأن المراد وارث الأب هل هو عام أو خاص بعصبته، أو بالولد نفسه؟ أي: إن نفقة إرضاعه تكون من ماله ــ إن كان له مال ــ وإلا فهي على عصبته. وقال بعضهم: إن المراد بالوارث وارث الصبي من الوالدين أي: وإذا مات أحد الوالدين فيجب على الآخر ما كان يجب عليه من إرضاعه والنفقة عليه. وكل يحتمله اللفظ ولعل الحكمة في هذا التعبير أن يتناول كل ما يصلح تناوله إياه. ﴿فإن أرادا فصالاً عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما﴾ الفصال: الفطام، لأنه يفصل الولد عن أمه ويفصلها عنه، فيكون مستقلاً في غذائه دونها، والمراد أنه لما كان ما ذكر من تحديد مدة الرضاعة وكون الحق فيها للوالدة، وكونها تستحق الأجرة عليها إذا كانت مطلقة، كل ذلك لدفع الضرار وتقرير المصلحة لا للتعبد، كان للوالدين صاحبي الحق المشترك في الولد والغيرة الصحيحة عليه أن يفطماه قبل هذه المدة أو بعدها إذا اتفق رأيهما على ذلك بعد التشاور فيه، بحيث يكونان راضيين غير مضارين به ﴿وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم﴾ يقال: استرضعت المرأة الطفل، إذا اتخذتها مرضعاً له، ويحذفون أحد المفعولين للعلم به، فيقولون: استرضعتُ الطفل،

كما يقولون: استنجحت الحاجة، من غير ذكر من استنجح، والمعنى: إن أردتم أن تسترضعوا أولادكم المراضع الأجنبيات ﴿فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف﴾ قال قتادة والزهري، أي: إذا سلمتم ما آتيتم من إرادة الاسترضاع، أي: سلم كل واحد من الأبوين ورضي، بأن كان ذلك على اتفاق منهما وقصد خير، وإرادة معروف من الأمر، فالخطاب عام للوالدين والوالدات على سبيل التغليب. أو إذا سلمتم ما أردتم إيتاءه المراضع من الأجور بالمعروف أي بالوجه المتعارف المستحسن شرعاً وعادة. أي: إعطاء الأجرة المتعارفة وهي ما يسميه الفقهاء أجر المثل.

ثم ختم الآية بما يبعث على التزام أحكامها والمحافظة عليها فقال: ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير﴾ أي: التزموا ما ذكر من الأحكام مع توخي حكمة كل منها، واتقوا الله في ذلك فلا تفرطوا في شيء منها، واعلموا علم اليقين أن الله بصير بما تعملون في هذا كله وغيره، فهو يحصي لكم عملكم ويجازيكم عليه.

وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَـٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَـٰبُ أَجَلَهُۥ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾

٢٣٤ـ ﴿والذين يتوفون منكم﴾ أي: يتوفاهم الله تعالى، أي: يقبض أرواحهم ويميتهم، قال تعالى في سورة «الزمر»: «الله يتوفى الأنفس حين موتها»

فإذا حذف الفاعل أسند الفعل إلى المفعول، هذا هو المستعمل الفصيح.

﴿ويذرون أزواجاً﴾ أي: يتركون زوجات، والفصيح استعمال لفظ «الزوج» في كل من الرجل وامرأته، ويجمع في الاستعمال على: أزواج. قال تعالى في سورة الأحزاب: «وأزواجه أمهاتهم»،و«الزوج»في الأصل: العدد المكون من اثنين، وقد اعتبر في تسمية كل من الرجل وامرأته «زوجاً» أن حقيقته من حيث هو زوج مكونة من شيئين، اتحدا فصارا شيئاً واحداً في الباطن، وإن كانا شيئين في الظاهر، أريد: أن هذا اللفظ المشترك، يشعر بأن من مقتضى الفطرة أن يتحد الرجل بامرأته والمرأة ببعلها بتمازج النفوس ووحدة المصلحة، حتى يكون كل منهما كأنه عين الآخر. وقوله تعالى: ﴿يتربصن بأنفسهن أربعة أشهراً وعشرا﴾ خبر لما قبله، أي: يتربصن بعد وفاتهم هذه المدة. وتقدم الكلام في مثله في تفسير قوله عز وجل: «يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء» فارجع إليه، إن كنت نسيت ما في التعبير من آيات البلاغة، والمعنى: أن عدة النساء اللاتي يموت أزواجهن أربعة أشهر وعشر ليال، لا يتعرضن فيها للزواج بزينة، ولا خروج من المنزل بغير عذر شرعي، ولا يواعدن الرجال بالزواج، وقد يتعارض هذا مع قوله تعالى في سورة الطلاق: «وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن» فهل يقال: إن ما هنا خاص بغير الحوامل؟ أم ما هنالك خاص بالمطلقات؟ الظاهر الثاني، لأن الكلام هنالك: في الطلاق، والسورة سورته، فهو خاص، والآية التي نحن بصدد تفسيرها عامة في كل من يتوفى زوجها لأن الله تعالى جعل عدتها طويلة، وفرض عليها الحداد على الزوج مدة العدة، مع تحريم السنة الحداد على غير الزوج أكثر من ثلاثة أيام: اهتماماً بحقوق الزوجية وتعظيمًا لشأنها، ولكن الجمهور على القول الأول، وإن الحامل التي يموت زوجها إذا وضعت تنقضي عدتها ولو بعد الموت بيوم أو ساعة، واحتجوا بحديث سبيعة الأسلمية عند أبي داود، فإنها قالت: إن النبي ﷺ أفتاها بأنها حلّت حين وضعت حملها، وكانت ولدت بعد موت زوجها بنصف شهر، ويروى عن علي وابن عباس، رضي الله عنهما: أنها تعتد بأقصى الأجلين احتياطاً، ﴿فإذا بلغن أجلهن﴾ أي: أتممن عدتهن ﴿فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف﴾ مما كان محظوراً عليهن في العدة من التزين، والتعرض للخطاب،

والخروج من المنزل، وقيد ذلك بالمعروف، أي: شرعاً وأدباً عرفياً، لأنهن إذا أتين بالمنكر وجب منعهن. واختلفوا في الخطاب هنا فقيل: هو للأولياء، لأن هذا من مقدمات الزواج الذي يتولونه، وقيل: للمسلمين كافة، يتولاه منهم من هو قادر عليه من العارفين به وهو المختار، ﴿والله بما تعملون خبير﴾ محيط بدقائق عملكم، لا يخفى عليه منه شيء.

٢٣٥ـ ولما كان من شأن الراغبين في التزوج بمن يتوفى زوجها، المسارعة إلى خطبتها، بينّ الله للمؤمنين ما يتعلق بذلك من الأحكام والآداب اللائقة بهم وبكرامة النساء في مدة العدة فقال: ﴿ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم﴾، فالمراد بالنساء: المعتدات لوفاة أزواجهن، قالوا: ومثلهن المطلقات طلاقاً بائناً، وأما الرجعيات: فلا يجوز التعريض لهن لأنهن لم يخرجن عن عصمة بعولتهن بالمرة. والتعريض في الأصل: إمالة الكلام عن منهجه إلى عرض منه وهو الجانب، ويقابله التصريح، فهو إن تفهم المخاطب ما تريد بضرب من الإشارة والتلويح يحتمله الكلام على بعد بمعونة القرينة، وفي الكشاف: هو أن تذكر شيئاً تدل به على شيء لا تذكره، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتك لأسلم عليك ولأنظر إلى وجهك الكريم. أقول: وللناس في كل عصر كنايات في هذا المقام، ومما سمعته من استعمال عامة زماننا في هذا، ذكر الرغبة في الزواج مسندة إلى أناس مبهمين نحو: إن من الناس من يتمنى لو يكون له كذا أو يوفق إلى كذا. و«الخِطبة» بالكسر من الخطاب أو الخطب وهو الشأن العظيم، وهي طلب الرجل المرأة للزواج بالوسيلة المعروفة بين الناس، وأما «الخُطبة» بالضم: فهي ما يوعظ به من الكلام. والإكنان في النفس: هو ما يضمره مريد الزواج في نفسه ويعزم عليه من التزوج بالمرأة بعد انقضاء العدة.

أباح الله أن يعرّض الرجل للمرأة في المدة بأمر الزواج تعريضاً، وقرن ذلك بما يكون من النية في القلب والعزم المستكن في الضمير كأنه مثله في تعذر الاحتراز منه أو تعسره، ولم يحرم عليهم أن يقطعوا في هذا الأمر بأنفسهم لأن الأمر أمر ديني، بل راعى فيما شرعه لهم ما فطرهم عليه ولذلك ذكر وجه الرخصة فقال: ﴿علم الله أنكم ستذكرونهن﴾ في أنفسكم، وخطرات قلوبكم

ليست في أيديكم، ويشق عليكم أن تكتموا رغبتكم وتصبروا عن النطق لهن بما في أنفسكم، فرخص لكم في التعريض دون التصريح، فقفوا عند حد الرخصة ﴿ولكن لا تواعدوهن سراً﴾ أي: في السر، فإن المواعدة السرية مدرجة الفتنة، ومظنة الظنة، والتعريض يكون في الملأ لا عار فيه ولا قبح، ولا توسل إلى ما لا يحمد، وذهب جمهور العلماء إلى أن «السر» هنا كناية عن النكاح أي: لا تعقدوا معهن وعداً صريحاً على التزوج بهن، ــ وهو الأقوى ــ عبر عن النكاح بالسر لأنه يكون سراً في الغالب، ﴿إلا أن تقولوا قولاً معروفاً﴾ قيل: هو التعريض وهو ما يعهد مثله بين الناس المهذبين بلا نكير كالتعريض، وهذا أقوى من التعريض. وجملة القول: أنه لا يجوز للرجال أن يتحدثوا مع النساء المعتدات عدة الوفاة في أمر الزواج بالسر، ويتواعدوا معهن عليه، وكل ما رخص لهم فيه هو التعريض الذي لا ينكر الناس مثله في حضرتهن، ولا يعدونه خروجاً عن الأدب معهن، والفائدة منه التمهيد وتنبيه الذهن، حتى إذا تمت العدة كانت المرأة عالمة بالراغب أو الراغبين، فإذا سبق إلى خطبتها المفضول ردته إلى أن يجيء الأفضل عندها ﴿ولا تعزموا عقدة النكاح﴾ أي: على عقدة النكاح، على حذف «على»، ويقال: عزم الشيء وعزم عليه واعتزمه، أي: عقد ضميره على فعله، أو المعنى: لا تعقدوا عقدة النكاح، وهو العزم المتصل بالعمل لا ينفصل عنه ﴿حتى يبلغ الكتاب أجله﴾ أي: حتى ينتهي ما كُتب وفُرض من العدة، فالكتاب بمعنى: المكتوب، أي: المفروض، أو بمعنى: الفرض، وإنما عبر عن الفرضية المحتمة بلفظ: الكتاب، لأن ما يكتب يكون أثبت واكد وأحفظ، والحاصل: أن التزوج بالمرأة في العدة محرم قطعاً، ولأجله حرمت خطبتها فيها، والعقد باطل بإجماع المسلمين. ﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه﴾ أي: يعلم ما تضمرونه في قلوبكم من العزم، فاحذروا أن تعزموا ما حظره عليكم منه من قول وعمل، ﴿واعلموا أن الله غفور حليم﴾ بعد ما ورد من الوعيد والتشديد في الآيات السابقة، يبين أن للإنسان مخرجاً بالتوبة إذا هو تعدى شيئاً من الحدود، وأراد الرجوع إلى الله تعالى، فإنه غفور له، حليم لا يعجل بعقوبته، بل يمهله ليصلح بحسن العمل، ما أفسد بما سبق من الزلل.

لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾

٢٣٦ـ يقول الله تعالى: ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء﴾ أي: لا يلزمكم شيء من المال تأثمون بتركه في حال طلاقكم للنساء ﴿ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة﴾ أي: مدة عدم مسكم إياهن، وتسمية المهر لهن، فـ«أو» هنا بمعنى: الواو، أو المعنى: إلى أن تفرضوا لهن، أو إلا أن تفرضوا لهن، أي: فحينئذ يجب عليكم شيء وهو ما يذكر في الآية التالية لهـذه. والمعنى: إذا تحقق الشرطان أو القيدان فلا تدفعوا لهن مهراً، ﴿ومتعوهن﴾ أي: أعطوهن شيئاً يتمتعن به، ولتكن هذه المتعة على حسب حالكم في الثروة، ﴿على الموسع قدره وعلى المقتر قدره﴾ «الموسع»: وصفٌ من «أوسع الرجل» إذا صار ذا سعة، وهي البسطة والغنى، والمقتر: من «أقتر الرجل» إذا قل ماله وافتقر، وقتر على عياله، وأقتر: ضيق عليهم في النفقة. ولعله من «القتار» بالضم، وهو دخان الشواء والطبيخ، وبخاره ورائحته، ويقال: أقتر أيضاً إذا قتر عمداً فعاش عيشة الفقير، ﴿متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين﴾ فأما المعروف: فهو ما يتعارف الناس بينهم ويليق بهم، بحسب اختلاف أصنافهم وأحوال معايشهم وشرفهم، وأما كونه حقاً على المحسنين فمعناه: أنها واجبة حاقة على أنها إحسان في التعامل لا عقوبة، فإن الحكمة فيها ــ كما قالوا ــ جبر إيحاش الطلاق، كأن المعنى: إن كنتم مؤمنين بالله محسنين في طاعته، فعليكم أن تجعلوا هذا المتاع لائقاً مؤدياً إلى الغرض منه.

وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

٢٣٧ـ ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم﴾ الآية الماضية في حكم غير الممسوسة إذا لم يُفرض لها، وهذه في حكمها وقد فُرِض لها المهر، وهو: أن لها نصف المهر المفروض. أي: فنصف ما فرضتم يجب لهن، ويرجع لكم النصف، ﴿إلا أن يعفون﴾ أي: النساء المطلقات عن أخذ النصف كله أو بعضه، وهو حق البالغة الرشيدة ﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾ قيل: هو الولي مطلقاً، وعليه جماعة من المفسرين، أو الولي المجبر وهو الأب أو الجد، فيعفونه عن النصف الواجب، كله أو بعضه، ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾ والخطاب على هذا خاص بالرجال، وفيه وجه آخر: أنه عام للنساء والرجال، أي: من عفا فهو المتقي، ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾ فسّروا الفضل: بالتفضل والإحسان، وجعلوه للترغيب في العفو،أو المراد به: المودة والصلة، أي: ينبغي لمن تزوج من بيت ثم طلق، أن لا ينسى مودة أهل ذلك البيت وصلتهم. ثم ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿إن الله بما تعملون بصير﴾ جرياً على السنة الإلهية بالتذكير والتحذير، بعد تقرير الأحكام، لتكون مقرونة بالموعظة التي تغذي الإيمان وتبعث على الامتثال.

حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾

٢٣٨ـ ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾ قال بعض المفسرين في وجه اختيار لفظ «المحافظة» على «الحفظ»: إن الصيغة على أصلها تفيد المشاركة في الحفظ، وهي هنا بين العبد وربه، كأنه قيل: إحفظ الصلاة يحفظك الله الذي أمرك بها، كقوله: «فاذكروني أذكركم» أو: بين المصلي والصلاة نفسها، أي: احفظوها تحفظكم من الفحشاء والمنكر بتنزيه نفوسكم عنها، ومن البلاء والمحن بتقوية نفوسكم عليها، كما قال: «استعينوا بالصبر والصلاة».و«الصلوات»هي الخمس المعروفة ببيان مَن بَيَّنَ للناس ما نُزل إليهم، ونقلت عنه بالتواتر العملي، وأجمع عليها المسلمون من جميع الفرق، فهم على تفرقهم في كثير من المسائل، متفقون على أن جاحد صلاة من الخمس

لا يعد مسلمًا، على أنهم استنبطوا كونها خمساً من ذكر الوسطى في الجمع كما في تفسير الرازي. والصلاة الوسطى هي إحدى الخمس، و«الوسطى» مؤنث المتوسط بين شيئين أو أشياء لها طرفان متساويان، وبمعنى: الأفضل، وبكل من المعنيين قال قائلون. ولذلك اختلفوا في: أيِّ الصلوات أفضل وأيتها المتوسطة. وللعلماء في ذلك ثمانية عشر قولاً أوردها الشوكاني «في نيل الأوطار» أصحها رواية ما ذهب إليه الجمهور: من كونها صلاة العصر، لحديث علي[1] عند أحمد ومسلم وأبي داود مرفوعاً: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر»، ورواه أحمد والشيخان عنه بلفظ: أن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب: «ملأ الله قبورهم وبيوتهم ناراً كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس» ولم يذكر العصر، ولذلك قال بعضهم إنها الظهر، لأنه شغل يوم الأحزاب عنها وعن العصر جميعاً، وهي متوسطة وكانت تشق عليهم لأنها تؤدى في وقت الحر والعمل، وفي رواية عن علي عند عبد الله بن أحمد في مسند أبيه: كنا نعدها الفجر فقال رسول الله ﷺ: «هي صلاة العصر». وفي الحديث التصريح بأن صلاة العصر تشارك صلاة الفجر بهذه المزية. ولأصحاب الأقوال الأخرى في تعيين الصلاة الوسطى أحاديث لا تصل إلى درجة ما ورد في صلاة العصر، فقيل: هي الفجر، وقيل: هي الظهر كما مر، وقيل: هي المغرب، وقال الأخفش: هي صلاة الجمعة. وقال بعضهم أنها غير معروفة وأن الله تعالى أبهم الصلاة الفضلى التي ثوابها أكثر لنحافظ على كل صلاة. وقد روى أحمد والشيخان وأصحاب السنن ما عدا ابن ماجه من حديث زيد بن أرقم قال: كنا نتكلم في الصلاة يكلم الرجل منا صاحبه وهو إلى جنبه في الصلاة حتى نزلت «وقوموا لله قانتين» فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام. وذلك أن القنوت عبارة عن الانصراف عن شؤون الدنيا إلى مناجاة الله تعالى والتوجه إليه لدعائه وذكره، وحديث الناس مناف له فيلزم من القنوت تركه، ويدل على ذلك حديث ابن مسعود المتفق عليه قال: كنا نسلم على النبي ﷺ وهو في الصلاة فيرد علينا، فلما رجعنا من عند النجاشي سلمنا عليه فلم يرد، فقلنا ــ أي:

---

(١) الحديث بأنها صلاة العصر مرويٌّ عن علي وابن مسعود، وابن عمر وعائشة وعدد من الصحابة رضي الله عنهم. انظر «زاد المسير» ١/٢٨٢.

بعد الصلاة ــ يا رسول الله كنا نسلم عليك في الصلاة فترد علينا فقال: «إن في الصلاة شغلاً». والمحافظة على الصلوات آية الإيمان الكبرى، وقد جعل الشرع الصلاة والزكاة شرطاً لصحة الإسلام وأخوّة الدين وما له من الحقوق، قال تعالى في أوائل سورة التوبة في الكلام على المشركين المعتدين: «فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين» والأحاديث في منطوق الآية ومفهومها كثيرة. منها حديث ابن عمر عند أحمد والبخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله عز وجل»، والمراد بالناس هنا: المشركون أهل الأوثان، لا أهل الكتاب الذين تقبل منهم الجزية، ومن في حكمهم كالمجوس، ذلك أنهم هم الذين كانوا يقاومون دعوة الإسلام ما لا يقاومها سواهم، والكلام هنا في مكانة الصلاة من[1] الإسلام لا في الدعوة وحمايتها. وروى أحمد ومسلم في صحيحه وأبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة»، وروى أحمد وأصحاب السنن الأربعة وابن حبان والحاكم من حديث بُريدة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر» صححه النسائي والعراقي، وروى أحمد والطبراني في الكبير والأوسط من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة يوماً فقال: «من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا برهاناً ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف»، وفي الآثار ما يشعر بأن الصحابة كانوا متفقين على ذلك، فقد روى الترمذي والحاكم ــ وقال صحيح على شرط الشيخين ــ عن عبد الله بن شقيق العقيلي قال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة» لقد كان من أثر ترك الصلاة والتهاون بالدين في المدن والقرى والمزارع، فشو الفواحش والمنكرات، فنجد حانات الخمر، ومواخير الفجور والرقص، وبيوت القمار غاصة بخاصة الناس وعامتهم، حتى في ليالي رمضان،

(١) ارجع إلى تعليقنا حول حكم تارك الصلاة ص ٥٤.

ليالي الذكر والقرآن، وعبد الناس المال، لا يبالون أجاء من حرام أم من حلال، وانقبضت الأيدي عن أعمال الخير، وانبسطت في أفعال الشر، وزال التعاطف والتراحم، وقلت الثقة من أفراد الأمة بعضهم ببعض فلا يكاد يثق المسلم إلا بالأجنبي، وغير ذلك من فساد الأخلاق، وقبيح الفعال في الأفراد.

٢٣٩ـ ثم قال تعالى: ﴿فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً﴾ أي: فإن خفتم أن تقوموا لله فيها قانتين مجتمعين، فيفتنكم الأعداء بهجومهم عليكم، أو: إن خفتم أيَّ خطر أو ضرر من قيامكم قانتين، فصلوا كيفما تيسر لكم، راجلين أو راكبين، فالرجال: جمع «راجل»، وهو الماشي، والركبان: جمع «راكب»، فهذا تأكيد على مكانتها وبيان أن الصلاة لا تسقط بحال، لأن حال الخوف على النفس أو العرض أو المال هو مظنة العذر في الترك، كما يكون السفر عذراً في ترك الصيام، ﴿فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ أي: إذا زال خوفكم واطمأننتم، فاذكروا الله لأنه علمكم كيف تعبدونه وتصلون له في حال الخوف، فيكون ذلك عوناً لكم على دفعه، أي: تذكروا نعمه عليكم بهذا التعليم واشكروه له، هذا إذا قيل: إن الكاف للتعليل، وإذا قلنا: إن الكاف للبدلية، فالمعنى: فاذكروه على الطريقة التي علمكم إياها من قبل، أي: فصلوا على السنة المعروفة في الأمن بإتمام القيام والاستقبال والركوع والسجود.

وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

٢٤٠ـ قوله تعالى: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً﴾ إلخ. فيه قولان: (أحدهما) أن عدة الوفاة كانت في أول الإسلام سنة كاملة، مجاراة لعادات العرب، ولكن مع تخيير المرأة في الاعتداد في بيت الميت، فإن اعتدت فيه وجبت نفقتها من تركته، وحرم على الورثة إخراجها، وإن خرجت هي

سقط حقها في النفقة، وقالوا: إنه لم يكن للمرأة من ميراث زوجها إلا هذا المتاع والنفقة، فقوله تعالى: ﴿وصية لأزواجهم﴾ معناه: فليوصوا وصية لأزواجهم، أو فعليهم وصية لأزواجهم إذ قرأ أبو عمرو وابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم «وصية» بالنصب وقرأها ابن كثير ونافع والكسائي وأبو بكر عن عاصم بالرفع، وقوله: ﴿متاعاً إلى الحول﴾ معناه: أن يمتعوا متاعاً أو متعوهن متاعاً، كأنه قال: فليوصوا لهن وصية وليمتعوهن متاعاً إلى آخر الحول، وقيل: إن التقدير جعل الله ذلك لهن متاعاً. وقوله: ﴿غير إخراج﴾ معناه: غير مخرجات، أي: يجب ذلك لهن مقيمات في دار الميت غير مخرجات فلا يمنعن السكنى. ومعنى «غير إخراج»: غير مخرجات، وهو حال من الأزواج والنكتة في العدول عنه هي: أن المراد أن يوصي الرجل بعدم إخراج زوجه، وأن ينفذ أوليائه وصيته، فلا يخرجونهن من بيوتهن، ولو قال: «غير مخرجات» لكان تحتيمًا عليهن بالبقاء في البيوت ولأفاد عدم جواز إخراجهن لأحد ولو كان ولياً كأبيها، وليس هذا بمراد، فعبارة الآية تفيد المعنى المراد ولا توهم سواه، هذا ما ذهب إليه الجمهور في معنى الآية، فهي عندهم توجب أن تكون عدة الوفاة سنة كاملة، وأن ينفق على المعتدة من تركة زوجها مقيمة في داره، لا يجوز إخراجها منه إلا أن تخرج باختيارها فتسقط نفقتها، قالوا: ثم نسخت بجعل العدة أربعة أشهر وعشراً كما في تلك الآية التي تقدمت عليها في الذكر، وهي متأخرة عنها في النزول، وبجعلها وارثة للزوج بنص القرآن مع تحريم الوصية للوارث في الحديث ﴿فإن خرجن فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن من معروف﴾، أي: والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية من الله لأزواجهم أو: فالله يوصي وصية لأزواجهم أن يمتعن متاعاً ولا يخرجن من بيوت أزواجهن إلى تمام الحول، فإن خرجن من تلقاء أنفسهن فلا جناح عليكم أيها المخاطبون بالوصية فيهم في ما فعلن من المعروف شرعاً وعادة كالتعرض للخطاب بعد العدة والتزوج، إذ لا ولاية لكم عليهن فهن حرائر يمنعن الأمن المنكر الذي يمنع منه كل مكلف. وقد ختم الآية بقوله: ﴿والله عزيز حكيم﴾ للتذكير بأن لله العزة والغلبة فيما يريد من تحويل الأمم عن عادات ضارة، إلى سنن نافعة تقتضيها الحكمة، كتحويل العرب عن عاداتهم في العدة والحداد

بجعل المرأة أسيرة ذليلة مقهورة مدة سنة كاملة إلى ما هو خير من ذلك، وهو إكرامها ما دامت في بيت زوجها بين أهله، وعدم الحجر على حريتها إذا أرادت الخروج منه، ما دامت في حظيرة الشرع وآداب الأمة المعروفة، فهذه الحكمة البالغة توافق مصلحة الأفراد والجمعيات في كل زمان ومكان.

٢٤١ـ ثم قال تعالى: ﴿وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين﴾، أقول: إن المطلقات أربع:

١ ـ مطلقة مدخول بها قد فرض لها مهر فلها كل المفروض وعدتها ثلاثة قروء. وفيها قوله تعالى: «ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً» الآية «٢٢٩» وتقدم تفسيرها ص ٢١٢. وفي معناها قوله تعالى في سورة «النساء»: «وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً».

٢ ـ ومطلقة غير مدخول بها ولا مفروض لها، فيجب لها المتعة بحسب إيسار المطلق ولا مهر لها، وفيها قوله تعالى: «لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن» الآية «٢٣٦»، وقد سبق تفسيرها ص ٢٢٥. ولا عدة عليها لآية «الأحزاب» التي ذكرناها في تفسيرها استشهاداً.

٣ ـ ومطلقة مفروض لها غير مدخول بها، فلها نصف المهر المفروض وفيها قوله: «وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن» الآية «٢٣٧» وتقدم تفسيره ص ٢٢٦. ولا عدة عليها أيضاً.

٤ ـ ومطلقة مدخول بها غير مفروض لها، قالوا: ولها مهر مثلها بلا خلاف.

٢٤٢ـ ثم ختم الله تعالى هذه الأحكام بقوله: ﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾ أي: مضت سنته تعالى بأن يبين لكم آياته في أحكام دينه مثل هذا النحو من البيان، وهو أن يذكر الحكم وفائدته ويقرنه بذكر الله والموعظة الحسنة التي تعين على العمل به، ليعدكم بذلك لكمال العقل، فتتحروا الاستفادة من كل عمل،فعليكم أن تعقلوا ما تخاطبون به لتكونوا على بصيرة من دينكم، عارفين بانطباق أحكامه على مصالحكم بما فيها من تزكية نفوسكم والتأليف بين قلوبكم، فتكونوا جديرين بإقامتها والمحافظة عليها.

* ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾

٢٤٣- ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم﴾ الاستفهام هنا للتعجيب والعبرة، والخطاب لكل من بلغه، والرؤية بمعنى العلم، والعبارة استعملت استعمال المثل، فهي توجه إلى من لم ير ولم يعلم ذلك، والتقدير: ألم ينته علمك أيها المخاطب إلى حال هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم ﴿وهم ألوف حذر الموت﴾، فإن حالهم عجيبة من حقها أن لا تُجْهَلَ، فإنهم في كثرتهم أحقاء بأن يكونوا لهم من الشجاعة ما يربأ بهم عن الخروج من وطنهم حذراً من الموت. أطلق القرآن القول في هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم ولم يعين عددهم ولا أمتهم ولا بلدهم ولو علم لنا خيراً في التبيين والتفصيل لتفضل علينا بذلك في كتابه المبين، فنأخذ القرآن على ما هو عليه لا ندخل فيه شيئاً من الروايات الإسرائيلية التي ذكروها، وهي صارفة عن العبرة لا مزيد كمال فيها، والمتبادر من السياق أن أولئك القوم قد خرجوا من ديارهم بسائق الخوف من عدو مهاجم لا من قلتهم، فقد كانوا ألوفاً أي: كثيرين، وإنما هو الحذر من الموت الذي يولده الجبن في أنفس الجبناء فيريهم أن الفرار من القتل هو الواقي من الموت، وما هو إلا سبب الموت بما يمكن الأعداء من رقاب أهله، فهؤلاء خرجوا فارين ﴿فقال لهم الله: موتوا﴾ أي: أماتهم بإمكان العدو منهم[1]، فالأمر أمر التكوين، لا أمر التشريع، أي: قضت سنته في خلقه بأن يموتوا بما أتوه من سبب الموت، وهو تمكين العدو المحارب من أقفائهم بالفرار، ففتك بهم وقتل أكثرهم. ولم يصرح بأنهم ماتوا لأن أمر التكوين عبارة عن مشيئته سبحانه

---

(١) قوله: «أماتهم بإمكان العدو منهم إلخ» الآية صريحة بأن الله أماتهم ثم أحياهم، والموت والحياة عند إطلاقهما يفهم منها الموت والحياة المعهودان، ولا توجد قرينة تدل على أن المراد بالإحياء هنا المعنى المجازي لأن الأصل الحمل على الظاهر، وانظر قصتهم في «زاد المسير» ١/ ٢٨٨.

فلا يمكن تخلفه، وللاستغناء عن التصريح به بقوله بعد ذلك: ﴿ثم أحياهم﴾ وإنما يكون الإحياء بعد الموت. والكلام في القوم لا في أفرادهم خصوصية، ﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾ كافة، بما جعل في موتهم من الحياة إذ جعل المصائب والعظائم، مُحيية للهمم والعزائم، كما جعل الهلع والجبن وغيرهما من الأخلاق الفاسدة من أسباب ضعف الأمم. ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ أي: لا يقومون بحقوق هذه النعمة، ولا يستفيدون من بيان هذه السنة، أي: هذا شأن أكثر الناس في غفلتهم وجهلهم بحكمة ربهم، فلا تكونوا كذلك أيها المؤمنون، بل استنيروا بما نزل عليكم وتأدبوا به لتستفيدوا من كل حوادث الكون.

٢٤٤ـ ﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾ القتال في سبيل الله هو القتال لإعلاء كلمته، وتأمين دينه ونشر دعوته، والدفاع عن حزبه، كي لا يغلبوا على حقهم، ولا يصدوا عن إظهار أمرهم، فهو أعم من القتال لأجل الدين، لأنه يشمل مع الدفاع عن الدين وحماية دعوته، الدفاع عن الحوزة إذا همَّ الطامع المهاجم باغتصاب بلادنا والتمتع بخيرات أرضنا، أو أراد العدو الباغي إذلالنا، ولو لم يكن ذلك لأجل فتنتنا في ديننا، فهذا الأمر مطلق كأنه أمر لنا بأن نتحلى بحلية الشجاعة، ونتسربل بسرابيل القوة والعزة، لتكون حقوقنا محفوظة، وحرمتنا مصونة، لا نؤخذ من جانب ديننا، ولا نغتال من جهة دنيانا، بل نبقى أعزاء الجانبين، جديرين بسعادة الدارين. وذكرنا الله تعالى بعد هذا الأمر بأنه سميع عليم لينبهنا على مراقبته فيما عسى أن نعتذر به عن أنفسنا في تقصيرها عن امتثال هذا الأمر في وقته، وأخذ الأهبة له قبل الاضطرار إليه، أمرنا أن نعلم أنه سميع لأقوال الجبناء في اعتذارهم عن أنفسهم: ماذا نعمل؟ ما في اليد حيلة، ليس لها من دون الله كاشفة، ليس لنا من الأمر شيء: لو كان لنا من الأمر شيء ما قعدنا ههنا. فهذه الألفاظ في هذا المقام منفاح الجبن، وعلل الخوف والحزن، فهي عند أهلها تعلات وأعذار، وعند الله تعالى ذنوب وأوزار، وما كان منها حقاً في نفسه، فهو من الحق الذي أريد به الباطل، وأن نعلم أنه عليم بما يأتيه مرضى القلوب وضعفاء الإيمان من الحيل والمراوغة، والفرار من الاستعداد والمدافعة.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾

٢٤٥ــ ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ هذه العبارة أبلغ من الأمر المجرد، ومن الأمر المقرون ببيان الحكمة، والتنبيه إلى الفائدة، والوجه في اختيار هذا الأسلوب هنا: أن الداعية إلى البذل في المصالح العامة ضعيفة في نفوس الأكثرين، والرغبة فيه قليلة، إذ ليس فيه من اللذة والأريحية ما في البذل للأفراد، فاحتيج فيه للمبالغة في التأثير. يدفع الغني إلى بذل شيء من فضل ماله لأفراد أمور كثيرة، منها: إزالة ألم النفس برؤية المعوزين والبائسين، ومنها: اتقاء حسد الفقراء واكتفاء شر شرارهم، والأمن من اعتدائهم، ومنها: التلذذ برؤية يده العليا، وبما يتوقعه من ارتفاع المكانة في النفوس، وتعظيم من يبذل لهم وشكرهم وحبهم، فإن السخي محبب إلى جميع الناس من ينتفع منهم بسخائه ومن لا ينتفع، وإذا كان البذل إلى ذوي القربى أو الجيران فحظ النفس فيه أجلى، وشفاء ألم النفس به أقوى. وأما البذل الذي يراد هنا ــ وهو البذل للدفاع عن الدين وإعلاء كلمته، وحفظ حقوق أهله ــ فليس فيه شيء من تلك الحظوظ التي تسهل على النفس مفارقة محبوبها ــ المال ــ إلا إذا كان تبرعاً جهرياً يتولى جمعه بعض الحكام والأمراء أو يجمع بأمر الملوك والسلاطين، ولذلك يقل في الناس من يبذل المال في المصالح العامة لوجه الله تعالى، فلهذا كان المقام يقتضي مزيد التأكيد، والمبالغة في الترغيب. وليس في الكلام ما يدرك شأو هذه الآية في تأثيرها ولا سيما موقعها هذا بعد بيان سنة الله تعالى في موت الأمم وحياتها. حسبك أنه تعالى جعل هذا البذل بمثابة الإقراض له، وهو الغني عن العالمين، الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما، وإنما يقترض المحتاج، وأنه عبر عن طلبه بهذا الضرب من الاستفهام، المستعمل للإكبار والاستعظام، فإنه إنما يقال: من ذا الذي يفعل كذا؟ في الأمر الذي يندر أن يقدم عليه أحد. يقال: من ذا الذي يتطاول إلى الملك فلان؟ أو من ذا الذي يعمل هذا العمل وله كذا؟ إذا كان عظيمًا أو شاقاً يقل من يتصدى له. ولا يقال: من ذا الذي يشرب هذه الكأس المثلوجة ــ وهجير الصيف متقد،

والسموم تلفح الوجوه ـ وأنه لم يكتف بتسميته إقراضاً وبالتعبير عنه بهذا الاستفهام حتى قال: ﴿فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾ ذلك أن الإقراض يقتضي أن القرض لا يضيع، وليس هذا بكاف في الترغيب الذي تقتضيه الحال هنا، فصرح بأنه لا يرد مثله، بل أضعاف أضعافه من غير تحديد، وإنك لتجد الناس على هذا التأكيد في الترغيب، قلما يجودون بأموالهم في المصالح العامة. أما كون القرض حسناً فالمراد به: ما حل محله ووافق المصلحة، لا ما وضع موضع الفخفخة وقصد به الرياء والسمعة. وأما هذه المضاعفة إلى أضعاف كثيرة ـ وسيأتي في آية أخرى بلوغها سبعمائة ضعف، والمراد الكثرة ـ فهي تكون في الدنيا والآخرة. ذلك بأن المنفق لإعلاء كلمة الله ولتعزيز الأمة، وللمدافعة عن الحق والحقيقة، يكون مدافعاً عن نفسه ومعززاً لها وحافظاً لحقوقها، لأن اعتداء المعتدين على الأمة إنما يكون بالاعتداء على أفرادها، فضعف الأمة وإذلالها وضياع حقوقها، لا يتحقق إلا بما يقع على أفرادها وهو منهم، والبلاء يكون عاماً، ثم أن الأمة التي يبذل أغنياؤها المال، وتقوم بفريضة التعاون على الأعمال، فيكفل غنيها فقيرها، ويحمي قويها ضعيفها، تتسع دائرة مصالحها ومنافعها، وتكثر مرافقها وتتوفر سعادتها، وتدوم على أفرادها النعمة، ما استقاموا على البذل والتعاون في المصالح العامة، ثم إنهم يكونون بذلك مستحقين لسعادة الآخرة ومضاعفة الثواب فيها. قال تعالى: ﴿والله يقبض ويبسط﴾ أي: يقبض الرزق عن بعض الناس، فيجهلون طرقه التي هي سنن الله تعالى فيه، أو يضعفون في سلوكها، ويبسطه لمن يشاء بما يهديهم إلى تلك السنن، ويفتح لهم الأبواب ويسهل لهم الأسباب. ولو شاء أن يغني فقيراً ويفقر غنياً لفعل، فإن الأمر كله له وبيده القبض والبسط، وهو واضع السنن الهادي إليها، والموفق للسير عليها، فليس حضه الأغنياء على مواساة الفقراء والإنفاق في المنافع العامة أو الخاصة من حاجة به أو عجز منه سبحانه، كلا بل هي هدايته الإنسان إلى طرق الشكر على النعم بما يحفظها ويفضي إلى المزيد فيها.

﴿وإليه ترجعون﴾ قد قال بعض العلماء: إن هذا التعقيب يدل على أن البذل واجب يعاقب على تركه، أقول: يريد عقاب الآخرة، وأما عقاب الدنيا فهو أظهر لأنه مشاهد لأرباب البصائر الباحثين في شؤون الأمم، إذ لا يبحثون في حال أمة

عزيزة إلا ويرون بذل أغنيائها المال، لنشر العلوم واتقان الأعمال، وتعاون أفرادها على مصلحتها، هي أسباب عزتها ورفعتها، ولا يبحثون في حال أمة ذليلة مقهورة إلا ويرون أغنياءها ممسكين، وأفرادها غير متعاونين، فعلمنا بهذا أن قوله تعالى «والله يقبض ويبسط» إلخ، بيان لطريق المضاعفة ودليل عليه، وتذكير بالله وبتدبيره لخلقه وبمصير الخلق إليه، أي: فهو يضاعف لهم في الدارين.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾

٢٤٦ـ ﴿ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى﴾ تقدم الكلام على هذا الضرب من الاستفهام في تفسير القصة السابقة لهذه. والملأ: القوم يجتمعون للتشاور، لا واحد له، قاله البيضاوي وغيره. وقال غيرهم: الملأ: الأشراف من الناس، وهو اسم للجماعة، كالقوم والرهط والجيش، وجمعه «أملاء»، سموا «ملأ» لأنهم يملأون العيون رواء، والقلوب هيبة ﴿إذ قالوا لنبي لهم إبعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله﴾ وهذا النبي لم يسمه القرآن، هو «شمويل» وهذا أقوى أقوال المفسرين وهو معرب: صمويل أو صموئيل. وبعث الملك:

(١) السين والصاد تلفظان شيناً في العبرية.

عبارة عن إقامته وتوليته عليهم ﴿قال: هل عسيتم إن كتب عليكم القتال أن لا تقاتلوا﴾ والمعنى: هل قاربتم أن تحجموا عن القتال إن كتب عليكم كما أتوقع ـ أو ـ أأتوقع منكم الجبن عن القتال إن هو كتب عليكم؟ فعسى للمقاربة أو: للتوقع ﴿قالوا: وما لنا أن لا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾ أي: أيُّ داع يدعونا إلى أن لا نقاتل وقد وجد سبب القتال، وهو إخراجنا من ديارنا بإجلاء العدو إياناً عنها، وأفردنا عن أولادنا بسببه إياهم واستعباده لهم؟ ﴿فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم﴾ ذلك أن الأمم إذا قهرها العدو ونكل بها يفسد بأسها، ويغلب عليها الجبن والمهانة. فإذا أراد الله تعالى إحياءها بعد موتها ينفخ روح الشجاعة والإقدام في خيارها وهم الأقلون، فيعملون ما لا يعمل الأكثرون، ﴿والله عليم بالظالمين﴾ الذين يظلمون أنفسهم وأمتهم بترك الجهاد دفاعاً عنها، وحفظاً لحقها، فهو يجزيهم وصفهم، فيكونون في الدنيا أذلاء مستضعفين، وفي الآخرة أشقياء معذبين.

٢٤٧ـ ﴿وقال لهم نبيهم أن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنىَّ يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال؟﴾ قيل في «طالوت»: إنه لقب له من الطول، كملكوت من الملك وأمثالها، وذلك أنه كان طويلاً مشذباً، ﴿قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم﴾ معناه: فضله واختاره عليكم بما أودع فيه من الاستعداد الفطري للملك، ولا ينافي هذا كون اختياره كان بوحي من الله، لأن هذه الأمور هي بيان لأسباب الاختيار وهي أربعة: (١) الاستعداد الفطري، و(٢) السعة في العلم الذي يكون به التدبير، و(٣) بسطة الجسم، المعبر بها عن صحته وكمال قواه، وسلامة فكره، وللشجاعة والقدرة على المدافعة وللهيبة والوقار، و(٤) توفيق الله تعالى الأسباب له وهو ما عبر عنه بقوله: ﴿والله يؤتي ملكه من يشاء﴾ والاستعداد هو الركن الأول في المرتبة فلذلك قدمه، والعلم بحال الأمة ومواضع قوتها وضعفها، وجودة الفكر في تدبير شؤونها، هو الركن الثاني في المرتبة، فكم من عالم بحال زمانه غير مستعد للسلطة اتخذه من هو مستعد لها سراجاً يستضيء برأيه في تأسيس مملكة أو سياستها، ولم ينهض به رأيه إلى أن يكون هو السيد الزعيم فيها. وكمال الجسم في قواه ورُوائه هو الركن الثالث في

المرتبة وهو في الناس أكثر من سابقيه. وأما المال فليس بركن من أركان تأسيس الملك، لأن المزايا الثلاث إذا وجدت سهل على صاحبها الإتيان بالمال. وأما توفيق الله تعالى بتسخير الأسباب التي لا عمل له فيها لسعيه فليس من مواهبه ومزاياه فتقدم في أسباب اختياره، وإنما تذكر تتمة للفائدة وبياناً للحقيقة، ولذلك ذكرت قاعدة عامة لا وصفاً له. ثم ختم الآية بقوله تعالى: ﴿والله واسع عليم﴾ على طريقة القرآن في التنبيه على الدليل بعد الحكم والتذكير بأسمائه الحسنى وآثارها، أي: واسع التصرف والقدرة، إذا شاء أمراً اقتضته حكمته في نظام الخليقة فإنه يقع لا محالة، «عليم» بوجوه الحكمة فلا يضع سنته في استحقاق الملك عبثاً، ولا يترك أمر العباد في اجتماعهم سدى، بل وضع لهم من السنن الحكيمة ما هو منتهى الإبداع والاتقان.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾

٢٤٨ـ قوله تعالى: ﴿وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت﴾ يدل على أن بني إسرائيل لم يقتنعوا بما احتج به عليهم نبيهم من استحقاق طالوت الملك بما اختاره الله وأعده له باصطفائه، وإيتائه من سعة العلم وبسطة الجسم ما يمكنه من القيام بأعبائه، حتى جعل لذلك آية تدلهم على العناية به، وهي عود التابوت إليهم وهذا التابوت المعرف: صندوق له قصة معروفة في كتب اليهود. وأما قوله تعالى في التابوت: ﴿فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك

آل موسى وآل هرون تحمله الملائكة﴾ فقد كثرت فيه الروايات، ومنها ما لا يدل عليه نقل ولا يقبله عقل، على أنها متعارضة لا يمكن الجمع بينها كما ترى في تفسير ابن جرير، وهو أم التفاسير، فأكثر ما ذكر عن التابوت وعما فيه من الغرائب لا أصل له في تلك الكتب، وإنما وحي الله تعالى ناطق بأن فيه سكينة، و«السكينة» في اللغة: ما تسكن إليه النفس ويطمئن به القلب، وفي إتيان الصندوق سكينة لا تخفى، لما كان له من الشأن الديني عند القوم، أو فيه ما يحدث لهم سكينة. قال ابن جرير: وأولى هذه الأقوال بالحق في معنى السكينة ما قاله عطاء بن أبي رباح: من أنها الشيء تسكن إليه النفوس من الآيات، ﴿إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾ قالوا: يحتمل أن يكون هذا تتمة كلام نبي بني إسرائيل لهم، أي: إن في مجيء التابوت علامة أو حجة لكم تدل على عناية الله بكم، واصطفائه لكم هذا الملك الذي ينهض بشؤونكم وينكل بأعدائكم، فعليكم أن ترضوا بملكه ولا تفرقوا عنه. ويحتمل أن يكون استئناف كلام منه تعالى لهذه الأمة معناه: إن فيما أوحاه الله تعالى إلى نبيه، عليه الصلاة والسلام، من هذه القصة آية بينة على نبوته إذ لولا الوحي لما كان يعرفها وهو الأمي الذي لم يقرأ ولم يتعلم شيئاً، ولا كان يعرف ما انطوت عليه من العبرة والفائدة، ولا سيما ما يعتبر في الملوك من الصفات التي تؤهلهم للقيام بأعباء السياسة وأعمال الرياسة، وإنما يكون ذلك آية بينة وعبرة نافعة لمن يؤمن بالله وآياته التي يؤيد بها أنبياءه ورسله، عليهم السلام، لذلك قيدها بالشرط الذي حذف جوابه لدلالة الكلام عليه.

٢٤٩ـ ﴿فلما فصل طالوت بالجنود قال: ن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده﴾ فصل بالجنود: انفصل بهم من مقامهم، وقادهم لقتال أعدائهم، وأصله: فصل نفسه عنه مصاحباً لهم، والجنود: جمع «جُند» بالضم، وهو العسكر، وأصله: الأرض الغليظة ذات الحجارة، ثم قيل لكل مجتمع قوي جند. والشرب: تناول المائع بالفم وابتلاعه، وطَعِمَ الشيء من غذاء وشراب: ذاقه، والغرفة: بالفتح المرة من غرف الشيء إذا رفعه من محله وتناوله، وبها قرأ ابن كثير وأبو عمرو والحجازيون. والغرفة: بالضم، ما يغترف وبها قرأ ابن عامر والكوفيون. لما

كان بنو إسرائيل من قبل كارهين لملك طالوت عليهم ثم أذعنوا من بعد وكان إذعان الجميع ورضاهم مما لا يمكن العلم به إلا بالاختبار والابتلاء، أراد الله أن يبتلي هذا القائد جنده ليعلم المطيع والعاصي، والراضي والساخط، فإن طاعة الجيش للقائد وثقته به من شروط الظفر، وأحوج القواد إلى اختبار الجيش مَن ولي على قوم وهم له كارهون، أو كان فيهم من يكرهه، فإذا وجد في الجيش من ليس متحداً معه يخشى أن يوضعوا خلاله يبغونه الفتنة ويسومونه الفشل، أخبر طالوت جنوده بأن سيمرون على نهر يمتحنهم به بإذن الله، فمن شرب منه فلا يعد من أشياعه المتحدين معه في أمر القتال، إلا أن يكون ما يشربه قليلاً وهو غرفة تؤخذ باليد، فإن هذا مما يتسامح فيه، ومن لم يطعمه أي يذقه بالمرة فإنه منه وهو الذي يركن إليه ويوثق به تمام الثقة، قال تعالى: ﴿فشربوا منه إلا قليلاً منهم﴾ ذلك أن القوم كانوا قد فسد بأسهم وتزلزل إيمانهم، واعتادوا العصيان فسهل عليهم عصيانهم، وشق عليهم مخالفة الشهوة وإن كان فيها هوانهم، ولم يبق فيهم من أهل الصدق في الإيمان والغيرة على الملة والأمة إلا نفر قليل، والعدد القليل من أهل العزائم، يفعل ما لا يفعل الكثير من ذوي المآثم، كما يعلم من قوله تعالى: ﴿فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه﴾ أي: فلما جاوز النهر طالوت، والذين آمنوا معه ﴿قالوا﴾ أي: الجنود وهم أولئك الذين شربوا منه إلا قليلاً منهم ﴿لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾ الطاقة: أدنى درجات القوة كما تقدم في تفسير آية الصيام، و«جالوت»: هو أشهر أبطال أعدائهم الفلسطينيين، والعبارة تشعر بأن جنود الفلسطينيين كانوا أكثر من الإسرائيليين أي: قال جمهور الجنود ليس لنا أدنى شيء من جنس الطاقة بلقاء جالوت وجنوده، ﴿قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾ وهؤلاء الذين يظنون أنهم ملاقو الله في الآخرة، هم الذين آمنوا وجاوزوا النهر مع طالوت ـ وقد توهم بعض الناس أن الآخرين الذين شربوا من النهر لم يجاوزوه لأنه تعالى لم يذكرهم، وظنوا أن القولين من المؤمنين الذين جاوزوا النهر ـ قال ضعافهم: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، وقال أقوياؤهم: كم من فئة قليلة إلخ، اشتد بعضهم بعزيمة بعض وكان من أمر انتصارهم ما يأتي في الآية التي بعد هذه، والعبارة لا تدل

على أن الذين شربوا من النهر لم يجاوزوه وإنما خص بالذكر الذين لم يشربوا لأنهم لم يتخلفوا عن طالوت لأجل الشرب، فهم الذين جاوزوه معه مقترنين ثم لحق بهم الآخرون الذين شربوا مخالفين.

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

٢٥٠ـ ﴿ولما برزوا﴾ أي: لما ظهر طالوت وجنوده بالبَراز وهي بالفتح: ما استوى من الأرض ﴿لجالوت وجنوده﴾ وهم أعداؤهم الفلسطينيون ﴿قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾ أي: لجأ قوم طالوت المؤمنون إلى الله تعالى يدعونه بأن يفرغ على قلوبهم الصبر، ويثبت أقدامهم في مواقع القتال بثبات قلوبهم واطمئنانها بالإيمان والثقة به، وينصرهم على القوم الكافرين عبدة الأوثان، الذين تعلقت قلوبهم بالأوهام، وهذه الأمور الثلاثة بعضها مرتب على بعض بحسب الأسباب الغالبة، فالصبر سبب للثبات الذي هو سبب من أسباب النصر، وأجدر الناس بالصبر المؤمنون بالله عز وجل الغالب على أمره.

٢٥١ـ ﴿فهزموهم بإذن الله﴾ أي: فاستجاب لهم ربهم ما سألوا ببركة التوجه إليه، وتذكرهم ما يؤمنون به من قوته التي لا تغالب، فهزموهم أي: كسروهم كسرة انتهت بدفعهم من المعركة وهربهم منها بإرادته المنفذة لسنته في نصر المؤمنين الصابرين الثابتين على الكافرين ﴿وقتل داودُ جالوتَ﴾ قالوا: إن جالوت جبار الفلسطينيين طلب البَراز فلم يجرؤ أحد من بني إسرائيل على مبارزته، حتى إن طالوت جعل لمن يقتله أن يزوجه ابنته ويحكمه في ملكه، ثم

برز له داود عليه السلام وكان غلاماً يرعى الغنم، ولم يقبل أن يلبس درعاً ولا أن يحمل سلاحاً بل حمل مقلاعه وحجارته، فسخر منه جالوت واحتمى عليه إذ لم يستعد له، وقال: هل أنا كلب فتخرج إلي بالمقلاع؟ فرماه داود بمقلاعه فأصاب الحجر رأسه فصرعه فدنا منه فاحتز رأسه وجاء به فألقاه إلى طالوت فعرف داود وكان له الشأن الذي ورث به ملك إسرائيل كما قال تعالى ﴿وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء﴾ فسّروا الحكمة هنا: بالنبوة، والأظهر عندي أن تفسر بالزبور الذي أوحاه الله إليه وبه كان نبياً، وأما تعليمه مما يشاء: فهو صنعة الدروع كما قال تعالى في سورة الأنبياء: «وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون؟». ثم بين تعالى حكمة الإذن بالقتال الذي قررته الآيات فقال: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ أي: لولا أن الله تعالى يدفع أهل الباطل بأهل الحق، وأهلَ الفساد في الأرض بأهل الإصلاح فيها، لغلب أهل الباطل والإفساد في الأرض، وبغوا على الصالحين وأوقعوا بهم، حتى يكون لهم السلطان وحدهم، فتفسد الأرض بفسادهم، فكان من فضل الله على العالمين وإحسانه إلى الناس أجمعين، أن أذن لأهل دينه الحق المصلحين في الأرض، بقتال المفسدين فيها من الكافرين والبغاة المعتدين، فأهل الحق حرب لأهل الباطل في كل زمان والله ناصرهم ما نصروا الحق وأرادوا الإصلاح في الأرض.

٢٥٢ــ ثم بَيَّن أن إيتاء النبي الأمي أمثال هذه القصص من دلائل نبوته فقال: ﴿تلك آيات الله﴾ يشير إلى قصة الذين خرجوا من ديارهم وقصة بني إسرائيل التي بعدها ﴿نتلوها عليك بالحق﴾ فيه تعريض بأن ما يقوله بنو إسرائيل مخالفاً لهذا فهو باطل ﴿وإنك لمن المرسلين﴾ إذ لولا الرسالة لما عرفت شيئاً من هذه القصص، وأنت لم تكن في أزمنة وقوعها، ولا تعلمت شيئاً من التاريخ، ولو تعلمته لجئت بها على النحو الذي عند أهل الكتاب، أو غيرهم من القصاصين. وقد قرر تعالى هذه الحجة على نبوته ﷺ في سورة «القصص» بعد ذكر قصة موسى في مدين وذكر نبوته بقوله تعالى: «وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين. ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول

عليهم العمر، وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين».

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾

٢٥٣ ـ ﴿تلك الرسل﴾ أي: المشار إليهم بقوله: «وإنك لمن المرسلين» في آخر الآية السابقة، ومنهم داود الذي ذكر في الآية التي قبلها. وهذا أظهر من قولهم: المراد بالرسل من ذكروا في هذه السورة، أو من قص الله على النبي قبل هذا من أنبائهم، أو المراد جماعة الرسل ﴿فضلنا بعضهم على بعض﴾ مع استوائهم في اختيار الله تعالى إياهم للتبليغ عنه وهداية خلقه إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، والتصريح بهذا التفضيل وذكر بعض المفضلين يشبه أن يكون استدراكاً مع ما ذكر في الآيات السابقة من إيتائه تعالى داود الملك والحكمة وتعليمه مما يشاء. وقد بين هذا التفضيل في بعض المفضلين فقال: ﴿منهم من كلم الله﴾ بصيغة الالتفات عن الضمير إلى التعبير بالظاهر لتفخيم شأن هذه المنقبة، والغرض من هذا الالتفات إلفات الأذهان إلى هذه المنقبة تفخيماً لها وتعظيماً لشأنها. وأما قوله تعالى: ﴿ورفع بعضهم درجات﴾ فذهب جماهير المفسرين إلى أن المراد به: نبينا محمد ﷺ، وهو ما رواه ابن جرير عن مجاهد وأيده. ثم قال تعالى: ﴿وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس﴾ البينات: هي ما تبين به الحق من الآيات والدلائل، وروح القدس: هو[1] روح الوحي الذي يؤيد الله به رسله كما قال لنبينا: «وكذلك أوحينا إليك روحاً من

---

(١) قوله: «هو روح الوحي»، والمشهور: هو أن روح القدس هو جبريل، عليه السلام، أي: الروح المقدسة، كان يسير معه حيث سار وهو ناقل الوحي.

أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا» الآية. ثم قال تعالى: ﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات، ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر﴾، أي: لو شاء الله أن لا يجعل سنته في تبليغ الدين وعرضه على الناس هكذا، بأن يجعله من إلهاماتهم العامة وشعورهم الفطري كشعور الحيوان وإلهامه ما فيه منفعته، لكانوا في هداية الدين سواء يسعدون به أجمعين، فتمنعهم ببيناته أن يختلفوا فيقتتلوا، ولكنه خلق الإنسان على غير ما خلق عليه الحيوان، وكان ذلك سبب اختلاف أهل الأديان، فمنهم من آمن إيماناً صحيحاً، فأخذ الدين على وجهه، إذ فهمه حق فهمه، ومنهم من لبسه مقلوباً وحكم هواه في تأويله، وكان ذلك مدعاة التخاصم وسبب التنازع والتقاتل. ثم قال تعالى: ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا﴾ يمكن تفسير هذه الجملة بمثل ما فسرت به الجملة الأولى. والأولى أن تفسر بوجه آخر أخص، كأن يقال: لو شاء الله تعالى أن تكون سنته في الإنسان على ما فطر عليه من الاختلاف، أن يعذر المختلفون من أفراده بعضهم بعضاً، ويوطن كل فريق منهم نفسه على أن ينتصر لرأيه بالحجة ويسعى إلى مصلحته بالفطنة، لما اقتتلوا على ما يختلفون فيه، ولكنه جعلهم درجات في الفهم والحزم. فالقوي بالرأي يحارب بالرأي، والقوي بالسيف يقاوم بالسيف، فكان الاختلاف في الرأي والمصالح معاً مع عدم العذر مؤدياً إلى الاقتتال لا محالة، هكذا خلق الإنسان، فلا يقال: لم خلقه هكذا؟ لأن هذا بحث عن أسرار الخلقة ككبر أذني الحمار وصغر أذني الجمل، ولذلك قال: ﴿ولكن الله يفعل ما يريد﴾، أي: إن اختصاص الناس بهذه المزايا هو أثر إرادته وتخصيصها فلا مرد له: فعلم بهذا أن لا تكرار في الآية.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾

٢٥٤ ـ ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة﴾. قالوا: إن المراد بالإنفاق هنا الإنفاق الواجب،

لأن الكلام يتضمن الوعيد على الترك، وهو لا يكون إلا على ترك الواجب. وقال بعضهم: بل يشتمل المندوب. ومن الواجب على أغنياء المسلمين إذا وقع الفساد في الأمة وتوقفت إزالته على المال أن يبذلوه لدفع المفاسد الفاشية والغوائل الغاشية، وحفظ المصالح العامة. أقول:وفي قوله تعالى: «مما رزقناكم» إشعار بأنه لا يطلب منهم إلا بعض ما جعلهم مستخلفين فيه من رزقه ونعمه عليهم. أما البيع والخلة والشفاعة: فللمفسرين في بيان المراد بنفيها طريقان أحدهما أن المراد بالبيع: الكسب بأي نوع من أنواع المبادلة والمعاوضة. والمراد بالخلة ــ وهي الصداقة والمحبة للقرابة وغيرها ــ لازمُها، وهو ما يكون وراءها من الكسب، كالصلة والهدية والإرث. والمراد بالشفاعة ــ وهي معروفة ــ لازمُها في الكسب، وهو ما يكون من إقطاعات الملوك والأمراء لبعض الناس. فهذه الثلاث من طرائق جمع المال وسعة الرزق في الدنيا. فهو يقول: يا أيها الذين آمنوا بادروا إلى الإنفاق في سبيل الله مما تناله أيديكم وأنتم متمكنون منه ابتغاء مرضاة الله به،قبل أن يأتي يوم الجزاء الذي لا تجدون فيه ما تتقربون به إليه مما يكسب ببيع وتجارة، ولا مما ينال بخلة أو شفاعة، فإنه هو اليوم الذي يظهر فيه فقر العباد وكون الملك لله الواحد القهار. وأما الطريق الثاني: فقد فسروا فيه البيع بالافتداء وجعلوا فيه الخلة والشفاعة على ظاهرهما، أي: أنفقوا، فإن الإنفاق في سبيل الخير والبر هو الذي ينجيكم في ذلك اليوم الذي لا ينجي الأشحة الباخلين فيه من عذاب الله تعالى فداء فيفتدوا منه أنفسهم، ولا خلة يحمل فيها خليل شيئاً من أوزار خليله، أو يهبه شيئاً من حسناته ولا شفاعة يؤثر بها الشفيع في إرادة الله تعالى، وقوله: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ تعريض بهؤلاء الملوك الذين يمنحون بالشفاعة غير المستحق ويمنعون المستحق، ويعاقبون بها البريء ويعفون عن المجرم، والمراد بالكافرين الكافرون بالنعم، بقرينة السياق، وهم الذين لا ينفقون في سبل البر والخير. وقد قصر الظلم عليهم كما أفادت الجملة المعرفة الطرفين تشنيعاً لحالهم، كأن كل ظلم غير ظلمهم ضعيف لا يعتد به، لأنهم ظلموا أنفسهم ودنسوها برذيلة البخل ومنع الحق، وظلموا الفقراء والمساكين وغيرهم من الأصناف الذين فرضت لهم الصدقة بمنعهم مما فرض الله لهم، وظلموا الأمة بإهمال مصالحها المعبر عنها بسبيل الله. وإن أمة

يؤدي أغنياؤها ما فرض الله عليهم لفقرائها ولمصالحها العامة لا تهلك ولا تخزى. ولا شيء أسرع في إهلاك الأمة من فشو البخل ومنع الحق في أفرادها.

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

٢٥٥ ــ ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ السِّنة: النعاس. وهو فتور يتقدم النوم. إن ما ذكر في النظم الكريم تَرَقٍّ في نفي هذا النقص،ومن قال بعدم الترقي فقد غفل عن معنى الأخذ وهو: الغلب والاستيلاء، ومن لا تغلبه السنة قد يغلبه النوم، لأنه أقوى فذكر النوم بعد السنة ترقٍّ من نفي الأضعف إلى نفي الأقوى، والجملة تأكيد لما قبلها مقررة لمعنى الحياة والقيومية على أكمل وجه،فإن من تأخذه السنة والنوم يكون ضعيف الحياة وضعيف القيام بنفسه أو على غيره ﴿له ما في السماوات وما في الأرض﴾ فهم ملكه وعبيده، مقهورون لسنته، خاضعون لمشيئته، وهو وحده المصرف لشؤونهم، والحافظ لوجودهم ﴿من ذا الذي يشفع عنده﴾ منهم فيحمله على ترك مقتضى ما مضت به سنته، وقضت به حكمته، وأوعدت به شريعته، من تعذيب من دسى نفسه بالعقائد الباطلة، ودنسها بالأخلاق السافلة، وأفسد في الأرض، وأعرض عن السنة والفرض، من ذا الذي يقدم على هذا من عبيده ﴿إلا بإذنه﴾ والأمر كله له صورة وحقيقة. وليس هذا الاستثناء نصاً في أن الإذن سيقع، وإنما هو كقوله: «يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه» فهو تمثيل لانفراده بالسلطان والملك في ذلك اليوم ولهذا قال البيضاوي في تفسير الجملة: «بيان لكبرياء شأنه وأنه لا أحد يساويه أو يدانيه ويستقل بأن يدفع ما يريده شفاعة واستكانة فضلاً عن أن يعاوقه عناداً أو مناصبة». ففي هذا الاستثناء

قطع لأمل الشافعين والمتكلين على الشفاعة المعروفة التي كان يقول بها المشركون وأهل الكتاب عامة،ببيان انفراده تعالى بالسلطان والملك وعدم جراءة أحد من عبيده على الشفاعة أو التكلم بدون إذنه، وإذنه غير معروف لأحد من خلقه. ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ أي: ما قبلهم وما بعدهم، أو بالعكس، أو أمـور الدنيـا التي خلفوهـا وأمور الآخـرة التي يستقبلونها، أو ما يـدركون وما يجهلون ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ ومن علم شيئاً منك فلا سبيل له إلى التصدي لإعلامك به. فماذا عسى أن يقول من يريد الشفاعة عنده بالمعنى الذي يعهده الناس ويغتر به الحمقى، الذين يرجون النجاة بها من الآخرة، بدون مرضاة الله تعالى في الدنيا.

معناه: أن الشفاعة تتوقف على إذنه، وإذنه لا يعلم إلا بوحي منه تعالى، يريد أن ذلك ترق في نفيها من دليل إلى آخر، أي: إذا أمكن أن تكون هناك شفاعة بمعنى آخر يليق بجلال الله تعالى كالدعاء المحض. فإنه لا يجرؤ عليها أحد في ذلك اليوم العصيب إلا بإذن الله تعالى. وإذنه تعالى مما استأثر بعلمه فلا يعلمه غيره إلا إذا شاء إعلامه به ﴿وسع كرسيه السماوات والأرض﴾ هذا يدل على أن «الكرسي»: هو العلم الإلهي. وبذلك قال بعض المفسرين وأهل اللغة، ويقال: «كَرِسَ الرجل» كفرح، أي: كثر علمه وازدحم على قلبه، أي: إن علمه تعالى محيط بما يعلمون مما عبر عنه بقوله: «يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم»، وبما لا يعلمون من شؤون سائر الكائنات،فبماذا يمكن أن يعلمه الشفعاء. وقيل: هو العرش[1] واختاره بعضهم ﴿ولا يؤوده حفظهما﴾، أي:

---

(١) قوله: «وقيل هو العرش»، هذا قول اختاره الجلالان: المحلي والسيوطي في تفسيرهما، وآخرون، وهو يعني: أن الكرسي مخلوق وأنه العرش ذاته، وذهب بعضهم إلى أن «الكرسي» هو «العلم» وهو مروي عن ابن عباس برواية شاذة وهذا ما رجحه المؤلف هنا، ولكن القول الصحيح الذي تؤيده الأدلة وتقويه اللغة هو أن المراد بـ «الكرسي» هنا: ذلك المخلوق العظيم، وليس العلم، وأن الكرسي غير العرش، والعرش أكبر منه، فقد أخرج الآجرِّيُّ وأبو حاتم البُستي في صحيح مسنده والبيهقي ــ وذكر أنه صحيح ــ أن النبي ﷺ قال لأبي ذر الغفاري، رضي الله عنه: «يا أبا ذر، ما السماوات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاةٍ في أرضٍ فلاةٍ، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة» ← =

لا يثقله حفظ هذه العوالم بما فيها ولا يشق عليه ﴿وهو العلي العظيم﴾ فيتعالى بذاته أن يكون شأنه كشأن البشر في حفظ أموالهم، ويتنزه بعظمته عن الاحتياج إلى من يعلمه بحقيقة أحوالهم، أو يستنزله إلى ما لم يكن يريد من مجازاتهم على أعمالهم.

لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

٢٥٦ ــ روى أبو داود والنسائي وابن حبان وابن جرير عن ابن عباس قال: كانت المرأة تكون مقلاة ــ أي: لا يعيش لها ولد ــ فتجعل على نفسها إن عاش لها أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير، كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا فأنزل الله: ﴿لا إكراه في الدين﴾ وأخرج ابن جرير الطبري وابن اسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت «لا إكراه في الدين» في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له «الحُصين» كان له ابنان نصرانيان، وكان هو مسلمًا فقال للنبي ﷺ: ألا أستكرههما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية؟ فأنزل الله الآية. وفي بعض التفاسير: أنه حاول إكراههما فاختصموا إلى النبي ﷺ فقال لرسول الله: أيدخل بعضي النار وأنا أنظر؟ ولابن جرير عدة روايات في نذر

= فالآية في معرض بيان سعة علمه تعالى، وسعة ملكه، وقد نبه إلى سعة علمه بقوله تعالى: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾، ثم بين سعة ملكه بقوله سبحانه: ﴿وسع كرسيه السماوات والأرض﴾ أي: إذا كان الكرسي الذي هو أحد مخلوقاته يسع السماوات والأرض، فكم تكون سعة العرش الذي هو أكبر من الكرسي كما تقدم في الحديث الشريف؟ انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٣١٢ وزاد المسير ١/٣٠٤.

النساء في الجاهلية تهويد أولادهن ليعيشوا،وأن المسلمين بعد الإسلام أرادوا إكراه من لهم من الأولاد على دين أهل الكتاب على الإسلام فنزلت الآية فكانت فصل ما بينهم. أقول[1]: هذا هو حكم الدين الذي يزعم الكثيرون من

---

(١) قوله: «أقول: هذا هو حكم الدين» إلى آخر ما قاله في هذا المجال. لقد أراد المؤلف أن يرد على أولئك الذين زعموا أن سيف الإسلام كان مسلطاً على رقاب الناس، وأنه كان يجبرهم جميعاً ويكرههم على الدخول فيه، هكذا ومن دون تفصيل ولا تعليل، وفي كلامه كما في أقوال أولئك بُعْدٌ ولَبْس، فليس الأمر كما قال المؤلف، ولا كما قال أعداء الإسلام، فهؤلاء تجنَّوا، والمؤلف أجمل ولم يفصل.

والصحيح أن للإسلام سيفاً ــ أي: قوة ــ لأنه حق، والحق من دون قوة لا يعبأ به الناس، ولكن سيف الإسلام ليس مسلطاً على طول الخط، ولا هو في غمده أبداً قد أكله الصدأ، بل هو سيف في يدٍ عادلة رحيمة، مشفقة على الخلق تريد مصلحتهم في الدنيا والآخرة. تماماً مثل آلات الشق والقصِّ في يدي فريق من الأطباء الجراحين، فالطبيب الجراح لا يستعمل عدته بأن يقف على قارعة الطريق، فيمسك بأي كان فيشق بطنه ليستخرج مرارته، أو يفتح رأسه لينظف له دماغه، فإن الطبيب إن فعل ذلك اعتبره الناس مفسداً وقالوا عنه: مجنون، ولكنه عندما يرى أن حالة المريض تستدعي عملية جراحية ــ أياً كانت وأين كانت من جسده ــ فإنه لا يسأل عن رأي المريض ورضاه، خاصة إذا كان المريض لا يعقل مصلحة نفسه، بل يقوم بواجبه ــ وكل الناس يسمي عمله هذا واجباً ــ ويفتح البطن، ويتصرف بجسد المريض كما يريد لضمان صحته وسلامته في مستقبل ما تبقى له من عمره.

فالإسلام دين الله تعالى، أرسل به رسله جميعاً ــ وختامهم محمد ﷺ ــ ليعالجوا أمراض القلوب والنفوس، التي أخطرها وأضرها على الإنسان وعلى المجتمع كله مرض: الكفر بالله تعالى الذي خلقه فسواه فعدله، فجاء النبي ﷺ برسالته وشرع في تبليغها إلى الناس بالحكمة والموعظة الحسنة، فآذوه وأخرجوه وأهانوه، فصبر وصبر، وظل يصبر حتى أمره الله بالقتال، أما لماذا أمره الله بالقتال؟ فلأن أولئك الكفرة لم يكتفوا بأنهم لم يؤمنوا، بل كانوا عقبة في طريق الإسلام، وحاولوا منع غيرهم من الدخول في الإسلام، فهل يصح أن يُتركوا مع كل هذا؟ لذلك حاربهم وقاتلهم حتى أباد قوة الشرك، وعلت كلمة التوحيد.

أما غيرهم من الكافرين من أهل الكتاب كاليهود والنصارى، فهل كان الإسلام يمسك بهم على غرَّة، وهم غافلون، ويجمعهم في الساحات العامة ويقول لهم: إما أن تسلموا الآن، وإما أن تقطع رؤوسكم ــ كما فعلوا هم بالمسلمين في الأندلس ــ؟ هل هذا ما كان يحصل لتقوم قيامة هؤلاء على الإسلام؟ . . الجواب: لا. بل هناك سُلَّم متدرِّج، له مراحل ثلاث: =

أعدائه ــ وفيهم من يظن أنه من أوليائه ــ أنه قام بالسيف والقوة، فكان يعرض على الناس والقوة عن يمينه فمن قبله نجا ومن رفضه حَكَم السيف فيه حُكمه.
فهل كان السيف يعمل عمله في إكراه الناس على الإسلام في مكة أيام كان النبي ﷺ يصلي مستخفياً، وأيام كان المشركون يفتنون المسلم بأنواع من العذاب ولا يجدون رادعاً حتى اضطر النبي وأصحابه إلى الهجرة؟ أم يقولون:إن

= المرحلة الأولى: يجري إبلاغهم دعوة الإسلام ــ إن لم تكن بَلَغَتْهُم، ويستحب تكرار إبلاغهم إن بلغتهم ــ بالحكمة، ويطلب منهم أن يُسلموا، مع بيان ما في إسلامهم من خير لهم في الدنيا والآخرة. فإن أسلموا كانوا إخواناً لنا.

المرحلة الثانية: إن لم يسلموا يُطلب منهم أن يظلوا في بلادهم وديارهم على شرط أن يكونوا في ذمة المسلمين ويدفعوا الجزية ويخضعوا لحكم الإسلام، الذي يحفظ لهم حقوقهم، يعطيهم الأمن والأمان، وهذا العقد لمصلحتهم ولمصلحة المسلمين أيضاً، ولولا عقد الذمة هذا، لكان ثمة خوف على هؤلاء الذين لم يقبلوا الإسلام من عدوان بعض المسلمين عليهم، ولكان هناك خوف على المسلمين أيضاً من أن يقوم هؤلاء بعمل يهدد المسلمين، فكان لا بد من هذا العقد، ــ وهو ما كان يحصل ــ.

المرحلة الثالثة: فإن أبى هؤلاء الإسلام، وأبوا أن يكونوا أهل ذمة، فهذا يعني أن نيتهم نحو المسلمين غير سليمة، وأنهم يضمرون لنا شراً، فهل يُعقل أن يتركهم الإسلام في داره ويقول لهم: الأمر كما تريدون؟ لا.. بل أمر الله تعالى بقتالهم حتى يُسلموا أو يخضعوا لحكم الإسلام.

أما مشركو العرب فإن التعامل معهم له مرحلتان فقط: ندعوهم إلى الإسلام كما تقدم. فإن أبوا الإسلام قاتلناهم عليه، ولا خيار غير ذلك.

ففي قوله تعالى: ﴿لا إكراه في الدين﴾ أقوال أشهرها قولان:

أحدهما: أنها مخصَّصة بأهل الكتاب ومن ألحق بهم، أي: لا يقاتلون على الإسلام فقط بل يخيَّرون بينه وبين الجزية ليكونوا في ذمته وذمته خير لهم وعبء على المسلمين.

وثانيها: أن الآية منسوخ حكمها بآيات القتال التي فرض الله فيها القتال، أي: كان ذلك قبل الأمر بالقتال. وليس معنى الآية: أن الله ترك للناس حرية اختيار العقيدة التي يريدونها، إذ لو كان هذا صحيحاً وكان الناس أحراراً كما يصوِّر البعض، فلهم أن يعبدوا ما شاؤوا، ويعتقدوا ما تهواه أنفسهم، لما أرسل الله المرسلين وأنزل معهم الكتاب.

ذلك الإكراه وقع في المدينة بعد أن اعتز الإسلام وهذه الآية قد نزلت في غُرَّة هذا الاعتزاز؟. ﴿قد تبين الرشد من الغي﴾ أي: قد ظهر أن في هذا الدين الرشد والهدى والفلاح والسير في الجادة على نور، وأن ما خالفه من الملل والنحل على غي وضلال ﴿فمن يكفر بالطاغوت﴾ وهو كل ما تكون عبادته والإيمان به سبباً للطغيان والخروج عن الحق من مخلوق يعبد، ورئيس يقلد، وهوى يتبع، ﴿ويؤمن بالله﴾ فلا يعبد إلا إياه، ولا يرجو غيره ولا يخشى سواه، يرجوه ويخشاه لذاته، وبما سنه من الأسباب والسنن في عباده ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها﴾ أقول: أي فقد طلب أو تحرى باعتقاده وعمله أن يكون ممسكاً بأوثق عرى النجاة، وأثبت أسباب الحياة، أو فقد اعتصم بأوثق العرى، وبالغ في التمسك بها، والاستمساك بالعروة الوثقى: هو الاستقامة على طريق الحق القويم الذي لا يضل سالكه، كما أن المتعلق بعروة هي أوثق العرى وأحكمها فتلاً لا يقع ولا يتفلت ﴿والله سميع﴾ لأقوال مدعي الكفر بالطاغوت والإيمان بالله بألسنتهم، ﴿عليم﴾ بما تكنه قلوبهم مما يصدق ذلك أو يكذبه، فهو يجزيهم وصفهم.

٢٥٧ ــ ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾، معنى الآية الذي يلتئم مع معنى سابقتها: أن المؤمن لا ولي له ولا سلطان لأحد على اعتقاده إلا الله تعالى، ومتى كان كذلك فإنه يهتدي إلى استعمال الهدايات التي وهبها الله له على وجهها وهي: الحواس والعقل والدين. فهؤلاء المؤمنون كلما عرضت لهم شبهة لاح لهم بسلطان الولاية الإلهية على قلوبهم شعاع من نور الحق يطرد ظلمتها، فيخرجون منها بسهولة «إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون»، إن جولان الحواس في رياض الأكوان، وإدراكها ما فيها من بديع الصنع والإتقان يعطيهم نوراً. ونظر العقل في فنون المعقولات يعطيهم نوراً، وما جاء به الدين من الآيات البينات يتم لهم نورهم ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾ أي: لا سلطان على نفوسهم إلا لتلك المعبودات الباطلة السائقة إلى الطغيان، فإذا كان الطاغوت من الأحياء الناطقة ورأى أن عابديه قد لاح لهم شعاع من نور الحق الذي ينبههم إلى فساد ما هم فيه بادر إلى إطفائه، بل إلى صرفهم عنه بما يلقيه

دونه من حجب الشبهات وأستار زخارف الأقوال التي تقبل منه لأجل الاعتقاد أو بنفس الاعتقاد. والظلمات: هي الضلالات التي تعرض على الإنسان في كل طور من أطوار حياته، كالكفر والشبهات التي تعرض دون الدين، فتصد عن النظر الصحيح فيه أو تحول دون فهمه والإذعان له، وكالبدع والأهواء التي تحمل على تأويله وصرفه عن وجهه، وكالشهوات والحظوظ التي تشغل عنه وتستحوذ على النفس حتى تقذفها في الكفر ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ لأن النار هي الدار التي تليق بأهل الظلمات الذين لم يبق لنور الحق والرشاد مكان في أنفسهم يصلها بدار النور والرضوان. فما يكون عليه الإنسان في الآخرة هو عاقبة ما كانت عليه نفسه في الدنيا.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

٢٥٨ ـ ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه﴾ الاستفهام: للتعجيب من هذه المحاجة، وغرور صاحبها وغباوته، مع الإنكار وقوله: ﴿أن آتاه الله الملك﴾ معناه: أن الذي حمله على هذه المحاجة هو إيتاء الله تعالى الملك له. فكان منشأ إسرافه في غروره وسبب كبريائه وإعجابه بقدرته ﴿إذ قال إبراهيم ربي الذي يحي ويميت﴾ وكأنه كان قد سأله عن ربه الذي يدعو إلى عبادته وقد كسر الأصنام التي تعبد من دونه وسفه أحلام عابديها لأجله. فأجاب بهذا الجواب فأنكره الملك الطاغية الذي حكى عنه أدعاء الألوهية لنفسه و ﴿قال أنا أحي وأميت﴾ أحي من أحكم عليه بالإعدام بالعفو عنه، وأميت من شئت إماتته بالأمر بقتله ﴿قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فائت بها من المغرب﴾ فهذا إيضاح لقوله الأول وإزالة لشبهة الخصم والمعنى: إن ربي الذي يعطي الحياة ويسلبها بقدرته وحكمته هو الذي يطلع الشمس من المشرق أي:

هو المكون لهذه الكائنات بهذا النظام والسنن الحكيمة التي نشاهدها عليها. فإن كنت تفعل كما يفعل، فغير لنا نظام طلوع الشمس وائت بها من الجهة المقابلة للجهة التي جرت سنته تعالى بظهورها منها ﴿فبهت الذي كفر﴾ أي: أدركته الحيرة، وأخذه الحصر من نصوع الحجة وسطوعها، فلم يَحِرْ جواباً ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ المراد بالظلم في هذا المقام: الإعراض عن النور الإلهي وهو نور العقل الذي يسير به المرء في طريق الدين، فمن ظلم نفسه بإطفاء هذا المصباح فسار يتخبط في الظلمات فإنه لا يهتدي في سيره إلى الصراط المستقيم الموصل إلى السعادة، بل يضل عنه حتى يهلك دون الغاية.

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

٢٥٩ ــ ﴿أو﴾ أرأيت ﴿كالذي مر على قرية﴾ أي: مثل الذي مر على قرية في إلمام ظلمة الشبهة به وإخراج الله إياه منها إلى النور. وقد أبهم الله تعالى هذا المار وهذه القرية، فلم يذكر مكانها وأصحابها، بل اقتصر على الوصف الذي به تقرر الحجة حتى لا يشغل القارىء أو السامع عنها شاغل. فهو من الاختصار البليغ، ولكن المفسرين أبوا إلا أن يبحثوا عنها وعمن مر بها، فقال بعضهم: إنها قرية الذين خرجوا من ديارهم، وقيل غير ذلك، وقيل: إن الذي مر أرمياء، وقيل: العزيز رجماً بالغيب، أو تسليمًا للإسرائيليات. وقوله: ﴿وهي خاوية على عروشها﴾ معناه: وهي خالية من السكان، واقعة على عروشها. ﴿قال أنى يحيى هذه الله بعدموتها﴾ يتعجب من ذلك ويعده غريباً لا يكاد يقع ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾ قالوا معناه: ألبثه مائة عام ميتاً. وذلك أن الموت

يكون في لحظة واحدة، وقيل: من الموت ما يمتد زمناً طويلاً وهو ما يكون من فقد الحس والحركة والإدراك من غير أن تفارق الروح البدن بالمرة، وهو ما كان لأهل الكهف وقد عبر عنه تعالى بالضرب على الآذان ﴿قال كم لبثت؟ قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه﴾ أي: لم يفسد بمرور السنين. أقول: ولم يبين لنا تعالى نوع ذلك الطعام وذلك الشراب ﴿وانظر إلى حمارك﴾ معناه: انظر كيف مات وتفرقت أو تفتتت عظامه، فلولا طول المدة لم يكن كذلك ﴿ولنجعلك آية للناس﴾ أي: لنزيل تعجبك ونريك آياتنا في نفسك وطعامك وشرابك وحمارك، ولنجعلك آية للناس. أما كون ما رأى آية له فظاهر، وأما كونه هو آية للناس فهو أن علمهم بموته مائة سنة ثم بحياته بعد ذلك من أكبر الآيات. ثم قال: ﴿وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً﴾، المراد بالعظام هنا عظام الحمار، ومعنى «ننشزها»: نرفعها ونركب بعضها ببعض. ومعنى: «نَنْشُزُها» نحييها وهذه قراءة أخرى فيها. فبعد أن أراه الآية التي تكون حجة خاصة لمن رآها نبهه إلى الحجة العامة والدليل الثابت الذي يمكن أن يحتج به على البعث في كل زمان ومكان، وهو سنته تعالى في تكوين الحيوان وإنشاء لحمه وعظمه فالإنشاء معناه التقوية، والإنشاز معناه التنمية لأن الذي ينمو يعلو ويرتفع كأنه يقول كما أطلعناك على بعض الآيات الخاصة التي تدلك على قدرتنا على البعث نهديك إلى الآية الكبرى العامة وهي كيفية التكوين، ﴿فلما تبين له﴾ أي: ظهر واتضح له ما ذكر ﴿قال: أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ علماً يقيناً مؤيداً بآيات الله في نفسي وفي الآفاق. وهذا المعنى بناء على أن الذي مر على القرية صِدِّيق. أما على القول بأنه كان نبياً فهذا التكليم كان من الوحي، ولا يبعد أن يكون ما في القصة لنبي قررت به الحجة هكذا، كما وقع لإبراهيم عليه السلام.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

٢٦٠ ـ قال تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم﴾ قال الجمهور: التقدير واذكر إذ قال إبراهيم، وقد صرح هنا بذكر إبراهيم ولم يصرح في المثال الذي قبله بذكر الذي مر على القرية لأن في سؤال إبراهيم من الأدب مع الله تعالى والثناء عليه ما ليس في سؤال ذاك، صورة ذلك صورة الإنكار وصورة هذا صورة الإقرار مع طلب الزيادة في العلم ﴿رب أرني كيف تحيى الموتى﴾ بدأ السؤال بكلمة «رب» التي تفيد عنايته تعالى بعبيده وتربيته لعقولهم وأرواحهم بالمعارف، لتكون ثناء واستعطافاً أمام الدعاء، أي: أرني بعيني كيفية إحيائك للموتى. ﴿قال﴾ تعالى وهو أعلم من المسؤول بما سأل ﴿أو لم تؤمن﴾ حذف ما دخلت عليه الهمزة لدلالة العطف عليه وقَـدَّروا له: ألم تعلم ولم تؤمن، وعندي أن الأقرب أن يقدر: ألم يوح إليك ولم تؤمن بذلك ﴿قال بلى﴾ أي: قد أوحيت إلي فآمنت وصدقت بالخبر ﴿ولكن﴾ تاقت نفسي للوقوف على كيفية هذا السر ﴿ليطمئن قلبي﴾ بالعيان بعد خبر الوحي والبرهان ﴿قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك﴾ معناه: أَمِلْهن وضمهن إليك، ﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً﴾ قالوا: والمعنى: جزئهن واجعل على كل جبل منهن جزءاً، ورووا أنه ذبح الطيور ونتفها وقطعها أجزاء وخلط بعضها ببعض،ولا يدل الكلام على ذلك[1]﴿ثم ادعهن يأتينك سعياً﴾ أي: ادع الطيور يأتينك مسرعات طيراناً ومشياً ﴿واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ فهو بعزته غالب في أمره، وبحكمته قد جعل أمر الإعادة موافقاً لحكمة التكوين.

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾

٢٦١ ـ قال تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله﴾ وهي ما يوصل إلى مرضاته من المصالح العامة لا سيما ما كان نفعه أعم وأثره أبقى

---

(١) قوله: «ولا يدل الكلام على ذلك» أي: على ما ذكروه زيادة على ما جاء في الآية مما أشار المؤلف إلى بعضه مما جاء في الإسرائيليات.

﴿كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة﴾، أي: كمثل أبرك بزر في أخصب أرض، نما أحسن نمو فجاءت غلته مضاعفة سبع مئة ضعف، وذلك منتهى الخصب والنماء. أي: إن هذا المنفق يلقى جزاءه في الدنيا مضاعفاً أضعافاً كثيرة. كما قال في آية سابقة، فالتمثيل للتكثير لا للحصر، ولذلك قال: ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾ فيزيده على ذلك زيادة لا تقدر ولا تحصر. فذلك العدد لا مفهوم له، وقيل: يضاعف تلك المضاعفة التي ضرب لها المثل ﴿والله واسع﴾ لا ينحصر فضله ولا يحد عطاؤه ﴿عليم﴾ بمن يستحق المضاعفة من المخلصين الذين يهديهم إخلاصهم إلى وضع النفقات في مواضعها التي يكثر نفعها وتبقى فائدتها زمناً طويلاً،كالمنفقين في إعلاء شأن الحق وتربية الأمم على آداب الدين وفضائله التي تسوقهم إلى سعادة المعاش والمعاد،حتى إذا ما ظهرت آثار نفقاتهم النافعة في قوة ملتهم وسعة انتشار دينهم وسعادة أفراد أمتهم، عاد عليهم من بركات ذلك وفوائده ما هو فوق ما أنفقوا بدرجات لا يمكن حصرها.

ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾

٢٦٢ ــ ثم قال تعالى: ﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولاأذى﴾[١] إن هذه الآية لبيان ثواب الإنفاق في الآخرة بعد التنويه بمنفعته في الدنيا. وقد شرط لهذا الثواب ترك المن والأذى فأما المن فهو:أن يذكر المحسن إحسانه لمن أحسن هو إليه، يظهر به تفضله عليه، وأما «الأذى» فهو أعم. ومنه أن يذكر المحسن إحسانه لغير من أحسن عليه بما ربما يكون أشد عليه مما لو ذكره له. وقال غيره: «المن» أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه ويريه أنه أوجب بذلك عليه حقاً. و«الأذى» أن يتطاول عليه بسبب إنعامه عليه،قالوا: وإنما قدم المن لكثرة وقوعه وتوسيط كلمة لا للدلالة على شمول النفي بإفادة أن كلًا من المن والأذى كاف وحده لإحباط العمل، وعدم استحقاق الثواب على الإنفاق. وقالوا:إن العطف يتم لإظهار علو رتبة المعطوف

---

(١) هذه الآية وإن كانت مطلقة، فإنها نزلت في عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما في نفقتهما في جيش العسرة.

عليه. وقوله تعالى: ﴿لهم أجرهم عند ربهم﴾ يشعر بأن هذا الأجر عظيم، من رب قادر كريم، فقد أضافهم إليه تشريفاً لهم وإعلاء لشأنهم ﴿ولا خوف عليهم﴾ يوم يخاف الناس وتفزعهم الأهوال ﴿ولا هم يحزنون﴾ يوم يحزن البخلاء الممسكون عن الإنفاق في سبيل الله والمبطلون لصدقاتهم بالمن والأذى، بل هم أهل الأمن والطمأنينة، والسرور الدائم والسكينة. ثم قال تعالى:

* قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾

٢٦٣ - ﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى﴾ القول بالمعروف يتوجه تارة إلى السائل إن كانت الصدقة عليه، وتارة يتوجه إلى المصلحة العامة، كما إذا هاجم البلد عدو وأرادوا جمع المال للاستعانة على دفعه، فمن لم يكن له مال يمكنه أن يساعد بالقول المعروف الذي يحث على العمل وينشط العامل، ويبعث عزيمة الباذل، والمغفرة أن تغضي عن نسبة التقصير في الإنفاق إليك، وأن تظهر في هيأة لا ينفر منها المحتاج ولا يتألم من فقره أمامك. والمعنى: أن مقابلة المحتاج بكلام يسر وهيأة ترضي خير من الصدقة مع الإيذاء بسوء القول أو سوء المقابلة، ولا فرق في المحتاج بين أن يكون فرداً أو جماعة، فإن مساعدة الأمة ببعض المال مع سوء القول في العمل الذي ساعدها عليه، وإظهار استهجانه وبيان التقصير فيه أو تشكيك الناس في فائدته. لا توازي هذه المساعدة: إحسان القول في ذلك العمل الذي تطلب له المساعدة، والإغضاءُ عن التقصير الذي ربما يكون من العاملين فيه. فكونك مع الأمة بقلبك ولسانك خير من شيء من المال ترضخ به مع قول السوء وفعل الأذى ﴿والله غني﴾ عن صدقة عباده فلا يأمر الأغنياء بالبذل في سبيله لحاجة به، وإنما يريد أن يطهرهم ويزكيهم ويؤلف بين قلوبهم ويصلح شؤونهم الاجتماعية، ليكونوا أعزاء، بعضهم لبعض أولياء، والمن والأذى ينافيان ذلك فهو غني عن قبول صدقة يتبعها أذى لأنه لا يقبل إلا الطيبات ﴿حليم﴾ لا يعجل بعقوبة من يمن ويؤذي.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ

تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

٢٦٤ ـ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾ أقول: بين سبحانه وتعالى في الآيتين السابقتين أن ترك المن والأذى شرط لحصول الأجر على الإنفاق في سبيله،وأن العدول عن الصدقة التي يتبعها الأذى إلى قول وعمل آخر يكرم به الفقير أو تؤيد به المصلحة العامة خير من نفس تلك الصدقة في الغاية التي شرعت لها. ثم خاطب تعالى المؤمنين ونهاهم نهياً صريحاً عن أن يبطلوا صدقاتهم بالمن والأذى،وفي ذلك من المبالغة في التنفير عن هاتين الرذيلتين ما يقتضيه ولوع الناس بهما. ثم شبه تعالى أصحاب المن والأذى بـالمرائي أو إبطال عملهم للصدقة بإبطال ريائه لها فقال: ﴿كالذي ينفق ماله رئاء الناس﴾ أي: لأجل ريائهم أو مرائياً لهم، أي: لأجل أن يروه فيحمدوه لا ابتغاء مرضاة الله تعالى، بتحري ما حث عليه من رحمة عباده الضعفاء والمعوزين وترقية شأن الملة بالقيام بمصالح الأمة،فهو إنما يحاول إرضاء الناس ﴿ولا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ فيتقرب إليه تعالى بالإنفاق خشية عقابه ورجاء ثوابه في ذلك اليوم ﴿فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً﴾ أي: إن صفته وحاله في عدم انتفاعه بما ينفق كالحجر الأملس إذا كان عليه شيء من التراب ثم أصابه مطر غزير عظيم القطر أزال عنه ما أصابه حتى عاد أملس ليس عليه شيء من ذلك التراب. ووجه الشبه بين المان والمؤذي بصدقته وبين المرائي بنفقته،أن كلًّا منهما غش نفسه فألبسها ثوب زور يوهم رائيه ما لا حقيقة له،كمن يلبس لبوس العلماء أو الجند وليس منهم، فلا يلبث أن يظهر أمره ويفتضح سره فيكون ما تلبس به كالتراب على الصفوان يذهب به الوابل، كذلك تكشف الحوادث وما يبتلى به المؤمنون والمنافقون حقيقة هؤلاء وتفضح سرائرهم. فهم ﴿لا يقدرون على شيء مما كسبوا﴾ أي: لا ينتفعون بشيء من صدقاتهم ونفقاتهم ولا يجنون ثمراتها في الدنيا ولا في الآخرة. أما في الدنيا فلأن المن والأذى مما ينافي غاية الصدقة،ومن فعلهما كان أبغض إلى الناس من البخيل الممسك. والرياء لا يخفى على الناس فهو كما قال الشاعر:

ثوب الرياء يشف عما تحته فإذا اكتسيت به فإنك عـار

فلا تكاد تجد مناناً ولا مرائياً غير مذموم ممقوت. وأما في الآخرة فلأن المن والأذى كالرياء في منافاة الإخلاص، ولا ثواب في الآخرة إلا للمخلصين في أعمالهم الذين يتحرون بها سنن الله تعالى في تزكية نفوسهم وإصلاح حال الناس ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ أي: مضت سنته بأن الإيمان هو الذي يهدي قلب صاحبه إلى الإخلاص ووضع النفقات في مواضعها والاحتراس من الإتيان بما يذهب بفائدتها بعد وجودها، فكان الكافر بمقتضى هذه السنة محروماً من هذه الهداية التي تجمع لصاحبها بين صلاح القلب والعمل وسعادة الدنيا والآخرة.

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

٢٦٥ ـ ﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم﴾، أي: لطلب رضوان الله ولتثبيت أنفسهم وتمكينها في منازل الإيمان والإحسان حتى تكون مطمئنة في بذلها لا ينازعها فيه زلزال البخل ولا اضطراب الحرص، لإيثارها حب الخير عن أمر الله على حب المال عن هوى النفس ووسوسة الشيطان. وإنما يكون هذا التثبيت بتعويد النفس على البذل حيث يفيد البذل حتى يصير الجود لها طبعاً وخلقاً. وقد هدانا تعليل الإنفاق بهاتين العلتين إلى أن نقصد بأعمالنا أمرين أولهما: ابتغاء رضوانه لذاته تعبداً له. وثانيهما: تزكية أنفسنا وتطهيرها من الشوائب التي تعوقها عن الكمال كالبخل والمبالغة في حب

المال. على أن هذا وسيلة لذاك، وفائدة كل من الأمرين عائدة علينا، والله غني عن العالمين. فإذا صدقنا في القصدين صدق علينا هذا المثل وكنا في نفع إنفاقنا ﴿كمثل جنة بربوة﴾ أي: بستان بمكان مرتفع من الأرض قالوا: وما كان كذلك من الجنات كان عمل الشمس والهواء فيه أكمل فيكون، أحسن منظراً وأزكى ثمراً، أما الأماكن المنخفضة التي لا تصيبها الشمس في الغالب إلا قليلاً فلا تكون كذلك وقال بعضهم واختاره الإمام الرازي: إن المراد بالربوة الأرض المستوية الجيدة التربة، بحيث تربو بنزول المطر عليها وتنمو كما قال: «فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت»، الآية[1]. ويؤيده كون المثل مقابلاً لمثل الصفوان الذي لا يؤثر فيه المطر ﴿أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين﴾، أي: فكان ثمرها مثلي ما كانت تثمر في العادة أو أربعة أمثاله ـ على القول بأن ضعف الشيء مثله مرتين ـ و «الأُكُل»: كل ما يؤكل، وهو بضمتين وتسكن الكاف تخفيفاً، وبها قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿فإن لم يصبها وابل فطل﴾ أي: فالذي يصيبها طل، أو فطل يكفيها لجودة تربتها وكرم منبتها وحسن موقعها، والطل: المطر الخفيف المستدق القطر. والمعنى: أن هذه الجنة أكلها دائم وظلها، كثر ما يصيبها من المطر أو قل، فإن لم يكن ثمرها مضاعفاً لم يكن معدوماً فإذن لا يكون طالبه قط محروماً ﴿والله بما تعملون بصير﴾ أي: إنه تعالى لا يخفى عليه المخلص من المرائي تحذيراً لنا من الرياء الذي يتوهم صاحبه أنه يغش الناس بإظهاره خلاف ما يضمر. فكأنه يقول: إن الله لا يخفى عليه ما تنطوي عليه سريرتك أيها المنفق، فعليك أن تخلص له.

٢٦٦ ـ ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت﴾. «ود الشيء»: أحبه مع تمنيه، والأعناب: جمع عنب، وهو ثمر الكرم الطري، واحدته عنبة، والنخيل: جمع نخل، أو اسم جمع، وهو شجر التمر، يذكر ويؤنث، وواحدته نخلة، والقرآن، يذكر الكرم بثمره، والنخل بشجره لا بثمره، وقالوا في تعليل ذلك: إن كل شيء في النخيل نافع للناس في ارتفاقهم: ورقه وجذوعه وأليافه وعثاكيله، فمنه يتخذون

---

(١) هي الآية الخامسة من سورة «الحج».

القفف والزنانبيل والحبال والعروش والسقوف وغير ذلك. والإعصار: ريح عاصفة تستدير في الأرض ثم تنعكس عنها إلى السماء حاملة للغبار، فتكون كهيئة العمود، جمعه: أعاصر وأعاصير. والمراد بالنار: السَّموم الشديد، أو البرد الشديد روايتان عن السلف ذكرهما ابن جرير بأسانيده، وهو دليل على أن النار تطلق على كل ما يحرق الشيء ولو بتخفيف رطوبته. والاستفهام لإنكار وقوع أن يود الإنسان لو تكون له جنة معظم شجرها الكرم والنخل اللذان هما أجمل الشجر وأنفعه، كثيرة المياه حاوية لأنواع من الثمرات الكثيرة قد نيطت بها آماله، ورجا أن ينتفع بها عياله، ويصيبه الكبر الذي يقعده عن الكسب في حال كثرة ذريته وضعفهم عن أن يقوموا بشأنه وشأنهم حتى لا يبقى له ولا لهم مورد للرزق غير هذه الجنة، وبينا هو كذلك إذا بالجنة قد أصابها الإعصار، فأحرقها بما فيه من سموم النار. أما وجه التمثيل فقد خصوه بالمرائي وقالوا: إن المعنى أنه سيكون في يوم القيامة عند شدة الحاجة إلى ثواب نفقته التي راءى بها كذلك الشيخ الكبير الذي احترقت جنته التي لا معاش له سواها عندما كثر عياله الضعفاء وعجز عن العمل، فلا يملك من ثوابها شيئاً ولا يقدر أن يكسب ما يغنيه عنه. كذلك تكون عاقبة أهل الرياء وذوي المن والإيذاء، ينبذهم الناس، عند شد حاجتهم إلى الناس، ولذلك أرشدنا تعالى بعد المثل، إلى التفكر في عاقبة هذا العمل، فقال: ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾ أي: إنه تعالى يبين لكم الآيات الدالة على حقائق الأمور وغاياتها وفوائدها وغوائلها، مِثْل هذا البيان البارز في أبهى معارض التمثيل ﴿لعلكم تتفكرون﴾ في العواقب فتضعون نفقاتكم في المواضع التي يرضاها مع الإخلاص وقصد تثبيت النفس حتى لا يستخفها الطيش والإعجاب، فيدفعها إلى المن والأذى.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن

﴿يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾

ثم قال تعالى:

٢٦٧ ـ ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض﴾ فبين نوع ما ينفق ويبذل ووصفه. أما الوصف: فهو أن يكون من الطيبات، والطيب هو: الجيد المستطاب، وضده الخبيث المستكره. ولذلك قال في مقابل هذا الأمر: ﴿ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون﴾ أصل تيمموا: «تتيمموا»، ورد في سبب نزول الآية: أن بعض المسلمين كانوا يأتون بصدقتهم من حَشَف التمر وهو رديئه، رواه ابن جرير عن البراء بن عازب. وفي رواية عن الحسن «كانوا يتصدقون من رذالة مالهم» وفي أخرى عن علي رضي الله عنه: «نزلت هذه الآية في الزكاة المفروضة كان الرجل يعمد إلى التمر فيصرمه فيعزل الجيد ناحية فإذا جاء صاحب الصدقة أعطاه من الرديء» وقد أورد ابن جرير في ذلك عدة روايات. والمعنى: أنفقوا من جياد أموالكم ولا تيمموا، أي: تقصدوا الخبيث فتجعلوا صدقتكم منه خاصة دون الجيد، فهو نهي عن تعمد حصر الصدقة في الخبيث، ولا يدل على منع التصدق به من غير تعمد ولا حصر ولو أريد بالخبيث الحرام، لنهى عن الإنفاق منه ألبتة لا عن قصد التخصيص فقط. أما وقد جاءت الآية بالأمر بالإنفاق من الطيبات من غير حصر للنفقة فيها وبالنهي عن تحري الإنفاق من الخبيث خاصة دون الطيب لا عن مطلق الإنفاق من الخبيث، فلا يجوز مع هذا أن يراد بالطيبات الحلال وبالخبيث المحرم. على أن الأصل في مال المؤمنين أن يكون حلالاً وإنما خوطبوا بالإنفاق مما في أيديهم، فلو أريد بالطيبات والخبيث ما ذكر لكان الخطاب مبنياً على أن أموال المؤمنين فيها الحلال والحرام، وكان منطوق الآية أنفقوا من الحلال ولا تتحروا جعل صدقاتكم من الحرام وحده، ومفهومها جواز التصدق بالحرام أيضاً وهذا ما يأباه النظم الكريم، والشرع القويم. وأما قوله تعالى: ﴿ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه﴾ فهو حجة على من ينفق الخبيث في سبيل الله تشعر بالتوبيخ والتقريع، أي: كيف تقصدون الخبيث منه تتصدقون ولستم ترضون

بمثله لأنفسكم إلا أن تتساهلوا فيه تساهل من أغمض عينيه عنه فلم ير العيب فيه؟ ولن يرضى ذلك لنفسه أحد إلا وهو يرى أنه مغبون مغموص الحق. ﴿واعلموا أن الله غني حميد﴾ فلا يصح أن يتقرب إليه بما لا يقبله لرداءته إلا فقير اليد أو فقير النفس الذي لا يبالي أن يرضى بما ينافي الحمد كقبول الرديء الذي يدل على عدم التعظيم والاحترام.

٢٦٨ ـ ﴿الشيطان يعدكم الفقر﴾ معناه: أنه يخيل إليكم بوسوسته أن الإنفاق يذهب بالمال، ويفضي إلى سوء الحال، فلا بد من إمساكه والحرص عليه استعداداً لما يولده الزمن من الحاجات، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ويأمركم بالفحشاء﴾ فإن الأمر هنا عبارة عما تولده الوسوسة من الإغراء، و«الفحشاء»البخل وهي في الأصل كل ما فحش أي: اشتد قبحه،وكان البخل عند العرب من أفحش الفحش ﴿والله يعدكم﴾ بما أنزله من الوحي وبما أودعه في النفوس الزكية من الإلهام الصحيح، والعقل الرجيح، وفي الفطر السليمة من حب الخير، والرغبة في البر ﴿مغفرة منه وفضلاً﴾ فإنه جعل الإنفاق كفارة لكثير من الخطايا وسبباً يفضل به المرء قومه ويسودهم أو يسود فيهم بما يجذب إليه من قلوب من يكون سبباً في رزقهم ﴿والله واسع عليم﴾ إن اسم «عليم» يفيد هنا أنه سبحانه يعلم غيب العبد ومستقبله. والشيطان لا يعلم ذلك فوعده تغرير لا يعبأ به العاقل النحرير.

٢٦٩ ـ ثم قال: ﴿يؤتي الحكمة من يشاء﴾ فيبين لنا ـ بعد ذكر ما يَعِدُ هو جل شأنه به وما يَعِدُبه الشيطان ـ ما نحن في أشد الحاجة إليه للتمييز بين ما يقع في النفس من الإلهام الإلهي والوسواس الشيطاني. وتلك هي الحكمة. ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ إن الله جعل الخير الكثير مع الحكمة في قرن. فهما لا يفترقان كما لا يفترق المعلول عن علته التامة،فالحكمة هي العلم الصحيح المحرك للإرادة إلى العمل النافع الذي هو الخير. وآلة الحكمة هي العقل السليم المستقل بالحكم في مسائل العلم،فهو لا يحكم إلا بالدليل فمتى حكم جزم فأمضى وأبرم،فكل حكيم عليم عامل مصدر للخير الكثير ولذلك قال تعالى: ﴿وما يذكر إلا أولو الألباب﴾ أي: وقد جرت سنته تعالى بأنه

لا يتعظ بالعلم ويتأثر به تأثراً يبعث على العمل إلا أصحاب العقول الخالصة من الشوائب، والقلوب السليمة من المعايب.

وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾

٢٧٠ ـــ ﴿وما أنفقتم من نفقة﴾ يشتمل قليلها وكثيرها سرها وعلانيتها ما كان منها في خير، وما كان منها في شر، ما كان عن إخلاص وما كان رئاء الناس. ما اتبع منها بالمن والأذى وما لم يتبع بشيء منها وقوله: ﴿أو نذرتم من نذر﴾ يأتي فيه مِثْلُ ذلك، ويشمل ما كان نذر قربة وتبرر ونذر لجاج وغضب. فالأول: ما قصد به التزام الطاعة قربة لله تعالى بلا شرط ولا قيد لئلا يتهاون فيها، كأن ينذر نفقة معينة أو صلاة نافلة، أو بشرط حصول نعمة أو رفع نقمة. كقوله: إن شفى الله فلاناً فعليّ ـــ أو لله علي ـــ أن أتصدق بكذا أو أقف على الجمعية الخيرية كذا والثاني ما يقصد به حث النفس على شيء أو منعها عنه كقوله: إن كلمت فلاناً فعلي كذا. واتفقوا على أنه يجب الوفاء بالأول. وفي الثاني أقوال. منها أنه يجب فيه كفارة يمين بشرطه، ومنها أنه يخير بين الوفاء بما التزمه وبين كفارة يمين، ولا محل هنا لتفصيل القول فيما ورد وما قيل في النذر. وإنما نقول: إنه التزام فعل الشيء بلفظ يدل عليه كقول الناذر: «لله علي كذا أو علي لله كذا أو نذرت لله كذا» وينبغي أن يكون في طاعة لأنه لا يتقرب إليه تعالى إلا بالطاعة. فإن نذر فعل معصية حرم عليه أن يفعلها. وإن نذر مباحاً فَعَلَهُ لأن فسخ العزائم من النقص. وقوله تعالى: ﴿فإن الله يعلمه﴾ جواب الشرط، أي: فإنه تعالى يعلم ما ذكر من النفقة أو النذر، ويجازي عليه إن خيراً فخير وإن شراً فشر. فالجملة: وعد ووعيد وترغيب وترهيب، ثم أكد ما فيها من الوعيد بقوله: ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ ينصرونهم يوم الجزاء فيدفعون عنهم العذاب بجاههم أو يفتدونهم منه بمالهم، والظالمون في مقام الإنفاق: هم الذين ظلموا

أنفسهم إذ لم يزكوها ويطهروها من هذه الفحشاء البخل، أو من رذائل الرياء والمن والأذى، وظلموا الفقراء والمساكين بمنع ما أوجبه الله لهم وظلموا الملة والأمة بترك الإنفاق في المصالح العامة وبما كانوا قدوة سيئة لغيرهم، فظلمهم عام شامل.

٢٧١ ـ ﴿إن تبدوا الصدقات فنعمّا هي﴾ أي: فنعم شيئاً إبداؤها. وأصلها نعم: ما هي ﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ أي: إن إعطاءها للفقراء في الخفية والسر أفضل من الإبداء، لما في الإخفاء من البعد عن شبهة الرياء ومثاره، ومن إكرام الفقير وتحامي إظهار فقره وحاجته، وقيل: خير لكم من الخيور وليس بمعنى التفضيل ويؤيد الأول زيادة الجزاء بقوله: ﴿ويكفر عنكم من سيئاتكم﴾ أي: ويمحو عنكم بعض سيئاتكم ﴿والله بما تعملون خبير﴾ أي: لا تخفى عليه نياتكم في الإبداء والإخفاء. فإن الخبير هو العالم بدقائق الأمور.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾

٢٧٢ ـ ﴿ليس عليك هداهم﴾ أخرج ابن أبي حاتم وغيره عن ابن عباس: أن النبي ﷺ كان يأمرنا أن لا نتصدق إلا على أهل الإسلام حتى نزلت هذه الآية، وأخرج ابن جرير عنه أنه قال: «كان أناس من الأنصار لهم أنسباء وقرابة، وكانوا يتقون أن يتصدقوا عليهم ويريدونهم أن يسلموا فنزلت» والمعنى: أن هذه الوقائع تقدمت نزولها؛ فلما نزلت كانت فصلاً فيها.

إن الآية السابقة قد أطلقت إيتاء الفقراء وجعلته على عمومه الشامل

للمؤمن والكافر. وقد أرشد الله المسلمين في هذه الآية إلى عدم التحرج من الإنفاق على المشركين[1]، فإن الرحمة بالفقير وسد خلته لا ينبغي أن تتوقف على إيمانه، بل من شأن المؤمن أن يكون خيره عاماً، وأن يكون سابقاً لسائر الناس بالكرم والفضل. أقول: والخطاب على ما ورد في حديث سعيد وحديث ابن عباس الأول خاص بالنبي ﷺ لنهيه عن الإنفاق. وعلى هذا التوجيه عام موجه إلى المؤمنين كافة وإن جاء بضمير المخاطب المفرد. ويؤيده كونه في سائر الآية بضمائر جمع المخاطبين. وإذا كان النبي ﷺ لم يكلف هداية الكافرين بالفعل وإنما كلف البلاغ فقط، وأَعْلِم: أن أمر الناس في الاهتداء مفوض إلى ربهم وما وضعه لسير عقولهم وقلوبهم من السنن فغيره أولى بأن لا يكلف ذلك. فليس علينا إذن أن نمنع الخير عن الكافر فإن الهداية ليست علينا ﴿ولكن الله يهدي من يشاء﴾ بتوفيقه إلى النظر الصحيح المؤدي إلى الاعتقاد الجازم الذي يثمر العمل. وأما الباعث على الإنفاق فيجب أن يكون ما أرشدنا إليه سبحانه في قوله: ﴿وما تنفقوا من خير فلأنفسكم﴾ إلخ. قالوا :معنى هذا أن نفع الإنفاق في الآخرة خاص بكم أو أن نفعه عائد عليكم في الدنيا أيضاً لأنه يكف شر الفقراء ويدفع أذاهم. وقوله تعالى: ﴿وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله﴾ قد يكون خبراً على ظاهره، أي: لا تنفقون لأجل جاه أو مكانة عند المنفق عليه وإنما تنفقون لوجه الله، فلا فرق بين معطٍ ومعطٍ إذا كان الفقير مستحقاً يتقرب بإزالة ضرورته إلى الرزاق الرحيم الذي لم يحرم أحداً من رزقه لاعتقاده ﴿وما تنفقوا من خير يوف إليكم﴾ أي: في الآخرة لا ينقصكم منه شيء، وعد أولاً بأن خير الإنفاق عائد على المنفقين في الدنيا بقوله: «فلأنفسكم» ثم وعد بالجزاء عليه في الآخرة موفى تاماً وقال: ﴿وأنتم لا تظلمون﴾ أي: لا تنقصون من الجزاء عليه شيئاً ولو نقيراً أو فتيلاً.

٢٧٣ ــ ثم قال تعالى: ﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله﴾ بعد ما أمر الله تعالى بالإنفاق في سبيله وبإيتاء الفقراء عامة، نبه إلى أمرين:

---

(١) قوله: «من الإنفاق على المشركين»، أي: لا بأس بالإنفاق على الكافر والتصدق عليه، ولكن من غير الزكاة الواجبة، لأن الزكاة حق لمستحقيها من المسلمين كما قسمها الله سبحانه.

أحدهما: عدم التحرج من الصدقة على غير المسلم وهو ما بينته الآية السابقة، وثانيهما: بيان أحق الناس بالصدقة وهم الفقراء الذين ذكرت صفاتهم في هذه الآية، وهي خمس صفات من أفضل الصفات وأعلاها. وقد ورد أنها نزلت في أهل الصُّفَّة وهم أربع مائة أرصدوا أنفسهم لحفظ القرآن والخروج مع السرايا. ـ ولعل ما ذكره كغيره هو أكثر ما انتهى إليه عددهم، والمشهور أن متوسط عددهم كان ثلاث مائة، والذين عرفت أسماؤهم منهم لا يبلغون مائة. وهم من فقراء المهاجرين لم يكن لأكثرهم مأوى لذلك كانوا يقيمون في صفة المسجد وهي موضع مظلل منه، فالصُّفة بالضم: كالظلة لفظاً ومعنى، أولئك الذين نزلت فيهم الآية كانوا من الذين هاجروا بدينهم وتركوا أموالهم فحيل بينهم وبينها، فهم محصرون في سبيل الله بهذه الهجرة، ومحصرون بحبس أنفسهم على حفظ القرآن، وقد كان حفظه أفضل العبادات على الاطلاق لأنه حفظ للدين كله وأنتم تعرفون أنهم ما كانوا يحفظونه لأجل تلاوته أمام الجنائز، ولا في الأعراس والمآتم ولا لاستجداء الناس به ولا لمجرد التعبد بتلاوة ألفاظه، وإنما كانوا يحفظونه للفهم والاهتداء والعمل به، ولحفظ أصل الدين بحفظه. وكانوا أيضاً يحفظون ما بينه به النبي ﷺ من سنته ﴿لا يستطيعون ضرباً في الأرض﴾ أي: إنهم عاجزون عن الكسب. والضرب في الأرض هو السفر لنحو التجارة، وبذلك فسره المفسرون هنا. وهذا يؤيد كون الإحصار المانع من الكسب هو ما كان بسبب اضطراري يمنعهم من الكسب، لأن القادر على الكسب ولو بالسفر لا يحل له أن يأكل الصدقة ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾ أي: إذا رآهم الجاهل بحقيقة حالهم يظنهم أغنياء لما هم عليه من التعفف وهو: المبالغة في التنزه عن الطمع فيما في أيدي الناس وكل ما لا يليق كالقبيح والمحرم. وقد فسر أهل اللغة «التعفف» بالعفة وبالصبر والنزاهة عن الشيء، وجعله المفسرون هنا للتكلف ولكن صيغة «تَفَعُّل» تأتي لتكلف الشيء وللمبالغة فيه، والثاني أظهر هنا، لأن من يتكلف العفة قلما يخفي حاله عن رائيه. وأما المبالغ في العفة فهو الذي لا يكاد يظهر عليه أثر الحاجة فهو المتبادر هنا، والمقام مقام المدح والمبالغ في الفضيلة أحق به من متكلفها ﴿تعرفهم بسيماهم﴾ أي: بعلاماتهم الخاصة بهم. قيل: هي الخشوع والتواضع. وقيل: هي الرثاثة في الثياب

أو الحال وليسا بشيء. وقيل: بآثار الجوع والحاجة في الوجه. وهذا قريب والصواب أن هذه السيما لا تتعين بهيأة خاصة لاختلافها باختلاف الأشخاص والأحوال،وإنما تترك إلى فراسة المؤمن الذي يتحرى بالإنفاق أهل الاستحقاق ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾ أي: لا يسألون الناس شيئاً في أيديهم سؤال إلحاح، كما هو شأن الشحاذين، وأهل الكدية المعروفين، فالإلحاف: هو الإلحاح في السؤال. والمعنى: أنهم لا يسألون أحداً شيئاً لا سؤال إلحاف، ولا سؤال رفق واستعطاف، وعليه المحققون. وهذا الذي اخترناه هو ما تؤيده الأخبار. ففي حديث أبي هريرة في الصحيحين قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان ولا اللقمة واللقمتان، إنما المسكين الذي يتعفف. اقرأوا إن شئتم :لا يسألون الناس إلحافاً» وفي لفظ: «ليس المسكين الذي يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس».

والسؤال محرم في الإسلام لغير ضرورة. روى أحمد وأبو داود والترمذي وحسنة وابن ماجه من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «المسألة لا تحل إلا لثلاثة، لذي فقر مدقع، أو لذي غرم مفظع، أو لذي دم موجع» فالفقر المدقع: هو الشديد الذي يلصق صاحبه بالدقعاء، وهي الأرض التي لا نبات فيها،و«الغرم» بالضم :ما يلزم أداؤه تكلفاً لا في مقابلة عوض. ومنه ما يحمله الإنسان من النفقة لإصلاح ذات البين ولنحو ذلك من أعمال البر، كدفع مظلمة وحفظ مصلحة،فله أن يسأل الناس مساعدته على ما يحمله من المغارم. وقد اشترط في الحديث أن يكون الغرم الذي تسأل الإعانة عليه مفظعاً أي: شديداً فظيعاً. فإذا تحمل غرماً خفيفاً يسهل عليه أداؤه فليس له أن يسأل لأجله. ويختلف ذلك باختلاف حال المتحملين. وأما ذو الدم الموجع فهو الذي يتحمل الدية عن الجاني من قريب أو حميم أو نسيب لئلا يقتل فيتوجع لقتله.

وروى أبو داود والترمذي من حديث عبد الله بن عمر،والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة،وأحمد من حديثهما عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مِرَّةٍ سَوِيٍّ» وقد حسنه الترمذي ولبعضهم مقال في بعض

رجاله. وروى أحمد وأبو داود والنسائي والدارقطني عن عبيد الله بن عدي بن الخيار: أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبي ﷺ يسألانه من الصدقة، فقلب فيهما البصر ورآهما جَلْدَين فقال: «إن شئتما أعطيتكما ولا حَظَّ فيها لغني ولا لقوي مكتسب» قال أحمد في هذا الحديث هو أجودها إسناداً قاله في«المنتقى»وروي عنه أنه قال: ما أجوده من حديث.و«المِرَّة» في الحديث الأول ــ بكسر الميم ــ:القوة والسوي الخلق: السليم الأعضاء. والمراد به القادر على الكسب. وروى أحمد وأبو داود وابن حبان عن سهل بن الحنظلية عن رسول الله ﷺ قال: «من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنم» قالوا: يا رسول الله وما يغنيه؟ قال: «ما يغديه أو يعشيه» وعند أبي داود «يغديه ويعشيه» وقد احتج الإمام أحمد بهذا الحديث وصححه ابن حبان. وروى أحمد والشيخان من حديث أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره فيتصدق منه ويستغني به عن الناس خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أومنعه»وروى أحمد ومسلم وابن ماجه من حديثه أيضاً: «من سأل الناس أموالهم تكثيراً فإنما يسأل جمراً، فليستقل منه أو ليستكثر». ﴿وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾ لا يخفى عليه حسن النية فيه،وتحري النفع به،ووضعه في موضعه،وإيتاءه أحق الناس فأحقهم به، فهو يجازي عليه بحسب ذلك.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾

٢٧٤ ــ ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية﴾ وفيه بيان عموم الأوقات مع عموم الأحوال من الإظهار والإخفاء، وفي تقديم الليل على النهار والسر على العلانية إيذان بتفضيل صدقة السر، ولكن الجمع بين السر والعلانية يقتضي أن لكل منهما موضعاً تقتضيه الحال وتفضله المصلحة لا يحل غيره محله. وهؤلاء الذين ينفقون أموالهم في كل وقت وكل حال،لا يقبضون أيديهم مهما لاح لهم طريق للإنفاق هم الذين بلغوا نهاية الكمال في الجود والسخاء وطلب مرضاة الله تعالى. ومعناها عام أي: الذين ينفقون أموالهم في

كل وقت وكل حال، لا يحصرون الصدقة في الأيام الفاضلة أو رؤوس الأعوام ولا يمتنعون عن الصدقة في العلانية إذا اقتضت الحال العلانية، وإنما يجعلون لكل وقت حكمه ولكل حال حكمها إذ الأوقات والأحوال لا تقصد لذاتها وقوله: ﴿فلهم أجرهم عند ربهم﴾ يشعر بأن هذا الأجر عظيم، وفي إضافتهم إلى الرب ما فيها من التكريم، ﴿ولا خوف عليهم﴾ يوم يخاف البخلاء الممسكون من تبعة بخلهم ﴿ولا هم يحزنون﴾.

ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

٢٧٥ ـ قوله تعالى: ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي

يتخبطه الشيطان من المس﴾ تنفير من الربا وتبشيع لحال آكله. والمراد بالأكل: الأخذ لأجل التصرف، وأكثر مكاسب الناس تنفق في الأكل، ومن تصرف في شيء من مال غيره يقال: أكله وهضمه، أي: أنه تصرف فيه تمام التصرف حتى لا مطمع في رده. والربا في اللغة: الزيادة، يقال: «ربا الشيء يربو» إذا زاد على ما كان عليه، ومنه الرابية لما علا من الأرض فزاد على ما حوله. وأما قيام آكلي الربا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس فقد قال ابن عطية في تفسيره: المراد تشبيه المرابي في الدنيا بالمتخبط المصروع كما يقال لمن يصرع بحركات مختلفة: قد جن. أقول: وهذا هو المتبادر ولكن ذهب الجمهور إلى خلافه وقالوا: إن المراد بالقيام القيام من القبر عند البعث، وأن الله تعالى جعل من علامة المرابين يوم القيامة أنهم يبعثون كالمصروعين. ورووا ذلك عن ابن عباس وابن مسعود، بل روى الطبراني من حديث عوف بن مالك مرفوعاً: «إياك والذنوب التي لا تُغْفر: الغلول فمن غل شيئاً أتى به يوم القيامة، والربا فمن أكل الربا بعث يوم القيامة مجنوناً يتخبط» أقول: والمتبادر إلى جميع الأفهام ما قال ابن عطية لأنه إذا ذكر القيام انصرف إلى النهوض المعهود في الأعمال، ولا قرينة تدل على أن المراد به البعث وهذه الروايات لا يسلم منها شيء من قول في سنده، وهي لم تنزل مع القرآن ولا جاء المرفوع منها مفسراً للآية. ولولاها لما قال أحد بغير المتبادر الذي قاله ابن عطية إلا من لم يظهر له صحته في الواقع. أما ما قاله ابن عطية فهو ظاهر في نفسه فإن أولئك الذين فتنهم المال واستعبدهم، حتى ضريت نفوسهم بجمعه وجعلوه مقصوداً لذاته، وتركوا لأجل الكسب به جميع موارد الكسب الطبيعي، تخرج نفوسهم عن الاعتدال الذي عليه أكثر الناس، ويظهر ذلك في حركاتهم وتقلبهم في أعمالهم، كما تراه في حركات المولعين بأعمال البورصة والمغرمين بالقمار يزيد فيهم النشاط والانهماك في أعمالهم حتى يكون خفة تعقبها حركات غير منتظمة، وهذا هو وجه الشبه بين حركاتهم وبين تخبط الممسوس، فإن التخبط من «الخَبْط» وهو ضرب غير منتظم، وكخبط العشواء. وبهذا يمكن الجمع بين ما قاله ابن عطية وما قاله الجمهور. ذلك بأنه إذا كان ما شنع به على المرابين من خروج حركاتهم عن النظام المألوف هو أثر اضطراب نفوسهم وتغير أخلاقهم كان لا بد أن يبعثوا عليه. فإن المرء

يبعث على ما مات عليه لأنه يموت على ما عاش عليه،وهناك تظهر صفات النفس الخسيسة في أقبح مظاهرها، كما تتجلى صفات النفس الزكية في أبهى مجاليها.
قال تعالى: ﴿ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا﴾ أي: ذلك الأكل للربا مسبب عن استحلالهم له وجعله كالبيع، وما هو كالبيع، فإن البيع معاوضة بين شيئين، وأما الربا الذي كانوا يأكلونه فهو زيادة عن دينهم يزيدونها عند تأخير الأجل لا يقابلها شيء، وما يؤخذ بغير مقابل فهو من الباطل لذلك حرم الله الربا دون البيع فقال: ﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾ ولو كانا متساويين لما اختلف حكمهما عند أحكم الحاكمين، فكل ما فيه معاوضة صحيحة خالية من أكل أموال الناس بالباطل الذي لا يقابله عوض فهي بيع حلال، وإنما تحرم الزيادة التي يأخذها صاحب المال لأجل التأخير في الأجل وهي لا معاوضة فيها ولا مقابل لها فهي ظلم. وسيأتي في آية أخرى تعليل تحريم الربا بكونه ظلمًا.
هذا ما يظهر لنا في معنى هذه العبارة،وترى مفسرينا قد بنوا كلامهم فيها على تسليم كون البيع مثل الربا إذ جعلوا تحريم الربا بمعنى الأمر التعبدي وقالوا: إن معناه أن الله تعالى رد عليهم بأن أحل هذا وحرم هذا فيجب أن يطاع. ثم قال تعالى: ﴿فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف﴾ أي: فمن بلغه تحريم الله تعالى للربا ونهيه عنه فترك الربا فوراً بلا تراخ ولا تردد، انتهاء عما نهى الله عنه فله ما كان أخذه فيما سلف من الربا لا يكلف رده إلى من أخذه منهم، بل يكتفي منه بأن لا يضاعف عليهم بعد البلاغ شيئاً ﴿وأمره إلى الله﴾ يحكم فيه بعدله، ومن العدل أن لا يؤاخذ بما أكل من الربا قبل التحريم وبلوغه الموعظة من ربه، ولكن العبارة تشعر بأن إباحة أكل ما سلف رخصة للضرورة،وتومىء إلى أن رد ما أخذه من قبل النهي إلى أربابه الذين أخذ منهم من أفضل العزائم، ألم تر أنه عبر عن إباحة ما سلف باللام، ولم يقل كما قال بعد ذكر كفارة صيد المحرم: «عفا الله عما سلف»، وأنه عقب هذه الإباحة بإبهام الجزاء وجعله إلى الله، والمعهود في أسلوبه أن يصل مثل ذلك بذكر المغفرة والرحمة، كما قال في آخر آية محرمات النساء،«وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفوراً رحيمًا» أباح أكل ما سلف قبل التحريم، وأبهم جزاء آكله. لعله يغص بأكل ما في يده منه فيرده إلى صاحبه، ولكنه صرح بأشد الوعيد على من أكل شيئاً

بعد النهي فقال: ﴿ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي: ومن عاد إلى ما كان يأكل من الربا المحرم بعد تحريمه فأولئك البعداء عن الاتعاظ بموعظة ربهم الذي لا ينهاهم إلا عما يضر بهم في أفرادهم أو جميعهم، هم أهل النار الذين يلازمونها كما يلازم الصاحب صاحبه فيكونون خالدين فيها. وقد أوَّل الخلودَ المفسرون لتتفق الآية مع المقرر في العقائد والفقه من كون المعاصي لا توجب الخلود في النار. فقال أكثرهم إن المراد: ومن عاد إلى تحليل الربا واستباحته اعتقاداً.

٢٧٦ ــ ثم بين الله تعالى الفرق بين الربا والصدقة، إذ جاء الكلام عنه بعد الكلام عنها ببيان أثرهما فقال: ﴿يمحق الله الربا ويربي الصدقات﴾ فَسَّروا محق الله الربا: بإذهاب بركته وإهلاكه، أو إهلاك المال الذي يدخل فيه، وقد اشتهر هذا حتى عرفه العامة، فهم يذكرون دائمًا ما يحفظون من أخبار آكلي الربا الذين ذهبت أموالهم وخربت بيوتهم. وفي حديث ابن مسعود عند أحمد وابن ماجه والحاكم وأخرجه ابن جرير في التفسير: «إن الربا وإن كثر فعاقبته تصير إلى قل» وقال الضحاك: إن هذا المحق في الآخرة بأن يبطل ما يكون منه مما يتوقع نفعه، فلا يبقى لأهله منه شيء. وأقول: المحق في اللغة: محو الشيء والذهاب به كمحاق القمر، وكل ما لا يحسن المرء عمله: فقد محقه، فلعل المراد بمحق الربا: محو ما يطلب الناس بزيادة المال من اللذة، وبسطة العيش، والجاه والمكانة، وزيادة الربا تذهب بذلك لاشتغال المرابي غالباً عن اللذة وخفض المعيشة بولهه في ماله، ولمقت الناس إياه وكراهتهم له كما علم مما تقدم، فهو لم يحسن التصرف في التوصل إلى ثمرة المال. وأما إرباء الصدقات: فهو زيادة فائدتها وثمرتها في الدنيا، وأجرها في الآخرة ومضاعفة الله إياها، فمعنى: «يمحق الله الربا ويربي الصدقات» أن سنته قضت في عابد المال الذي لا يرحم معوزاً ولا ينظر معسراً إلا بمال يأخذه رباً بدون مقابل، أن يكون محروماً من الثمرة الشريفة للثروة وهي: كون صاحبها ناعمًا عزيزاً شريفاً عند الناس لكونه مصدراً لخيرهم والتفضل عليهم وإعانتهم على زمنهم، كما يكون محروماً في الآخرة من ثواب المال، فهو في عدم انتفاعه بماله هذا الضرب من الانتفاع كمن محق ماله وهلك. قال تعالى: ﴿والله لا يحب كل كفار أثيم﴾ قالوا:

«لا يحب»: لا يرضى و«الكَفَّار» : المستحل للربا ،و«الأثيم» : المقيم على الإثم . وأقول : إن حب الله للعبد شأن من شؤونه يعرف باستعماله العبد في إتمام حكمه في صلاح عباده،ونفي هذا الحب يعرف بضد ذلك . والكَفَّار هنا : هو المتمادي على كفر إنعام الله عليه بالمال،إذ لا ينفق منه في سبيله ولا يواسي به المحتاجين من عباده ،و«الأثيم» : هو الذي جعل المال آلة لجذب ما في أيدي الناس إلى يده فافترض إعسارهم ، لاستغلال اضطرارهم.

٢٧٧ ــ ثم قال تعالى : ﴿إن الذين آمنوا﴾ أي : صدقوا تصديق إذعان بما جاء من عند الله في هذه المسألة كغيرها ﴿وعملوا الصالحات﴾ أي : الأعمال التي تصلح بها نفوسهم وشأن من يعيش معهم، ومنها مواساة المحتاجين، والرحمة بالبائسين، وإنظار المعسرين، ﴿وأقاموا الصلاة﴾ التي تذكر المؤمن بالله تعالى، فتزيد في إيمانه وحبه لربه ومراقبته له، حتى تسهل عليه طاعته في كل شيء ﴿وآتوا الزكاة﴾ التي تزكي النفس من رذيلة البخل والحرص، وتمرنها على أعمال البر، حتى تسهل عليها، ويكون ترك أكل أموال الناس بالربا أسهل. وذكر الصلاة والزكاة بعد الأعمال الصالحة التي تشملهما، لأنهما أعظم أركان العبادة النفسية والمالية، فمن أتى بهما كاملتين سهل عليه كل عمل صالح ﴿لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ تقدم نظير هذا الجزاء قريباً[1] فلا حاجة لإعادة التذكير بمعناه. وجملة الآية : تعريض بآكل الربا، كأنه يقول:لو كان من هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات إلخ ، لكف عنه، ولكنه كفار أثيم ، وتمهيد لما بعدها وهو:

٢٧٨ ــ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا﴾. وصفهم بالإيمان وذكرهم بالتقوى ثم انتقل إلى الأمر بترك ما بقي من الربا لمن كانوا يرابون منهم عند غرمائهم ثم وصل ذلك بقوله:﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي : إن كان إيمانكم تاماً شاملاً لجميع ما جاء به محمد ﷺ من الأحكام فذروا بقايا الربا،وقد عهد في الأسلوب العربي أن يقال: إن كنت متصفاً بهذا الشيء فافعل

---

(١) قوله: «تقدم نظير هذا الجزاء قريباً» أي: في تفسير الآية «٣٨» ص ٥١ وفي آيات أخرى مثلها.

كذا ــ ويَذْكُر أمراً من شأنه أن يكون أثراً لذلك الوصف ــ ويؤخذ من هذا أن من لم يترك ما بقي من الربا بعد نهي الله تعالى عنه وتوعده عليه فلا يعد من أهل هذا الإيمان التام الشامل.

٢٧٩ ــ ﴿فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾ أي: فإن لم تتركوا ما بقي لكم من الربا كما أمرتم فاعلموا واستيقنوا بأنكم على حرب من الله ورسوله إذ نبذتم ما جاءكم به رسوله عنه. فقوله: «فأذنوا» كقوله: «فاعلموا» وزناً ومعنى، وحرب الله لهم بغضبه وانتقامه. ونحن إن لم نر أثر هذا في الماضين، فإننا نراه في الحاضرين ممن أصبحوا بعد الغني يتكففون، ومن باتوا والمسألة الاجتماعية ــ مناصبة العمال لأرباب الأموال ــ تهددهم بالويل والثبور. وأما الحرب من رسوله لهم فهي مقاومتهم بالفعل في زمنه، واعتبارهم أعداء له في هذا الزمن الذي لا يخلفه فيه أحد يقيم شرعه ﴿وإن تبتم﴾ ورجعتم عن الربا امتثالاً وخضوعاً ﴿فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون﴾ غرماءكم بأخذ الزيادة ﴿ولا تظلمون﴾ بنقص شيء من رأس المال، بل تأخذونه كاملاً.

٢٨٠ ــ ﴿وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة﴾ أي: وإن وجد غريم معسر من غرمائكم فأنظروه وأمهلوه إلى وقت يسار يتمكن فيه من الأداء ﴿وأن تصدقوا خير لكم﴾ أصل: «تصدقوا» «تتصدقوا»، أي: وتصدقكم على المعسر بوضع الدين عنه وإبرائه منه خير لكم من إنظاره، فهو ندب إلى الصدقة والسماح للمدين المعسر، لما فيه من التعاطف والتراحم بين الناس وبر بعضهم ببعض، وذلك من أعظم أسباب هناء المعيشة وحسن حال الأمة ولذلك نبه إلى العلم بذلك فقال: ﴿إن كنتم تعلمون﴾ لأن من لا يعلم وجه الخيرية في شيء لا يعمله ومن علم عمل حتماً، أي: إن كنتم تعلمون أنه خير لكم عملتم به وعاملتم إخوانكم بالمسامحة، فعليكم بالعلم الذي يهديكم إلى خير العمل الذي يقرب بعضكم من بعض ويجعلكم متحابين متوادين. ثم ختم جل ثناؤه آيات الربا بهذه الموعظة العامة التي تسهل على المؤمن إذا وعاها السماح بالمال، بل وبالنفس رجاء أن يلقى الله تعالى على أحسن حال من الفضل والكمال فقال:

٢٨١ ــ ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله﴾ أي: إن أنفع دواء لمرض انصراف النفس عن التفكر في سلطان الله وقدرته، والتقرب إليه بما فيه تمام حكمته، التذكير بيوم القيامة الذي تبطل فيه هذه الشواغل، وتتلاشى هذه الصوارف؛ حتى لا يشغل الإنسان فيه شيء ما عن الله تعالى وما أعده من الجزاء للعباد على قدر أعمالهم. ولذلك قال بعد التذكير بالرجوع إليه ﴿ثم توفى كل نفس ما كسبت﴾ أي: تجازى على ما عملت في الدنيا جزاء وافياً: ﴿وهم لا يظلمون﴾ أي: لا ينقصون من أجورهم شيئاً، بل قد يزاد المحسنون منهم فيعطون أكثر مما يستحقون على إحسانهم كما ثبت في آيات أخرى، أخرج البخاري عن ابن عباس: أن آخر آية نزلت آية الربا. وأخرج البيهقي عن عمر مثله. وعند أحمد وابن ماجه عن عمر: من آخر ما نزل آية الربا، وعند ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: خطبنا عمر فقال: إن من آخر القرآن نزولاً آية الربا. وأخرج النسائي من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: آخر شيء نزل من القرآن «واتقوا يوماً ترجعون فيه»، الآية. وقيل غير ما ذكر في آخر القرآن نزولاً.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا

وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ * وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾

٢٨٢ ـ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه﴾ تداينتم: داين بعضكم بعضاً، وهو يأتي بمعنى تعاملتم بالدين، وبمعنى تجازيتم، ولما قال: «بدين» تعين المعنى بالنص القطعي، والمراد بالدين: المال الذي يكون في الذمة لا المصدر. وقد حمل المداينة بعضهم على السَّلَف ـ السَّلَم ـ وروي عن ابن عباس فقد أخرج البخاري وغيره عنه أنه قال: أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى أن الله قد أحله وقرأ هذه الآية، وحمله بعضهم على القرض وضعفه الرازي بأن القرض لا يمكن أن يشترط فيه الأجل وما في الآية قد اشترط فيه الأجل. وقوله هذا هو الضعيف، وقال الجمهور: إن الدين عام يشمل القرض والسلم وبيع الأعيان إلى أجل وهو الصواب. والأجل: الوقت المضروب لانتهاء شيء والمسمى المعين بالتسمية كشهر وسنة مثلاً. بعد أن أمر بالكتابة إجمالاً بين كيفيتها ومن يتولاها فقال: ﴿وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾ أي: ليكن فيكم كاتب للديون عادل في كتابته، يساوي بين المتعاملين لا يميل إلى أحدهما فيجعل له من الحق ما ليس له ولا يميل عن الآخر فيبخسه من حقه شيئاً. وقوله تعالى: «فاكتبوه» أمر عام للمتعاملين، وفيهم الأمي الذي لا يكتب، ولذلك احتيج إلى هذه الجملة: وقد ذكروا أن العدل في الكاتب يستلزم العلم بشروط المعاملات التي تحفظ الحقوق، لأن الكاتب الجاهل قد يترك بعض الشروط، أو يزيد فيها، أو يبهم في الكتابة بجهله، فيلتبس بذلك الحق بالباطل ويضيع حق أحد المتعاملين كما يضيع بتعمد الترك أو الزيادة أو الإبهام إذا لم يكن عادلاً، وقد يغني عن أخذ ذلك بطريق اللزوم قوله: ﴿ولا يأب كاتب أن يكتب كما

علمه الله﴾ فإن تعليم الله إياه ليس خاصاً بصناعة الكتابة، بل هو يعم ما وفقه له من علم الأحكام والفقه فيها. فالكتابة لا تكون ضماناً تاماً إلا إذا كان الكاتب عالماً بما يجب علمه في ذلك من الأحكام الشرعية والشروط المرعية والاصطلاحات العرفية، وكان عادلاً مستقيًما لا غرض له إلا بيان الحق كما هو من غير محاباة ولا مراعاة. وإنما قدم صفة العدالة على صفة العلم بذلك لأن من كان عدلاً يسهل عليه أن يتعلم ما ينبغي لكتابة الوثائق لأن العدالة تهديه إلى ذلك،ومن كان عالماً غير عدل فإن العلم بذلك لا يهديه إلى العدالة. وقلما يقع فساد من عدل ناقص العلم، وإنما أكثر الفساد من العلماء الفاقدين لملكة العدالة. وفي قوله: «ولا يأب كاتب» إلخ دليل على أن العالم بما فيه مصلحة الناس يجب عليه إذا دعي إلى القيام بها أن يجيب الدعوة،ولذلك لم يكتف بالنهي عن الاباء عن الكتابة، بل أمر بها أمراً صريحاً فقال: ﴿فليكتب﴾ وهذا ظاهر لا سيما على قول من قال من أهل الأصول: إن النهي عن الشيء ليس أمراً بضده ﴿وليملل الذي عليه الحق﴾ أي: وليلق على الكاتب ما يكتبه مَنْ عليه الحق من المتعاملين، ليكون إملاله حجة عليه تبينها الكتابة وتحفظها. والإملال والإملاء واحد، يقال: أمل على الكاتب وأملي عليه إذا ألقي عليه ما يكتبه والأصل فيه اللام ﴿وليتق الله ربه﴾ في إملاله بأن يتبين الحق الذي عليه كاملاً ﴿ولا يبخس منه شيئاً﴾ أي: لا ينقص منه شيئاً ما، وإن قَلَّ ﴿فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل﴾ ذكر الذي عليه الحق مظهراً في موضع الإضمار لزيادة الكشف والبيان كما قالوا، وفسر السفيه: بضعيف الرأي، أي: من لا يحسن التصرف في المال لضعف عقله وقيل: هو العاجز الأحمق، وقيل: الجاهل بالإملال، وقال الإمام الشافعي: هو المبذر لماله المفسد لدينه وهو بمعنى الأول. والضعيف: الصبي والشيخ الهرم. ومن لا يستطيع الإملال: هو الجاهل والألكن والأخرس. وولي الإنسان: من يتولى أموره ويقوم بها عنه،وقد اكتفي في أمر الولي بالعدل كالكاتب، ولم يؤمر وليه بمثل ما أمر ونهي به مَنْ عليه الحق، لأن من يبيع دينه بدنيا غيره قليل بالنسبة إلى من يبيع دينه بدنيا نفسه ﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم﴾ أي: اطلبوا أن يشهد على ذلك رجلان ممن حضر ذلك منكم أو أشهدوهما على

ذلك. فالشهيد: من شهد الشيء وحضره بإمعان كما يؤخذ من صيغة المبالغة، واستشهده سأله أن يشهد أي: أن يكون شاهداً بذلك عند الحاجة إليه. ويطلق الشهيد على الأمين في الشهادة كما في القاموس،ولعل الوصف منتزع من صيغة المبالغة ولكن حمل هذا التفسير على «الشهيد» اسمًا لله تعالى ولا دليل على التخصيص. والسياق يدل مع الصيغة على أن وصف الكمال معتبر فيمن يستشهد كما اعتبر مثله في الكاتب والولي ﴿فإن لم يكونا﴾ أي: من تستشهدونهما ﴿رجلين﴾ وجعل المفسرون الضمير للشاهدين بحسب الإرادة والقصد ﴿فرجل وامرأتان﴾ يستشهدان أو فليستشهد رجل وامرأتان. وتقديرنا أولى من تقدير الجمهور الإشهاد، وإنما وافقوا اصطلاح الفقهاء واتبعنا نظم القرآن ﴿ممن ترضون من الشهداء﴾ قالوا: أي ممن ترضون دينهم وعدالتهم حال كونهم من الشهداء، وإنما وصف الرجل مع المرأتين بهذا الوصف لضعف شهادة النساء وقلة ثقة الناس بها، ولذلك وكل الأمر فيه إلى رضى المستشهدين، ثم بين علة جعل المرأتين بمنزلة رجل واحد بقوله عز وجل: ﴿أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى﴾ أي: حذر أن تضل إحداهما، أي: تخطىء لعدم ضبطها وقلة عنايتها، فتذكر كل منهما الأخرى بما كان فتكون شهادتها متممة لشهادتها. أي: إن كلًا منهما عرضة للخطأ والضلال، أي: الضياع وعدم الاهتداء إلى ما كان وقع بالضبط، فاحتيج إلى إقامة الثنتين مقام الرجل الواحد لأنهما بتذكير كل منهما للأخرى تقومان مقام الرجل. وليس المعنى: لئلا تنسى واحدة فتذكرها الثانية كما فهم كثير من المفسرين.

إن الله تعالى جعل شهادة المرأتين شهادة واحدة فإذا تركت إحداهما شيئاً من الشهادة كأن نسيته أو ضل عنها تذكرها الأخرى وتتم شهادتها، وللقاضي بل عليه أن يسأل إحداهما بحضور الأخرى ويعتد بجزء الشهادة من إحداهما وبباقيها من الأخرى. وهذا هو الواجب وإن كان القضاة لا يعملون به جهلاً منهم ــ وأما الرجال فلا يجوز له أن يعاملهم بذلك، بل عليه أن يفرق بينهم فإن قصر أحد الشاهدين أو نسي فليس للآخر أن يذكره، وإذا ترك شيئاً تكون الشهادة باطلة،يعني: إذا ترك شيئاً مما يبين الحق فكانت شهادته وحده غير كافية لبيانه فإنها لا يعتد بها ولا بشهادة الآخر وحدها وإن بَيَّنت ﴿ولا يأب الشهداء إذا

ما دعوا﴾ إلى تحمل الشهادة. وظاهر النهي أن الامتناع عن الشهادة تحملاً وأداء محرم، وأن الإجابة واجبة. وقد صرح من قال بذلك بأنه فرض كفاية لا يجب على من دعي إليه إلا إذا لم يوجد غيره يقوم به ﴿ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله﴾ أي: لا تملوا أو تضجروا أو لا تكسلوا من كتابة الدين أو الحق، سواء كان صغيراً أو كبيراً، مبيناً ثبوته في الذمة إلى أجله المسمى. وهذا دليل على أن الكتابة يعمل بها، وأنها من الأدلة التي تعتبر عند استيفاء شرطها. ثم قال تعالى: ﴿ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهـادة وأدنى أن لا ترتابوا﴾ الخطاب للمؤمنين، والإشارة إلى جميع ما ذكر من الأحكام لا لواحد منها. ومعنى كونه أقسط عند الله: أنه أعدل في حكمه أي: أحرى بإقامة العدل بين المتعاملين. ومعنى كونه أقوم للشهادة: أنه أعون على إقامتها،وفي هذا دليل على أن للشاهد أن يطلب وثيقة العقد المكتوب ليتذكر ما كان على وجهه. وقوله: «وأدنى أن لا ترتابوا» معناه: وأقرب إلى انتفاء ارتياب بعضكم ببعض فإن هذا الاحتياط في كتابة الحقوق والإشهاد عليها وتقوى الله والعدل من المتعاملين والكتاب والشهداء، يمنع كل ريبة وكل ما يترتب على الارتياب من المفاسد والعداوات والمخاصمات ﴿إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح أن لا تكتبوها﴾ الاستثناء من الكتابة وهو المختار، وقيل: الإشهاد. وقيل: هما. والمعنى: أن ذلك مطلوب واجب إلا أن تكون المعاملة تجارة حاضرة،أو إلا أن توجد تجارة حاضرة تدار بين المتعاملين بالتعاطي، بأن يأخذ المشتري المبيع والبائع الثمن فلا حرج في ترك كتابتها ولا إثم، إذ لا يترتب عليه شيء من الارتياب الذي يَجُرُّ إلى التنازع والتخاصم وما وراء ذلك من المفاسد. أقول: وفي نفي الجناح إشارة إلى أن كتابة ذلك أولى وهو إرشاد إلى استحباب ضبط الإنسان لماله وإحصائه لما يرد عليه وما يصدر عنه. وذلك من الكمال المدني ومن أسباب ارتقاء أمور الكسب،ولم يجعل هذا حتمًا لأنه مما يشق على غير المرتقين في المدنية ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾ قيل: معناه هذا التبايع المذكور هنا وهو التجارة الحاضرة وقيل: مطلقاً. والمختار الأول، لأن البيع بالكالىء[1] يستلزم الدين وهو الذي أمر بكتابته والإستشهاد عليه،والإشهاد لازم

(١) قوله: «بالكالىء» أي: بالنسيئة، أي: البيع بثمن مؤجل الدفع.

لما يحصل من المجاحدين في بعض العقود الحاضرة بعد موت الشهود، لأنها مما يطول زمنها لا سيما إذا كان الأجل بعيداً. فلهذا وجبت كتابتها وشرع الاحتجاج عليها بالكتابة ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾ لفظ «يضار» يحتمل البناء للفاعل وللمفعول، والمعنى على الأول: نهي الكاتب والشهيد أن يضرا أحد المتعاملين بعدم الإجابة أو بالتحريف والتغيير ونحو ذلك. ومعنى الثاني: نهي المتعاملين عن ضر الكاتب أو الشهيد بأن يدعيا إلى ذلك وهما مشغولان بمهم لهما فيكلفان تركه. وروى ابن جرير ما يؤيد هذا وهو: أن الرجل كان يجيء الكاتب فيقول، اكتب لي، فيعتذر بعذره ويدل على غيره، فلا يقبل منه، ويقال له: إنك قد أمرت أن تكتب فيلزم بذلك ويضار فنزلت ﴿وإن تفعلوا﴾ ما نهيتم عنه من إضرار الكاتب والشهيد ﴿فإنه فسوق بكم﴾ أي: فإن هذا الفعل خروج بكم عن حدود طاعة الله تعالى إلى معصيته. ثم ختم الآية بالموعظة العامة التي تعين النفس على الامتثال في جميع الأعمال وذلك قوله عز وجل: ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم﴾ أي: اتقوا الله في جميع ما أمركم به ونهاكم عنه وهو يعلمكم ما فيه قيام مصالحكم وحفظ أموالكم وتقوية رابطتكم، فإنكم لولا هدايته لا تعلمون ذلك. فهو سبحانه العليم بكل شيء فإذا شرع شيئاً فإنما يشرعه عن علم محيط بأسباب درء المفاسد وجلب المصالح لمن تبع شرعه.

٢٨٣ ـ ﴿وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة﴾ ليس تعليق مشروعية أخذ الرهن بالسفر وعدم وجود كاتب يكتب وثيقة بالدين لاشتراطهما معاً، وإنما المراد بيان الرخصة في ترك الكتابة لعذر، وكون الرهن يقوم مقام الكتابة في الاستيثاق عند عدم تيسرها، كما يكون في حال السفر، وإلا فَقَدْ رهن النبي ﷺ درعه في المدينة ليهودي رواه الشيخان وفي جعل عدم وجدان الكاتب مقيداً بحال السفر إشارة إلى أنه ليس من شأن مواطن الإقامة أن تكون خلواً من الكتاب، والكتابة مفروضة على المؤمنين والإيمان لا يتحقق إلا بالإذعان والعمل، وناهيك بالفريضة إذا أكدت كالكتابة حينئذ يقطع بأن المؤمنين لا بد أن يأتوها، بل لا يفرض أن يخالفوها، وأن لا يوجد الكتاب عندهم إلا حيث يمكن أن يكونوا معذورين كما يكون في السفر، وهذا مفهوم من العبارة

بالإشارة وهو من أدق أساليب البلاغة ﴿فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي ائتمن أمانته وليتق الله ربه﴾ المعنى: إن اتفق أن أحداً منكم ائتمن آخر على شيء فعلى المؤتمن أن يؤدي الأمانة إلى من ائتمنه وليتق الله ربه،فلا يتخون من الأمانة شيئاً لأنه لا حجة عليه بها ولا شهيد،فإن الله ربه خير الشاهدين فهو أولى بأن يتقى ويطاع ﴿ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾ النهي عن كتمان الشهادة بعد النهي عن إباء تحملها على أحد الوجوه في قوله: «ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا» تأكيد كتأكيد أمر الكاتب بأن يكتب بعد نهيه عن الإباء، فقد أمر الله الكتاب والشهود بأن يعينوا الناس على حفظ أموالهم،وحرم عليهم أن يقصروا في ذلك،كما حرم على أرباب الأموال أن يضاروهم، فلا بد من الجمع بين مصلحة الجميع،ولما كان الذي يدرك الوقائع التي شهد بها ويعيها هو القلب وهو لب الإنسان وآلة عقله وشعوره، كان كتمان الشهادة عبارة عن حبس ذلك فيه ولذلك جعله هو الآثم أي: هو موضوع الإثم في هذا الكتمان وحده وإلا فهو مصدر كل إثم. وهذا يدفع ما يزعمه الجاهلون من أن الإثم لا يكون إلا بعمل الجوارح وحركات الأعضاء الظاهرة. وما قال تعالى: «إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً» إلا لأن للفؤاد أي: القلب أو النفس أعمالاً خاصة به وأعمالاً يزعج الجوارح إليها، فأضيف إليه ما هو خاص به وأسند الباقي إلى مظهره من السمع والبصر في هذه الآية، ومن الأيدي والأرجل في نصوص أخرى. ومن آثام القلب: سوء القصد وفساد النية، وهي شر الذنوب والآثام.﴿والله بما تعملون عليم﴾ فيجازيكم به.

لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾

٢٨٤ ــ ﴿لله ما في السماوات وما في الأرض﴾ الآية متصلة بقوله تعالى: «ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم». ويصح أن تكون

متممة لها لأن مقتضى كونه عليمًا بكل شيء أن له كل شيء، فهذا كالدليل على كونه عالماً بكل شيء، أي: أنه عليم به. لأنه له وهو خالقه فهو كقوله: «ألا يعلم من خلق» وبهذا الاستدلال يتقرر النهي عن كتم الشهادة وكونه إثمًا يعاقب عليه وأكده بقوله: ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ لدخول كتمان الشهادة في عموم ما في النفس، ويصح أن تكون الآية متصلة بآية الدين من أولها لأنه شرع لنا أحكاماً تتعلق بالدين كالكتابة والشهادة فكأنه يقول:إن تساهلتم في هذه الأحكام وأضعتم الحقوق فتظاهرتم بالأمانة مع انطواء النفس على الخيانة وغالطتم الناس وأكلتم أموالهم بذلك أو أضعتموها بكتمان الشهادة ونحو ذلك،فإن الله يحاسبكم ويعاقبكم على ذلك لأنه له ما في السماوات وما في الأرض،ومنها أنتم وأعمالكم النفسية أو البدنية أقول: وجعلها بعضهم متعلقة بأحكام السورة كلها. والمراد بقوله: «ما في أنفسكم» الأشياء الثابتة في أنفسكم وتصدر عنها أعمالكم كالحقد والحسد وألفة المنكرات التي يترتب عليها ترك النهي عن المنكر،فإن السكوت عن النهي أمر كبير يحل الله عقوبته في الأمة بسببه،وليس هو مجرد اتفاق السكوت وإنما هو باعتبار سببه في النفس وهو ألفة المنكر والأنس به،وللإنسان عمل اختياري في نفسه هو الذي يحاسب عليه.

وذهب الجمهور إلى أن الآية منسوخة بما بعدها. أخرج أحمد ومسلم وأبو داود في ناسخه وغيرهم عن أبي هريرة قال: «لما نزلت على رسول الله ﷺ: «لله ما في السماوات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله» اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ ثم جثوا على الركب فقالوا:يا رسول الله كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة. وقد أنزل الله هذه الآية ولا نطيقها. فقال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا:سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» فلما اقترأها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله في أثرها: «آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون» الآية. فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى فأنزل: «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها» إلى آخرها. وأخرج أحمد ومسلم والترمذي والنسائي من حديث ابن عباس نحوه. وأخرج البخاري والبيهقي عن مروان الأصفر عن رجل من الصحابة أحسبه ابن عمر في:

«وإن تبدوا ما في أنفسكم» الآية قال: نسخها ما بعدها. واحتجوا للنسخ بحديث أبي هريرة في الصحيحين والسنن: «إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل به». وأقول: ليس في هذه الروايات[1] أن النبي ﷺ صرح بأن الآية منسوخة وإنما قصارها أن بعض الصحابة فهم أنها نسخت والروايات عنهم في ذلك مختلفة.

أما إبداء ما في النفس فهو إظهاره بالقول أو بالفعل، وأما إخفاؤه فهو ضده، والإبداء والإخفاء سيان عند الله تعالى لأنه «يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور»، فالمدار في مرضاته على تزكية النفس وطهارة السريرة لا على لوك اللسان وحركات الأبدان. وأما المحاسبة فهي على ظاهرها وإن فسرها بعض بالعلم وبعض بالجزاء الذي هو غبها ولازمها، ذلك أن للنفوس في اعتقاداتها وملكاتها وعزائمها وإرادتها موازين يعرف بها يوم الدين رجحان الحق والخير أو الباطل والشر، هي أدق مما وضع البشر من موازين الأعيان وموازين الأعراض كالحر والبرد ﴿فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾ أي: بما لَهُ من الملك المطلق يغفر لمن يشاء أن يغفر له ويعذب من يشاء عذابه. والأصل في العدل أن يكون الجزاء السيء على قدر الإساءة وتأثيرها في تدسية نفوس المسيئين، والجزاء الحسن على قدر الإحسان وتأثيره في أرواح المحسنين، ولكنه تعالى برحمته وفضله يضاعف جزاء الحسنة عشرة أضعاف ويزيد من يشاء ولا يضاعف السيئة ﴿والله على كل شيء قدير﴾ أي: فهو بقدرته ينفذ ما تعلقت به مشيئته.

---

(١) قوله: «ليس في الروايات إلخ» حاصله: أن في الآية قولين أحدهما: أنها غير منسوخة وهو قول الحسن البصري وآخرين واختاره الطبري واحتج على ذلك بأنه لا يلزم من المحاسبة المعاقبة، وأنه تعالى قد يحاسب ويغفر وقد يحاسب ويعاقب. والقول الثاني: أنها منسوخة وهو ما تؤيده الأحاديث التي ذكرها المؤلف، وهذا القول مبني على أن معنى: ﴿ما في أنفسكم﴾ يشمل الخطرات والوسوسة التي لا يملك الإنسان دفعها فهذه هي التي نُسخت المحاسبة بها. أما إذا كان المراد بما في الأنفس ما عزم عليه الإنسان من الأعمال ولم يعمله فالآية لا تشمله على هذا القول.

ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

٢٨٥ ـ ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون﴾ أي: صدق الرسول بما أنزل إليه في هذه السورة وغيرها، من العقائد والأحكام، والسنن والبينات والهدى، تصديق إذعان واطمئنان، وكذلك المؤمنون من أصحابه، عليهم الرضوان، وقد شهد لهم بهذا الإيمان أثره في نفوسهم الزكية وهممهم العلية، وأعمالهم المرضية من الله وموحى إليه، وكانوا من قبل متفقين على أنه ادعى الوحي لأنه رآه أقرب الطرق لنشر حكمته والإقناع بفلسفته أو لنيل السلطة وهو غير معتقد به ﴿كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾ أي: كل منهم آمن بوجود الله ووحدانيته وتنزيهه وكمال صفاته وحكمته وسننه في خلقه، وبوجود الملائكة الذين منهم السفراء بين الله وبين الرسل من البشر ينزلون بالوحي على قلوب الأنبياء. والمراد بالإيمان بالكتب والرسل: جنسها، أي: يؤمنون بذلك إيماناً إجمالياً فيما أجمله القرآن وتفصيلياً فيما فصله، لا يزيدون على ذلك شيئاً، ويقولون: ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾. وذكر المقول مع حذف القول كثير في الكلام البليغ، وله مواضع في الكتاب لا يقف الفهم في شيء منها. والمعنى: أن من شأن المؤمنين أن يقولوا هذا معتقدين أنهم في الرسالة والتشريع سواء، كثر قوم الرسول منهم أم قلوا وكثرت الأحكام المنزلة عليه أم قلت، وتقدمت البعثة أم تأخرت. ﴿وقالوا سمعنا وأطعنا﴾ أي: بلغنا فسمعنا

القول سماع وعي وفهم، وأطعنا ما أمرنا بـه فيه إطـاعة إذعـان وانقياد. ﴿غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ أي: يسألونه تعالى أن يغفر لهم ما عساه يطرأ على أنفسهم فيعوقها عن الرقي في معارج الكمال الذي دعاها إليه الإيمان. والغفران كالمغفرة: الستر، وستر الذنب يكون بعدم الفضيحة عليه في الدنيا وترك الجزاء عليه في الآخرة. وإنما تطلب هذه بالتوبة واتباع السيئة الحسنة مع الدعاء الذي يزيد في الإيمان، وبذلك يمحى أثر الذنوب من النفس في الدنيا فيرجى أن تصير إليه تعالى في الآخرة نقية زكية. لأن هذا المصير إليه وحده هو الذي يكون وراءه الجزاء بحسب درجات النفوس في معارج الكمال.

٢٨٦ ـ ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ ولا يحاسبها إلا على ما كلفها، والتكليف: هو الإلزام بما فيه كلفة،و«الوُسْع»: ما تسعه قدرة الإنسان من غير حرج ولا عسر، وقال بعضهم: هو ما يسهل عليه من الأمور المقدور عليها، وهو ما دون مدى طاقته، والمعنى: أن شأنه تعالى وسنته في شرع الدين أن لا يكلف عباده ما لا يطيقون. ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ قيل: إن الكسب والاكتساب واحد في اللغة نُقِلَ عن الواحدي. وقيل: إن الاكتساب أخص، واختلفوا في توجيهه قال الزمخشري: إن الفرق بينهما كالفرق بين «عمل واعتمل»، فكلٌ من «اكتسب واعتمل» يفيد الاختراع والتكلف، فالآية تشير أو تدل على أن فطرة الإنسان مجبولة على الخير، وأنه يتعود الشر بالتكلف والتأسي. والمعنى: أن لها ثواب ما كسبت من الخير وعليها عقاب ما اكتسبت من الشر. ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ فتركنا ما ينبغي فعله أو فعلنا ما يجب تركه، أو جئنا بالشيء على غير وجهه. والمؤاخذة: المعاقبة، وهي من الأخذ لأن من يراد عقابه يؤخذ بيد القهر،ومن الناس من قال: إن الخطأ والنسيان لا مؤاخذة عليهما لأن الناسي والمخطىء لا إرادة لهما فيما فعلاه نسياناً أو خطأ ومثل هذا الكلام يوجد في كتب الأصول ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً﴾ «الإصر»: العبء الثقيل يأصر صاحبه، أي: يحبسه مكانه لا يستقل به لثقله، وحمله أكثر المفسرين على التكاليف الشاقة لأن الآية نزلت في زمن التشريع ونزول الوحي ولذلك قال: ﴿كما حملته على الذين من قبلنا﴾ أي: من الأمم التي بعث فيها الرسل كبني إسرائيل فقد كانت التكاليف شاقة عليهم جداً. وفي

تعليمنا هذا الدعاء بشارة بأنه تعالى لا يكلفنا ما يشق علينا كما صرح بذلك بعد في قوله: «ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج»، وهو يتضمن الامتنان علينا وإعلامنا بأنه كان يجوز أن يحمل علينا الإصر وأنه يجب علينا شكره لذلك، وحكمة الدعاء بذلك الآن استشعار النعمة والشكر عليها. ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾ من العقوبة، أو من البلايا والفتن والمحن، ﴿واعف عنا﴾ بمحو أثر ما عسانا نُلِمُّ به من أنفسنا وعدم العقوبة عليه ﴿واغفر لنا﴾ أي: لا تفضحنا بإظهاره بذاته، ولا بالمؤاخذة عليه ﴿وارحمنا﴾ في كل حال بما توفقنا له من إقامة دينك والسير على سننك التي جعلتها بحكمتك طرقاً للسعادة ﴿أنت مولانا﴾ الذي منحتنا أنواع الهداية، وأيدتنا بالتوفيق والعناية، فلا نعبد إلا إياك، ولا نستعين بسواك، ﴿فانصرنا على القوم الكافرين﴾ الذين اتخذوا من دونك أولياء، وجهلوا سننك في أنفسهم وفي سائر الأشياء، فأعرضوا عما مددت لهم من الأسباب، وجعلوا الملائكة والنبيين ومن دونهم من الأرباب، والذين حجبتهم سننك الكونية، عن الإيمان بالألوهية والربوبية، أنصرنا على الجاحدين والمرتابين منهم بالحجة والبرهان، وعلى المعتدين بالسيف والسنان، وغير ذلك من أسباب حماية الحق التي تختلف باختلاف الزمان.

* * *

سورة آل عمران

(مدنية وآياتها مائتان)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾

١ ــ قوله تعالى: ﴿ألم﴾ هو اسم السورة على المختار، كما تقدم في أول سورة البقرة يقال: قرأت «ألم البقرة» و «ألم آل عمران» و «ألم السجدة».

٢ ــ ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ تقرير لحقيقة التوحيد الذي هو أعظم قواعد الدين.

٣ ــ ﴿نزل عليك الكتاب بالحق﴾ أي: أوحى إليك هذا القرآن بالتدريج متصفاً بالحق متلبساً به. وإنما عبر عن الوحي بالتنزيل وبالإنزال كما في آيات أخرى للاشعار بعلو مرتبة الموحي على الموحى إليه،ويصح التعبير بالإنزال

عن كل عطاء منه تعالى كما قال: «وأنزلنا الحديد» وأما التدريج: فقد استفيد من صيغة التنزيل وكذلك كان، فقد نزل القرآن نجوماً متفرقة بحسب الأحوال والوقائع. ومعنى تنزيله بالحق: أن فيه ما يحقق أنه من عند الله تعالى فلا يحتاج إلى دليل من غيره على حقيقته، أو معناه: أن كل ما جاء به من العقائد والأخبار والأحكام والحكم حق وقد يوصف الحكم بكونه حقاً في نفسه إذا كانت المصلحة والفائدة تتحقق به، وفي أشهر التفاسير أن المراد «بالحق»: العدل أو الصدق في الأخبار، أو الحجج الدالة على كونه من عند الله، وما قلناه أعم وأوضح ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ أي: مبيناً صدق ما تقدمه من الكتب المنزلة على الأنبياء، أي: كونها وحياً من الله تعالى وذلك أنه أثبت الوحي وذكر أنه تعالى أرسل رسلاً أوحى إليهم.

فهذا تصديق إجمالي لأصل الوحي لا يتضمن تصديق ما عند الأمم التي تنتمي إلى أولئك الأنبياء من الكتب بأعيانها ومسائلها. ﴿وأنزل التوراة والإنجيل﴾.

٤ ـ ﴿من قبل هدى للناس﴾ التوراة: كلمة عبرانية معناها المراد: الشريعة أو الناموس. والتوراة: هي ما أنزله الله تعالى من الوحي على موسى، عليه الصلاة والسلام، ليبلغه قومه لعلهم يهتدون به، وقد بينٍّ تعالى أن قومه لم يحفظوه كله إذ قال في سورة المائدة: «ونسوا حظاً مما ذكروا به» كما أخبر عنهم في آيات أنهم حرفوا الكلم عن مواضعه وذلك فيما حفظوه واعتقدوه ﴿وأنزل الفرقان﴾ أقول: «الفرقان» مصدر كالغفران، وهو هنا ما يفرق ويفصل به بين الحق والباطل، قال بعضهم: المراد به القرآن وهو مردود بقوله في أول الآية: «نزل عليك الكتاب» وقال غيرهم: هو كل ما يفرق به بين الحق والباطل في كل أمر كالدلائل والبراهين واختاره ابن جرير ﴿إن الذين كفروا بآيات الله﴾ التي أنزلها لهداية عباده وإرشادهم إلى طرق السعادة في المعاش والمعاد ﴿لهم عذاب شديد﴾ بما يلقي الكفر في عقولهم من الخرافات والأباطيل التي تطفىء نورها، وما يجرهم إليه من المعاصي والمفاسد التي تدسي نفوسهم وتدنسها، حتى تكون ظلمة عقولهم وفساد نفوسهم منشأ عذابهم الشديد في تلك الدار الآخرة التي تغلب فيها الحياة الروحية العقلية على الحياة البدنية

المادية فلا يكون لهم شاغل ولا مُسَلٍّ من المادة عما فاتهم من النعيم وما أصابهم من الجحيم ﴿والله عزيز ذو انتقام﴾ فهو بعزته ينفذ سننه فينتقم ممن خالفها بسلطانه الذي لا يعارض. والانتقام: من النقمة وهي السطوة والسلطة، ويستعمل أهل هذا العصر الانتقام بمعنى التشفي بالعقوبة وهو بهذا المعنى محال على الله تعالى.

٥ ـ ﴿إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾ فهو ينزل لعباده من الكتب ويعطيهم من المواهب ما يعلم أن فيه صلاحهم إذا أقاموه ويعلم حقيقة أمرهم في سرهم وجهرهم، لا يخفى عليه أمر المؤمن الصادق، وأمر الكافر والمنافق، ولا حال من أسرَّ الكفر واستبطن النفاق وأظهر الإيمان والصلاح، ومن أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان، وكأن هذا الاستئناف البياني دليل على ما قبله.

ثم استدل عليه باستئناف مثله على سبيل الالتفات فقال:

٦ ـ ﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾. الأرحام: هو جمع «رحم» وهو مستودع الجنين من المرأة ومن عرف ما في تصوير الأجنة في الأرحام من الحكم والنظام، علم أنه يستحيل أن يكون بالمصادفة والاتفاق وأذعن بأن ذلك فعل عالم خبير بالدقائق، «حكيم» يستحيل عليه العبث، «عزيز» لا يغلب على ما قضي به علمه وتعلقت به إرادته، واحد لا شريك له في إبداعه.

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ

﴿جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩﴾

٧ ــ ثم قال تعالى: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾ هذا رد لاستدلالهم ببعض آيات القرآن على تمييز عيسى على غيره من البشر[١]، إذ ورد فيه أنه روح الله وكلمته. فهو يقول: إن هذه الآيات من المتشابهات التي اشتبه عليكم معناها حتى حاولتم جعلها ناقضة للآيات المحكمة في توحيد الله وتنزيهه. و«المحكمات»: من أحكم الشيء بمعنى: وثقه وأتقنه. والمعنى العام لهذه المادة المنع. فإن كل محكم يمنع بإحكامه تطرق الخلل إلى نفسه أو غيره ومنه الحكم والحكمة وحكمة الفرس، و«المتشابه»: يطلق في اللغة على ما له أفراد أو أجزاء يشبه بعضها بعضاً، وعلى ما يشتبه من الأمر، أي: يلتبس يقال: «تشابه الشيئان واشتبها، وشبهته به وشبهته إياه واشتبهت الأمور وتشابهت: التبست لأشباه بعضها بعضاً، وشبه عليه الأمر: لبس عليه، وإياك والمشبَّهات، أي: الأمور المشكلات. واختلفوا في معناهما، على أقوال منها: أن المحكم هو الناسخ، والمتشابه هو المنسوخ وهو مروي عن ابن عباس وعن ابن مسعود وغيرهما.

ومنها: أن المحكم ما كان دليله واضحاً، كدلائل الوحدانية والقدرة والحكمة، والمتشابه ما يحتاج في معرفته إلى التدبر والتأمل.

ومنها: أن المحكم كل ما أمكن تحصيل العلم به بدليل جلي أو خفي، والمتشابه ما لا سبيل إلى العلم به، كوقت قيام الساعة ومقادير الجزاء على الأعمال.

ومنها: أن المحكمات ما أحكم الله فيها بيان حلاله وحرامه، والمتشابه منها ما أشبه بعضه بعضاً في المعاني وإن اختلفت ألفاظه. رواه ابن جرير عن مجاهد وعبارته عنده: «محكمات ما فيه من الحلال والحرام، وما سوى ذلك فهو متشابه

---

(١) قوله: «على تمييز عيسى على غيره من البشر»، يعني: ما زعمه النصارى من ألوهيته أو بُنُوَّته لله تعالى. وإلا فهو مفضَّل بالنبوة، وبكونه آية للناس، مولداً، ورفعاً وبما آتاه الله من البينات.

يصرف بعضه بعضاً وهو مثل قوله: «وما يضل به إلا الفاسقين» ومثل قوله: «كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون» ومثل قوله: «والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم»: وكأن مجاهداً يعني بالمتشابه ما فيه إبهام أو عموم أو إطلاق،أو كل ما لم يكن حكمًا عملياً فهو عنده خاص بالإنشاء دون الخبر. أما كون المحكمات«هن أم الكتاب»فمعناه: أنهن أصله وعماده أو معظمه، وهذا ظاهر لكنه لا ينطبق إلا على بعض الأقوال. والمختار: أن معنى ذلك أنها هي الأصل الذي دعي الناس إليه ويمكنهم أن يفهموها ويهتدوا بها، وعنها يتفرع غيرها وإليها يرجع، فإن اشتبه علينا شيء نرده إليها، وليس المراد بالرد أن نؤوله، بل أن نؤمن بأنه من عند الله، وأنه لا ينافي الأصل المحكم الذي هو أم الكتاب وأساس الدين الذي أمرنا أن نأخذ به على ظاهره الذي لا يحتمل غيره إلا احتمالاً مرجوحاً. مثال هذه المتشابهات قوله تعالى: «الرحمن على العرش استوى» وقوله: «يد الله فوق أيديهم» وقوله: «وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه». هذا رأي جمهور المفسرين، وذهب جمهور عظيم منهم إلى أنه لا متشابه في القرآن إلا أخبار الغيب كصفة الآخرة وأحوالها من نعيم وعذاب ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾ معنى اتباعه ابتغاء الفتنة: أنهم يتبعونه بالإنكار والتنفير استعانة بما في أنفس الناس من إنكار ما لم يصل إليه علمهم ولا يناله حسهم، كالإحياء بعد الموت وشؤون تلك الحياة الأخرى. وابتغاء الفتنة بالنسبة إلى الوجه الأول في معنى المتشابه، هو أن يتبع أهل الزيغ من المشركين والمجسمة مثل قوله تعالى: «وروح منه» فيأخذونه على ظاهره من غير نظر إلى الأصل المحكم ليفتنوا الناس بدعوتهم إلى أهوائهم، ويختلبوهم بشبهتهم فيقولون: إن الله روح والمسيح روح منه، فهو من جنسه، وجنسه لا يتبعض فهو هو. فالتأويل هنا بمعنى الإرجاع، أي: أنهم يرجعونه إلى أهوائهم وتقاليدهم لا إلى الأصل المحكم الذي بني عليه الاعتقاد، وأما«ابتغاء تأويله»: فهو أنهم يطبقونه على أحوال الناس في الدنيا فيحولون خبر الإحياء بعد الموت،وأخبار الحساب والجنة والنار عن معانيها ويصرفونها إلى معان من أحوال الناس في الدنيا،ليخرجوا الناس عن الدين بالمرة،والقرآن مملوء بالرد عليهم كقوله تعالى: «قل يحييها الذي أنشأها أول مرة» ﴿وما يعلم تأويله إلا الله

والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾ قال بعض السلف: إن قوله: «والراسخون في العلم» كلام مستأنف، وقال بعضهم: إنه معطوف على لفظ الجلالة. واستدل الذين قالوا بالوقف عند لفظ الجلالة وبكون ما بعده استئنافاً بأدلة: «منها» إن الله تعالى ذم الذين يتبعون تأويله، «ومنها» قوله: «يقولون آمنا به كل من عند ربنا»، فإن ظاهر الآية التسليم المحض لله تعالى، ومن عرف الشيء وفهمه لا يعبر عنه بما يدل على التسليم المحض، وهذا رأي كثير من الصحابة، رضي الله عنهم، كأبي بن كعب وعائشة.

وذهب ابن عباس وجمهور من الصحابة إلى القول الثاني وكان ابن عباس يقول: «أنا من الراسخين في العلم أنا أعلم تأويله». وقالوا في استدلال أولئك: إن الله تعالى إنما ذم الذين يبتغون التأويل بذهابهم فيه إلى ما يخالف المحكمات يبتغون بذلك الفتنة، والراسخون في العلم ليسوا كذلك، فإنهم أهل اليقين الثابت الذي لا زلزال فيه ولا اضطراب فهؤلاء يفيض الله تعالى عليهم فهم المتشابه بما يتفق مع المحكم. وأما دلالة قولهم: «آمنا به كل من عند ربنا» على التسليم المحض فهو لا ينافي العلم فإنهم إنما سلموا بالمتشابه في ظاهره أو بالنسبة إلى غيرهم لعلمهم باتفاقه مع المحكم، فهم لرسوخهم في العلم ووقوفهم على حق اليقين لا يضطربون ولا يتزعزعون، بل يؤمنون بهذا وبذاك على حد سواء لأن كلاً منهما من عند الله ربنا ولا غرو فالجاهل في اضطراب دائم والراسخ في ثبات لازم. ومن اطلع على ينبوع الحقيقة لا تشتبه عليه المجاري، فهو يعرف الحق بذاته ويرجع كل قول إليه قائلاً: «آمنا به كل من عند ربنا» ﴿وما يتذكر إلا أولو الألباب﴾ أي: وما يعقل ذلك ويفقه حكمته إلا أرباب القلوب النيرة والعقول الكبيرة، وإنما وُصِفَ الراسخون بذلك لأنهم لم يكونوا راسخين إلا بالعقل والتدبر لجميع الآيات المحكمة التي هي الأصول والقواعد، حتى إذا عرض المتشابه بعد ذلك يتسنى لهم أن يتذكروا تلك القواعد المحكمة وينظروا ما يناسب المتشابه منها فيردوه إليه.

أقول: وهذا التخريج يصدق على أحد الوجهين السابقين. وأما على القول بأن المتشابه ما كان نبأ عن عالم الغيب فهم الذين يعلمون أن قياس الشاهد على الغائب قياس بالفارق.

٨ ــ ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾ لما كان المتشابه مزلة الأقدام ومدرجة الزائغين إلى الفتنة،وصل الراسخون الإقرار بالإيمان بالدعاء بالحفظ من الزيغ بعد الهداية، فإنهم لرسوخهم في العلم يعرفون ضعف البشر وكونهم عرضة للتقلب والنسيان والذهول،ويعرفون أن قدرة الله فوق كل شيء،وعلمه لا يحاط به وهو المحيط بكل شيء،فيخافون أن يستزلوا فيقعوا في الخطأ والخطأ في هذا المقام قرين الخطر، وليس للإنسان بعد بذل جهده في إحكام العلم في مسائل الاعتقاد وإحكام العمل بحسن الاهتداء إلا اللجأ إلى الله تعالى بأن يحفظه من الزيغ العارض ويهبه الثبات على معرفة الحقيقة، والاستقامة على الطريقة، فالرحمة في هذا المقام هي: الثبات والاستقامة، ومن مباحث الألفاظ في الآية أن قوله تعالى: «من لدنك» معناه: من عندك فإن «لدن» تستعمل بمعنى «عند» وإن لم تكن مرادفة لها، بل هي أخص وأقرب مكاناً. ولا تستعمل«لدن» إلا في الشيء الحاضر فهي أدل على الاختصاص. فهذه الرحمة المطلوبة منه في هذا المقام هي الغاية الإلهية والتوفيق الذي لا يناله العبد بكسبه، ولا يصل إليه بسعيه، ويؤيد ذلك: التعبير بالهبة ووصفه تعالى بالوهاب فإن الهبة عطاء بلا مقابل.

٩ ــ ﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد﴾ جمع الناس وحشرهم واحد، وجمعهم لذلك اليوم للجزاء فيه وهو يوم القيامة، وكونه لا ريب فيه، معناه: أننا موقنون به لا نشك فيه، لأنك أخبرت به ووعدت وأوعدت بالجزاء فيه. وليس معناه كمعنى: «ذلك الكتاب لا ريب فيه»، أي: أنه ليس من شأنه أن يُرْتاب فيه،فإن الكلام هناك عن الكتاب في نفسه والكلام هنا حكاية عن المؤمنين الراسخين في العلم. ولذلك علل نفي الريب بنفي إخلاف الميعاد، وجيء به على طريق الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة للإشعار بهذا التعليل، هذا على قول الجمهور: إن الجملة كالدعاء من كلام الراسخين في العلم، وجوزوا أن تكون من كلامه تعالى لتقرير قولهم ودعائهم وهو خلاف المتبادر. ومناسبة هذا الدعاء للإيمان بالمتشابه ظاهرة على القول بأن المتشابه هو الاخبار عن الآخرة،أي: أنهم كما يؤمنون بالمتشابه يؤمنون

بمضمونه والمراد منه: ما يؤول إليه. وأما على القول بأنه لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم فوجهه: أنهم يذكرون يوم الجمع ليستشعروا أنفسهم الخوف من تسرب الزيغ الذي يهلكهم في ذلك اليوم. فهذا الخوف هو مبعث الحذر والتوقي من الزيغ. أعاذنا الله منه بمنه وكرمه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾

١٠ ــ ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً﴾ يقال: إن هذه الآية وما قبلها في تقرير التوحيد، سواء كان رداً على نصارى نجران أو كان كلاماً مستقلاً، فإن التوحيد لما كان أهم ركن للإسلام كان مما تعرف البلاغة أن يبدأ بتقرير الحق في نفسه، ثم يؤتى ببيان حال أهل المناكرة والجحود ومناشىء اغترارهم بالباطل، وأسباب استغنائهم عن ذلك الحق أو اشتغالهم عنه. وأهمها الأموال والأولاد، فهي تنبؤهم هنا بأنها لا تغني عنهم في ذلك اليوم الذي لا ريب فيه. إذ يجمع الله فيه الناس ويحاسبهم بما عملوا، بل ولا في أيام الدنيا، لأن أهل الحق لا بد أن يغلبوهم على أمرهم ﴿وأولئك هم وقود النار﴾ «الوقود» ــ بالفتح ــ: ما توقد به النار من حطب وغيره، أي: إنهم مما توقد به النار يوم القيامة.

ثم ذكر تعالى مثلاً لهؤلاء الكافرين الذين استغنوا بما أوتوا في الدنيا عن الحق فعارضوه وناهضوه حتى ظفر بهم فقال:

١١ ـ ﴿كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم﴾ بأن أهلكهم ونصر موسى على آل فرعون، ومن قبله من الرسل على أممهم المكذبين، ذلك بأنهم كانوا بكفرهم يفسدون في الأرض ولا يصلحون، فما أُخذوا إلا بذنوبهم، وما نصر الرسل ومن آمن معهم إلا بصلاحهم وإصلاحهم، فالله تعالى لا يحابي ولا يظلم ﴿والله شديد العقاب﴾ على مستحقه، إذ مضت سنته بأن يكون العقاب أثراً طبيعياً للذنوب والسيئات. وأشدها الكفر وما تفرع عنه، فليعتبر المخذولون إن كانوا يعقلون.

١٢ ـ ﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد﴾ هذا الكلام تأكيد لمضمون ما قبله، أي: قل يا محمد لهؤلاء المغرورين بحولهم وقوتهم، المعتزين بأموالهم وأولادهم: إنكم ستغلبون في الدنيا وتعذبون في الآخرة.

١٣ ـ ﴿قد كانت لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين﴾ يقول تعالى: قل يا محمد للمغرورين بأموالهم وأولادهم، وبأعوانهم وأنصارهم: لا تغرنكم كثرة العدد، ولا بما يأتي به المال من العدد، ولا تحسبوا أن هذا هو السبب، الذي يفضي إلى النصر والغلب، فإن في الاعتبار ببعض حوادث الزمان أوضح آية على بطلان هذا الحسبان؛ فذكر الفئتين ـ أي: الطائفتين ـ اللتين التقتا في القتال، هو من قبيل المثال، والجمهور على أن الآية هي ما كان في وقعة بدر. ويحتمل أن تكون إشارة إلى وقائع أخرى قبل الإسلام، ويرجح هذا إذا كان الخطاب لليهود فإن في كتبهم مثل هذه العبرة كقصة طالوت وجالوت التي تقدمت في سورة «البقرة»[١]، ويرجح الأول إذا كان الخطاب لمشركي العرب وثبت أن نزول الآية كان بعد وقعة بدر. وقد كانت الفئة الكافرة في بدر ثلاثة أضعاف المسلمة، ويصح أن يكونوا مع ذلك رأوهم مثليهم فقط، لأن الله قللهم في أعينهم كما سيأتي في سورة «الأنفال»[٢]. أقول: وهذا التصحيح مبني على القول بأن الرائين هم

---

(١) قوله: «تقدمت في سورة البقرة» أي: في الآية «٢٤٦» منها وما بعدها ص ٢٣٦.

(٢) أي: في الآيتين «٤٣ و٤٤» منها.

الفئة التي تقاتل في سبيل الله وهي المؤمنة وأن المرئيين هم الفئة الكافرة. وعليه الجمهور، وقيل: إن الرائين والمرئيين هم المقاتلون في سبيل الله فالمعنى:أنهم يرون أنفسهم مثلي ما هم عليه عدداً،وقيل: إن الرائين هم الكافرون، والمرئيين هم المؤمنون أي: إن الكافرين يرون المؤمنين على قلتهم مثليهم في العدد لما وقع في قلوبهم من الرعب والخوف ﴿والله يؤيد بنصره من يشاء﴾ من الفئتين. وجملة القول: أن الآية ترشد إلى الاعتبار بمثل الواقعة المشار إليها التي غلبت فيها فئة قليلة فئة كثيرة بإذن الله. ولذلك قال: ﴿إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾ أي: لأصحاب الأبصار الصحيحة التي استعملت فيما خلقت لأجله من التأمل في الأمور بقصد الاستفادة منها، لا لمن وصفوا بقوله: «لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون»، وقال بعض المفسرين: إن «الأبصار» هنا بمعنى:البصائر والعقول، من باب المجاز. وقال بعضهم: يعني بأولي الأبصار مَنْ أبصروا بأعينهم قتال الفئتين. وما ذكرته أظهر.

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾

١٤ ـ ﴿زين للناس حب الشهوات﴾ هم المكلفون، لأن الكلام في إرشادهم، فلا معنى للبحث في الأطفال هنا، والشهوات: جمع شهوة وهي انفعال النفس بالشعور بالحاجة إلى ما تستلذه. والمراد بها هنا: المشتهيات على طريق المبالغة. وهي شائعة الاستعمال، يقال: هذا الطعام شهوة فلان أي: مشتهاه. ومعنى تزيين حبها لهم: أن حبها مستحسن عندهم لا يرون فيه شيئاً ـ قبحاً ـ ولا غضاضة، وقد يحب الإنسان الشيء وهو يراه من الشين لا من الزين، ومن الضار لا من النافع، ويود لذلك لو لم يكن يحبه كمحب بعض الناس للدُّخان على تأذيه منه. ومن أحب شيئاً ولم يُزَيَّنْ له يوشك أن يرجع عن

حبه يوماً وأما من زين له حبه لشيء فلا يكاد يرجع عنه لأن ذلك منتهى الحب وصاحبه لا يكاد يفطن لقبحه وضرره إن كان قبيحاً أو ضاراً ولا يحب أن يرجع وإن تأذى به.

ثم بين المشتهيات التي يحبها الناس وحبها مزين لهم وله مكانة من نفوسهم بقوله: ﴿من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث﴾ فهذه ستة أنواع أولها: النساء وحبهن لا يعلوه حب لشيء آخر من متاع الحياة الدنيا. فهن مطمح النظر، وموضع الرغبة، وسكن النفس، ومنتهى الأنس، وعليهن ينفق أكثر ما يكسب الرجال في كدهم وكدحهم، فكم افتقر في حبهن غني؟ وكم استغنى بالسعي للحظوة عندهن فقير؟ وكم ذل بعشقهن عزيز؟ وكم ارتفع في طلب قربهن وضيع؟.

النوع الثاني: «حب البنين» أي: الأولاد، فاكتفى بذكر ما كان حبه أقوى، والفتنة به أعظم ـ يعني: الذكور ـ على طريق التغليب.

النوع الثالث: «القناطير المقنطرة من الذهب والفضة» أي: كثرة المال وهو مما أودع في الغرائز، وعلته: أن المال وسيلة إلى الرغائب، وموصل إلى الشهوات واللذائذ. قال ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنى أن يكون لهما ثالث ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب» رواه الشيخان من حديث ابن عباس، رضي الله عنهما، والتعبير بـ«القناطير المقنطرة» يشعر بأن الكثرة هي التي تكون مظنة الافتتان، لأنها تشغل بالتمتع بها القلب، وتستغرق في تدبيرها الوقت، حتى لا يكاد يبقى في قلب صاحبها منفذ للشعور بالحاجة إلى غيرها من طلب الحق ونصرته في الدنيا، والاستعداد لما أعده الله للمتقين في الأخرى، وما بعث الله رسولاً في أمة، ولا مصلحاً في قوم، إلا وكان الأغنياء أول من كفر وعاند وأبى واستكبر.

النوع الرابع: «الخيل المسومة» ذهب بعضهم إلى أن الخيل المسومة: هي الراعية وهو مروي عن ابن عباس وعن سعيد بن جبير والربيع وغيرهم، وقيل: هي المطهمة الحسان، أو المعلمة بالألوان والشيات، وقيل: المرسلة على القوم.

فالأول من مادة السوم يقال: سام الدابة رعاها وأسامها أرعاها وأخرجها إلى المرعى. ومثلها سومها عند هؤلاء، وفي سورة «النحل»: «ومنه شجر فيه تسيمون» قال ابن جرير: إن «سَوَّم» بالتشديد غير مستفيض في كلامهم، ورجَّح أن «المسومة» بمعنى المعلَّمة. وقال: إن معنى المطهمة والمعلَّمة والراتعة واحد.

وأقول: وكل من الخيل الراعية التي تقتنى للتجارة، والمطهمة التي تقتنيها الكبراء والأغنياء للمفاخرة، هو من متاع الدنيا الذي يتنافس فيه. ومن الناس من يغلو في حب الخيل حتى يفوق عنده كل حب.

النوع الخامس: «الأنعام» وهي: الإبل والبقر، عرابها وجواميسها، والغنم: ضأنها ومعزها. والأنعام مال أهل البادية، بها ثروتهم، وفيها تكاثرهم وتفاخرهم، ومنها معايشهم ومرافقهم، ولعله أخرها عن ذكر الخيل المسومة لأن من قدر على اقتناء الخيل المسومة يكون أوغل في التمتع، لأنها من متاع الفضل والزيادة، وما كل ذي أنعام يقدر على اقتناء الخيل المسومة ويضاهيه في التمتع بالدنيا، وإلا فإن الأنعام أكثر نفعاً.

النوع السادس: «الحرث» أي: الزرع والنبات، نجمه[1] وشجره على اختلاف أنواعه، وهو قوام حياة الإنسان والحيوان في البدو والحضر. وإنما جعله آخر الأنواع في الذكر على أنه أولها في شدة الحاجة إليه، لأنه لما كان الارتفاق به أعم كانت زينته في القلوب أقل، فهو قلما يكون مانعاً للإنسان عن البحث عن الحق ونصره أو صاداً عن الاستعداد للآخرة ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾ أي: ذلك الذي ذكر من الأنواع الستة هو ما يستمتع به الناس في حياتهم الدنيا، أي: والله عنده حسن المرجع في الحياة الآخرة التي تكون بعد موت الناس وبعثهم، فلا ينبغي لهم أن يجعلوا كل همهم في هذا المتاع القريب العاجل، بحيث يشغلهم عن الاستعداد لما هو خير منه في الآجل.

---

(١) قوله: «نجمه وشجره» النجم من النبات ما لا ساق له، والشجر: هو الذي له ساق، وهو من قوله تعالى: ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾.

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾

١٥ ــ ﴿قل أؤنبئكم بخير من ذلكم﴾ الآية بيان وتفصيل لقوله تعالى: «والله عنده حسن المآب» وبدأه بالاستفهام لأجل توجيه النفوس إلى الجواب وتشويقها إليه، والتنبئة بالشيء: التخبير به كالإنباء بمعنى الإخبار، وقال في «الكليات»: «النبأ والإنباء لم يردا في القرآن إلا لما له وقع وشأن عظيم» وعلى هذا يكون التعبير. أما الجواب عن الاستفهام فهو قوله: ﴿للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله﴾ جعل ما أعده للمتقين من الجزاء على التقوى نوعين: نوعاً جسمانياً نفسياً، وهو: الجنات وما فيها من الخيرات والأزواج المطهرات، ونوعاً روحانياً عقلياً وهو رضوان الله تعالى. ولا يخفى ما في إضافة لفظ «رب» إلى ضمير المتقين من الإشعار بفضلهم، وعناية من رباهم بعنايته وتوفيقه بشأنهم. وأما «الرضوان»: فهو مصدر بمعنى الرضا مع ما في زيادة المبني من المبالغة في المعنى، فكأنه قال: ورضوان عظيم من الله لا يشوبه ولا يعقبه سخط ﴿والله بصير بالعباد﴾ ختم الآية بهذه الجملة للإشعار بأنه ليس كل من ادعى التقوى في نفسه أو بلسانه يكون متقياً. وإنما المتقي عند الله هو من يعلم الله منه التقوى، وفي هذا تنبيه للناس وإيقاظ لمحاسبة نفوسهم على التقوى لئلا يغشهم العجب بأنفسهم فيحسبوها متقية وما هي بمتقية.

١٦ ــ ﴿الذين يقولون ربنا إننا آمنا﴾ وصف أهل التقوى بشأن من شؤونهم، وهو: أنهم لتأثر قلوبهم بالتقوى التي هي ثمرة الإيمان تفيض ألسنتهم بالاعتراف بهذا الإيمان في مقام الابتهال والدعاء. وقالوا في قوله تعالى: ﴿فاغفر

لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار﴾ أنهم رتبوا طلب المغفرة والوقاية من النار على الإيمان فدل ذلك على أن الإيمان وحده غير كاف في استحقاقهما من غير توقف على العمل الصالح. وأقول قد يصح هذا إذا أريد مغفرة الشرك السابق على الإيمان وما تبعه من الذنوب والوقاية من الخلود في النار بذلك. فإن الإسلام يجب ما قبله كما ورد. ولا يمكن أن يصح إذا أريد به أن الإنسان قد يكون مؤمناً ولا يعمل صالحاً، بل يكون منغمساً في المعاصي والخطايا ثم يكون مستحقاً للمغفرة والوقاية من العذاب. فإن العقل[1] والنقل يحيلان هذا الفرض.

١٧ ـ ﴿الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار﴾ وصف الله المتقين بهذه الصفات التي استحقوا بها تلك الدرجات، وهو الظاهر على القول بأن قوله: «الذين يقولون» وصفٌ للذين اتقوا، وكذا على القول بأنه منصوب على المدح. أما على القول بأنه استئناف بياني، فالمراد بالوصف: الوصف بالمعنى، «والصابرين» منصوب على المدح، والمنصوب على المدح أو الاختصاص ليس كلاماً مقطوعاً عما قبله كما يوهمه تقدير الفعل له. وإنما هو أسلوب بليغ في إيراد الصفة معربة بغير إعراب الموصوف، ووجه البلاغة فيه من ثلاثة أوجه: أحدها لفظي، والآخران معنويان، أما اللفظي: فهو أن اختلاف الإعراب يحدث في الذهن حركة جديدة، فينتبه فضلَ انتباه إلى الكلام الجديد. وأما المعنويان، فأحدهما: بيان مزية خاصة في المقام لما به المدح، كأن يقال هنا في التقدير: وأمدح من هؤلاء الذين يقولون ربنا إننا آمنا، الصابرين والصادقين إلخ، كأنه يشهد لهم بأنهم بهذه الصفات امتازوا على سائر المؤمنين وصاروا أحق بذلك الوعد. وثانيهما: تقرير أن هذه الصفات ممدوحة في ذاتها والصبر: هو حبس النفس عند كل مكروه يشق على النفس احتماله. وأكمل أنواعه الصبر على ملازمة الشريعة في المنشط والمكره. وفسروا القانتين:

---

(١) قوله: «فإن العقل والنقل يحيلان هذا الفرض»، يميل المؤلف إلى القول بأن الإيمان والعمل الصالح قرينان لا يفترقان، كما ذكر في مواضع كثيرة من تفسيره، وهذا مخالف لما عليه الأكثر. وقد بينا ذلك في تعليقنا على قوله هذا عند تفسير الآية «٨٢» من سورة «البقرة» ص ٧٠.

بالمطيعين وبالمداومين على الطاعة والعبادة، والقنوت: هو المداومة على الخشوع والضراعة، أي: على روح العبادة ولبابها، لا على صورها ورسومها فقط.

والمنفقون معروفون، ولم يعين النفقة ولا المنفق عليه، فعلم أن المراد بهم المنفقون للمال في جميع الطرق المشروعة، من واجبه ومستحبة لا يمنعون حقاً ولا يقبضون أيديهم عن شيء من أعمال البر.

وفسر مجاهد وغيره المستغفرين هنا: بالمصلين، لأن أهل التهجد في آخر الليل يطلبون بتهجدهم مغفرة الله ورضوانه، فهؤلاء المفسرون يرون أن الاستغفار: هو طلب المغفرة بالفعل لا بمجرد حركة اللسان. ومن يقول: إنه الطلب باللسان، فإنه يجعل من شروطه حضور القلب ولا يقول أحد يعتد بقوله: إن استغفار اللسان وحده نافع، بل قالوا: إن المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزىء بربه.

شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾

١٨ ــ بعد ما بين تعالى جزاء المتقين وبينَّ حالهم في إيمانهم ومدح أصنافهم الكاملين في أوصافهم بين أصل الإيمان وأساسه فقال: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائمًا بالقسط﴾ صرح كثير من المفسرين بأن شهادة الله هنا من باب الاستعارة، لأن ما نصبه من الدلائل في الآفاق وفي الأنفس على توحيده وما أوحاه إلى أنبيائه في ذلك يشبه شهادة الشاهد بالشيء في

إظهاره وإثباته. وكذلك شهادة الملائكة عبارة عن إقرارهم بذلك كما وإيمانهم به، هي: من باب عموم المجاز، وشهادة أولي العلم عبارة عن إيمانهم به واحتجاجهم عليه.

وقال بعضهم: إن الشهادة من كل بمعنى واحد لأنها إما عبارة عن الإخبار المقرون بالعلم، وإما عبارة عن الإظهار والبيان، وكل ذلك حاصل من الله والملائكة وأولي العلم فالله تعالى أخبر بتوحيده ملائكته ورسله عن علم وبينه لهم أتم البيان والملائكة أخبروا الرسل وبينوا لهم، وأولو العلم أخبروا بذلك وبينوه عالمين به ولا يزالون كذلك. وأقول: إن ما قاله الأولون ضعيف،وأقرب التفسيرين للشهادة أَولهما في القول الآخِرِ ــ أي: أنها الإخبار المقرون بالعلم ــ يقال: شهد الشيء إذا حضره وشاهده كقوله تعالى: «فمن شهد منكم الشهر» وقوله: «ما شهدنا مهلك أهله» ويقال: شهد به إذا أخبر به عن مشاهدة بالبصر، وهو الأكثر والأصل، أو عن مشاهدة بالبصيرة وهي الاعتقاد والعلم كقوله تعالى حكاية عن أخوة يوسف: «وما شهدنا إلا بما علمنا» وذلك أنهم أخبروا أباهم يعقوب بأن ابنه «شقيق يوسف» سرق عن اعتقاد لا عن مشاهدة بالبصر. وإنما سموا اعتقادهم علمًا لأنه لم يخطر في بالهم ما يعارض ما رأوه. والحاصل: أن الشهادة بالشيء هي الإخبار به عن علم بالمشاهدة الحسية أو المعنوية وهي الحجة والدليل وهو المختار هنا. وقد اختلفوا في أولي العلم. فقيل: هم الصحابة، وقيل: علماء أهل الكتاب، والصحيح أنهم أصحاب العلم البرهاني، القادرون على الإقناع، وهم معروفون في هذه الأمة وفي الأمم السابقة. أما قوله تعالى: «قائمًا بالقسط» فمعناه: أنه تعالى شهد هذه الشهادة قائمًا بالقسط وهو العدل في الدين والشريعة، وفي الكون والطبيعة، فمن الأول: تقرير العدل في الاعتقاد، كالتوحيد الذي هو وسط بين التعطيل والشرك. ومن الثاني: جعل سنن الخليقة في الأكوان والإنسان قائمة على أساس العدل، فمن نظر في هذه السنن ونظامها الدقيق يتجلى له عدل الله العام، فالقيام بالقسط على هذا من قبيل التنبيه إلى البرهان على صدق شهادته تعالى في الأنفس والآفاق لأن وحدة النظام في هذا العدل تدل على وحدة واضعه. وإذ قد تجلى لك صدق الشهادة فعليك أن تقر بها قائلاً: ﴿لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾

تفرد بالألوهية وكمال العزة والحكمة. فلا يغلبه أحد على ما قام به من سنن القسط، ولا يخرج شيء منها عن مقتضى الحكمة البالغة.

١٩ ـ ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ الدين في اللغة: الجزاء، والطاعة والخضوع، أي: سبب الجزاء. ويطلق على مجموع التكاليف التي يدين بها العباد لله، فيكون بمعنى الملة والشرع. وقالوا: إن ما يكلف الله به العباد يسمى «شرعاً» باعتبار وضعه وبيانه، ويسمى «ديناً» باعتبار الخضوع وطاعة الشارع به. ويسمى «ملة» باعتبار جملة التكاليف.

و«الإسلام» مصدر: أسلم، وهو يأتي بمعنى: خضع واستسلم، وبمعنى: أدى، يقال: أسلمت الشيء إلى فلان، إذا أديته إليه. وبمعنى: دخل في السلم ـ وهو بالفتح والكسر ـ بمعنى الصلح والسلامة، وبالتحريك: الخالص من الشيء. وتسمية دين الحق إسلاماً يناسب كل معنى من معاني الكلمة في اللغة، وأظهرها آخرها في الذكر لا سيما في هذا المقام، ويؤيده الآية الآتية وقوله تعالى: «ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً» وقد وصف إبراهيم بالإسلام في عدة سور ووصف غيره من النبيين بذلك. يعلم بذلك أن الحصر في قوله: «إن الدين عند الله الإسلام» يتناول جميع الملل التي جاء بها الأنبياء. ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾ قيل: إن المراد بأهل الكتاب هنا اليهود خاصة، وقيل: النصارى خاصة. ويدعم هذا القول: أن الآيات نزلت في نصارى نجران. والصواب: أنها عامة لا تخص فريقاً دون آخر. والجملة بيان لسبب خروج أهل الكتاب عن الإسلام الذي جاء به أنبياؤهم على ما تقدم في الجملة الأولى، فصاروا مذاهب وشيعاً يقتتلون في الدين، والدين واحد لا تفرق فيه ولا مثار للاختلاف، بَلْهَ الاقتتال. وهذا السبب: هو البغي وتجاوز الحدود من الرؤساء ﴿ومن يكفر بآيات الله﴾ الدالة على وحدة الدين ووجوب الاعتصام به وحرمة الاختلاف والتفرق فيه وهي المراد بالعلم في قوله: «إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم» ﴿فإن الله سريع الحساب﴾ يحاسب من كفر فيجازيه بما يستحق.

٢٠ ـ ﴿فإن حاجوك﴾ يعني به أهل الكتاب، أو عام، أي: فإن

جادلوك بعد أن جئتهم بالحق اليقين، وأقمت عليه البينات والبراهين، ودمغت الباطل، بالآيات والدلائل، ﴿فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن﴾ أي: أقبلت عليه بعبادتي مخلصاً له معرضاً عما سواه، أنا ومن اتبعني من المؤمنين.

فمن يقصد إلى الحِجَاج بالباطل بعد تأييد الحق وتفنيد الباطل، لا يقصد إلا إلى المجادلة والمشاغبة لمحض العناد والمشاكسة، وذلك شأن المبطلين، وأما طالب الحق فإنه يبخل بالوقت أن يضيع سدى ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين﴾ أي: لليهود والنصارى ومشركي العرب، وكانوا ينسبون إلى «الأُمّ» لجهلهم وخص هؤلاء بالذكر ـ والبعثة عامة ـ لأنهم هم الذين خاطبهم الرسول بالدعوة بلا واسطة ﴿أأسلمتم﴾ كما أسلمت لما وضحت لكم الحجة أم لا؟ قال البيضاوي ونظيره قوله: «فهل أنتم منتهون»، فيه تعيير لهم بالبلادة أو المعاندة. والاستفهام للتقريع، ﴿فإن أسلموا فقد اهتدوا﴾ لأن هذا هو روح الدين فمن أصابه فهو على هداية من هذا الوجه، فإن غشيه مع ذلك شيء من الباطل الصوري، فهو لا يلبث أن يزول متى ظهر له الدليل على بطلانه ﴿وإن تولوا﴾ معرضين عن الاعتراف بما سألت عنه، لعلمهم أنهم ليسوا على شيء منه، ﴿فإنما عليك البلاغ﴾ لحقيقة الإسلام، وما أمرت به من الأحكام، ﴿والله بصير بالعباد﴾ فهو أعلم بمن طمس قلبه فارتكس في شقائه، ووقع اليأس من اهتدائه، ومن يرجى له بتوفيق الله من بعد ما لا يرجى له اليوم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾

٢١ ـ ﴿إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق﴾ قيل: هم اليهود خاصة، وقد نسب إليهم قتل النبيين الذي كان من سابقهم، لاعتبار الأمة في تكافلها كالشخص الواحد على ما مر بيانه غير مرة، على أن اليهود همت بقتل النبي ﷺ في زمن نزول الآية، والسورة مدنية كما علمت، وهَمَّ بذلك

قومه الأميون من قبل في مكة، ثم كان كل من الفريقين حرباً له وهم المعتدون. ﴿ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس﴾ أي: الحكماء الذين يرشدون الناس إلى العدالة العامة في كل شيء، ويجعلونها روح الفضائل وقوامها، ومرتبتهم في الهداية والإرشاد تلي مرتبة الأنبياء، وأثرهم في ذلك يلي أثرهم. ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ يحملون مثله على التهكم، وعَدُّوه من المجاز لأن التبشير: من البشارة والبشرى، وهي: الخبر السار تنبسط له بشرة الوجه. وقد يقال: إنه ما ظهر أثره في البشرة بانبساط أو انقباض وكآبة ولكنه غلب في الأول. وهذا العذاب يصيب من كان منهم في زمن البعثة في الدنيا ثم يشاركون من سبقهم بمثل ذنوبهم في عذاب الآخرة.

٢٢ ــ ﴿أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾ فلا ينتفعون بشيء منها، لأن العمل الصالح إنما ينفع بحسن أثره في النفس، ونفوس هؤلاء قد أوغل فيها الفساد كما تقدم، ففقدت الاستعداد والقبول لكل خير. ﴿وما لهم من ناصرين﴾ ينصرونهم من الله، أي: لا ناصر يدفع عنهم العذاب.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

٢٣ ــ ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون﴾ معناه: ألم تر يا محمد إلى هؤلاء، الذين تعجب لعدم إيمانهم بك على وضوح ما جئت به، كيف يعرضون عن العمل بالكتاب الذي يؤمنون به، إذا لم يوافق أهواءهم. فقد كانوا يتولون عن حكم التوراة إذا خالف أهواءهم كما يفعل أهل كل دين في طور انحلال الدين وضعفه، وكانوا ربما تحاكموا إلى النبي ﷺ عازمين على قبول حكمه، حتى

إذا كان على غير ما أحبوا خالفوه، كما فعلوا يوم زنا بعض أشرافهم وحكّموه، فحكم بينهم بمثل حكم كتابهم، فتولوا وأعرضوا عن قبول حكمه لأنهم إنما فزعوا إليه ليخفف عنهم. أما قوله: «أوتوا نصيباً» فهو مبين لقوله تعالى: «أوتوا الكتاب» وهو بمعنى: «لا يعلمون الكتاب إلا أماني». فالنصيب عبارة عن تمسكهم بالألفاظ بتعظيمها وتعظيم ما تكتب فيه، مع عدم العناية بالمعاني بفقهها والعمل بها. ولك أن تقول: إن ما يحفظونه من الكتاب هو جزء من الكتاب الذي أوحاه الله إليهم وقد فقدوا سائره وهم مع ذلك لا يقيمونه بحسن الفهم له والتزام العمل به. أما قوله تعالى: «ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون» فللتراخي فيه وجهان (أحدهما): استبعاد توليهم، لأنه خلاف الأصل الذي يكون عليه المؤمن. (ثانيهما): أنهم إذا دعوا إلى حكم الكتاب يتولى ذلك الفريق بعد تردد وترو في القبول وعدمه، وكان من مقتضى الإيمان أن لا يتردد المؤمن في إجابة الدعوة إلى حكم كتابه الذي هو أصل دينه على أنهم لم يكتفوا بالتردد حتى تولوا بالفعل، ولم يكن التولي عرضاً حدث لهم بعد أن كانوا مقبلين على الكتاب خاضعين لحكمه في كل حال وآن، بل هو وصف لهم لازم، بل اللازم لهم ما هو شر منه وهو الإعراض عن كتاب الله في عامة أحوالهم.

٢٤ ـ ﴿ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات﴾ روى ابن جرير وغيره من المفسرين: أن بعض اليهود قالوا ذلك، وأن هذه الأيام المعدودات هي أربعون يوماً مدة عبادتهم العجل، والمختار: أنه لم يثبت في عدد هذه الأيام شيء، وليس في كتب اليهود التي في أيديهم وعد بالآخرة ولا وعيد، فكل ما وعدت به على العمل بالكتاب هو الخير والخصب والسلطة في الأرض، وما أوعدت به هو سلب هذه النعم وتسليط الأمم عليهم، ولكن الإسلام بين لنا أن كل نبي أمر بالإيمان باليوم الآخر ووعد وأوعد، فهذا هو الحق سواء أوجد في كتبهم أم لم يوجد، يعني: أننا نعد هذا مما أضاعوه ونسوه، والجملة عبارة عن استسهال العقوبة والاستخفاف بها اتكالاً على اتصال نسبهم بالأنبياء واعتماداً على مجرد الانتساب إلى الدين، وكانوا يعتقدون أن ذلك كاف في نجاتهم ﴿وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾ أي: بما زعموا من

تحديد مدة العقوبة للأمة في مجموعها وهذا من الافتراء الذي كان منشأ غرورهم في دينهم، ومثله لا يعرف بالرأي ولا بالفكرة، لأنه من أمر عالم الغيب فلا يعرف إلا بوحي من الله وليس في الوحي ما يؤيده.

٢٥ ـ ثم توعدهم تعالى على هذا الافتراء بقوله: ﴿فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه﴾ أي: فكيف يكون حالهم إذا جمعناهم لجزاء يوم لا ريب في مجيئه، وهو يوم الدين ﴿ووفيت كل نفس ما كسبت﴾ بأن رأت ما عملته محضراً موفى لا نقص فيه، وأن الناس سواء في الجزاء لا امتياز فيه بين الشعوب وإن تَسَمَّى بعضهم بـ «شعب الله»، ولا بين الأفراد وإن لقبوا أنفسهم بأبناء الله. بل يرون هنالك العدل الأكمل، ولذلك قال: ﴿وهم لا يظلمون﴾ أي: الناس المشار إليهم بلفظ «كل نفس» أي: لا ينقص من جزاء أحد بما كسب شيء وإن كان مثقال ذرة.

قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

٢٦ ـ ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء﴾ الكلام متصل بما قبله والكلام في حال النبي ﷺ مع من خوطبوا بالدعوة من المشركين وأهل الكتاب، فالمشركون كانوا ينكرون النبوة لرجل يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، كما أنكر أمثالهم على الأنبياء قبله. وأهل الكتاب كانوا ينكرون أن يكون نبي من غير آل إسرائيل،والمراد بالملك: السلطة والتصرف في الأمور، والله سبحانه وتعالى صاحب السلطان الأعلى والتصرف المطلق في تدبير الأمر وإقامة ميزان النظام العام في الكائنات، فهو يؤتي الملك في بعض البلاد من يشاء من عباده،إما بالتبع لما يختصهم به من النبوة كما وقع لآل إبراهيم، وإما

بسيرهم على سننه الحكيمة الموصلة إلى ذلك بأسبابه الاجتماعيـة كتكوين العصبيات كما وقع لكثير من الناس، وينزعه ممن يشاء من الأفراد ومن الأسر والعشائر والفصائل والشعوب بتنكبهم سننه الحافظة للملك، كالعدل وحسن السياسة وإعداد المستطاع من القوة كما نزعه من بني إسرائيل ومن غيرهم بالظلم والفساد. ذلك أننا لا نعرف ما قضت به مشيئته عز وجل إلا من الواقع لأنه لا يقع في الوجود إلا ما يشاء. وقد نظرنا فيما وقع للغابرين والحاضرين ومَحَّصْنا أسبابه فألفيناها ترجع إلى سنن مطردة كما قال في هذه السورة: «قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين». وبين بعض هذه السنن في نزع الملك ممن يشاء وإيتائه من يشاء بمثل قوله تعالى من سورة «إبراهيم»: «وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أولتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم».
﴿وتعز من تشاء وتذل من تشاء﴾ العز والذل معروفان، ومن آثار الأول: حماية الحقيقة ونفاذ الكلمة، ومن أسبابه: كثرة الأعوان وملك القلوب بالجاه والعلم النافع للناس، وسعة الرزق مع التوفيق للإحسان، ومن آثار الثاني: الضعف عن الحماية، والرضى بالضيم والمهانة، ولا تلازم بين العـز والملك فقد يكون الملك ذليلاً إذا ضعف استقلاله بسوء السياسة وفساد التدبير، حتى صارت الدول الأخرى تفتات عليه كما هو مشاهد. وكم من ذليل في مظهر عزيز، وكم من أمير أو ملك يغر الأغرار ما يرونه فيه من الأبهة والفخفخة فيحسبون أنه عزيز كريم وهو في نفسه ذليل مهين، ﴿بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾ أي: إثبات أن كل شيء بيده لا يعجزه شيء، والبلاغة قاضية بذكر الخير فقط سواء كان السبب في نزول الآية خاصاً، وهو ما كان في واقعة الخندق من بشارته ﷺ أن ملك أمته سيبلغ كذا وكذا، أو عامّاً وهو حال النبي ﷺ مع المنكرين، فإنه ما أغرى أولئك المجاحدين بإنكار النبوة والاستهانة بدعوة الحق إلا فقر الداعي، وضعف من اتبعه من المسلمين وقلتهم. فأمره الله تعالى أن يلجأ هو ومن اتبعه إلى مالك الملك، والمتصرف المطلق التصرف في الإعزاز والإذلال، وذكرهم في هذا المقام بأن الخير كله بيده فلا يعجزه أن يؤتي نبيه والمؤمنين من السيادة والسلطان ما وعدهم، وأن يعزهم ويعطيهم من الخير

ما لا يخطر ببال الذين يستضعفونهم على هذا الأصل أمر الله نبيه بأن يدعوه - والمؤمنون تبع له - بهذه الكلمات ويلجأوا إليه بهذه الرغبة، فكان المناسب ذكر الخير الذي وعدوا به فقط وأنه بيده وحده.

٢٧ - ﴿تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل﴾ أي: تدخل طائفة من الليل في النهار، فيقصر الليل من حيث يطول النهار، وتدخل طائفة من النهار فيطول هذا من حيث يقصر ذاك. أي: إنك بحكمتك في تدبير الأرض وتكويرها وجعل الشمس بحسبان تزيد في أحد الجديدين ما يكون سبباً لنقص الآخر، فلا ينكر على قدرتك وحكمتك أن تؤتي النبوة والملك من تشاء كمحمد وأمته وتنزعها ممن تشاء كبني إسرائيل. فإنك تتصرف في شؤون الناس كما تتصرف في الليل والنهار ﴿وتخرج الحي من الميت﴾ كالعالم من الجاهل، والصالح من الطالح، والمؤمن من الكافر ﴿وتخرج الميت من الحي﴾ كالكافر من المؤمن، والجاهل من العالم، والشرير من الخير، وقد مثل المفسرون للحياة الحسية بخروج النخلة من النواة والعكس وخروج الإنسان من النطفة والطائر ونحوه من البيضة وبالعكس والتمثيل صحيح ﴿وترزق من تشاء بغير حساب﴾ يطلب منه، لأن الأمر كله بيده، وليس فوقه أحد يحاسبه، أو بغير تضييق ولا تقتير، أو بغير حساب من هذا المرزوق ولا تقدير، ولكنه بقدر وحساب، ممن وضع السنن والأسباب.

لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾

٢٨ ــ ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ الأولياء: الأنصار، والاتخاذ يفيد معنى الاصطناع، وهو عبارة عن مكاشفتهم بالأسرار الخاصة بمصلحة الدين، وقوله: «من دون المؤمنين» قيد في الاتخاذ. أي: لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء وأنصاراً في شيء، تُقَدَّم فيه مصلحتهم على مصلحة المؤمنين، لأن في هذا اختياراً لهم وتفضيلاً على المؤمنين، بل فيه إعانة للكفر على الإيمان ولو بطريق اللزوم، ومن شأن هذا أن لا يصدر من مؤمن، ولو كان فيه مصلحة خاصة له ﴿ومن يفعل ذلك﴾ فيتخذ الكافرين أولياء وأنصاراً من دون المؤمنين فيما يخالف مصلحتهم من حيث هم مؤمنون ﴿فليس من الله في شيء﴾ أي: فليس من ولاية الله في شيء. قاله البيضاوي وغيره. وولاية الله من العبد، طاعته ونصر دينه ومن الله مثوبته ورضوانه. ومعنى العبارة: أنه يكون بينه وبين الله غاية البعد، أي: تنقطع صلة الإيمان بينه وبين الله تعالى، أي: فيكون من الكافرين كما قال في آية أخرى: «ومن يتولهم منكم فإنه منهم» أو: معناه فيكون عدو الله، وقوله: ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾ استثناء من أعم الأحوال أي: إن ترك موالاة الكافرين على المؤمنين حتم في كل حال إلا في حال الخوف من شيء تتقونه منهم، فلكم حينئذ أن توالوهم بقدر ما يتقى به ذلك الشيء، لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح. وهذه الموالاة تكون صورية لأنها للمؤمنين ولكن لكم أن تتقوا ضررهم بموالاتهم. ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ روي عن ابن عباس أن معناه: عقاب نفسه. وذكر النفس ليعلم أن الوعيد صادر منه، وهو القادر على إنفاذه إذ لا يعجزه شيء ﴿وإلى الله المصير﴾ فلا مهرب منه. قالوا: وفيه تهديد عظيم يشعر بتناهي المنهي عنه من الموالاة في القبح.

٢٩ ــ ثم قال: ﴿قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السماوات وما في الأرض﴾ المراد بما في الصدور: ما في القلوب من الانشراح والميل للكفر، أو الكره له والنفور منه، فهو كقوله تعالى: «إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً» أي: إنه سبحانه يعلم ما تنطوي عليه نفوسكم وما تختلج به قلوبكم إذ توالون الكافرين أو توادونهم، وإذ تتقون منهم ما تتقون، فإن كان ذلك بميل إلى الكفر جازاكم عليه، وإن

كانت قلوبكم مطمئنة بالإيمان غفر لكم،ولم يؤاخذكم على عمل لا جناية فيه على دينكم ولا إيذاء لأهله، فهو يجازيكم على حسب علمه المحيط بما في السماوات والأرض. ﴿والله على كل شيء قدير﴾ فلا يمكن أن يتفلت من قدرته أحد، ولا أن يعجزه شيء وهذا كالشرح لقوله: «ويحذركم الله نفسه».

٣٠ ــ ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً﴾ الكلام تتمة لوعيد من يوالي الكافرين ناصراً إياهم على المؤمنين. والمعنى: اتقوا واحذروا أو لتحذروا يوم تجد كل نفس عملها من الخير مهما قل محضراً. ومعنى كونه محضراً: أن فائدته ومنفعته تكون حاضرة لديه. أما عمل السوء فتود كل نفس اقترفته لو بَعُدَ عنها ولم تره وتؤخذ بجزائه. وهذا يدل على أن عمل الشر يكون محضراً أيضاً، ولكنه عبر عنه بما ذكر ليدل على أن إحضاره مؤذ لصاحبه يود لو لم يكن، أي: ومنه يعلم أن إحضار عمل الخير يكون غبطة لصاحبه وسروراً، ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ فإنه من ورائكم محيط، وسنته في تأثير الأعمال في النفوس وجعل آثار أعمالها مصدراً لجزائها حاكمة عليكم، أفلا يجب عليكم ــ والأمر كذلك ــ أن تحذروه بما أوتيتم من القدرة على الخير والميل إليه، بترجيحه على ما يعرض على الفترة من تزيين عمل السوء، والتوبة إليه سبحانه مما غلبتم عليه في الماضي ﴿والله رؤوف بالعباد﴾ ومن رأفته أن جعل الفطرة سليمة ميالة إلى الخير، وتتألم مما يعرض لها من الشـر، وأن جعل للإنسان أنواعاً من الهدايات يرجح بها الخير على الشر كالعقل والـدين، وأن جعل جزاء الخير مضاعفاً، وأن جعل أثر الشر في النفس قابلاً للمحو بالتوبة والعمل الصالح، وأن أكثر التحذير من عاقبة السوء ليذكر الإنسان ولا ينسى لعله يتذكر أو يخشى.

قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾

٣١ ـ ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ فإن ما جئت به من عنده مبين لصفاته وأوامره ونواهيه، والمحب حريص على معرفة المحبوب ومعرفة ما يأمر به وينهى عنه، ليتقرب إليه بمعرفة قدره وامتثال أمره مع اجتناب نهيه، ويكون بذلك أهلاً لمحبته سبحانه ومستحقاً لأن يغفر له ذنوبه. ﴿ويغفر لكم ذنوبكم﴾ السابقة من الاعتقاد الباطل والأعمال السيئة، لأن هذا الاتباع هو الاعتقاد الحق والعمل الصالح، وهما يمحوان من النفس ظلمة الباطل، ويزيلان منها آثار المعاصي والرذائل، ﴿والله غفور رحيم﴾ جعل للمغفرة سنة عادلة وبينها برحمته وإحسانه لعباده، وهي تزكية النفس بالاتباع الذي أكد الأمر به، وبَيَّنَ أن عاقبة الإعراض عنه الحرمان من حب الله تعالى، فقال:

٣٢ ـ ﴿قل أطيعوا الله﴾ باتباع كتابه ﴿والرسول﴾ باتباع سننه والاهتداء بهديه ﴿فإن تولوا﴾ وأعرضوا، ولم يجيبوا دعوتك غروراً منهم بدعواهم أنهم محبون لله، وأنهم أبناؤه وأحباؤه ﴿فإن الله لا يحب الكافرين﴾ الذين تصرفهم أهواؤهم عن النظر الصحيح في آيات الله وما أنزله على رسوله،وترك الشرك والضلال الذي نهيت عنه،واتباع الحق في الاعتقاد الذي بينته والعمل الصالح الذي أرشدت إليه.

* إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا

قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

٣٣ ــ ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾ أي: اختارهم وجعلهم صفوة العالمين، وخيارهم: بجعل النبوة والرسالة فيهم، فآدم أول البشر ارتقاءً إلى هذه المرتبة، فإنه بعدما تنقل في الأطوار إلى مرتبة التوبة والإنابة اصطفاه تعالى واجتباه كما قال في سورة «طه»: «ثم اجتباه به فتاب عليه وهدى»، فكان هادياً مهدياً، وكان في ذريته من النبيين والمرسلين من شاء الله تعالى، وأما نوح، عليه السلام، فقد حدث على عهده ذلك الطوفان العظيم فانقرض من السلائل البشرية من انقرض، ونجا هو وأهله في الفلك، فكان بذلك أباً ثانياً للجم الغفير من البشر، وكان هو نبياً مرسلاً، وجاء من ذريته كثير من النبيين والمرسلين، ثم تفرقت ذريته وانتشرت وفشت فيهم الوثنية، حتى ظهر فيهم إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، نبياً مرسلاً وخليلاً مصطفى، وتتابع النبيون والمرسلون من آله وذريته وكان أرفعهم قدراً وأنبههم ذكراً «آل عمران» قبل أن تختم النبوة بولد إسماعيل، عليهم الصلاة والسلام.

٣٤ ــ ﴿ذرية بعضها من بعض﴾ قيل: إن الذرية من مادة «ذرأ» المهموزة أي: خلق، كما أن البرية من مادة «برأ» وقيل: من مادة «ذَرَو»، فأصلها: «ذروية» وقيل: هي من «الذر» وأصلها «فَعَلِيَّة» كقمرية. قال الراغب: والذرية أصلها الصغار من الأولاد، وإن كان قد يقع على الصغار والكبار معاً في التعارف ويستعمل للواحد والجمع. وأصله الجمع. والمشهور ما جرى عليه الفقهاء: وهو أن الذرية الأولاد فقط، فقوله: «بعضها من بعض» ظاهر على الأول. ويخص على الثاني بآل إبراهيم وآل عمران ﴿والله سميع عليم﴾.

٣٥ ــ ﴿إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم﴾ أي: إنه سبحانه وتعالى كان سميعاً لقول امرأة عمران، عليمًا بنيتها في وقت مناجاتها إياه وهي حامل، بنذر ما في

بطنها له، حال كونه محرراً، أي: معتقاً من رق الأغيار لعبادته سبحانه وخدمة بيته، أو مخلصاً لهذه العبادة والخدمة لا يشتغل بشيء آخر. وثنائها عليه تعالى عند هذه المناجاة بأنه السميع للدعاء، العليم بما في أنفس الداعين والداعيات.

٣٦ ـ ﴿فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى﴾ قالوا: إن هذا خبر لا يقصد به الإخبار، بل التحسر والتحزن والاعتذار. فهو بمعنى الإنشاء، وذلك أنها نذرت تحرير ما في بطنها لخدمة بيت الله والانقطاع لعبادته فيه، والأنثى لا تصلح لذلك عادة لا سيما في أيام الحيض قال تعالى: ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ أي: بمكانة الأنثى التي وضعتها وأنها خير من كثير من الذكور. ففيه دفع لما يوهمه قولها من خسة المولودة وانحطاطها عن مرتبة الذكور، وقد بين ذلك بقوله: ﴿وليس الذكر﴾ الذي طلبت أو تمنت ﴿كالأنثى﴾ التي وضعت، بل هذه الأنثى خير مما كانت ترجو من الذكر ﴿وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾ العوذ: الالتجاء إلى الغير والتعلق به. فمعنى «أعوذ بالله من الشيطان»: ألجأ إليه وأعتصم به منه، وأعاذه به منه: جعله معاذاً له، يمنعه ويعصمه منه، والإعاذة بالله تكون بالدعاء والرجاء. و«الرجيم»: المطرود عن الخير. وفي حديث أبي هريرة عند الشيخين وغيرهما ـ واللفظ هنا لمسلم ـ: «كل بني آدم يَمَسُّهُ الشيطان يوم ولادته أمه إلا مريم وابنها» وفسر البيضاوي المس هنا بالطمع في الإغواء.

٣٧ ـ ﴿فتقبلها ربها بقبول حسن﴾ أي: تقبل مريم من أمها ورضي أن تكون محررة للانقطاع لعبادته وخدمة بيته، وهو أبلغ من «قَبِلَها» وزاده مبالغة وتأكيداً وصفه بالحسن، كأنه قال: فقبلها ربها أبلغ قبول حسن ﴿وأنبتها نباتاً حسناً﴾ أي: رباها ونماها في خيره ورزقه وعنايته وتوفيقه، تربيةً حسنة شاملة للروح والجسد، كما تربى الشجرة في الأرض الصالحة حتى تنمو وتثمر الثمرة الصالحة، لا يفسد طبيعتها شيء، ولعله عبر عن التربية بالإنبات لبيان أن التربية فطرية لا شائبة فيها. ﴿وكفلها زكريا﴾ شدد الكوفيون من القراء الفاء، وخففها الباقون، والمعنى على الأولى: وجعل زكريا كافلاً لها، وعلى الثانية ظاهر، ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب﴾ وهو مقدم المصلَّى، ويطلق على مقدم

المجلس، كما قال ابن جرير، وقيل: لا يسمى محراباً إلا إذا كان يصعد إليه بالسلالم. وأقول: المحراب هنا هو ما يعبر عنه أهل الكتاب بالمذبح، وهو مقصورة في مقدم المعبد لها باب يصعد إليه بسلم ذي درجات قليلة ويكون من فيه محجوباً عمن في المعبد ﴿وجد عندها رزقاً﴾ قالوا: كان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف. والله لم يقل ذلك ولا قاله رسوله ﷺ ولا هو مما يعرف بالرأي ولم يثبته تاريخ يعتد به والروايات عن مفسري السلف متعارضة وفي أسانيدها ما فيها ﴿قال يا مريم أنى لك هذا﴾ أي: من أين لك هذا والأيام أيام قحط ﴿قالت هو من عند الله﴾ رازق الناس بتسخير بعضهم لبعض ﴿إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ ولا توقع من المرزوق، أو رزقاً واسعاً،وأنت ترى أنه لا دليل في الآية على أن الرزق كان من خوارق العادات. وإسناد المؤمنين الأمر إلى الله في مثل هذا المقام معهود في القديم والحديث.

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾

٣٨ ـ قوله تعالى: ﴿هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء﴾ معناه: أنه عندما رأى زكريا حسن حال مريم، ومعرفتها بالله وإضافتها الأشياء إليه، دعا ربه متمنياً لو يكون له ولد صالح مثلها، هبة من لدنه تعالى ومن محض فضله، وقد فسر بعضهم «هنالك» بالزمان، وهو ضعيف، والاستعمال الفصيح فيها أنها للمكان، أي: في ذلك

المكان الذي خاطبته فيه مريم بما ذكر، دعا ربه، أي: إن زكريا لما رأى ما رآه من نعمة الله على مريم، في كمال إيمانها وحسن حالها ولا سيما اختراق شعاع بصيرتها لحجب الأسباب، ورؤيتها أن المسخر لها هو الذي يرزق من يشاء بغير حساب، أخذ عن نفسه، وغاب عن حسه، وانصرف عن العالم وما فيه، واستغرق قلبه في ملاحظة فضل الله ورحمته، فنطق بهذا الدعاء وإنما يكون الدعاء جديراً بأن يستجاب إذا جرى به اللسان بتلقين القلب، في حال استغراقه في الشعور بكمال الرب، ولما عاد من سفره في عالم الوحدة إلى عالم الأسباب ومقام التفرقة، وقد أوذن بسماع ندائه، واستجابة دعائه، سأل ربه عن كيفية تلك الاستجابة، وهي على غير السنة الكونية فأجابه بما أجابه، وذلك قوله عز وجل:

٣٩ ـ ﴿فنادته الملائكة﴾ أي: جماعة الملائكة، والعرب تؤنث وتذكر المسند إلى جمع المذكر الظاهر، لا سيما إذا كان في لفظه تاء: كالطلحات. وجمهور المفسرين يقولون: إن المراد بالملائكة جبريل ملك الوحي، وقالوا: إن العرب تخبر عن الواحد بلفظ الجمع تريد به الجنس. والصواب من القول في تأويله أن يقال: إن الله جل ثناؤه أخبر أن الملائكة نادته، والظاهر من ذلك أنها جماعة الملائكة دون الواحد وجبريل واحد. فلا يجوز أن يحمل تأويل القرآن إلا على الأظهر الأكثر من الكلام المستعمل في ألسن العرب دون الأقل، ما وجد إلى ذلك سبيل، ولم تضطرنا حاجة إلى صرف ذلك إلى أنه بمعنى واحد فيحتاج له إلى طلب المخرج بالخفي من الكلام والمعاني. وبما قلنا في ذلك من التأويل قال جماعة من أهل العلم منهم قتادة والربيع بن أنس وعكرمة ومجاهد وجماعة غيرهم. أما قوله: ﴿وهو قائم يصلي في المحراب﴾ فالظاهر من معناه المتبادر عندي: أنه نودي وهو قائم يدعو بذلك الدعاء. فالصلاة دعاء، والدعاء صلاة، ﴿أن الله يبشرك بيحيى﴾ أي: بولد اسمه يحيى، كما في سورة «مريم»: «إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى» وفيه إشعار بأن البشارة محكية بالمعنى لا باللفظ، فما هنا لا ينافي ما في سورة مريم من التفصيل، ويحيى تعريب لكلمة «يوحنا» في لغة بني إسرائيل. وهي من مادة الحياة، فالاسم يشعر بأنه يحيا حياة طيبة، بأن يكون وارثاً لوالده ومن آل يعقوب ما كان فيهم من النبوة والفضل.

وقد وصف تعالى هذا المبشر به بعدة صفات وردت حالاً منه وهي قوله: ﴿مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين﴾ أما تصديقه بكلمة من الله: فهو تصديقه بعيسى الذي يبشر الله به بكلمة منه، أو الذي يولد بكلمة الله «كن» فيكون أي: بغير السنة العامة في توالد البشر، وهي أن يولد الولد بين أب وأم. وأما السيد: فهو من يسود في قومه بالعلم أو الكرم أو الصلاح وعمل الخير. والحصور: وصف مبالغة من مادة الحصر ومعناها: الحبس، فهو من يحبس نفسه ويمنعها مما ينافي الفضل والكمال اللائق بها. ويطلق على الكتوم للأسرار، وعلى من يمتنع من النساء لِلْعِنَّـة أو للعفة. وأكثر المفسرين على أن هذا الأخير هو المراد هنا.

٤٠ ـ ﴿قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر﴾ قالوا: إن السؤال للتعجب. وأكثروا في ذلك السؤال والجواب. ولا يمنع مانع ما أن يكون الاستفهام على ظاهره، وأن يكون قد قاله تشوقاً إلى معرفة الكيفية التي يكون بها الإنتاج، مع عدم توفر الأسباب العادية له بكبر سنه وعقر زوجه ﴿قال﴾ تعالى ـ والظاهر أنه بواسطة الملائكة ـ ﴿كذلك الله يفعل ما يشاء﴾ فإنه متى شاء أمراً أوجد له سببه، أو خلقه بغير الأسباب المعروفة، لا يحول دون مشيئته شيء فعليك أن تفوض الأمر إليه في هذه الكيفية.

٤١ ـ ﴿قال رب اجعل لي آية﴾ أي: علامة تتقدم هـذه العنايـة وتؤذن بها ﴿قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً﴾ قيل معناه: أن تعجز عن خطاب الناس بحصر يعتري لسانك إذا أردته، ويرجحه أن الآية تكون بغير المعتاد، وقيل معناه: أن تترك ذلك مختاراً لتفرغ لعبادة الله ويؤيده قوله: ﴿واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والابكار﴾ والمشهور الأول: فإن زكريا أحب بمقتضى الطبيعة البشرية أن يتعين لديه الزمن الذي ينال به تلك المنحة الإلهيـة ليطمئن قلبه، ويبشر أهله، فسأل عن الكيفية ولما أجيب بما أجيب به سأل ربه أن يخصه بعبادة يتعجل بها شكره، ويكون إتمامه إياها آية وعلامة على حصول المقصود، فأمره بأن لا يكلم الناس ثلاثة أيام، بل ينقطع للذكر والتسبيح مساء صباح مدة ثلاثة أيام، فإذا احتيج إلى خطاب الناس أومأ إليهم

إيماء، وعلى هذا تكون بشارته لأهله بعد مضي الثلاث الليال. واختلفوا في الرمز، أكان بالقول الخفي وتحريك الشفتين أم بغيرهما من الأعضاء، كالعينين والحاجبين والرأس واليدين، لأن الرمز والإيماء يكون بكل ذلك. و«العشي»: من الزوال إلى الغروب، وقيل: من الغروب إلى ذهاب صدر من الليل. و«الإبكار»: من الصباح إلى الضحى.

وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾

٤٢ ــ قوله تعالى: ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم﴾ معطوف على قوله: «إذ قالت امرأة عمران» متعلق بقوله قبله «والله سميع عليم» وهذا الخطاب ليس بشرع خصت به، وإنما هو إلهام بمكانتها عند الله وبما يجب عليها من الشكر له بدوام القنوت والصلاة، فقول الملائكة لها: ﴿إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين﴾ قد زادها بمقتضى سنة الفطرة تعلقاً بالكمال، كما زادها روحانية بتأثير تلك الأرواح الطيبة التي أمدت روحها الطاهرة. والاصطفاء الأول: هو قبولها محررة لخدمة الله في بيته، وكان ذلك خاصاً بالرجال، والتطهير قد فسر بعدم الحيض وبذلك كانت أهلاً لملازمة المحراب، وهو أشرف مكان في المعبد. أو: هوأعم من هذا أي: طهرك مما يستقبح كسفساف الأخلاق وذميم الصفات وغير ذلك. والاصطفاء الثاني: ما اختصت به من خطاب الملائكة وكمال الهداية.

٤٣ ــ ﴿يا مريم اقنتي لربك﴾ أي: الزمي طاعته مع الخضوع له ﴿واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ السجود: التطامن والتذلل، والركوع والانحناء ويستعمل في لازمه وسببه، وهو التواضع والخشوع في العبادة

أو غيرها. وركوعها مع الراكعين عبارة عن صلاتها مع المصلين في المعبد وقد كانت ملازمة لمحرابه كما تقدم. وقد أطلق الركوع والسجود في صلاتنا على العمل المعلوم، وهو استعمال للفظ في حقيقته ومجازه، إذ الدين يطالبنا بالخشوع واستشعار التواضع في هذا الانحناء والتطامن، ولم تكن[1] صلاتهم كصلاتنا في أعمالها وصورتها. ولكنهم طولبوا فيها بمثل ما طولبنا من الخشوع لله تعالى.

٤٤ ـ ﴿ذلك﴾ الذي قصصناه عليك يا محمد من أخبار مريم وزكريا ﴿من أنباء الغيب﴾ لم تشهده أنت ولا أحد من قومك، ولم تطلع على شيء منه في الكتاب وإنما نحن ﴿نوحيه إليك﴾ بإنزال الروح الأمين على قلبك وإلقائه في روعك، خبر ما وقع بين بني إسرائيل في ذلك وغير ذلك. فضمير «نوحيه» راجع إلى الغيب ﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم﴾ أي: قداحهم المبرية، فالسهام والأزلام التي يضربون بها القرعة ويقامرون تسمى أقلاماً ﴿أيهم يكفل مريم﴾ أي: يستهمون بهذه الأقلام ويقترعون على كفالة مريم، حتى قرعهم زكريا فكان كافلها ﴿وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾ في ذلك ولم يتفقوا على كفالتها إلا بعد القرعة.

إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ

---

(١) قوله: «ولم تكن صلاتهم كصلاتنا» ليس ثمة دليل يفيد القطع بالنفي أو الإثبات في هذا الموضوع، فالأولى عدم الخوض في التفاصيل من غير دليل.

وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾

٤٥ ـ قوله تعالى: ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم﴾ شروع في خبر عيسى نفسه، بعد قصة أمه وقصة زكريا، عليهم السلام، وهو بدل من قوله: «وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك» وما بينهما اعتراض ناطق بحكمة نزول الآيات، مبين وجه دلالتها على صدق من أنزلت عليه. والمعنى: أن الملائكة بشرت مريم بالولد الصالح حين بشرتها باصطفاء الله إياها، وتطهيره لها، وأمرتها بمزيد عبادته والاستغراق في شكره. والمراد بالملائكة هنا الروح جبريل. وفي لفظ «كلمة» وجوه:

أحدها: أن المراد بالكلمة كلمة التكوين، لا كلمة الوحي. ذلك أنه لما كان أمر الخلق والتكوين وكيفية صدوره عن الباري عز وجل، مما يعلو عقول البشر عبر عنه سبحانه بقوله: «إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون» فكلمة «كن» هي كلمة التكوين.

الوجه الثاني: أنه أطلق عليه لفظ «الكلمة» لمزيد إيضاحه لكلام الله الذي حرفه قومه حتى أخرجوه عن وجهه وجعلوا الدين مادياً محضاً، قاله الرازي: وجعله من قبيل وصف الناس للسلطان العادل بـ«ظل الله» لما أنه سبب لظهور ظل العدل، قال: فكذلك كان عيسى سبباً لظهور كلام الله عز وجل بسبب كثرة بياناته له وإزالة الشبهات والتحريفات عنه.

الوجه الثالث: أن المراد بالكلمة: كلمة البشارة لأمه، فقوله: «بكلمة منه» معناه: بخبر من عنده أو بشارة، وهو كقول القائل ألقى إلى فلان كلمة سرني بها

بمعنى أخبرني خبراً فرحت به. قاله ابن جرير واستشهد له بقوله «وكلمته ألقاها إلى مريم» يعني: بَشَّرَ الله مريم بعيسى ألقاها إليها.

أما لفظ «المسيح»: فمعرب وأصله العبراني «مشيحاً» بالمعجمة ومعناه: الممسوح، وهو لقب الملك عندهم، لما مضت به تقاليدهم من مسح الكاهن كل من يتولى الملك بالدهن المقدس، وهم يعبرون عن تولية الملك بالمسح، وعن الملك بالمسيح، وقد اشتهر أن أنبياءهم بشروهم بمسيح يظهر فيهم، وأنهم كانوا يعتقدون أنه ملك يعيد إليهم ما فقدوا من السلطان في الأرض، فلما ظهر عيسى، عليه السلام، وسمي بالمسيح آمن به قوم. وقالوا: إنه هو الذي بشر به الأنبياء، ولا يزال سائر اليهود يعتقدون أن البشارة لما يأت تأويلها، وأنه لا بد أن يظهر فيهم ملك. وقوله تعالى في وصفه: ﴿وجيهاً في الدنيا والآخرة﴾ معناه: أنه يكون ذا وجاهة وكرامة في الدارين، فالوجيه: ذو الجاه والوجاهة. والمادة مأخوذة من «الوجه»، فيقال: لفلان وجه عند السلطان كما يقال: إن له جاهاً ووجاهة. وكون المسيح ذا جاه ومكانة في الآخرة ظاهر. وأما وجاهته في الدنيا فهي قد تكون موضع إشكال لما عرف من امتهان اليهود له ومطاردتهم إياه على فقره وضعف عصبيته. والجواب عن ذلك سهل: وهو أن الوجيه في الحقيقة من كانت له مكانة في القلوب. واحترام ثابت في النفوس، ولا يكون أحد كذلك حتى يكون له أثر حقيقي ثابت من شأنه أن يدوم بعده زمناً ـ طويلاً أو غير طويل ـ ولا ينكر أحد أن منزلة المسيح في نفوس المؤمنين به كانت عظيمة جداً، وأن ما جاء به من الإصلاح هو من الحق الثابت. وقد بقي أثره بعده. فهذه الوجاهة أعلى وأرفع من وجاهة الأمراء والملوك الذين يحترمون في الظواهر لظلمهم واتقاء شرهم، أو لدهانهم والتزلف إليهم، رجاء الانتفاع بشيء مما في أيديهم من عرض الحياة الدنيا، لأن هذه وجاهة صورية لا أثر لها في النفوس إلا الكراهة والبغض والانتقاص، وتلك وجاهة حقيقية مستحوذة على القلوب.

وحقيقة الوجاهة في الآخرة: هي أن يكون الوجيه في مكان علي ومنزلة رفيعة يراه الناس فيها فيجلونه ويعلمون أنه مقرب من الله تعالى ﴿ومن

المقربين﴾ أي: هو مع ذلك من عباد الله المقربين إليه عز وجل. فما ينعكس عن أنظار الناظرين إليه هناك إلى مرايا قلوبهم حقيقي في نفسه.

٤٦ ـ ﴿ويكلم الناس في المهد وكهلاً﴾ الجملة معطوفة على ما قبلها، ولا يضر عطف الفعل على الاسم؛ والكهل: الرجل التام السوي من غير تقييد بسن معينة، والكلام في المهد يصدق بما يكون في سن الكلام، وهي سنة فأكثر وما يكون قبل ذلك، وهو آية على كل تقدير. لأن تعديته إلى الناس تفيد أنه يكلمهم كلامِ التفاهم، وكلامُ الأطفال في المهد لا يكون كذلك عادة. وفي قوله: «وكهلاً» بشارة بأنه يعيش إلى أن يكون رجلاً سوياً كاملاً ﴿ومن الصالحين﴾ الذين أنعم الله عليهم وأصلح حالهم، وهم الأنبياء الذين تعرف مريم سيرتهم.

٤٧ ـ ﴿قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسني بشر﴾ أي: كيف يكون لي ولد والحال أنني لم أتزوج، فالمس: كناية ظاهرة، والاستفهام على حقيقته في وجه. ومعناه: هل يكون ذلك بزواج يطرأ؟ وفي وجه آخر: للتعجب من قدرة الله والاستعظام لشأنه ﴿قال كذلك الله يخلق ما يشاء﴾ أي: كمثل هذا الخلق البديع يخلق الله ما يشاء، فإن من شأنه الاختراع والإبداع، أقول: وعبر هنا بالخلق، وفي بشارة زكريا بيحيـى بالفعل ـ وكل منهما خَلْقٌ وفِعْلٌ ـ لكن لفظ الفعل يستعمل كثيراً فيما يجري على قانون الأسباب المعروفة. ولفظ الخلق يستعمل في الإبداع والإيجاد ولو بغير ما يعرف من الأسباب. فيقال: خلق السماوات والأرض ولا يقال فعل السماوات والأرض، ولما كان إيجاد يحيـى بين زوجين كإيجاد سائر الناس عبر عنه بالفعل، وإن كان فيه آية لزكريا أن هذين الزوجين لا يولد لمثلهما عادة، وأما إيجاد عيسى فهو على غير المعهود في التوالد، لأنه من أم غير زوج في الظاهر فكان بالأمور المبتدأة بمحض القدرة أشبه، والتعبير عنه بالخلق أليق، وإن كان له سبب روحاني جعل أمه بمعنى الزوج كما سيأتي، ولكن هذا السبب غير معهود للناس ولا معروف لهم فمريم لا تعرفه. ولكنها كانت مؤمنة بالله موقنة بقدرته على كل شيء، ولذلك أحالها في البشارة على مشيئته لتكون موقنة فقال: ﴿إذا قضى أمراً﴾ أي: إذا أراد شيئاً، فالقضاء

بمعنى الإرادة ﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾ قالوا: إن هذا ورد مورد التمثيل لكمال قدرته ونفوذ مشيئته، والتصوير لسرعة حصول ما يريد بغير ريث ولا تأخر، بتشبيه حدوث ما يريده عند تعلق إرادته به حالاً بطاعة المأمور القادر على العمل للآمر المطاع. ويسمون الأمر بـ«كن» أمر التكوين. ومنه قوله تعالى: «ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين» أي: أراد أن يكونا فكانتا. ويقابله أمر التكليف الذي يعرف بوحي الله لأنبيائه. وأقول: اعلم أن الكافرين بآيات الله ينكرون الحمل بعيسى من غير أب جموداً على العادات؛ وذهولاً عن كيفية ابتداء خلق جميع المخلوقات، ولو كان لهم دليل عقلي على استحالة ذلك لكانوا معذورين ولكن لا دليل لهم إلا أن هذا غير معتاد، وهم في كل يوم يرون من شؤون الكون ما لم يكن معتاداً من قبل، فمنه ما يعرفون له سبباً ويعبرون عنه بالاكتشاف والاختراع، ومنه ما لا يعرفون له سبباً ويعبرون عنه بفلتات الطبيعة. ونحن معاشر المؤمنين نقول: إن تلك الأشياء المعبر عنها بالفلتات، إما أن يكون لها سبب خفي وحينئذ يجب أن تهدي هؤلاء الجامدين إلى أن بعض الأشياء يجوز أن يأتي من غير طريق الأسباب المعروفة فلا ينكروا كل ما يخالفها لاحتمال أن يكون له سبب خفي لم يقفوا عليه. ولا ينزل أمر عيسى في الحمل به من غير واسطة أب عن ذلك. وإما أن تكون قد وجدت في الواقع ونفس الأمر خارقة لنظام الأسباب، وحينئذ يجب أن يعترفوا بأن الأسباب الظاهرة المعروفة ليست واجبة وجوباً عقلياً مطرداً، وإذا كان الأمر كذلك امتنع على العاقل أن ينكر شيئاً مَّا ويعده مستحيلاً لأنه لا يعرف له سبباً.

٤٨ ـ ﴿ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل﴾ «الكتاب» هنا: الكتابة بالخط، و«الحكمة»: العلم الصحيح الذي يبعث الإرادة إلى العمل النافع، ويقف بالعامل على الصراط المستقيم، لما فيه من البصيرة وفقه الأحكام وأسرار المسائل. و«التوراة»: كتاب موسى، فقد كان المسيح عالماً به يبين أسراره لقومه، ويقيم عليهم الحجج بنصوصه، و«الإنجيل»: هو ما أوحي إليه نفسه. والكلام معطوف على قوله: «ويكلم الناس» وآية: «قالت رب» معترضة بينهما.

٤٩ ـ ﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل﴾ أي: ويرسله أو يجعله رسولاً إلى بني إسرائيل فحذف لفظ «يرسله» أو «يجعله» لدلالة الكلام عليه، والرسول هنا: بمعنى الرسالة. والتقدير: ويعلمه الرسالة إلى بني إسرائيل، واستعمال لفظ «الرسول» بمعنى الرسالة شائع ﴿أني قد جئتكم بآية من ربكم﴾. والمعنى أنه يرسله محتجاً على صدق رسالته: بأني قد جئتكم. ثم فسر «الآية» بقوله: ﴿أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله﴾ الخلق: التقدير والترتيب، لا الإنشاء والاختراع، ويقرب أن يكون هذا إجماعاً من المفسرين، وقيل: كان يتخذ من الطين صورة خفاش، فينفخ فيها فتحلها الحياة وتتحرك في يده، وقال بعضهم: بل تطير قليلاً ثم تسقط. ولا حاجة إلى هذه التفصيلات، بل نقف عند لفظ الآية. وغاية ما يفهم منها أن الله تعالى جعل فيه هذا السر ولكن لم يقل: إنه خلق بالفعل، ولم يرد عن المعصوم أن شيئاً من ذلك وقع، وقد جرت سنة الله تعالى أن تجري الآيات على أيدي الأنبياء عند طلب قومهم لها، وجعل الإيمان موقوفاً عليها، فإن كانوا سألوه شيئاً من ذلك فقد جاء به وكذلك يقال في قوله: ﴿وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم﴾ فإن قصارى ما تدل عليه العبارة أنه خص بذلك وأمر بأن يحتج به. والحكمة في إخبار النبي ﷺ بذلك، إقامة الحجة على منكري نبوته، وأما وقوع ذلك كله أو بعضه بالفعل، فهو يتوقف على نقل يحتج به في مثل ذلك ﴿إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾ أي: إن فيما ذكر لحجة لكم على صدق رسالتي إن كنتم مؤمنين بالله مصدقين بقدرته الكاملة.

ومن مباحث اللفظ: أن قوله «فأنفخ فيه» يعود إلى الطير أو إلى ما ذكر.

٥٠ ـ ﴿ومصدقاً لما بين يدي من التوراة﴾ أي: أنه لم يأت ناسخاً للتوارة بل مصدقاً لها عاملاً بها، ولكنه نسخ بعض أحكامها كما قال: ﴿ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾ فقد كان حرم على بني إسرائيل بعض الطيبات بظلمهم وكثرة سؤالهم، فأحلها عيسى ﴿وجئتكم بآية من ربكم﴾ أعاد ذكر الآية للتفرقة بين ما قبلها وما بعدها ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾.

٥١ ـ ﴿إن الله ربي وربكم فاعبدوه﴾ أمرهم بتقوى الله وطاعته فيما جاء به عنه وختم ذلك بالتوحيد والاعتراف بالعبودية وقال في ذلك: ﴿هذا صراط مستقيم﴾ أي: أقرب مُوصل إلى الله.

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْأٓيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾

٥٢ ـ ﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر﴾ ينطوي تحت هذه الآية جميع ما دلت عليه البشارة، وعُلم: أنه وُلد وبُعث ودعا وأيد دعوته، كما سبقت البشارة فأحس وشعر من قومه ـ وهم بنو إسرائيل ـ الكفر والعناد والمقاومة والقصد بالإيذاء، وفي هذا من العبرة والتسلية للنبي ﷺ ما فيه، وأن أكبر ما فيه الإعلام بأن الآيات الكونية وإن كثرت وعظمت ليست ملزمة بالإيمان ولا مفضية إليه حتمًا، وإنما كون الإيمان باستعداد المدعو إليه، وحسن بيان الداعي، ولذلك كان من أمر عيسى، عليه السلام، أنه لما أحس من قومه الكفر ﴿قال من أنصاري إلى الله﴾ أي: توجه إلى البحث عن أهل الاستعداد الذين ينصرونه في دعوته تاركين لأجلها كل ما يشغل عنها، منخلعين عما كانوا

فيه، متحيزين ومنزوين إلى الله، منصرفين إلى تأييد رسوله ونصره على خاذليه والكافرين بما جاء به ﴿قال الحواريون نحن أنصار الله﴾ أي: أنصار دينه وهذا القول يفيد الانخلاع والانفصال من التقاليد السابقة والأخذ بالتعليم الجديد، وبذل منتهى الاستطاعة في تأييده، فإن نصر الله لا يكون إلا بذلك.

والحواريون: أنصار المسيح. والنصر لا يستلزم القتال فالعمل بالدين والدعوة إليه نصر له. ولا نتكلم في عددهم لأن القرآن لم يعينه. ولعل لفظ «الحوري» مأخوذ من الحواري: وهو لباب الدقيق وخالصه، لأنه من خيار القوم وصفوتهم، أو من «الحَوَر» وهو البياض، وفي حديث الصحيحين[1]: «لكل نبي حواري وحواريَّ الزبير» ومن هنا قيل: خاص بأنصار الأنبياء ﴿آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون﴾ مخلصون له منقادون لأمره، وفي هذا دليل على أن الإسلام دين الله على لسان كل نبي، وإن اختلفوا في بعض صوره وأشكاله وأحكامه وأعماله.

٥٣ ــ ﴿ربنا آمنا بما أنزلت﴾ معطوف على قولهم: «نحن أنصار الله الخ» أي: صدقنا بما أنزلت من الإنجيل ﴿واتبعنا الرسول﴾ عيسى بن مريم، ذكر الاتباع بعد الإيمان لأن العلم الصحيح يستلزم العمل، والعلم الذي لا أثر له في العمل يشبه أن يكون مجملاً وناقصاً لا يقينا. وكثيراً ما يظن الإنسان أنه عالم بشيء حتى إذا حاول العمل به لم يحسنه فيتبين له أنه كان مخطئاً في دعوى العلم. ثم قال: إن العلم بالشيء يظل مجملاً مبهمًا في النفس حتى يعمل به صاحبه، فيكون بالعمل تفصيلياً فذكر الحواريين الاتباع بعد الإيمان يفيد أن إيمانهم كان في مرتبة اليقين التفصيلي الحاكم على النفس المصرف لها في العمل ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ للرسول بتبليغ الدعوة، وعلى قومه بما كان منهم من الكفر والجحود، فحذف معمول الشاهدين ليعم المشهود له والمشهود عليهم.

٥٤ ــ ﴿ومكروا ومكر الله﴾ أي: ومكر أولئك الذين أحس عيسى منهم الكفر به، فحاولوا قتله، وأبطل الله مكرهم، فلم ينجحوا فيه، وعبر عن ذلك بالمكر على طريق المشاكلة كما قال الجمهور، ﴿والله خير الماكرين﴾ فإن

---

(١) هو من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: ندب رسول الله ﷺ الناس ــ أي: دعاهم للقتال ــ فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير، فقال النبي ﷺ ذلك.

تدبيره الذي يخفى على عباده إنما يكون لإقامة سننه وإتمام حكمه، وكلها خير في نفسها وإن قصر كثير من الناس في الاستفادة منها بجهلهم وسوء اختيارهم.

٥٥ ـ ﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا﴾ أي: اذكر مكر الله بهم إذ قال لنبيه: إني منتوفيك إلخ، فإن هذه بشارة بإنجائه من مكرهم وجعل كيدهم في نحرهم قد تحققت ولم ينالوا منه ما كانوا يريدون بالمكر والحيلة، والتوفي في اللغة: أخذ الشيء وافياً تاماً. فالمتبادر في الآية: إني مميتك وجاعلك بعد الموت في مكان رفيع عندي، والله تعالى يضيف إليه ما يكون فيه الأبرار من عالم الغيب قبل البعث وبعده، كما قال في الشهداء: «أحياء عند ربهم».

وأما تطهيره من الذين كفروا فهو: إنجاؤه مما كانوا يرمونه به،أو يرومونه منه،ويريدونه به من الشر. هذا ما يفهمه القارىء الخالي الذهن من الروايات والأقوال. لأنه هو المتبادر من العبارة وقد أيدناه بالشواهد من الآيات. ويقول بعض المفسرين: «إني متوفيك» أي: منومك. وبعضهم: إني قابضك من الأرض بروحك وجسدك،«ورافعك إلي» بيان لهذا التوفي، وبعضهم: إني أنجيك من هؤلاء المعتدين فلا يتمكنون من قتلك،وأميتك حتف أنفك ثم أرفعك إلي، ونسب هذا القول إلى الجمهور، وللعلماء ههنا طريقتان إحداهما وهي المشهورة: أنه رفع حياً بجسمه وروحه، وأنه سينزل في آخر الزمان فيحكم بين الناس بشريعتنا ثم يتوفاه الله تعالى[١].

والطريقة الثانية: أن الآية على ظاهرها وأن التوفي على معناه الظاهر المتبادر وهو الإماتة العادية، وأن الرفع يكون بعده وهو رفع الروح، ولا بدع في إطلاق الخطاب على شخص وإرادة روحه. فإن الروح هي حقيقة الإنسان والجسد كالثوب المستعار، فإنه يزيد وينقص ويتغير، والإنسان إنسان لأن روحه

---

(١) قوله: «ثم يتوفاه الله»، هذا هو القول الصحيح في المسيح، عليه السلام، فقد رفع حياً وسينزل ليحكم بشريعة محمد ﷺ كما في صحيح مسلم ثم يتوفاه الله ويصلي عليه المسلمون كما جاء في حديث في سنن أبي داود السجستاني، ومسند أبي داود الطيالسي، وما ذهب إليه المؤلف خلاف ذلك فلا دليل عليه.

هي هي. ﴿وجاعل الذين اتبعوك﴾ بالأخذ بما جئت به من الهدى ﴿فوق الذين كفروا﴾ بك ولم يهتدوا بهديك، فوقيةً روحانيةً دينيةً، وهي كونهم أحسن أخلاقاً وأكمل آداباً وأقرب إلى الحق والفضل، وأبعد عن الباطل والاعتداء، أو فوقية دنيوية: وهو كونهم يكونون أصحاب السيادة عليهم. ولكن هذا الوجه لم يتحقق في زمن المسيح لأشد الناس اتباعاً له، بل كانوا مغلوبين لليهود، فتعين أن يكون الوجه الأول هو المراد ووجهه ظاهر فإن اتباع المسيح هو عين الأخذ بتلك الفضائل والمواعظ التي جاء بها. ولا يشكل عليه قوله: ﴿إلى يوم القيامة﴾ فإن فوقية الفضائل والآداب هي التي كانت وستبقى كذلك ما دامت السماوات والأرض ﴿ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾ أقول فيه التفات عن الغيبة إلى الخطاب، وبذلك يشمل المسيح والمختلفين معه، ويشمل الاختلاف بين أتباعه والكافرين به، والله هو الذي يبين لهم جميعاً يوم الحساب الحقَّ في كل ما اختلفوا فيه.

٥٦ ـ ﴿فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين﴾ وكذلك عذب الله اليهود الذين كفروا به، بتسليط الأمم عليهم وبحكمها فيهم، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون هناك، كما أنهم لم ينصروا هنا.

٥٧ ـ ﴿وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم﴾ إما في الدارين، وهو الغالب في الأمم، وإما في الآخرة فقط ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ لأنفسهم بالخروج من سنن الفطرة والكفر بالأنبياء الذين يطالبون النفوس بتقويمها.

٥٨ ـ ﴿ذلك﴾ الذي تقدم من خبر عيسى ﴿نتلوه عليك من الآيات﴾ الدالة على نبوتك ﴿والذكر الحكيم﴾ الذي يبين وجوه العبر في الأخبار، والحكم في الأحكام فيهدي المؤمنين إلى لباب الدين، وفقه الشريعة، وأسرار الاجتماع البشري، ليتعظ المتعظون ويصل إلى مقام الحكمة العارفون.

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن

فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

٥٩ ــ ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم﴾ أي: إن شبه عيسى وصفته في خلق الله إياه كشأن آدم، ثم فسر هذا المثل بقوله: ﴿خلقه من تراب﴾ أي: قدَّر أوضاعه وكوَّن جسمه من تراب ميت أصابه الماء، فكان طيناً لازباً ذا لزوجة ﴿ثم قال له كن فيكون﴾ أي: ثم كونه تكويناً آخر بنفخ الروح فيه والمعنى: ثم قال له كلمة التكوين التي هي عبارة عن توجه الإرادة إلى الشيء ووجوده بها حالاً.

٦٠ ــ ذلك ﴿الحق من ربك﴾ الذي خلق عيسى وغيره وبيده ملكوت كل شيء ﴿فلا تكن من الممترين﴾ في أمره، القائلين فيه بغير علم، فقد جاءك علم اليقين.

٦١ ــ ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل﴾ لهم قولاً يظهر علمك الحق وارتيابهم الباطل ﴿تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل﴾ يقال: «ابتهل الرجل» دعا وتضرع، و «ابتهل القوم»: تلاعنوا. وفسر الابتهال هنا بقوله: ﴿فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ وتسمى هذه الآية: «آية المباهلة» وقد ورد من عدة طرق: أن النبي ﷺ دعا نصارى نجران للمباهلة فأبوا. وأخرج البخاري ومسلم: «أن العاقب والسيد أتيا رسول الله ﷺ فأراد أن يلاعنهما فقال أحدهما لصاحبه: لا تلاعنه فوالله لئن كان نبياً فلاعننا لا نفلح أبداً ولا عقبنا من بعدنا. فقال له: نعطيك ما سألت، فابعث معنا رجلاً أميناً فقال: «قم يا أبا عبيدة» فلما قام قال:

«هذا أمين هذه الأمة». وكل ما يفهم من الآية أمر النبي ﷺ أن يدعو المحاجين والمجادلين في عيسى من أهل الكتاب إلى الاجتماع رجالاً ونساء وأطفالاً، ويجمع هو المؤمنين رجالاً ونساء وأطفالاً ويبتهلون إلى الله تعالى بأن يلعن الكاذب فيما يقول عن عيسى، وهذا الطلب يدل على قوة يقين صاحبه وثقته بما يقول، كما يدل امتناع من دعوا إلى ذلك من أهل الكتاب سواء كانوا نصارى نجران أو غيرهم على امترائهم في حجاجهم، ومماراتهم فيما يقولون، وزلزالهم فيما يعتقدون وكونهم على غير بينة ولا يقين.

٦٢ ـ ﴿إن هذا لهو القصص الحق﴾ في شأن المسيح، وما عداه من قول القائلين له: إنه ولد زنا، وقول الغالبين فيه: إنه الله أو ابن الله فباطل ﴿وما من إله إلا الله﴾ الذي خلق كل شيء وليس كمثله شيء. فأيَّ معنى تتصورون من معاني الألوهية فهو له وحده ﴿وإن الله لهو العزيز الحكيم﴾ لا يساويه أحد في عزته في ملكه ولا يساميه مسام في حكمته في خلقه فيكون شريكاً له في ألوهيته، أو نِدّاً في ربوبيته.

٦٣ ـ ﴿فإن تولوا﴾ ولم يجيبوا الدعوة إلى المباهلة ولم يقبلوا عقيدة التوحيد الخالص ﴿فإن الله عليم بالمفسدين﴾ لعقائد الناس بإصرارهم على الباطل تقليداً محضاً لا برهان يؤيده، ولا بصيرة تعضده، وإفساد العقائد إفساد للعقل، وهو رأس كل إفساد، وسيحاسبهم على ذلك.

قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا

﴿مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

لـمّاً بيّـن جل شأنه القصص الحق في شأن عيسى والمختلفين فيه، وأقام الحجـة العقليـة عـلى الغـالبـين فيـه بـجعـله ربـاً وإلهـاً، ثـم ألزمهم بما دعاهم إلى المباهلة لم يبق، إلا أن يأمر نبيه بأن يدعوهم إلى الحق الواجب اتباعه في الإيمان، وذلك قوله:

٦٤ ـ ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾ الآية. الكلام من أول السورة في إثبات نبوة النبي ﷺ والرد على المنكرين. وقد ظهر بالدعوة إلى المباهلة انقطاع حجاج المكابرين، ودل نكولهم عنها على أنهم ليسوا على يقين من اعتقادهم ألوهية المسيح، وفاقد اليقين يتزلزل عندما يدعى إلى شيء يخاف عاقبته. فلما نكلوا دعاهم إلى أمر آخر هو أصل الدين وروحه الذي اتفقت عليه دعوة الأنبياء وهو سواء بين الفريقين أي: عدل ووسط لا يرجح فيه طرف على آخر. وقد فسره بقوله: ﴿أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾ أقول: المراد بهذا تقرير الوحدانية، فقد كان إبراهيم موحداً صرفاً وكذلك جميع الأنبياء. قال تعالى: ﴿فإن تولوا﴾ وأعرضوا عن هذه الدعوة وأبوا إلا أن يعبدوا غير الله باتخاذ الشركاء الذين يسمونهم وسطاء وشفعاء، واتخاذ الأرباب الذين يحلون لهم ويحرمون ﴿فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ نعبد الله وحده مخلصين له الـدين، لا ندعـو سواه ولا نتوجه إلى غيره في طلب نفع ولا دفع ضر، ولا نحل إلا ما أحله ولا نحرم إلا ما حرمه.

٦٥ ـ ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم﴾ جاءت هذه الآية والآيتان بعدها في سياق دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام، وبيان أنه دين جميع أنبيائهم الذين يدينون بإجلالهم، وكان إبراهيم عليه الصلاة والسلام وعلى آله، موضع إجلال الفريقين منهم، كما كانت قريش تجله وتدعي أنها على دينه، فأراد تعالى أن يبين لهم جميعاً أن هذا النبي الكريم الذي كانوا يجلونه لم يكن على

شيء من تقاليدهم وإنما كان على الإسلام الذي يدعوهم هو إليه على لسان نبيه محمد ﷺ، فبدأ بالاحتجاج على أهل الكتاب بقوله: ﴿وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده﴾ أي: فإذا كان الدين الحق لا يعدو التوراة كما تقولون أيها اليهود، أو لا يتجاوز الإنجيل كما تقولون أيها النصارى، فكيف كان إبراهيم على الحق واستوجب ثناءكم وثناء من قبلكم ﴿أفلا تعقلون﴾ أن المتقدم على الشيء لا يمكن أن يكون تابعاً له.

٦٦ ـ ﴿ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم﴾ مّا. وهو خبر عيسى فقامت عليكم الحجة بأن منكم من غالى في الافراط إذ قال: إنه إله، ومنكم من غالى في التفريط إذ قال: إنه دعي كذاب، ولم يكن علمكم القليل به عاصمًا لكم من الخطأ في الحكم عليه ﴿فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم﴾ وهو كون إبراهيم يهودياً أو نصرانياً! أليس الواجب عليكم أن تتبعوا فيه ما يوحيه الله إلى عبده محمد ﷺ ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾.

ثم بَيَّـنَ تعالى ما يعلم من أمره فقال:

٦٧ ـ ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً﴾ أي: مائلاً عن كل ما كان عليه أهل عصره من الشرك والضلال ﴿مسلمًا﴾ وجهه إلى الله تعالى وحده مخلصاً له الدين والطاعة ﴿وما كان من المشركين﴾، وهم قريش ومن وافقهم من العرب.

٦٨ ـ ﴿إن أولى الناس بإبراهيم﴾ أي: أجدرهم بولايته وأحراهم بموافقته ﴿للذين اتبعوه﴾ في عصره وأجابوا دعوته فاهتدوا بهديه ﴿وهذا النبي والذين آمنوا﴾ معه، فإنهم أهل التوحيد المحض ﴿والله ولي المؤمنين﴾ الذين لا يتوجهون إلى غيره في كشف ضر ولا طلب نفع، فهو يتولى أمورهم ويصلح شؤونهم ويتولى إثابتهم على حسب تأثير الإسلام في قلوبهم ويزيدهم من فضله.

وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ

تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

جاءت هذه الآيات بعد دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام الذي كان عليه إبراهيم والأنبياء لبيان حالهم في ذلك. وقد قال المفسرون: إن اليهود دعوا مُعاذاً بن جبل وعمار بن ياسر إلى دينهم فأنزل الله:

٦٩ ـ ﴿ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم﴾ الآية، ولا شك أنهم كانوا أشد الناس حرصاً على إضلال المؤمنين، سواء دعوا بعض الصحابة إلى دينهم أم لا. وليس الإضلال خاصاً بالدعوة، بل كانوا يُلقون ضروباً من الشك في النفوس ليصدوها عن الإسلام. وكان النزاع بين الفريقين مستمراً وهو ما لا بد منه في وقت الدعوة وقد قال تعالى في بيان حال هذه الطائفة المضللة: ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ معناه: أنهم بتوجههم إلى الإضلال واشتغالهم به ينصرفون عن النظر في طرق الهداية، وما أوتيه النبي ﷺ من الآيات البينات على كونه نبياً هادياً. فهم يعبثون بعقولهم ويفسدون فطرتهم باختيارهم. ﴿وما يشعرون﴾ بسوء عاقبة ما يفعلون.

ثم إنه تعالى ناداهم مبيناً لهم حقيقة ما هم فيه من الضلال لعلهم يلتفتون إلى أنفسهم التي شغلوا عنها بمحاولة إضلال غيرهم فقال:

٧٠ ـ ﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون﴾ ذهب الرازي إلى أن هذه الآية موجهة إلى الطائفة العارفة بما في التوراة من دلائل نبوة النبي ﷺ وما قبلها، وموجهة إلى غير العارفين بذلك، فـ«آيات الله» على هذا هي:

البشارات التي في التوراة، ومثلها بشارات الإنجيل، واللفظ عام يشمل ما في الكتابين. والكفر بها عبارة عن عدم العمل بها. والمختار عندي: أن الخطاب هنا موجه إلى جميع أهل الكتاب والآيات عامة في كل ما يدل على نبوة النبي ﷺ وحقيقة ما جاء به من القرآن وغيره. وقد كانوا يشهدون هذه الآيات معنى وحساً. وفي الاستفهام من التوبيخ لهم والنعي عليهم ما يليق بمن يكابر الموجود ويجحد المشهود.

٧١ ـ ﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل﴾ أي: تخلطون الحق الذي جاء به الأنبياء ونزلت به الكتب، وهو عبادة الله وحده وعمل البر والخير والبشارة بنبي من بني إسماعيل يعلم الناس الكتاب والحكمة، لم تخلطون هذا بالباطل الذي ألحقه به أحباركم ورهبانكم من التأويلات والآراء وتجعلون كل ذلك ديناً يجب اتباعه ويحسب أنه من عند الله؟ ﴿وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾ قيل: هذا خاص بالبشارة بالنبي ﷺ. والصواب أن هذا عام. فإنهم كانوا يكتمون بعض الأحكام اتباعاً للهوى، فيجعلون الكتاب قراطيس يُبْـدونها ويخفون كثيراً، ويأكلون بذلك السحت، وقد بين الله لهم على لسان رسوله كثيراً مما كانوا يخفون من الكتاب كما سيأتي في سورة «المائدة» وغيرها إن شاء الله تعالى.

٧٢ ـ ثم قال تعالى: ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾ قال السيوطي في أسباب النزول: روى ابن إسحق عن ابن عباس قال: قال عبد الله بن الصيف وعدي بن زيد والحارث بن عوف بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوة ونكفر به عشية حتى نلبِّس عليهم دينهم، لعلهم يصنعون كما نصنع، فيرجعون عن دينهم، فأنزل الله فيهم: «يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل» إلى قوله: «واسع عليم» وأقول:

إن هذا النوع الذي تحكيه الآية من صد اليهود عن الإسلام مبني على قاعدة طبيعية في البشر، وهي: أن من علامة الحق أن لا يرجع عنه من يعرفه. وقد فقه هذا هرقل صاحب الروم فكان مما سأل عنه أبا سفيان من شؤون

النبي ﷺ عندما دعاه إلى الإسلام: «هل يرجع عنه من دخل في دينه؟ فقال أبو سفيان: لا»، وقد أرادت هذه الطائفة أن تغش الناس من هذه الناحية ليقولوا: لولا أن ظهر لهؤلاء بطلان الإسلام لما رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيه، واطلعوا على باطنه وخوافيه، إذ لا يعقل أن يترك الإنسان الحق بعد معرفته، ويرغب عنه بعد الرغبة فيه بغير سبب.

٧٣ ـ ﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾ هذا من قول الكائدين من أهل الكتاب، و«آمن له»: صدقه وسلم له ما يقول، والإيمان يتعدى باللام إذا أريد بالتصديق الثقة والركون كقوله: «ويؤمن للمؤمنين» أي: فيكون تصديقاً خاصاً تضمن معنى زائداً. وذلك أن اليهود حصروا الثقة بأنفسهم لزعمهم أن النبوة لا تكون إلا فيهم، بل غالوا في التعصب والغرور حتى حقروا جميع الناس، فجعلوا كل ما يكون من أنفسهم حسناً وما يكون من غيرهم قبيحاً ﴿قل إن الهدى هدى الله﴾ لا هدى شعب معين هو لازم من لوازم ذاته. أما قوله: ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم﴾ ففيه وجهان: أحدهما: أنه متصل بما حكاه تعالى من قول اليهود وجملة: «قل إن الهدى هدى الله» اعتراضية بينه وبين ما سبقه. والمعنى: ولا تصدقوا غير من تبع دينكم بأن أحداً يؤتى مثل ما أوتيتم، أو يقيموا عليكم الحجة عند ربكم، أي: لا تعترفوا أمام العرب مثلاً بأنكم تعتقدون أنه يجوز أن يبعث نبي من غير بني إسرائيل إلخ، وهذا مبني على أنهم كانوا ينكرون جواز بعثة نبي من العرب بألسنتهم مكابرة وعناداً للنبي ﷺ لا اعتقاداً، وأنهم كانوا لا يصرحون باعتقادهم المستكن في أنفسهم إلا لمن آمنوا له من قومهم لما هم عليه من المنكر والمخادعة. والوجه الثاني: أن يكون قوله «أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم» من كلام الله تعالى بناء على أن حكاية كلام اليهود قد انتهت بقوله: «دينكم»، وتقرير المعنى عليه: أتكيدون هذا الكيد كراهة أن يؤتى أحد ما وتيتم؟ أو: أإيتاء أحد مثل ما أوتيتم يحملكم على ذلك الباطل؟ ﴿قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء﴾ فالهدى هدى الله تعالى لا وفق ما يشتهون. وختم الآية بقوله: ﴿والله واسع عليم﴾ لبيان سعة فضله وإحاطة علمه بالمستحق له، وللإشعار بأن اليهود قد ضيقوا ـ بزعمهم حصر النبوة فيهم ـ هذا الفضل الواسع.

ثم بَيَّـنَ تعالى أن رحمته العامة تابعة لمشيئته لا لوساوس المغرورين من أهل الكتاب الذين حجروهما بجهلهم فقال:

٧٤ ـ ﴿يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ فهو يجعل من يشاء نبياً ويبعثه رسولاً، ومن اختصه بذلك فإنما يختصه بمحض فضله العظيم لا بعمل قدمه، ولا لنسب شرفه، وإن جهل ذلك الذين يظنون أنه تعالى يحابي الأفراد أو الشعوب بذلك وبغيره تعالى الله عن ذلك.

وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

٧٥ ـ ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك﴾ هذه الآية جاءت ببعض التفصيل لما أجمل في الآيات السابقة من غرور أهل الكتاب وزعمهم أنهم شعب الله الخاص، وأن الدين والحق من خصائصهم، فكأنه قال: منهم طائفة تكيد للمسلمين، ومنهم من يستحل أكل أموالهم وأموال غيرهم، وإنما أعاد ذكر «أهل الكتاب» ولم يبتدىء الآية بقوله: «ومنهم» ـ والكلام فيهم ـ للإشعار بأنهم فعلوا ذلك باسم الكتاب الذي حرفوا نهيه عن أكل أموال الناس بالباطل فزعموا أنه لم ينههم إلا عن خيانة إخوتهم الإسرائيليين. وقوله: ﴿إلا ما دامت عليه قائمًا﴾ معناه: إلا مدة دوامك أيها المؤتمن له قائمًا على رأسه تلح بالمطالبة، أو تلجأ إلى التقاضي والمحاكمة، ﴿ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل﴾ أي: ذلك الترك

للأداء بسبب قولهم: ليس علينا في أكل أموال الأميين ـ أي: العرب ـ تبعة ولا ذنب. فكأنه يقول إن استحلال هذه الخيانة جاءهم من الغرور بشعبهم والغلو في دينهم، فإن ذلك يستتبع احتقار المخالف احتقاراً يهضم به حقه الثابت في المعاملة كأنهم يقولون: إن كل من ليس من شعب الله الخاص وليس من أهل دينه فهو ساقط من نظر الله ومبغوض عنده، فلا حقوق له ولا حرمة لماله، فيحل أكله متى أمكن. وقد رد الله عليهم هذه المزاعم بقوله: ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ أن ذلك كذب عليه لأن ما كان منه فهو ما جاء في كتابه، وليس في التوراة التي عندهم إباحة خيانة الأميين، وأكل أموالهم بالباطل، وهم يعلمون أن ذلك ليس فيها، ولكنهم لا يأخذون الدين من الكتاب، وإنما لجأوا إلى التقليد، فعدوا كلام أحبارهم ديناً ينسبونه إلى الله.

٧٦ ـ ثم قال تعالى في بيان الحق في المعاملة: ﴿بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين﴾ العهد: ما تلتزم الوفاء به لغيرك، فإذا اتفق اثنان على أن يقوم كل منهما للآخر بشيء مقابلة ومجازاة، يقال: إنهما تعاهدا، ويقال: عاهد فلان فلاناً عهداً، فيدخل فيه العقود المؤجلة والأمانات، فمن ائتمنك على شيء،أو أقرضك مالاً إلى أجل،أو باعك بثمن مؤجل وجب عليك الوفاء بالعهد وأداء حقه إليه في وقته من غير أن تلجئه إلى التقاضي والإلحاح في الطلب. ويدخل في الاطلاق عهد الله تعالى، وهو ما يلتزم المؤمن الوفاء له به من اتباع دينه والعمل بما شرعه على لسان رسوله وعَهِدَ للناس العمل به، وهو حجة على اليهود أيضاً فإنهم ما كانوا يوفون بهذا العهد مع أنهم يقولون بوجوب الوفاء ولو أوفوا به لآمنوا بالنبي ﷺ واتبعوا النور الذي أنزل معه كما أوصاهم الله وعهد إليهم على لسان موسى ﷺ. ولفظ «بلى» جاء لإثبات ما نفوه في قولهم: «ليس علينا في الأميين سبيل» فهو يقول: بلى عليكم سبيل وأيُّ سبيل، إذ فرض عليكم الوفاء بالعهد والتقوى،ثم ذكر جزاء أهل الوفاء والتقوى فقال: «من أوفى بعهده» الذي عاهد به الله أو الناس،و «اتقى» الإخلاف والغدر والاعتداء، فإن الله يحبه، فيعامله معاملة المحبوب، بأن يجعله محل عنايته ورحمته في الدنيا والآخرة.

٧٧ ـ ثم بين تعالى جزاء أهل الغدر والإخلاف مع بيان السبب الذي

يحملهم على ذلك فقال: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾ روى الشيخان وغيرهما أن الأشعث قال: كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني فقدمته إلى النبي ﷺ فقال: «ألك بينة؟» قلت: لا، فقال لليهودي: «احلف» فقلت: يا رسول الله إذن يَحْلِفَ فيذهب مالي، فأنزل الله: «إن الذين يشترون بعهد الله» الآية. وأخرج البخاري عن عبد الله بن أبي أوفي: أن رجلاً أقام سلعة له في السوق فحلف بالله لقد أُعطي بها ما لم يعطِه ليوقع فيها رجلاً من المسلمين، فنزلت هذه الآية: «إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً.

قال الحافظ ابن حجر في شرح البخاري: لا منافاة بين الحديثين، بل يحمل على أن النزول كان بالسببين معاً.

والأيمان: جمع يمين، وهو في الأصل اسم اليد التي تقابل الشمال، ثم سمي الحلف والقسم يميناً لأن الحالف في العهد، يضع يمينه في يمين من يعاهده عند الحلف، لتأكيد العهد وتوثيقه، حتى إن اللفظ يطلق على العهد نفسه. وقد أضاف العهد ههنا إلى الله لأنه تعالى عهد إلى الناس في كتبه المنزلة أن يلتزموا الصدق والوفاء بما يتعاهدون ويتعاقدون عليه، وأن يؤدوا الأمانات إلى أهلها كما عهد إليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ويتقوه في جميع الأمور، فعهد الله يشمل كل ذلك، ولما كان الناكث للعهد لا ينكث إلا لمنفعة يجعلها بدلاً منه عبر عن ذلك بالشراء الذي هو معاوضة ومبادلة، وسمى العوض ثمناً قليلاً، مع العلم بأن بعض الناس لا ينكثون العهد في الأمور الكبيرة إلا إذا أوتوا عليه أجراً كبيراً وثمناً كثيراً، لأجل أن يبين للناس أن كل ما يؤخذ بدلاً من عهد الله فهو قليل لا سيما إذا أكد باليمين، لأن العهود إذا خزيت اختل أمر الدين، إذ الوفاء آيته البينة، بل محوره الذي عليه مداره، وفسدت مصالح الدنيا إذ تبطل ثقة الناس بعضهم ببعض والثقة روح المعاملات وسلك النظام وأساس العمران، لأجل هذا كان الوعيد على نكث العهد ولو لأجل المنفعة أشد ما نطق به الكتاب وأغلظه وأي عقاب أشد من عقاب من لا خلاق له في الآخرة، أي: لا نصيب له من النعيم فيها ولا يكلمه الله كلام إعتاب، ولا ينظر إليه نظر

عطف ورحمة، ولا يزكيه بالثناء على عمل له صالح،أو لا يطهره من ذنوبه بالعفو والمغفرة وله عذاب أليم؟.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

٧٨ ــ قوله تعالى: ﴿وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب﴾ بيان لحال طائفة أخرى من أهل الكتاب، والجمهور على أن المراد بهذا الفريق بعض علماء اليهود الذين كانوا حوالي المدينة، وإن كان التشنيع عليهم يتناول كل من كان على شاكلتهم منهم ومن غيرهم. وهذا العمل ينبىء بفساد اعتقادهم وعدم استمساكهم بكتابهم. وذلك أنهم جعلوا الدين جنسية وصار الانتصار له عندهم عبارة عن مقاومة من لم يكن من جنسهم وإن كان أقرب منهم إلى ما جاء في كتابهم، بل إنهم يخرجون عن كتابهم ويحرفونه لمقاومة الغريب ويعدون ذلك انتصاراً له. أما لَيّ اللسان بالكتاب: فهو فتله للكلام وتحريفه له، بصرفه عن معناه إلى معنى آخر، ذلك أنهم وضعوا كلمة: «غير مسمع» مكان جملة «لا أُسمعت مكروهاً» الدعائية التي تقال عادة عند ذكر السماع. وكلمة «راعنا» مكان كلمة «انظرنا» التي يقولها الناس لمن يطلبون معونته ومساعدته، وإنما قالوا: «غير مسمع» لأنها تستعمل في الدعاء على المخاطب بمعنى: «لا سمعت»، وقالوا: «راعنا» لأن هذه الكلمة عبرانية أو سريانية كانوا يتسابون بها كما قال المفسرون وسيأتي تفصيل ذلك في محله. ومثل هذا ما ورد في كتب الحديث والسير من أنهم كانوا إذا سلموا على النبي ﷺ يمضغون كلمة السلام فيخففون اللام قائلين: «السام عليكم» غير مفصحين بالكلمة، والسام: الموت فـ «اللَّيُّ» والتحريف قد كان يكون منهم أحياناً بتغيير في اللفظ وأحياناً بصرفه إلى غير المعنى المراد منه. ﴿لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾

أنهم كاذبون. أكد الخبر بتعمدهم التحريف وسجل الكذب الصريح عليهم، كأنه يقول: إنهم لا يعرضون ولا يُوَرُّون وإنما يصرحون بالكذب تصريحاً، لفرط جراءتهم وعدم خوفهم من الله تعالى، لأن الدين عندهم رسم ظاهر وجنسية هي مصدر الغرور، إذ يعتقدون أنهم يغفر لهم جميع ما يجترمون لأنهم من أهل هذا الدين، ومن سلالة أولئك النبيين.

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

أخرج ابن إسحاق والبيهقي عن ابن عباس قال: قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى؟ قال: «معاذ الله» فأنزل الله في ذلك: «ما كان لبشر» إلى قوله «مسلمون»، وأخرج عبد الرزاق في تفسيره عن الحسن قال: بلغني أن رجلاً قال: يا رسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض، أفلا نسجد لك؟ قال: «لا ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله، فإنه لا ينبغي أن يُسْجَدَ لأحد من دون الله» فأنزل الله:

٧٩ ـ ﴿ما كان لبشر﴾ الآية، فقوله: «ما كان لبشر» نفي للشأن، وهو أبلغ من نفي الوقوع خاصة، لأنه نفي للوقوع مع بيان السبب والدليل، وهو أن هذا غير ممكن ﴿أن يؤتيه الله الكتاب والحكم﴾ به والعمل بإرشاده فالعمل هو الذي يقرر الحق فيها. وإنما قال: ﴿والنبوة﴾ بعد قوله: «يؤتيه الله الكتاب» لأن المرسل إليهم يقال: إنهم أوتوا الكتاب ﴿ثم يقول للناس كونوا عباداً لي﴾ العباد: جمع عبد بمعنى: عابد، والعبيد: جمع له بمعنى مملوك، أي:

بأن تتخذوني إلهاً أو رباً لكم ﴿من دون الله﴾ أي: كائنين لي من دون الله، أو كونوا عابدين لي من دونه. وقيل: معناه: حال كونكم متجاوزين الله تعالى أي: متجاوزين ما يجب من إفراده بالعبادة وتخصيصه بالعبودية ﴿ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تُعَلِّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾ أي: ولكن يأمرهم النبي الذي أوتي الكتاب والحكم بأن يكونوا منسوبين إلى الرب، فالآية تفيد أن الإنسان يكون ربانياً بعلم الكتاب ودرسه وبتعليمه للناس ونشره، ومن المقرر أن التقرب إلى الله تعالى لا يكون إلا بالعمل بالعلم، والعلم الذي لا يبعث إلى العمل لا يعد علماً صحيحاً. لأن العلم الصحيح ما كان صفة للعالم وملكة راسخة في نفسه، وإنما الأعمال آثار الصفات والملكات والمعلم يعبر عما رسخ في نفسه. ومن لم يحصل من علم الكتاب إلا صوراً وتخيلات تلوح في الذهن ولا تستقر في النفس لا يمكنه أن يكون معلماً له يفيض العلم على غيره، كما أنه لا يكون عاملاً به على وجهه كما ثبت بالمشاهدة والاختبار.

٨٠ ــ ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً﴾ تُنْقَلُ عبادة الملائكة عن مشركي العرب، وعن بعض أهل الكتاب، واتخذ بعض اليهود عزيراً والنصارى المسيح ابناً لله، فجاء الإسلام يبين أن كل ذلك مخالف لما جاء به الأنبياء من الأمر بعبادة الله وحده، وإخلاص الدين له والنهي عن عبادة غيره. ولذلك قال: ﴿أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾ بمقتضى الفطرة، معناه: أنه ما كان للمسيح أن يأمر أهل الكتاب الذين بعث فيهم بعبادته بعد إذ كانوا موحدين بمقتضى ما جاءهم به موسى.

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

٨١ ـ قال الإمام الرازي عند تفسير: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين﴾ الآية: اعلم أن المقصود من هذه الآيات تعديد تقرير الأشياء المعروفة عند أهل الكتاب مما يدل على نبوة محمد ﷺ، قطعاً لعذرهم وإظهاراً لعنادهم، ومن جملتها ما ذكره الله تعالى في هذه الآية. وهو أنه تعالى أخذ الميثاق من الأنبياء الذين آتاهم الكتاب والحكمة بأنهم كلما جاءهم رسول مصدق لما معهم آمنوا به ونصروه وأخبر أنهم قبلوا ذلك. وحكم بأن من رجع عن ذلك كان من الفاسقين. فهذا هو المقصود من الآية. أما أخذ الميثاق من المرء وهو العهد الموثق المؤكد، فهو عبارة عن كون المأخوذ منه وهو المعاهد ـ بكسر الهاء ـ يلتزم للآخذ وهو المعاهد ـ بفتح الهاء ـ أن يفعل كذا، مؤكداً ذلك باليمين أو بلفظ من المعاهدة أو المواثقة. وفي قوله: «ميثاق النبيين» وجهان: أحدهما: أن معناه: الميثاق من النبيين. فالنبيون: هم المأخوذ عليهم. وعلى هذا يكون حكمه سارياً على أتباعهم بالأولى، وثانيهما: أن إضافة «ميثاق» إلى النبيين على أنهم أصحابه فهو مضاف إلى الموثق لا إلى الموثق عليه، كما تقول عهد الله وميثاق الله. وحينئذ يكون المأخوذ عليه مسكوتاً عنه للعلم به وتقديره: وإذ أخذ الله ميثاق النبيين على أممهم، أو الخطاب لأهل الكتاب والمعنى: وإذ أخذ الله عليكم ميثاق النبيين الذين أرسلوا إلى قومكم، أو التقدير ميثاق: أمم النبيين. وكل من القولين مروي عن السلف. واللام في قوله: ﴿لما آتيتكم﴾ لام التوطئة لأخذ الميثاق، لأنه في معنى الاستحلاف، أي: أن الميثاق بمعنى القسم، فأخذه بمعنى الاستحلاف. و «ما» التي دخلت عليها اللام هي المتضمنة لمعنى الشرط، والمعنى: مهما آتيتكم ﴿من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه﴾ واللام في «لتؤمنن» لام جواب القسم، وجعلوا: «لتؤمنن» ساداً مسد جواب القسم وجواب الشرط جميعاً. ويجوز أن تكون «ما» موصولة والعائد حينئذ محذوف أي: لما آتيتكموه. أقول: ويكون المراد منه بيان

مرتبته ﷺ مع النبيين إذا فرض أن وجد في عصرهم، وهو أنه يكون الرئيس المتبوع لهم، فما قولك إذاً في اتباعهم لا سيما بعد زمنهم؟ وإنما كان له ﷺ هذا الاختصاص لأن الله تعالى قضى في سابق علمه بأن يكون هو خاتم النبيين، الذي يجيء بالهدى الأخير العام الذي لا يحتاج البشر بعده إلى شيء معه سوى

استعمال عقولهم واستقلال أفكارهم، واحتج القائلون بأن المراد بـ «الرسول» محمد ﷺ بحجج منها حديث: «والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني» رواه أبو يعلى من حديث جابر. وأما المعنى على الوجه الأول مع القول بأن الميثاق أخذ على الأنبياء فهو أنه لما كان القصد من إرسالهم واحداً وجب أن يكونوا متكافلين متناصرين إذا جاء واحد منهم في زمن آخر آمن به ونصره بما استطاع،ولا يلزم من ذلك أن يكون متبعاً لشريعته، كما آمن لوط لإبراهيم وأيد دعوته إذ كان في زمنه. وكل من القولين حجة على الذين يجعلون الدين سبباً للخلاف والنزاع والعداوة والبغضاء، كما فعل أهل الكتاب في عداوة النبي ﷺ والكيد له. فكان يدعوهم إلى كلمة سواء فلا يلقى منهم إلا الخلاف والشحناء. قال تعالى لمن أخذ عليهم هذا الميثاق: ﴿ءأقررتم وأخذتم﴾ أي: قبلتم ﴿على ذلكم﴾ الذي ذكر من الإيمان بالرسول المصدق لما معكم ونصره ﴿إصري﴾ أي: عهدي ﴿قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾ أي: فليشهد بعضكم على بعض وأنا معكم شاهد عليكم جميعاً لا يغيب عن علمي شيء والمعنى: أن الله تعالى أمر الأنبياء بأن يشهدوا على أممهم بذلك وهو سبحانه معهم شهيد.

٨٢ ـ ﴿فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ أي: إن من مقتضى ذلك الميثاق أن دين الله واحد، وأن دعاته متفقون متحدون، فمن تولى بعد الميثاق على ذلك عن هذه الوحدة،واتخذ الدين آلة للتفريق والعدوان ولم يؤمن بالنبي المتأخر المصدق لمن تقدمه ولم ينصره، كأولئك الذين كانوا يجحدون نبوة محمد ﷺ ويؤذونه،فأولئك هم الفاسقون أي: الخارجون من ميثاق الله الناقضون لعهده وليسوا من دينه الحق في شيء.

ولما بين سبحانه أن دينه واحد وأن رسله متفقون فيه، قال في منكري نبوة محمد ﷺ:

٨٣ ـ ﴿أفغير دين الله يبغون﴾ همزة الاستفهام الإنكاري داخلة على فعل محذوف، والفاء الداخلة على «غير» عاطفة للجملة بعده على ذلك المحذوف الذي دل عليه العطف وعينه الكلام السابق. والمعنى: أيتولون عن

الإيمان بعد هذا البيان فيبغون غير دين الله الذي هو الإسلام ﴿وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً﴾ أي: والحال أن جميع من في السماوات والأرض من العقلاء قد خضعوا له تعالى وانقادوا لأمره طائعين وكارهين.

واختلفوا في بيان إسلام الطوع والكره، فذهب بعضهم إلى أن الإسلام هنا متعلق بالتكوين والإيجاد والإعدام، لا بالتكليف، أي: إنه تعالى هو المتصرف فيهم وهم الخاضعون المنقادون لتصرفه. وقال الرازي: إن هذا هو الأصح عنده، ولم يذكر فيه معنى الطوع والكره، وكأنه يعني: أن ما يحل بالعقلاء من تصاريف الأقدار منه ما يصحبه اختيارهم عن رضى واغتباط فيكونون خاضعين له طوعاً، ومنه ما ليس كذلك فيحل بهم وهم له كارهون. ويقابل هذا: أن الإسلام متعلق بالتكليف والدين فقط. وصاحب هذا القول يفسر إسلام الكره بما يكون عند الشدائد الملجئة إليه، كما قال تعالى: «وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور». ومنهم من قال: إن إسلام الكره ما يكون عند رؤية الآيات كما وقع لقوم موسى، وقيل: ما يكون عند الخوف من السيف، وقيل: ما يكون عند الموت إذ يشرف الكافر على الآخرة ولكنه إسلام لا ينفعه.

وهناك مذهب ثالث: وهو أن الإسلام أعم من إسلام التكليف وإسلام التكوين، فهو يشمل ما يكون بالفطرة وما يكون بالاختيار. وفي هذا المذهب وجوه: فقال الحسن: الطوع لأهل السماوات خاصة وأما أهل الأرض فبعضهم بالطوع وبعضهم بالكره. وقيل: إن كل الخلق منقادون لإلهيته طوعاً ومنقادون لتكاليفه وإيجاده للآلام كرهاً. وقيل: المسلمون الصالحون ينقادون لله طوعاً فيما يتعلق بالدين وينقادون له كرهاً فيما يخالف طباعهم من المرض والفقر والموت وأشباه ذلك، وأما الكافرون: فهم ينقادون لله كرهاً على كل حال في التكليف والتكوين. وهذه وجوه ضعيفة كما ترى. فالظاهر أن ما يكون منهم من الانقياد لله تعالى بمقتضى الفطرة من قسم إسلام الطوع. وأما ما يقع منهم من التكليف بالاختيار فمنه ما يفعل طوعاً وما يفعل كرهاً، وكذا ما يقع بهم منه ما يكونون

كارهين له، ومنه ما يكونون راضين به. فإذا كان مراداً في الآية فالطوع فيه بمعنى الرضى. وصفوة الكلام: أن الدين الحق هو إسلام الوجه لله تعالى والإخلاص في الخضوع له، وأن الأنبياء كلهم كانوا على ذلك وقد أخذ ميثاقهم بذلك على أممهم ولكنهم نقضوه، فجاءهم النبي الموعود به يدعوهم إليه فكذبوه، فهم بذلك قد ابتغوا غير دينه الذي زعموه ﴿وإليه يرجعون﴾ فيجزيهم بما كانوا يعملون.

قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾

٨٤ ــ كما ختم تعالى آية دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام بقوله: «فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» جاء هنا بعد ذكر توليتهم عن الإسلام يأمرنا بالإقرار به فقال مخاطباً لنبيه ﷺ: ﴿قل آمنا بالله﴾ أي: آمنت أنا ومن معي بوجود الله ووحدانيته ﴿وما أنزل علينا﴾ من كتابه بالتفصيل. وقدم الإيمان بالله على الإيمان بإنزال الوحي لأنه الأصل الأول المقصود بالذات، والوحي فرع له، إذ هو وحيه تعالى إلى رسله ﴿وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾ أي: وآمنا بما أنزل على هؤلاء بالإجمال، أي: صدقنا بأن الله تعالى أنزل عليهم وحياً لهداية أقوامهم، وأنه موافق لما أنزل علينا في أصله والقصد منه. وأما عين ما أوحي إليهم فلم يبق منه في أيدي الأمم شيء يعتمد على نقله ﴿وما أوتي موسى وعيسى﴾ من التوراة للأول، والإنجيل للثاني ﴿و﴾ ما أوتي ﴿النبيون من ربهم﴾ كداود وسليمان وأيوب وغيرهم، ممن لم يقص الله علينا خبرهم، فإن منهم من قصه علينا ومنهم من لم يقصصه، فإذا ثبت عندنا أن نبياً كان في الهند أو الصين قبل ختم النبوة نؤمن به. وقد قدم

الإيمان بما أنزل علينا على الإيمان بما أنزل على من قبلنا مع كونه أنزل قبله في الزمن لأن ما أنزل علينا هو الأصل في معرفة ما أنزل عليهم والمثبت لـه، ولا طريق لإثباته سواه لانقطاع مسند تلك وفقد بعضها ووقوع الشك فيما بقي منها، فما أثبته كتابنا من نبوة كثير من الأنبياء نؤمن به إجمالاً فيما أجمل وتفصيلا فيما فصل، وما أثبته لهم من الكتب كذلك. ونؤمن بأن أصول ما جاؤوا به واحدة وهي الإيمان بالله وإسلام القلوب له والإيمان بالآخرة والعمل الصالح مع الإخلاص. فكما أن الإيمان بالله أصل للإيمان بما أنزل علينا كذلك ما أنزل علينا أصل للإيمان بما أنزل عليهم فقدم عليه ﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾ كما يفرق أهل الكتاب. فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، ولا نفرق بينهم في الدين فنقول: بعضهم على حق وبعضهم على باطل، بل نقول:إنهم كانوا جميعاً على الحق لا خلاف بينهم في الأصول والمقاصد، فمثلهم كمثل الولاة الصادقين يرسلهم الملك العادل متعاقبين لعمارة الولاية وإصلاح أهلها، وما يكون من التغيير في بعض قوانينهم إنما يكون بحسب حال الولاية وأهلها، والمقصد واحد وهو العمران والإصلاح ﴿ونحن له مسلمون﴾ منقادون بالرضى والإخلاص، منصرفون عن أهوائنا وشهواتنا في الدين لا نتخذه جنسية لأجل حظوظ الدنيا، وإنما نبتغي به التقرب إليه تعالى بإصلاح النفوس وإخلاص القلوب.

افتتح الآية بذكر الإيمان وختمها بالإسلام الذي هو في كماله ثمرته وغايته وهذا هو الإسـلام الديني الذي كان عليه جميع الأنبياء، ولذلك قفى عليه بقوله:

٨٥ ــ ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ لأن الدين إذا لم يكن هو الإسلام الذي بينا معناه آنفاً فما هو إلا رسوم وتقاليد يتخذها القوم رابطة للجنسية، وآلة للعصبية، ووسيلة للمنافع الدنيوية، وذلك مما يزيد القلوب فساداً، والأرواح إظلاماً، فلا يزيد الناس في الدنيا إلا عدواناً، وفي الآخرة إلا خسراناً، ولذلك قال: ﴿وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ أي: أنه يكون هنالك خاسراً للنعيم المقيم، في جوار الرب الرحيم، لأنه خسر نفسه إذ لم يزكها بالإسلام لله، وإخلاص السريرة له جل علاه.

﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٦ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ٨٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٨٨ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٨٩﴾

روى النسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال: «كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ثم ندم فأرسل إلى قومه أرسلوا إلى رسول الله ﷺ هل لي من توبة؟ فنزلت: «كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم» إلى قوله: «فإن الله غفور رحيم» فأرسل إليه قومه فأسلم. وأخرج عبد بن حميد وغيره عن الحسن: أنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى رأوا نعت محمد في كتابهم وأقروا وشهدوا أنه حق فلما بعث من غيرهم حسدوا العرب على ذلك فأنكروه وكفروا بعد إقرارهم حسداً للعرب حين بعث من غيرهم. وأقول: إن الآيات متصلة بما قبلها. وذلك أنه لما بين حقيقة الإسلام وأنه دين الله الذي بعث به جميع الأنبياء والذي لا يقبل غيره من أحد، ذكر حال الكافرين به وجزاءهم وأحكامهم وقد رآها أصحاب أولئك الروايات في سبب نزولها صادقة على من قالوا: إنها نزلت فيهم فذهبوا إلى ذلك. وأظهر تلك الروايات وأشدها التئاماً مع السياق رواية من يقول: إنها نزلت في أهل الكتاب وهو الذي اختاره.

٨٦ ــ أما قوله تعالى: ﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم﴾ فهو استبعاد لهداية هؤلاء وإياسٌ للنبي ﷺ منهم. والمعنى: استبعاد هدايتهم بحسب سنن الله تعالى في البشر، وإياس النبي ﷺ من إيمانهم. ووجه الاستبعاد أن سنة الله تعالى في هداية البشر إلى الحق هي أن يقيم لهم الدلائل والبينات مع عدم الموانع من النظر فيها على الوجه الذي يؤدي إلى المطلوب. وكل ذلك

قد كان لهؤلاء ولذلك آمنوا من قبل ﴿وشهدوا أن الرسول حق﴾ ثم كفروا مكابرة لأنفسهم، ومعاندة للرسول حسداً له وبغياً عليه. أو المعنى: بأي كيفية تكون هداية من كفروا بعد إيمانهم والحال أنهم قد شهدوا أن الرسول حق ﴿وجاءهم البينات﴾ التي تبين بها الحق من الباطل والرشد من الغي. ولم يغن عنهم ذلك شيئاً لغلبة العناد والاستكبار على نفوسهم والحسد والبغي على قلوبهم، فكانوا بذلك ظالمين لأنفسهم باستحباب العمى على الهدى ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي: مضت سنته بأن الظالم لا يكون مهتدياً.

٨٧ ــ ﴿أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ لعنة الله: عبارة عن سخطه، ولعنة الملائكة والناس: إما سخطهم وهو الظاهر هنا، وإما الدعاء عليهم باللعنة، أي: أنهم متى عرفوا حالهم فإنهم يلعنونهم. والمشهور أن معنى اللعنة: الطرد والإبعاد. والجمهور يفسرون لعن الله لمن يلعنه بطرده من جنته أو من رحمته الخاصة ــ إذ الرحمة العامة مبذولة لكل مخلوق ــ ويفسرون السخط والغضب منه بنحو ذلك، لأن ما أطلق عليه تعالى من الصفات التي تدل في البشر على الانفعالات تفسر بآثارها التي هي أفعال. ولكن السلفيين يعدون هذا تأويلاً ويقولون: إن تلك الصفات كغيرها شؤون لله تعالى لا يدرك البشر كنهها، وتلك الأفعال التي فسرت بها هي آثارها كما هو المفهوم من اللغة. وقد استشكلوا قوله تعالى: «والناس أجمعين» مع العلم بأن من على عقيدتهم لا يلعنونهم بل يدافعون عنهم، والجواب عن ذلك بأن كل الناس يلعنونهم متى عرفوا حقيقة حالهم، فالمعنى: أن هذه الحالة التي هم عليها مجلبة للعنة بطبعها من كل من عرفها. وصحح الرازي: أن المراد به ما يجري على ألسنة جميع الناس من لعن الكافر والمبطل. وقال أبو مسلم: له أن يلعنه وإن كان لا يلعنه، كأنه يفسر اللعن باستحقاقه.

٨٨ ــ ﴿خالدين فيها﴾ أي: في اللعنة أي: يكونون مطرودين أو مسخوطاً عليهم إلى الأبد، أو في أثرها وهو عذاب جهنم ﴿لا يخفف عنهم العذاب﴾ الذي هو من لوازمها، لأن علته ما تكيفت به نفوسهم الظالمة، وهي

معهم لا تفارقهم والشيء يدوم بدوام علته ﴿ولا هم ينظرون﴾ من الإنظار وهو: التأخير والإمهال.

٨٩ ـ ﴿إلا الذين تابوا﴾ من ذنبهم وثابوا إلى ربهم ﴿من بعد ذلك﴾ الظلم الذي دنسوا به أنفسهم فتركوه مستقبحين له نادمين على ما أصابوا منه ﴿وأصلحوا﴾ أعمالهم بما صار للإيمان الراسخ من السلطان على نفوسهم، والتصريف لإرادتهم، وأصلحوا نفوسهم بالأعمال الصالحة التي تمد الإيمان وتغذيه، وتمحو من لوح القلب تلك الصفات الذميمة وتثبت فيه أضدادها ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ فينالهم من مغفرته، ما يزكي نفوسهم بمقتضى سنته، ويصيبهم من رحمته، ما يؤهلهم لدخول جنته.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

٩٠ ـ ﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم﴾ وشهادتهم أن الرسول حق ﴿ثم ازدادوا كفراً﴾ بمقاومة الحق وإيذاء الرسول والصد عن سبيل الله، بالكيد والتشكيك وبالحرب والكفاح، أو: الكلام على عمومه لا يختص بأولئك الذين سبق ذكرهم، فازدياد الكفر عبارة عما ينميه ويقويه من الأعمال التي يقاوم بها الإيمان، فالكفر يزداد قوة واستقراراً وتمكناً بالعمل بمقتضاه، كما أن الإيمان كذلك. وقوله: ﴿لن تقبل توبتهم﴾ يعدونه من المشكلات، إذ هو مخالف في الظاهر للآية السابقة ولمثل قوله: «وهو الذي يقبل التوبة عن عباده» فقال القاضي عياض والقفال وابن الأنباري: إنه تعالى لما قدم ذكر من كفر وبيَّن أنه أهل اللعنة إلا أن يتوب، ذكر في هذه الآية أنه لو كفر مرة أخرى بعد تلك التوبة فإن التوبة الأولى تصير غير مقبولة حتى كأنها لم تكن. ويكون التقدير في

الآية وما قبلها: إلا الذين تابوا وأصلحوا فإن الله غفور رحيم. فإن كانوا كذلك ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم، ا هـ من التفسير الكبير بتصرف. وفيه أن هذا الوجه أليق بالآية من كل الوجوه وأنه مطرد في الآية سواء حملت على المعهود السابق أو على الاستغراق. وفي الكشاف:أن عدم قبول توبتهم كناية عن موتهم على الكفر. وقال البيضاوي: «لن تقبل توبتهم» لأنهم لا يتوبون أو لا يتوبون إلا إذا أشفوا على الهلاك، فكنى عن عدم توبتهم بعدم قبولها تغليظاً في شأنهم وإبراز حالهم في صورة الآيسين من الرحمة، أو لأن توبتهم لا تكون إلا نفاقاً لارتدادهم وزيادة كفرهم ولذلك لم يدخل الفاء فيه، ا هـ. واختار ابن جرير أن الكلام في أهل الكتاب الذين تقدم ذكرهم وأن المراد بالتوبة التوبة عن الذنوب فهي لا تنفعهم مع بقائهم على الكفر بالنبي، صلى الله عليه وسلم.

وإذ كان ذلك كذلك وكان من حكم الله في عباده أنه قابل توبة كل تائب من كل ذنب، وكان الكفر بعد الإيمان أحد تلك الذنوب التي وعد قبول التوبة منها بقوله: «إلا الذين تابوا وأصلحوا فإن الله غفور رحيم»، عُلِمَ أنَّ المعنيَّ: الذي لا تُقبل التوبة منه غير المعنيّ الذي تقبل التوبة منه. وإذ كان ذلك كذلك فالذي لا تقبل التوبة منه هو الازدياد على الكفر بعد الكفر، لا يقبل الله توبة صاحبه ما أقام على كفره، لأن الله لا يقبل من مشرك عملاً ما أقام على شركه وضلاله. فأما إن تاب من شركه وكفره وأصلح فإن الله كما وصف نفسه غفور رحيم. ﴿وأولئك هم الضالون﴾ المتمكنون من الضلال حتى كأنه محصور فيهم وحسبك بضال لا ترجى هدايته، ولا تقبل توبته، ونعوذ بالله من الخذلان.

٩١ ــ ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار﴾ وهؤلاء هم القسم الثالث من أقسام الكافرين في الآيات. فالأول: من يتوبون توبة مقبولة من الكفر ويعملون الصالحات فيستحقون المغفرة والرحمة. والثاني: من يتوبون توبة غير مقبولة إما لفسادها في نفسها وإما لأنها توبة عن بعض أعمال الكفر مع البقاء عليه وقد تقدم حكمها. أما هؤلاء الذين يقيمون على الكفر وأعماله حتى يدركهم الموت على ذلك ﴿فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً﴾ إذا كان قد تصدق به في الدنيا لأن الكفر يحبط كل عمل «وقدمنا إلى ما عملوا من عمل

فجعلناه هباء منثوراً»، فهو لا يفيد في نجاتهم من العذاب لأن من لم ترتق روحه في الدنيا إلى درجة الإيمان الصحيح بالله واليوم الآخر،فإنها لا ترتقي في الآخرة من الهاوية التي تسمى النار والجحيم إلى درجة من الدرجات العلى التي تكون في الجنة ﴿ولو افتدى به﴾ في الآخرة على فرض أنه يملكه بأن أراد أن يجعله جزاء نجاته والعفو عنه كما يفعل الناس من الحكام الظالمين فإنه لا يقبل منه أيضاً ﴿أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين﴾ ينصرونهم بدفع العذاب عنهم أو إيصال الخير إليهم، أي: لا يجدون لهم نصيراً ما كما تفيده «من» الدالة على استغراق النفي ويسمونها زائدة، لأنها لا متعلق لها في اصطلاح النحاة، لا لأنها لا معنى لها في الكلام.

لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾

٩٢ ـ ذكر جمهور المفسرين أن قوله تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ خطاب للمؤمنين، وأنه كلام مستأنف سبق لبيان ما ينفع المؤمنين ويقبل منهم إثر بيان ما لا ينفع الكافرين ولا يقبل منهم. وقيل: الخطاب لا يزال لأهل الكتاب. واختلفوا في البر المراد هنا الذي لا يناله المرء إلا إذا أنفق مما يحب، فقيل: هو بر الله تعالى وإحسانه مطلقاً، وقيل: الجنة، وقيل: هو ما يكون به الإنسان باراً وهو ما تقدم تفصيله في قوله تعالى: «ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر» الآية، وفيها: «وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى»، ثم قال تعالى: ﴿وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم﴾ لا يخفى عليه أهو محبوب لديكم أو مزهود فيه. أو أأنتم مخلصون في إنفاقه أم أنتم مراؤون طالبون للشهرة والجاه. فهو عز وجل يجازيكم على ما تنفقون بحسب ما يعلم من نيتكم ومن موقع ذلك من قلوبكم وقدر ما ترتقي بذلك أرواحكم.

ويذكر المفسرون في تفسير الآية ما كان عليه السلف الصالح من جعل

ما يحبون لله تعالى. ذكر ابن جرير الشواهد على ذلك من روايته ونقل غيره من كتب الحديث بعض الوقائع. فمن ذلك ما أخرجه الشيخان والترمذي والنسائي عن أنس قال: «كان أبو طلحة أكثر الأنصار نخلاً بالمدينة وكان أحب أمواله إليه بيرحاء وكانت مستقبلة المسجد وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب فلما نزلت «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون» قال أبو طلحة: يا رسول الله إن أحب أموالي إلى بيرحاء وإنها صدقة لله تعالى أرجو برها وذخرها عند الله تعالى فضعها يا رسول الله حيث أراك الله تعالى. فقال رسول الله ﷺ: بخ بخ ذلك مال رابح وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين» فقال: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة بين أقاربه وبني عمه.

كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾

كان الكلام من أول السورة إلى هنا في إثبات نبوة محمد ﷺ، مع إثبات التوحيد، واستتبع ذلك محاجة أهل الكتاب في ذلك، وفي بعض بدعهم وما استحدثوا في دينهم. أما هذه الآيات ففي دفع شبهتين عظيمتين من شبهات اليهود على الإسلام، تقريرهما هكذا:

قالوا: إذا كنت يا محمد على ملة إبراهيم والنبيين من بعده ـ كما تدعي ـ فكيف تستحل ما كان محرماً عليه وعليهم كلحم الإبل؟ أما وقد استبحت ما كان محرماً عليهم فلا ينبغي لك أن تدعي أنك مصدق لهم وموافق في الدين، ولا أن تخص إبراهيم بالذكر وتقول: إنك أولى الناس به. هذه هي الشبهة الأولى. وأما الثانية فهي أنهم قالوا: إن الله وعد إبراهيم بأن تكون البركة في نسل ولده إسحاق، وجميع الأنبياء من ذرية إسحاق كانوا يعظمون بيت المقدس ويصلون إليه، فلو كنت على ما كانوا عليه لعظمت ما عظموا، ولما تحولت عن بيت المقدس وعظمت مكاناً آخر اتخذته مصلى وقبلة، وهو الكعبة، فخالفت الجميع.

وقد أجابهم الله تعالى على شبهتهم الأولى بقوله:

٩٣ ـ ﴿كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم على نفسه من قبل أن تنزل التوراة﴾ والمراد أن كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل ولإبراهيم من قبل بالأولى، ثم حرم الله عليهم بعض الطيبات في التوراة عقوبة لهم وتأديباً، كما قال: «فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم» الآية. فالمراد بإسرائيل: شعب إسرائيل، كما هو مستعمل عندهم، لا يعقوب نفسه. ومعنى تحريم الشعب ذلك على نفسه: أنه ارتكب الظلم واجترح السيئات التي كانت سبب التحريم، كما صرحت الآية. فكأنه يقول: إذا كان الأصل في الأطعمة الحل، وكان تحريم ما حرم على شعب إسرائيل تأديباً على جرائم أصابوها، وكان النبي وأمته لم يجترحوا تلك السيئات، فلم تحرم عليهم الطيبات؟ ثم قال تعالى مبيناً تقرير الدفع وسنده: ﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾ في قولكم، لا تخافون أن تكذبكم نصوصها. أقول: كأنه يقول: أما إنكم لو جئتم بما عندكم منها لما كان إلا مؤيداً للقرآن فيما جاء به من أن التوراة حرمت عليكم ما حرمت.

٩٤ ـ ﴿فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك﴾ البيانِ وإلزام الكاذبين على إبراهيم والأنبياء بالتوراة، ودعوتهم إلى الإتيان بها وتلاوتها على الملأ، وامتناعهم عن ذلك لئلا يظهر أن الله لم يحرم عليهم شيئاً من الطعام قبل التوراة. والأصل في الأشياء الحل حتى يرد النص بالتحريم ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ بتحويلهم الحق في المسألة عن وجهه، ووضع حكم الله بتحريم بعض الطيبات عليهم في غير موضعه.

٩٥ ـ ﴿قل صدق الله﴾ فيما أنبأني بـه من عدم تحـريم شيء على إسرائيل قبل التوراة، وقامت الحجة عليكم بذلك. فثبت أنني مبلغ عنه. إذ ما كان لي لولا وحيه أن أعرف صدقكم من كذبكم فيما تحـدثون بـه عن أنبيائكم. وإذ كان الأمر كذلك ﴿فاتبعوا ملة إبراهيم﴾ التي أدعوكم إليها حال كونه ﴿حنيفا﴾ لا غلو فيما كان عليه ولا تقصير، ولا إفراط ولا تفريط. بل هو الفطرة القويمة والحنيفية السمحة المبنية على الإخلاص لله وإسلام الوجه له وحده ﴿وما كان من المشركين﴾ الذين يبتغون الخير من غيره تعالى أو يخافون الضر من غير أسبابه التي مضت بها سنته أما قوله عز وجل:

٩٦ ـ ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين﴾ فهو جواب الشبهة الثانية. وتقريره: أن البيت الحرام الذي نستقبله في صلاتنا هو أول بيت وضع معبداً للناس؛ بناه إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام، لأجل العبادة خاصة. ثم بُني[1] المسجد الأقصى ببيت المقدس بعده بعدة قرون بناه سليمان بن داود، عليهما السلام. فصح أن يكون النبي ﷺ على ملة إبراهيم، ويتوجه بعبادته إلى حيث كان يتوجه إبراهيم وولده إسماعيل. وهذا هو المعنى الظاهر المتبادر من الآية. وهو كاف في إبطال شبهة اليهود على النبي، عليه الصلاة والسلام، من غير حاجة إلى البحث في هذه الأولية، هل هي أولية الشرف أم أولية الزمان؟ أقول: والمتبادر أنها أولية الزمان بالنسبة إلى بيوت العبادة الصحيحة التي بناها الأنبياء. فليس في الأرض موضع بناه الأنبياء أقدم منه فيما يعرف من تاريخهم وما يؤثر عنهم. وهذا يستلزم الأولية في الشرف.

أما قوله تعالى في البيت «مباركاً وهدى للعالمين» فهو بيان لحاله الحسنة الحسية وحاله الشريفة المعنوية. أما الأولى: فهي ما أفيض عليه من بركات

---

(١) قوله: «ثم بني المسجد الأقصى» الخ لعله يعني: تجديد بنائه، أما وضعه بيتاً لعبادة الله تعالى فقد كان بعد المسجد الحرام في مكة بأربعين سنة، كما رواه مسلم في صحيحه عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قلتُ يا رسول الله، أيُّ مسجد وضع أَوَّلُ؟ قال: «المسجد الحرام» قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: «المسجد الأقصى» قلتُ: كم كان بينهما؟ قال: «أربعون سنة، وأينما أدركتك الصلاة فصلِّ فهو مسجد».

الأرض وثمرات كل شيء على كونه بواد غير ذي زرع، فترى الأقوات والثمار في مكة أكثر وأجود وأقل ثمناً منها في مثل مصر وكثير من بلاد الشام. وأما الثانية: فهي هُوِيّ أفئدة الناس إليه وإتيانه للحج والعمرة مشاة وركباناً من كل فج، وتولية وجوههم شطره في الصلاة، ولعله لا تمر ساعة ولا دقيقة من ليل أو نهار وليس فيها أناس متوجهون إلى ذلك البيت الحرام يصلون. فأي هداية للعالمين أظهر من هذه الهداية. تلك دعوة إبراهيم «ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون».

و«بكة»: اسم لمكة. كما روي عن مجاهد، قيل: وعليه الأكثرون. وجعلوه من إبدال الميم باء، وهو كثير في كلامهم، كسمّد رأسه[1] وسبده، وقيل: «بكة» اسم المسجد نفسه، أو حيث الطواف من «البكِّ» أي: الازدحام. يقال: «تَبَاكَّ القومُ على الشيء»: ازدحموا عليه وقيل: هو اسم بطن مكة حيث الحرم.

٩٧ ـ ﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم﴾ أي: فيه دلائل أو علامات ظاهرة لا تخفى على أحد. منها: مقام إبراهيم، أي:[2] موضع قيامه فيه

---

(١) قوله: «كسمَّد رأسه وسبَّده» قال في «مختار الصحاح»: «السَّبَد» من الشَّعر، و«اللَّبد» من الصوف، و«التسبيد»: ترك الادهان، وفي الحديث: قدم ابن عباس رضي الله عنه مكة مسبِّداً رأسه.

(٢) قوله: «أي: موضع قيامه للصلاة فيه والعبادة»، مبني على ما ذهب إليه المؤلف من أن المراد بـ«مقام إبراهيم» الحرم كله، وليس الموضع المخصوص المعروف، وهذا قول رواه ابن أبي حاتم (عبد الرحمن بن محمد الرازي) عن ابن عباس، رضي الله عنهما. ولكن المشهور أنه: الحجر الذي وقف عليه لإتمام بناء الكعبة. قال ابن كثير في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿مقام إبراهيم﴾ يعني لما ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه، والجدران حيث كان يقف عليه ويناوله ولده إسماعيل، وقد كان ملتصقاً بجدار البيت حتى أخَّره عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في إمارته إلى ناحية الشرق بحيث يتمكن الطُّوَّاف منه ولا يشوشون على المصلين عنده بعد الطواف، لأن الله قد أمرنا بالصلاة عنده حيث قال: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ وقد قدمنا الأحاديث في ذلك فأغني عن إعادته ههنا (انتهى). ونقول: لمعرفة ذلك ورأي السيد رضا فيه ارجع إلى تفسير الآية «١٢٥» من سورة «البقرة» ص ٩٩.

للصلاة والعبادة، تعرف ذلك العرب بالنقل المتواتر. فأي دليل أبين من هذا على كون هذا البيت أول بيت من بيوت العبادة الصحيحة المعروفة في ذلك العهد وضع ليعبد الناس فيه ربهم، وإبراهيم أبو الأنبياء الذين بقي في الأرض أثرهم بجعل النبوة والملك فيهم.

وقوله: ﴿ومن دخله كان آمنا﴾ آية ثانية بينة لا يمتري فيها أحد، وهي اتفاق قبائل العرب كلها على احترام هذا البيت وتعظيمه لنسبته إلى الله، حتى إن من دخله يأمن على نفسه لا من الاعتداء عليه وإيذائه فقط بل يأمن أن يثأر منه من سفك هو دماءهم واستباح حرماتهم ما دام فيه.

أما قوله تعالى: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾ فهو بيان آية ثالثة من آيات هذا البيت، جاءت بصيغة الإيجاب والفرضية في معرض ذكر مزاياه ودلائل كونه أول بيوت العبادة المعروفة، للمعترضين من اليهود على استقباله في الصلاة، فهو يفيد بمقتضى السياق معنى خبرياً وبمقتضى الصيغة معنى إنشائياً، وهو وجوب الحج على المستطيع من هذه الأمة.

أما «الحج» فمعناه في أصل اللغة: القصد، و«حِجٌّ» هو بكسر الحاء وبه قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم، وفتحِها. وبه قرأ الباقون. وقيل: الفتح لغة الحجاز، والكسر لغة نجد. وقد تقدم تفصيل أعماله في تفسير آيات سورة «البقرة»[1].

وأما استطاعة السبيل: فهي عبارة عن القدرة على الوصول إليه. وهي تختلف باختلاف الناس في أنفسهم وفي بعدهم عن البيت وقربهم منه. وكل مكلف أعلم بنفسه ــ وإن كان عامياً ــ من غيره وإن كان عالماً نحريراً. وما زاد الناسَ اختلافُ العلماء في تفسير الاستطاعة إلا بعداً عن حقيقتها الواضحة من الآية أتم الوضوح. إذ قال بعضهم: إن الاستطاعة صحة البدن والقدرة على

---

(١) أي الآيات «١٩٧ إلى ٢٠٣» منها.

المشي. وقال بعضهم: إنها القدرة على الزاد والراحلة. واشترطوا فيها: أمن الطريق، ولم يشترطوا الأمن في أرض الحرم، لأنها آمنة قطعاً[1].

وقوله تعالى: ﴿ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾ تأكيد لما سبق ووعيد على جحوده، فالمراد بالكفر: جحود كون هذا البيت أول بيت وضعه إبراهيم للعبادة الصحيحة، بعد إقامة الحجج على ذلك، وعدم الإذعان لما فرض الله من حجة والتوجه إليه بالعبادة. هذا هو المتبادر.

وحمله بعضهم على الكفر مطلقاً على أنه كلام مستقل وهو بعيد جداً، وحمله بعضهم على ترك الحج وهو بعيد أيضاً.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩)﴾

٩٨ ـ ﴿قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله﴾ في بيته، الدالة على كونه بيتاً وضع لعبادته، وعلى بناء إبراهيم له، وتعبده فيه قبل وجود بني إسرائيل وبيت المقدس، أو: بآياته على صحة نبوة محمد وإحيائه لملة إبراهيم الذي تعترفون بنبوته وفضله ـ ومنها ما ذكر عن البيت ـ ﴿والله شهيد على ما تعملون﴾ أي: والحال أن الله تعالى مطلع على عملكم هذا وسائر أعمالكم محيط به، أفلا تخافون أن يأخذكم به ويجازيكم عليه أشد الجزاء؟

٩٩ ـ ﴿قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن﴾ أي: لأيِّ شيء تصرفون من آمن بمحمد ﷺ واتبعه عن الإيمان، وهو سبيل الله الموصلة إلى رضوانه ورحمته بما ترقي من عقل المؤمن بالعقائد الصحيحة ومن نفسه بالأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة، تصدون عنها بالتكذيب كبراً وحسداً، وإلقاء الشبهات الباطلة مكابرة وبغياً، والكيد للنبي والمؤمنين بغياً

---

(١) أي: هكذا يجب أن تكون، ولكن الواقع أنه مرت على الناس في الحرم أيام نالهم فيها خوف خلافاً لأمر الله تعالى.

وعدواناً ﴿تبغونها عوجا﴾: أي لِمَ تصدون عنها قاصدين بصدكم أن تكون معوجة في نظر من يؤمن لكم ويغتر بكيدكم ﴿وأنتم شهداء﴾ بأنها سبيل الله المستقيمة، لا ترون فيها عوجاً ولا أمتاً، عارفون بما ورد فيها من البشارات عن الأنبياء. ويلزم من ذلك أن من صد عنها ضال مضل. وقيل: وأنتم الشهداء في قومكم، توصفون فيهم بالعدل، وتستشهدون في القضايا. ومن كان كذلك كان أقدر على الصد. أو: وأنتم شهداء على بقايا الكتاب وما يؤثر عن النبيين؛ فكان من حقكم أن تكونوا أقرب الناس إلى معرفة هذه السبيل سبيل الحق،والسبق إليها بالإيمان بمحمد، صلى الله عليه وسلم.

﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ من هذا الصد وغيره فهو يجازيكم عليه، فالتذييل تهديد لهم ووعيد. وقد جاء بنفي الغفلة لأن صدهم عن الإسلام كان بضروب من المكايد والحيل الخفية التي لا تروج إلا على الغافل.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

١٠٠ ـ ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾: المراد بالكفر هنا: العداوة والبغضاء التي كان

الكفر سببها، كما أن المراد بالإيمان على هذا هو الإلفة والمحبة التي هي ثمرة يانعة من ثمرات الإيمان.

ويجوز أن يراد بالكفر[1]: حقيقته، كأنه يقول: إنكم إذا أصغيتم إلى ما يلقيه هؤلاء اليهود من مثيرات الفتن واستجبتم لما يدعونكم إليه فكنتم طائعين لهم، فإنه لا يقنعون منكم بالعود إلى ما كنتم عليه من العداوة والبغضاء، بل يتجاوزون إلى ما وراء ذلك، وهو أن يردوكم إلى الكفر. ويؤيد هذا قوله تعالى: «وَدَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم» الآية واتصال الآية بما قبلها ظاهر جلي. فإنه بعد ما وبخ أهل الكتاب على كفرهم وصدهم عن سبيل الله، وهو الإسلام، إثر إقامة الحجج عليهم وإزالة شبهاتهم، ناسب أن يخاطب المؤمنين مبيناً لهم أن من كان هذا شأنهم في الكفر وهذا شأن ما دعوا إليه في ظهور حقيقته لا ينبغي أن يطاعوا ولا أن يسمع لهم قول، فإنهم دعاة الفتنة ورواد الكفر. ولذلك قال:

١٠١ ـ ﴿وكيف تكفرون﴾ بطاعتهم واتباع أهوائهم ﴿وأنتم تتلى عليكم آيات الله﴾ وهي روح الهداية وحفاظ الإيمان ﴿وفيكم رسوله﴾ يبين لكم أن نزل إليكم، ولكم في سنته وإخلاصه خير أُسوة تغذي إيمانكم وتنير برهانكم. فهل يليق بمن أوتوا هذه الآيات، ووجد فيهم هذا الرسول الحكيم الرؤوف الرحيم، أن اتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً، حتى

---

(١) قوله: «ويجوز أن يراد بالكفر حقيقته»، نقول: هذا هو الصحيح في معنى الآية، لأنها تحذير للمسلمين من الانسياق مع الحاسدين من أهل الكتاب، لئلا يعودوا كافرين، يؤيده ما ورد في سبب نزول هذه الآيات مما أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير وغيرهما: أنه كان بين الأوس والخزرج في الجاهلية شر، فبينما هم جلوس إذ مر بهم أحد اليهود وهو شاس بن قيس، فغاظه ما رأى من اجتماعهم وإلفتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان منهم من العداوة في الجاهلية، فأمر شاباً كان معه من يهود بأن يجلس بينهم فيذكرهم يوم «بُعاث» ـ وكان فيه معركة بينهم ـ ففعل، فتنازعوا وتفاخروا، وغضب الفريقان، وتواثبوا للقتال، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فجاء حتى وعظهم وأصلح بينهم فسمعوا وأطاعوا، فأنزل الله تعالى هذه الآيات.

استحوذ عليهم الشيطان، وغلب عليهم البغي والعدوان، وعرفوا بالكذب والبهتان؟ فالاستفهام في الآية للإنكار والاستبعاد ﴿ومن يعتصم بالله﴾ وبكتابه يكون الاعتصام، إذن هو حبله الممدود، ورسوله هو الوسيلة إليه. وهو ورده المورود ﴿فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾ لا يضل فيه السالك، ولا يخشى عليه من المهالك، فلا تروج عنده الشبهات ولا تروق في عينه الترهات، وقد جاء جواب الشرط بصيغة الماضي المحقق للإشعار بأن من يلتجىء إليه تعالى ويعتصم بحبله فقد تحققت هدايته وثبتت استقامته.

١٠٢ ــ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته﴾ أي: واجب تقواه وما يحق منها؛ ومثله قوله تعالى «فاتقوا الله ما استطعتم» أي: بالغوا في التقوى حتى لا تتركوا من المستطاع منها شيئاً، ومن الناس من فهم أن هاتين الآيتين متعارضتان حتى زعموا أن الثانية نسخت الأولى، ورووا ذلك عن ابن مسعود موقوفاً ومرفوعاً. فقد أخرج ابن جرير وغيره عنه: أن معنى اتقوا الله حق تقاته: «أن يُطاع فلا يُعْصى، ويُذكر فلا يُنْسى، ويُشكر فلا يُكْفَر». وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: إنها لما نزلت اشتد على القوم العمل فقاموا ــ في صلاة الليل ــ حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم. فأنزل الله تخفيفاً عليهم: «فاتقوا الله ما استطعتم» فنُسخت الآية الأولى. وروى ابن جرير النسخَ عن قتادة والربيع بن أنس والسدي وابن زيد. وروي عدم نسخها عن ابن عباس وطاووس، وأن ابن عباس فسرها: بأن يجاهدوا في الله حق جهادَه، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم. أي: فهي بمعنى الآيات التي تقرر هذه الأمور الثلاثة؛ والتي لم يقل أحد بنسخها.

أما قوله تعالى ﴿ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ فمعناه: استمروا على الإسلام، وحافظوا على أعماله حتى الموت. فالمراد بالإسلام على هذا هو الدين: إيمانه وعمله. ووجه الاختيار أنه جاء في مقابلة قوله: «يردوكم بعد إيمانكم كافرين» وبعد الأمر بالتقوى حق التقوى. وأقول: وهذا النهي مبني على قاعدة: أن المرء يموت غالباً على ما عاش عليه، فإذا عاش على اليقين

والتقوى حق التقوى، والاحتراس مما ينافي الإسلام مات على ذلك، بفضل الله الذي كانت تلك القاعدة من سننه في خلقه.

ثم بين لنا عز وجل ما به يتحقق ذلك الأمر والنهي، فقال:

١٠٣ ـ ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ حبل الله: هو القرآن، على الصحيح كما في عدد من الأحاديث، منها ما رواه ابن أبي شيبة وابن جرير عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً «كتاب الله هو حبله الممدود من السماء إلى الأرض» عَلَّم عليه في «الجامع الصغير» بالحَسَن[١]. وروى الديلمي من حديث زيد بن أرقم: «حبل الله هو القرآن» وقيل: هو الطاعة والجماعة. وروي عن ابن مسعود، وقيل: إنه الإسلام.

وأقول: إن المختار هو ما ورد في الحديث المرفوع من تفسير حبل الله بكتابه، ومن اعتصم به كان آخذاً بالإسلام. ولا يظهر تفسيره بالجماعة والاجتماع؛ وإنما الاجتماع هو نفس الاعتصام، فهو يوجب علينا أن نجعل اجتماعنا ووحدتنا بكتابه، عليه نجتمع، وبه نتحد، لا بجنسيات نتبعها، ولا بمذاهب نبتدعها، ولا بمواضعات نضعها، ولا بسياسات نخترعها، ثم نهانا عن التفرق والاعتصام، بعد هذا الاجتماع والاعتصام، لما في التفرق من زوال الوحدة، التي هي معقد العزة والقوة، وبالعزة يعتز الحق فيعلو في العالمين، وبالقوة يحفظ هو وأهله من هجمات المواثبين وكيد الكائدين، فهذا الأمر والنهي في معنى الأمر والنهي في قوله تعالى: «وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله» فحبل الله هو صراطه وسبيله. وما أشرنا إليه هنا من بيان أنواع التفرق هو السبل التي نهى عن اتباعها في تلك الآية. وقوله:

﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا﴾ يشير إلى ما كان عليه المؤمنون في عصر التنزيل من أخوة الإيمان التي بها قاسم الأنصار المهاجرين أموالهم، وديارهم وبها كانوا يؤثرون بعضهم بعضاً بالشيء على نفسه، وهو في خصاصة وحاجة شديدة إلى ذلك الشيء بعدما

(١) وهو حديث صحيح رواه أيضاً أحمد وابن جرير، راجع صحيح الجامع الصغير ٤٣٤٩ وسلسلة الأحاديث الصحيحة ٢٠٢٤ للألباني.

كان بينهم في الجاهلية من العداوة والبغضاء وتسافك الدماء ما هو معروف في جملته للجماهير وفي تفاصيله الغريبة للمطلعين على أخبارهم المروية والمدونة. ومنها: أن الحروب تطاولت بين الأوس والخزرج مئة وعشرين سنة حتى أطفأها الإسلام، وألف الله بين قلوبهم برسوله ﷺ، فهذا بعض ما أفادهم الإسلام في حياتهم الدنيا، وقد أنقذهم فيما يستقبلون من أمر الآخرة مما هو شر، وأدهى وأمر، وذلك قوله عز وجل:

﴿وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾ أي: كنتم كذلك، بوثنيتكم وشرككم بالله تعالى وما يتبعه من الخرافات والمفاسد فهي التي أطفأت نور الفطرة وهبطت بالأرواح إلى درك سافل، حتى كانت كأنها على طرف حفرة يوشك أن تنهار بها في النار. فشفا الحفرة أو البئر: طرفها، ويضرب به المثل في القرب من الهلاك، قال الراغب: ومنه «شافى على الهلاك» أي: حصل على شفاه. وليس بين المشرك وبين الهلاك في النار إلا الموت، والموت أقرب غائب ينتظر. فما أعظم منة الله تعالى على المؤمنين الصادقين، لا سيما الأولين الذين خوطبوا بهذه الآية، أولاً: أنه أخرجهم بالإسلام من الشرك ومخازيه وشقائه، وألف بينهم حتى صاروا بهذه الإلفة أسعد الناس، ثم صاروا سادات الأرض، وأنقذهم بذلك من النار. فكانوا به سعداء الدارين والفائزين بالحسنيين. أفليس أول واجب من شكر هذه النعمة التي لا تفضلها نعمة أن يعرضوا عن وساوس ودسائس أولئك المغرورين بسلفهم من الأنبياء وهم ليسوا على شيء من هدايتهم؟ بلى، فقد وضح الحق وبطل الإفك.

﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾ أي: ليعدَّكم ويؤهلكم بها للاهتداء الدائم المستمر، فلا تعودوا إلى عمل الجاهلية من التفرق والعدوان.

والتفرق والاختلاف قسمان: قسم لا يمكن أن يسلم منه البشر، فالنهي عنه من قبيل تكليف ما لا يستطاع، وليس بمراد في الآيات، وقسم يمكن الاحتراس منه وهو المراد بها. أما الأول فهو الخلاف في الفهم والرأي ولا مفر منه لأنه مما فطر عليه البشر. كما قال تعالى: «ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم»، فاستواء الناس في العقول والأفهام مما لا سبيل إليه

ولا مطمع فيه. إذ هو من قبيل الحب والبغض، فالأخوة الأشقاء في البيت الواحد تختلف أفهامهم في الشيء كما يختلف حبهم له وميلهم إليه. وأما الثاني ــ وهو ما جاء الدين الحق لمحوه ــ فهو تحكيم الأهواء في الدين والأحكام، وهو أشد الأشياء ضررا في البشر، لأنه يطمس أعلام الهداية التي يلجأ إليها في إزالة المضار التي في النوع الأول من الخلاف.

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾

إن الله تعالى قد وضع لنا بفضله ورحمته قاعدة نرجع إليها عند تفرق الأهواء واختلاف الآراء، وهي الاعتصام بحبله ولذلك نهانا عن التفرق بعد الأمر بالاعتصام، الذي قلنا في تفسيره: إنه تمثيل لجمع أهوائهم وضبط إرادتهم. ومن القواعد المسلمة: أنه لا تقوم لقوم قائمة إلا إذا كان لهم جامعة تضمهم ووحدة تجمعهم وتربط بعضهم ببعض، فيكونون بذلك أمة حية كأنها جسد واحد، كما ورد في حديث: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» رواه أحمد ومسلم من حديث النعمان بن بشير. وحديث: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» رواه الشيخان والترمذي والنسائي من حديث: أبي موسى. فإذا كانت الجامعة الموحدة للأمة هي مصدر حياتها، سواء أكانت مؤمنة أم كافرة، فلا شك أن المؤمنين أولى بالوحدة من غيرهم لأنهم يعتقدون أن لهم إلهاً واحداً يرجعون في جميع شؤونهم إلى حكمه الذي يعلو جميع الأهواء ويحول

دون التفرق والخلاف. بل هذا هو ينبوع الحياة الاجتماعية لما دون الأمم من الجمعيات حتى البيوت ــ العائلات ــ ولما كان لكل جامعة وكل وحدة حفاظ يحفظها أرشدنا سبحانه وتعالى إلى ما نحفظ به جامعتنا التي هي مناط وحدتنا ــ وأعني بها الاعتصام بحبله ــ فقال:

١٠٤ ــ ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾.

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حفاظ الجامعة وسياج الوحدة.

وقد اختلف المفسرون في قوله تعالى «منكم» هل معناه: بعضكم، أَم «من» بيانية؟

والظاهر أن الكلام على حد «ليكن لي منك صديق» فالأمر عام، ويدل على العموم قوله تعالى: «والعصر، إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصلوا بالحق وتواصوا بالصبر» فإن التواصي هو الأمر والنهي، وقوله عز وجل: «لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوا لبئس ما كان يفعلون» وما قص الله علينا شيئاً من أخبار الأمم السالفة إلا لنعتبر به.

ثم إن لهذه الدعوة مرتبتان:

فالمرتبة الأولى: هي دعوة هذه الأمة سائر الأمم إلى الخير وأن يشاركوهم فيما هم عليه من النور والهدى، وهو الذي يتجه به قول المفسر: إن المراد بالخير: الإسلام. وقد فسرنا الإسلام من قبل بأنه دين الله على لسان جميع الأنبياء لجميع الأمم، وهو الإخلاص لله تعالى والرجوع عن الهوى إلى حكمه. وهذا مطلوب منا بحكم جعلنا أمة وسطاً وشهداء على الناس كما تقدم في سورة «البقرة»، وخير أمة أخرجت للناس كما سيأتي بعد آيات مقيداً بكوننا نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، وبحكم قوله في وصف المؤمنين الذين أُذن لهم بالقتال: «الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا

بالمعروف ونهوا عن المنكر»: فالواجب دعوة الناس إلى الإسلام أولاً، فإن أجابوا فالواجب أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

والمرتبة الثانية في الدعوة والأمر والنهي: هي دعوة المسلمين بعضهم بعضاً إلى الخير وتآمرهم فيما بينهم بالمعروف وتناهيهم عن المنكر. والعموم فيها ظاهر أيضاً. وله طريقان، أحدهما: الدعوة العامة الكلية[1] ببيان طرق الخير وتطبيق ذلك على أحوال الناس، وضرب الأمثال المؤثرة في النفوس، التي يأخذ كل سامع منها بحسب حاله. وإنما يقوم على هذا الطريق خواص الأمة العارفون بأسرار الأحكام وحكمة الدين وفقهه.

والطريق الثاني: الدعوة الجزئية الخاصة، وهي ما يكون بين الأفراد بعضهم مع بعض، ويستوي فيه العالم والجاهل، وهو ما يكون بين المتعارفين من الدلالة على الخير والحث عليه عند عروضه، والنهي عن الشر والتحذير منه.

وجملة القول: أن الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض حتم على كل مسلم كما تدل عليه الآية في ظاهرها المتبادر وغيرها من الآيات كقوله تعالى: «كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه»، وكذلك عمل الرسول ﷺ وأصحابه، رضي الله عنهم. وكون هذا حفاظاً للأمة وحرزاً ظاهر. فإن الناس إذا تركوا دعوة الخير وسكت بعضهم لبعض على ارتكاب المنكرات خرجوا عن معنى الأمة وكانوا أفذاذاً متفرقين لا جامعة لهم، ولهذا ضرب الرسول ﷺ هذا المثل[2]، فقد روى البخاري عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استَهَموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذا استَقَوْا من الماء مَرُّوا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خَرْقاً ولم نؤذِ

---

(١) أي: بما يكون في الدروس العامة في المساجد والندوات، وأجهزة الإعلام.

(٢) قوله: «هذا المثل إلخ» هذا الحديث بنصه لم يثبته المؤلف في تفسيره وإنما ذكر معناه، فأثبتنا الحديث بنصه لأنه الأصل.

من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونَجَوْا جميعاً» ومعنى: «استهموا» اقترعوا، فلا بد للمرء في حفظ نفسه ومن معه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا سيما أمهات المنكرات المفسدة للإجتماع، كالكذب والخيانة والحسد والغش:

أما معنى الآية على القول بأن «من» للتبعيض وتقدير الكلام: «ولتكن منكم طائفة متميزة تقوم بالدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، والمخاطب بهذا جماعة المؤمنين كافة فهم المكلفون أن ينتخبوا منهم أمة تقوم بهذه الفريضة، فههنا فريضتان: إحداهما على جميع المسلمين، والثانية على الأمة التي يختارونها للدعوة. ولا يفهم معنى هذا حق الفهم إلا بفهم معنى لفظ «الأمة» وليس معناه الجماعة كما قيل، وإلا لما اختير هذا اللفظ والصواب: أن الأمة أخص من الجماعة، فهي الجماعة المؤلفة من أفراد لهم رابطة تضمهم ووحدة يكونون بها كالأعضاء في بنية الشخص. والمراد بكون المؤمنين كافة مخاطبين بتكوين هذه الأمة لهذا العمل: هو أن يكون لكل فرد منهم إرادة وعمل في إيجادها وإسعادها ومراقبة سيرها بحسب الاستطاعة، حتى إذا رأوا منها خطأً أو انحرافاً أرجعوها إلى الصواب.

وإذا كان كل فرد من أفراد المسلمين مكلفاً الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمقتضى الوجه الأول في تفسير الآية،فهم مكلفون أن يختاروا أمة منهم تقوم بهذا العمل لأجل أن تتقنه وتقدر على تنفيذه،فإقامة هذه الأمة الخاصة فرض عين يجب على كل مكلف أن يشترك فيه مع الآخرين، ولا مشقة في هذا علينا فإنه يتيسر لأهل كل قرية أن يجتمعوا ويختاروا منهم من يرونه أهلاً لهذا العمل،لينضم إلى من يختار من سائر القرى والبلاد لأجل الضرب في الأرض للدعوة إلى الإسلام في غير بلاده، أو لإقامة بعض الفرائض والشعائر أو إزالة بعض المنكرات من بلد آخر من بلاد المسلمين.

وهذه الأمة يدخل في عملها الأمور العامة التي هي من شأن الحكام، وأمور العلم وطرق إفادته ونشره، وتقرير الأحكام، وأمور العامة

الشخصية ويشترط فيها العلم بذلك كما أن أعمالها لا تتم إلا بأمور كثيرة، منها:

(١) العلم التام بما يدعون إليه، فأول ما يجب على هؤلاء الدعاة العلم بالقرآن والعلم بالسنة وسيرة النبي ﷺ والخلفاء الراشدين، رضي الله عنهم، وسلف الأمة الصالح وبالقدر الكافي من الأحكام.

(٢) العلم بحال من توجه إليهم الدعوة في شؤونهم واستعدادهم وطبائع بلادهم وأخلاقهم، أو ما يعبر عنه في عرف العصر بحالهم الاجتماعية.

(٣) مناشىء علم التاريخ العام، ليعْرفوا الفساد في العقائد والأخلاق والعادات، فيبنوا الدعوة على أصل صحيح، ويعرفوا كيف تنهض الحجة ويبلغ الكلام غايته من التأثير وكيف يمكن نقل هؤلاء المدعوين من حال إلى حال. ولهذا كان القرآن مملوءاً بعبر التاريخ.

(٤) علم تقويم البلدان ليعد الدعاة لكل بلاد منها عدتها إذا أرادوا السفر إليها، وقد كان الصحابة، رضي الله عنهم، أعلم أهل زمانهم بالتاريخ وما يسمى الآن بتقويم البلدان وبالجغرافية ولذلك أقدموا على الفتوح ومحاربة الأمم فانتصروا عليهم بالعلم لا بالجهل، فلو كانوا يجهلون مسالك بلادهم وطرقها ومواقع المياه وما يصلح موقعاً للقتال فيها لهلكوا وكان الجهل أول أسباب هلاكهم.

(٥) علم النفس: وهو يساوي علم التاريخ في المكانة والفائدة، أي: العلم الباحث عن قوى النفس وتصرفها في علومها وتأثير علومها في أعمالها الإرادية. وقد كان الصحابة عليهم الرضوان على حظ عظيم من هذا العلم فإنهم كانوا بسلامة فطرتهم وذكاء قريحتهم وبما هداهم القرآن بآياته والرسول ببيانه وسيرته على بصيرة من هذا العلم وإن لم يتدارسوه بطريقة صناعية، فقد كان علمهم به كعلم الواضعين له من الحكماء أو أرسخ كما يدل عليه ما يؤثر عنهم من الحكم وما نجحوا به في الدعوة، وظهروا في مواطن الحجة.

(٦) علم الأخلاق، وهو العلم الذي يبحث فيه عن الفضائل وكيفية تربية المرء عليها وعن الرذائل وطرق توقيه منها وهو ضروري. وما ورد فيه من الآيات والأحاديث وآثار الصحابة والتابعين يغني بشهرته واستفاضته عن إطالة الكلام فيه.

(٧) علم الاجتماع، وهو العلم الذي يبحث فيه عن أحوال الأمم في بداوتها وحضارتها وأسباب ضعفها وقوتها وتدليها وترقيها، على أن هذا العلم مستمد من علم التاريخ وعلم الأخلاق. فمن كان له حظ عظيم منهما فإنه قد يستغني به عن هذا العلم في بناء الدعوة والإرشاد على قواعد الحكمة والسداد.

(٨) علم السياسة، والمراد به العلم بحال دول العصر وما بينها من الحقوق والمعاهدات وما لها من طرق الاستعمار. فالأمة التي تؤلف للدعوة في بلاد غير بلاد المسلمين المستقلة لا يتيسر لها ذلك إذا لم تكن عارفة بسياسة حكومة تلك البلاد. وهذا شيء غير ما تقدم من اشتراط معرفة حال من توجه إليهم الدعوة،والسياسة بهذا المعنى لم تكن في عصر الصحابة.

(٩) العلم بلغات الأمم التي تراد دعوتها وقد ورد في صحيح البخاري: أن النبي ﷺ أمر بعض الصحابة بتعلم اللغة العبرانية لأجل اليهود الذين كانوا مجاورين له على أنهم كانوا قد استعربوا. فما كانت معرفة لغتهم الأصلية إلا مزيد كمال في الفهم عنهم ومعرفة حقيقة شأنهم.

(١٠) العلم بالفنون والعلوم المتداولة في الأمم التي توجه إليها الدعوة ولو بقدر ما يفهم به الدعاة ما يورد على الدين من شبهات تلك العلوم والجواب عنها بما يليق بمعارف المخاطبين بالدعوة.

(١١) معرفة الملل والنحل ومذاهب الأمم فيها ليتيسر للدعاة بيان ما فيها من الباطل. فإن لم يتبين له بطلان ما هو عليه، لا يلتفت إلى الحق الذي عليه غيره وإن دعاه إليه.

ومما يناط بهذه الأمة، وهو أصل كل معروف: النظر في تعليم الجاهلين،

فإذا علمت أن في مكان ما طائفة من المسلمين جاهلين بما يجب اتخذت الوسائل لتعليمهم. ومن هنا يعلم فساد ما يقوله كثير من الفقهاء من أنه لا يجب عليهم أن يتصدوا لتعليم الناس ما لم يسعوا إليهم ويسألوهم. ولا يجهل أحد أن الرسول ﷺ قد تصدى لتعليم الناس ولم يقعد في بيته منتظراً سؤال الناس ليفيدهم، وكذلك فعل الصحابة عليهم الرضوان اهتداء بهديه.

ثم بعد أن أمر الله سبحانه وتعالى بأن تكون منا أمة تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر،وبين أن أولئك هم المفلحون دون سواهم لأنهم هم الذين يقيمون الدين ويحفظون سياجه وبهم تتحقق الوحدة المقصودة منه ، نهانا عن التفرق والاختلاف الذي يذهب بتلك الوحدة ويتعذر معه القيام بتلك الدعوة الصالحة، فقال عز من قائل:

١٠٥ - ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعدما جاءهم البينات﴾ وهم أهل الكتاب، تفرقوا في الدين وكانوا شيعاً كل شيعة تذهب مذهباً يخالف مذهب الأخرى،وصار كل ينصر مذهبه ويدعو إليه ويخطىء ما سواه حتى تعادَوْا واقتتلوا على ذلك،ولو كانوا أمة أو كان فيهم أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر معتصمين بحبل واحد متوجهين إلى غاية واحدة لما تفرقوا في المقاصد،ولو لم يتفرقوا لما اختلفوا في الدين وتعددت فيهم المذاهب في أصوله وفروعه حتى قتل بعضهم بعضاً. فلا تكونوا مثلهم فيحل بكم ما حل بهم.

وعلم مما بينا أن الاختلاف المنهي عنه هو ما كان ناشئاً عن التفرق،لا كل اختلاف – وإن كان في وسائل تأييد المقصد مع حسن النية الذي لا يدوم معه خلاف وإذا دام في مسألة – فإنه لا يضر لأنه لا يترتب عليه اختلاف في العمل، إذا المتفقون المخلصون يرجع بعضهم إلى قول من ظهر على لسانه البرهان وإلا عملوا برأي الأكثرين فيما لا يظهر للأقلين برهانه.

﴿وأولئك لهم عذاب عظيم﴾ فهذا الوعيد يقابل الوعد الكريم في الآية التي قبل هذه الآية بقوله تعالى في الداعين إلى الخير الآمرين بالمعروف الناهين

عن المنكر: «وأولئك هم المفلحون» فالفلاح في ذلك الوعد يشمل الفوز بخير الدنيا والآخرة. والعذاب في هذا الوعيد يشمل خسران الدنيا والآخرة. أما عذاب الدنيا فهو أن المتفرقين المختلفين الذين اتبعوا أهواءهم، وحكّموا في دينهم آراءهم، يكون بأسهم بينهم شديداً فيشقي بعضهم ببعض ثم يبتلون بالأمم الطامعة في الضعفاء فتذيقهم الخزي والنكال، وتسلبهم عزة الاستقلال، وأما عذاب الآخرة فقد بين الله في كتابه أنه أشد من عذاب الدنيا وأبقى.

ذلك العذاب العظيم يكون للمتفرقين المختلفين:

١٠٦ ــ ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ قيل: إن بياض الوجوه وسوادها هنا من باب الحقيقة، وإن ذلك يكون يوم القيامة خاصة واحتج صاحب هذا القول بمثل قوله تعالى «ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة» وقيل: ــ وهو الراجح ــ إنه من باب الكناية. فابيضاض الوجوه عبارة عن المسرة واسودادها عبارة عن المساءة، ونحوه: «وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم»، وحمل بعضهم الإبيضاض والاسوداد على المحسوس، والأول أولى لأن ذلك حاصل لهم سوداً كانوا في الدنيا أو بيضاً.

﴿فأما الذين اسودت وجوههم﴾ فيقال لهم: ﴿أكفرتم بعد إيمانكم؟ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ يقال لهم هذا القول في الدنيا وفي الآخرة، أما في الدنيا فلا بد أن يوجد في الناس من يقول للأمة المتوقع لها ذلك مثل هذا القول تغليظاً عليها لأن عملها لا يصدر إلا من الكافرين، وأما في الآخرة فيوبخهم الله في مثل هذا السؤال.

ويجوز أن يكون المراد بيان الشأن، لا الحكاية عن قول لساني وقع بالفعل، والمعنى: أن شأنهم حينئذٍ أن يقال فيهم أولهم ذلك القول، بل هذا هو المتعين عندي والكلام في الأمم لا في الأفراد.

١٠٧ ــ ﴿وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾ المراد برحمة الله تعالى هنا أثرها من نعمته وإحسانه، ولا شك أن من ابيضت وجوهم بما تقدم شرحه يكونون خالدين في النعمة بالدنيا ما داموا على

تلك الحال والأعمال التي بها ابيضت وجوههم، لأن الله تعالى لا يغير ما بقوم من نعمة حتى يغيروا ما بأنفسهم، فيترتب عليه التغير في الأعمال.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾

١٠٨ ـ ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق﴾ أي: بالأمر الثابت الحق الذي لا مجال فيه للشكوك والشبهات، ولا للاحتمالات والتأويلات، فلا عذر لأمتك إذا اتبعت سنن من قبلها فتفرقت في الدين وذهبت فيه مذاهب وصارت شعياً كل حزب بما لديهم فرحون، ﴿وما الله يريد ظلمًا للعالمين﴾ فيما يأمرهم به وينهاهم عنه، وإنما يريد به هدايتهم إلى ما تكمل به فطرتهم ويتم به نظام اجتماعهم، فإذا هم فسقوا عن أمره وحل بهم البلاء فإنما يكونون هم الظالمين لأنفسهم بتفرقهم واختلافهم، وكذا بغير ذلك من الذنوب الاجتماعية. فالكلام في الأمم وعقوبتها ولا يمكن أن يحل بها إلا بذنب فشا فيها فزحزحها عن صراط الله الذي بينه في هذه الآيات وغيرها.

قال الراغب: «الظلم عند أهل اللغة وكثير من العلماء: وضع الشيء في غير موضعه المختص به إما بنقصان أو بزيادة وإما بعدول عن وقته أو مكانه» فالظلم الذي ينفيه تعالى عن نفسه في الأحكام هو ما ينافي مصلحة العباد وهدايتهم لسعادة الدنيا والآخرة وفي الخلق ما ينافي النظام والأحكام.

١٠٩ ـ ﴿ولله ما في السماوات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور﴾ فهو مالك العباد والمتصرف في شؤونهم وإلى سننه الحكيمة ترجع أمورهم أي: فلا يطمع أهل التفرق والخلاف بالوصول إلى غاية أهل الوحدة والاتفاق. فهذه الآية وردت كالدليل على ما قبلها.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ

وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾

بعدما أمر الله تعالى بالاعتصام بحبله وذكر بنعمته على المؤمنين بتأليف القلوب وأخوة الإسلام ، وبعدما نهى عن التفرق في الأهواء والاختلاف في الدين وتوعد على ذلك بالعذاب العظيم، بيّـن فضل المعتصمين بحبله، المتآخين في دينه، المتحابين فيه، ووصفهم بهذا الوصف الشريف فقال:

١١٠ ــ ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ فعلم منه أن خيرية الأمة وفضلها على غيرها تكون بهذه الأمور: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإيمان بالله تعالى.

وفي قوله تعالى « كنتم » ثلاثة أوجه:

أحـدها: أنها تامة، فالمعنى: وجدتم خير أُمة، كأنه قال: أنتم خير أُمة، في الوجود الآن، لأن جميع الأمم غلب عليها الفساد، فلا يُعرف فيها المعروف ولا ينكر فيها المنكر، وليست على الإيمان الصحيح الذي يزرع أهله عن الشر ويصرفهم إلى الخير وأنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله إيماناً صحيحاً.

والوجه الثاني: أنها ناقصة، والمعنى حينئذٍ: كنتم في علم الله أو كنتم في الأمم السابقة كما في كتبها المبشرة بكم خير أمة إلخ. والمعنى: كنتم فيما سبق من أيام حياتكم خير أُمة شأنكم كذا وكذا وبذلك كان لكم هذا الجزاء الحسن.

الوجه الثالث: أن «كان» هنا بمعنى صار، أي: صرتم خير أمة وهذا أضعف الأقوال.

ولكن هذه الخيرية لا يستحقها من ليس لهم من الإسلام واتباع النبي ﷺ إلا الدعوى وجعل الدين جنسية لهم، بل لا يستحقها من أقام الصلاة وآتى الزكاة وصام رمضان وحج البيت الحرام والتزم الحلال واجتنب الحرام، مع الإخلاص الذي هو روح الإسلام، إلا بعد القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبالاعتصام بحبل الله مع اتقاء التفرق والخلاف في الدين.

وهذا الوصف يصدق على الذين خوطبوا به أولاً وهم النبي ﷺ وأصحابه الذين كانوا معه عليهم الرضوان. فهم الذين كانوا أعداء فألف الله بين قلوبهم فكانوا بنعمته إخواناً، وهم الذين اعتصموا بحبل الله ولم يتفرقوا في الدين، فيذهبوا فيه مذاهب تتعصب لكل مذهب شيعة منهم، وهم الذين كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر لا يخاف في ذلك ضعيف قوياً، ولا يهاب صغير كبيراً؛ وهم المؤمنون بالله ذلك الإيمان الذي استولى على عقولهم وقلوبهم ومشاعرهم، وملك أَزِمَّةَ أهوائهم حتى كان هو المسير لهم في عامة أحوالهم.

أما تقديم ذكر الأمر والنهي على الإيمان، فالحكمة فيه: أن هذه الصفة ـ الأمر والنهي ـ محمودة في عرف جميع الناس مؤمنهم وكافرهم يعترفون لصاحبها بالفضل، ولما كان الكلام في خيرية هذه الأمة على جميع الأم مؤمنهم وكافرهم، قدم الوصف المتفق على حسنه عند المؤمنين والكافرين. وهناك حكمة أخرى وهي: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سياج الإيمان وحفاظه فكان تقديمه في الذكر موافقاً للمعهود عند الناس في جعل سياج كل شيء مقدماً عليه.

أقول: كل ذلك حسن، والمتبادر عندي أن تقديم الأمر والنهي للتعريض بأهل الكتاب الذي كانوا يدعون الإيمان ولا يقدرون على ادعاء القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنهم كانوا في مجموعهم لا يتناهون عن منكر فعلوه وادعاء ما تكذبه المشاهدة يفضح صاحبه، فقدم ذكر الأمر والنهي لأنهم لا مجال

لهم في دعوى مشاركة المؤمنين فيه، وأخر ذكر الإيمان الذي يدعونه ليرتب عليه بيان أنه إيمان غير صحيح لأنه لم يأت بثمر الإيمان الصحيح، ولذلك قال:

﴿ولو آمن إهل الكتاب لكان خيراً لهم﴾ أي: لو آمنوا الإيمان الصحيح كما تؤمنون أنتم لكان خيراً لهم مما يدعون من الإيمان ﴿منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾ جمهور المفسرين على أن المعنى: ولو آمن أهل الكتاب بما آمنتم به كما آمنتم لكان خيراً لهم في الدنيا والآخرة، ولكن آمن بعضهم فمنهم المؤمنون كعبد الله سلام ورهطه من اليهود، والنجاشي ورهطه من النصارى، «وأكثرهم فاسقون» أي: فاسقون في دينهم غير عدول فيه، أو أكثرهم متمردون في الكفر.

وجملة القول: أن القرآن يبين حقائق ما عليه الأمم في عقائدها وأخلاقها وأعمالها، يزن ذلك بالقسطاس المستقيم والدقة التي نراها في تحريه الحقيقة لم نعهدها في كتاب عالم ولا مؤرخ.

فإذا نحن جمعنا ما حكم به على أهل الكتاب وغيرهم وعرضناه على علمائهم وفلاسفتهم ومؤرخيهم فإنهم يذعنون بأنه لباب الحقيقة بل هم يصرحون بأنه:

لولا غلبة الضلال والفسق والكفر عليهم في عصر ظهور الإسلام لما انتشر ذلك الانتشار السريع. ولكن وجد فينا من طمس هذه المزية وجعلوا كل ما ينكره القرآن من فساد الأمم من قبيل هجو غير المسلمين؛ وكل ما يحمده هو خاص بالمسلمين؛ حتى كأنه شعر لا يقصد منه إلا مدح أناس وذم آخرين، وبهذا ينفرون غير المسلمين من الإسلام، ويحولون بين المسلمين وبين العبرة والاتعاظ وفهم الحقائق.

ثم قال تعالى في أولئك الفاسقين من أهل الكتاب:

١١١ ـ ﴿لن يضروكم إلا أذى﴾ أي: إنهم لا يقدرون على إيقاع الضرر بكم ولكن يؤذونكم بنحو الكلام القبيح ﴿وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار﴾ تولية الأدبار: كناية عن الانهزام، لأن المنهزم يحوِّل ظهره إلى جهة مقاتله

ويستدبره في هربه منه، فيكون دبره أي قفاه إلى جهة وجه من انهزم هو منه. ﴿ثم لا ينصرون﴾ عليكم بعد ذلك أو: ثم إنهم لا ينصرون عليكم قط ما داموا على فسقهم ودمتم على خيريتكم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله.

ثم قال تعالى:

١١٢ ـ ﴿ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس﴾ «ثقفوا»: وجدوا، و «الذلة» بكسر الذال: ضرب مخصوص من الذل، لأنها من الصيغ التي تدل على الهيئة، قيل: المراد بها هنا الجزية، وقيل: ما يحدثه في النفس فقد السلطة وهذا هو الصحيح. وقد فرق «الراغب» بين «الذل» ـ بضم الذال و «الذل» بكسره ـ فقال في الأول: إنه ما كان عن قهر، وفي الثاني: ما كان بعد تصعب وشماس، ومنه تذليل الدواب. وضرب الذلة عليهم ـ أي: اليهود ـ عبارة عن إلصاقها بهم وظهور أثرها فيهم كما يكون من ضرب السكة بما ينقش فيها، أو عن إحاطتها بهم كإحاطة الخيمة المضروبة بمن فيها، ويسمى السبب في اللغة حبلاً والحبل سبباً. قيل: إن المعنى إلا بعهد أو سبب يأمنون به في بلاد الإسلام كما قال ابن جرير، وقيل: السبب من الله الإسلام، والسبب من الناس العهد أو التأمين. واختار الرازي أن الحبل من الله هو الجزية أي: الذمة التي تحصل بقبولهم دفع الجزية، والحبل من الناس هو ما فوض إلى رأي الإمام فيزيد فيه تارة وينقص بحسب الاجتهاد. والأظهر: أن حالهم معكم أن يكونوا أذلاء مهضومي الحقوق رغم أنوفهم «إلا بحبل من الله» وهو: ما قررته شريعته لهم إذا دخلوا في حكمكم من تحريم إيذائهم، وهضم شيء من حقوهم، و «حبل من الناس» وهو ما تقتضيه المشاركة في المعيشة من احتياجكم إليهم، واحتياجهم إليكم في بعض الأمور. أي: فهذا القدر المستثنى من عموم المذلة لم يأتهم من أنفسهم، وإنما جاءهم من غيرهم، فهم لا عزة لهم في أنفسهم لأن السلطان والملك قد فقدا منهم.

﴿وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة﴾ «باؤوا بالغضب، كانوا أحقاء به، من «البواء» وهو المساواة، يقال: باء فلان بدم فلان أو بفلان، إذا

كان حقيقاً أن يقتل به لمساواته له. أو: أقاموا فيه ولبثوا، من «المباءة» أي: حلوا مبوّأ أو بيئة من الغضب. و«المسكنة»: حالة للشخص منشؤها استصغاره لنفسه حتى لا يدعي له حقاً، و«الذلة»: حالة تعتري الشخص من سلب غيره لحقه وهو يتمناه، فمنشؤها وسببها غيره لا نفسه كالمسكنة. ونقل الرازي أن الأكثرين فسروا المسكنة بالجزية، لأنها هي التي بقيت مضروبة عليهم. أخذوا هذا من ذكرها بعد الاستثناء أي: أن الذلة ضربت عليهم لا ترتفع عنهم إلا بحبل من الله وحبل من الناس، فاستثنى من الذلة ثم ذكر المسكنة ولم يستثن فاقتضى ذلك بقاءها عليهم.

ثم علل تعالى هذا الجزاء وبين سببه، فقال: ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق﴾ أي: ذلك الذي ذكر من ضرب الذلة والمسكنة عليهم، وخَلاقَتُهُمْ بالغضب الإلهي بسبب كفرهم، وقتلهم الأنبياء بغير حق تعطيهم إياه شريعتهم. وفي التنصيص على كون ذلك بغير حق مع العلم به تغليظ عليهم وتشنيع على تحريهم الباطل، وكون ذلك عن عمد لا عن خطأ. ثم بين سبب هذا الكفر والعدوان الشنيع، فقال: ﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ أي: جرأهم على ذلك سبق المعاصي والاستمرار على الاعتداء فتدرجوا من الصغائر إلى الكبائر إلى أكبر الموبقات وهو الكفر وقتل الأنبياء المرشدين والهداة الصالحين الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فصار هذا العصيان والاعتداء خلقاً للأمة وطبعاً لها يتوارثه الأبناء عن الآباء بلا نكير، ولهذا نسب إلى متأخريهم عمل متقدميهم والأمم متكافلة ينسب إلى مجموعها ما فشا فيهم وإن ظهر بعض آثاره في زمن دون زمن.

لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

وقوله تعالى:

١١٣ ــ ﴿ليسوا سواء﴾ كلام تام، أي: ليس أهل الكتاب متساوين في هذه الأوصاف والأعمال القبيحة التي ذكرت آنفاً؛ بل منهم المؤمنون وهم الأقلون؛ ومنهم الفاسقون وهم الأكثرون؛ ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء اليل وهم يسجدون﴾ الآيات، قيل: إن هذه الأمة جماعة أسلموا من اليهود كعبد الله بن سلام وثعلبة بن سعيد وأسيد بن عبيد رواه ابن جرير عن ابن عباس. وروي عن قتادة أنه كان يقول في الآية:«ليس كل القوم هلك، قد كان لله فيهم بقية» بل روي عن ابن عباس أنه قال في الأمة القائمة:«أمة مهتدية قائمة على أمر الله لم تنزع عنه وتتركه، كما تركه الآخرون وضيعوه».

وأقول: في هذه الآية بيان حقيقة الواقع وهي دليل على أن دين الله واحد على ألسنة جميع الأنبياء، وأن كل من أخذه بإذعان، وعمل فيه بإخلاص، فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، فهو من الصالحين.

١١٤ ــ ﴿يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ أي يؤمنون إيماناً إذعانياً، وهو ما يثمر الخشية لله والاستعداد لذلك اليوم، لا إيماناً جنسياً لا حَظَّ لصاحبه منه إلا الغرور والدعوى، كما هو شأن الأكثرين من أبناء جنسهم ﴿ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ فيما بينهم وإن لم يكن لهم صوت في جمهور أمتهم لغلبة الفسق والفساد عليها ﴿ويسارعون في الخيرات﴾ كما هو شأن المؤمن المخلص، لا يتباطأ عما يعن له من الخير وإنما يتباطأ الذين في قلوبهم مرض ﴿وأولئك من الصالحين﴾ الذين صلحت نفوسهم فاستقامت أحوالهم وحسنت أعمالهم.

١١٥ ــ ﴿وما يفعلوا من خير فلن يكفروه﴾ أي: فلن يضيع ثوابه وقد سمى الله تعالى إثباته للمحسنين شكراً، وسمى نفسه «شكوراً»، فحسن في مقابلة هذا أن يعبر عن عدم الإثابة بالكفر الذي يقابل الشكر ﴿والله عليم بالمتقين﴾ وإنما يجزي العاملين بحسب ما يعلم من أمرهم وما تنطوي عليه نفوسهم من نياتهم وسرائرهم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٧﴾

١١٦ ــ ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا﴾ المراد بالذين كفروا: الكفار عامة لعموم اللفظ، فهو على إطلاقه ويدخل فيه اليهود الذين كانوا مجاورين للمسلمين يومئذٍ وكذا مشركو مكة دخولاً أولياً. قالوا: إنهم كلهم كانوا يتعززون بكثرة الأموال ويعيرون النبي ﷺ وأتباعه بالفقر ويقولون: لو كان محمد على الحق ما تركه ربه في هذا الفقر والشدة، وقيل: هم المنافقون إذ كان أكثرهم من الأغنياء. ومن كان كثير الأموال والأولاد قلما يشعر بحاجته إلى ما عند غيره من هداية أو علم أو أدب.

وقد فسر بعضهم: «تُغْني» بـ«تدفع»، أي: لا تدفع شيئاً من العذاب عنهم، وإنما هو من الغناء بمعنى الكفاية، أي: لا تغني عنهم نوعاً من أنواع الغناء أو لا تغني غناء ما، وذَكَرَ الأموال والأولاد، لأن المغرور إنما يصده عن اتباع الحق أو النظر في دليله الاستغناء بما هو فيه من النعم، ــ وأعظمها الأموال والأولاد ــ الذي يرى نفسه مستغنياً بمثل ذلك قلما يوجه نظره إلى طلب الحق أو يصغي إلى الداعي إليه، ومن لم يوجه نظره إلى الحق لا يبصره، ومن لم يبصره تخبط في دياجير الضلال عمره، حتى يتردى فيهلك الهلاك الأبدي، ولا ينفعه في الآخرة ما له فيفتدي به، أو ينتفع بما كان أنفقه منه، ولذلك قال: ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ لأن طبيعة أرواحهم اقتضت أن يكونوا في تلك الهاوية المظلمة المستعرة.

ثم مثل حالهم في إنفاق أموالهم التي فتنتهم فشغلتهم عن الحق أو أغرتهم بمقاومته فقال:

١١٧ ـ ﴿مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته﴾ «مَثَلُ الشيء» ـ بالتحريك ـ: مثله وشبهه، ويطلق على صفة الشيء. و«المثل» في الكلام: عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر ليبين أحدهما الآخر ويصوره، ولو من بعض الوجوه،و «الصر» بالكسر ـ: شدة البرد، وقيل: هو البرد عامة.

والمعنى: أن الريح المهلكة مثال للمال الذي ينفقونه في لذاتهم وجاههم ونشر سمعتهم وتأييد كلمتهم فيصدهم عن سبيل الله، وأن العقول والأخلاق الحسنة التي هي أصل جميع المنافع هي مثال الحرث،أي: إن المال الذي ينفقونه فيما ذكر هو الذي أفسد أخلاقهم وأهلك عقولهم بما صرفها عن النظر الصحيح ولفتها عن التفكر في عواقب الأمور. والوصف يشعر بأن الجوائح قد تزول بأموال الناس من حرث ونسل عقوبة على ذنوب اقترفوها ﴿وما ظلمهم الله﴾ يعني أولئك الذين أهلكت الريح ذات الصر حرثهم وذلك أنهم هم الذين كانوا ظلموا أنفسهم كما تقدم ، فكان هلاك زرعهم عقوبة لهم لا إيذاء آنفاً وعلى هذا يكون قوله ﴿ولكن أنفسهم يظلمون﴾ تأكيداً ذاهباً بكل شبهة. والظاهر المختار أن الضمير في قوله «وما ظلمهم الله» للمنفقين الذين ضرب المثل لبيان حالهم فهم المقصودون بالذات، والمعنى: ما ظلمهم الله بأن لم ينفعهم بنفقاتهم، بل هم الذين ظلموا أنفسهم وحدها ـ دون غيرها ـ بإنفاق تلك الأموال في الطرق التي تؤدي إلى الخيبة والخسران بحسب سنة الله في أعمال الإنسان.

أما كونهم يظلمون أنفسهم دون غيرها أو دون أن يظلمهم أحد ـ كما تقدم أخذاً من تقديم «أنفسهم» على عامله ـ فهو ظاهر على القول بأن الآية نزلت فيما كان ينفقه أهل مكة كلهم أو بعضهم أو اليهود في عداوة النبي ﷺ ومقاومته،إذ كانوا هم الذين اختاروا ذلك لأنفسهم ولم يضروه ﷺ ومن معه به، بل كانوا سبب سيادته عليهم وتمكنه منهم، وظاهر أيضاً على القول بأن المراد بتلك النفقات ما كان يضعه المنافقون في بعض طرق البر رياء وسمعة أو تقية، من حيث أنها لا ينتفع بها في الآخرة. ويقولون مثل هذا في الكافر الذي ينفق في طرق البر حباً في البر ورغبة في الخير، فإنه ـ وإن كان أحسن حالاً من

المرائي ـ لا تفيده نفقته في الآخرة لأن شرطها الإيمان؛ وقد ظلم نفسه بترك النظر في الآيات والبينات عليه بعدما ظهرت له، أو بالجحود بعد النظر ونهوض الحجة. وإنما يعنون بقولهم: «إن نفقته لا تفيده في الآخرة»، أنها لا تجعله من أهل الجنة.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

١١٨ ـ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً وَدُّوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر﴾ إلى آخر الآيات «بطانة» الرجل: وليجته وخاصته الذين يستنبطون أمره ويتولون سره، مأخوذ من «بطانة الثوب» وهو الوجه الباطن منه، كما يسمى الوجه الظاهر: ظهارة. و «من دونكم» معناه: من غيركم، و «يألونكم»: من «الإلو»، وهو التقصير والضعف و«الخبال» في الأصل: الفساد الذي يلحق الحيوان فيورثه اضطراباً كالأمراض التي تؤثر في المخ، فيختل إدراك المصاب بها، أي: لا يقصرون ولا ينون في إفساد أمركم، و «عنتم» من العنت وهو المشقة الشديدة، و «البغضاء»: شدة البغض.

أما سبب النزول: فقد أخرج ابن إسحاق وغيره عن ابن عباس، قال: «كان رجال من المسلمين يواصلون رجالاً من يهود لما كان بينهم من الجوار

والحلف في الجاهلية فأنزل الله فيهم ـ ينهاهم عن مباطنتهم خوف الفتنة عليهم ـ هذه الآية» وأخرج عبد بن حميد: أنها نزلت في المنافقين. وروى ابن جرير القولين عن ابن عباس ورجح القول الأول، وذكر الرازي وجهاً ثالثاً: أنها في الكافرين والمنافقين عامة.

وأما المعنى: فهو نهي المؤمنين أن يتخذوا لأنفسهم بطانة من الكافرين الموصوفين بتلك الأوصاف، على القول بأن قوله: «لا يألونكم» إلخ نعوت للبطانة هي قيود للنهي وكذا على القول بأنه كلام مستأنف مسوق للتعليل، فالمراد واحد وهو أن النهي خاص بمن كانوا في عداوة المؤمنين على ما ذكر. وهو أنهم لا يألونهم خبالاً وإفساداً لأمرهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. فهذا هو القيد الأول، والثاني قوله عز وجل «ودّوا ما عنتم» أي: تمنوا عنتكم، أي: وقوعكم في الضرر الشديد والمشقة. والثالث والرابع قوله «قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر» أي: قد ظهرت علامات بغضائهم لكم من كلامهم، فهي لشدتها مما يعوزهم كتمانها، ويعز عليهم إخفاؤها، على أن ما تخفي صدورهم منها أكبر مما يفيض على ألسنتهم من الدلائل عليها، وما كان المسلمون الأولون يعرفون سنة البشر في ذلك إذ لم يكونوا على علم بطبائع الملل وقوانين الاجتماع وحوادث التاريخ حتى أعلمهم الله به ولذلك قال ﴿قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون﴾ يعني بـ «الآيات» هنا: العلامات الفارقة بين من يصح أن يتخذ بطانة، ومن لا يصح أن يتخذ لخيانته وسوء عاقبة مباطنته. أي: إن كنتم تدركون حقائق هذه الآيات والفصول الفارقة بين الأعداء والأولياء فاعتبروا بها، ولا تتخذوا أولئك بطانة. لهذا يحق لنا أن نأسف غاية الأسف على أمراء الشرق وأخص من بينهم أمراء المسلمين حيث سلموا أمورهم، ووكلوا أعمالهم ـ من كتابة وإدارة وحماية ـ للأجانب عنهم، بل زادوا في موالاة الغرباء والثقة بهم، حتى ولو هم خدمتهم الخاصة بهم في بطون بيوتهم، بعدما رأوا كثرة المطامع فيها وأحسوا بالضغائن والأحقاد الموروثة من أجيال بعيدة بعدما علمتهم التجارب أنهم إذا ائتمنوا خانوا، وإذا عُززوا أهانوا، يقابلون الإحسان بالإساءة، والتوقير بالتحقير، والنعمة بالكفران،

ويجازون على اللقمة باللطمة، والركون إليهم بالجفوة،والصلة بالقطيعة، والثقة فيهم بالخدعة.

أما آن لأمراء الشرق أن يدينوا لأحكام الله التي لا تُنْقَضُ؟ ألم يأت وقت يعملون فيه بما أرشدتهم الحوادث ودلتهم عليه الرزايا والمصائب؟ ألم يحن لهم أن يكفوا عن تخريب بيوتهم بأيديهم وأيدي أعدائهم؟ ألا أيها الأمراء العظام ما لكم وللأجانب عنكم؟ «ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم» قد علمتم شأنهم، ولم تبق ريبة في أمرهم «إن تمسسكم حسنة تسوءهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها» سارعوا إلى أبناء أوطانكم وإخوان دينكم وملتكم، وأقبلوا عليهم ببعض ما تقبلون به على غيرهم تجدوا فيهم خير عون وأفضل نصير، اتبعوا سنة الله فيما ألهمكم وفطركم عليه كما فطر الناس أجمعين، وراعوا حكمته البالغة فيما أمركم وما نهاكم كيلا تضلوا ويهوي بكم الخطل إلى أسفل سافلين[1].

* * *

إن الغريب عن الملة لا يُتَّخَذُ بطانة للقائمين بأمر الملة، والغريب عن الدولة لا يُتخذ بطانة لرجال الدولة، وإن لم يكن هؤلاء الغرباء متصفين بما ذكر في الآية من العدوان والبغضاء، فكيف إذا كانوا كذلك.

لقد بينت لنا الآية بعض حال أولئك الذين نهى المؤمنون عن اتخاذ البطانة منهم مع المؤمنين، فدونك هذه الآية التي تبين حال المؤمنين معهم:

١١٩ ــ ﴿ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم﴾ فالقرآن ينطق بأفصح عبارة وأصرحها واصفاً المسلمين بهذا الوصف الذي هو من أثر الإسلام، وهو أنهم يحبون أشد الناس عداوة لهم الذين لا يقصرون في إفساد أمرهم وتمني عنتهم، على أن بغضاءهم لهم ظاهرة وما خفي منها أكبر مما ظهر.

أما قوله تعالى: ﴿وتؤمنون بالكتاب كله﴾ فمعناه: أنكم تؤمنون بجميع ما أنزل الله من كتاب، سواء منه ما نزل عليكم وما نزل عليهم، فليس في

---

(١) نصيحة المؤلف هذه موجهة أيضاً للدول والحكام في عصرنا، فإن التجارب أثبتت أن الإعراض عن الإسلام لم يورثنا سوى الهوان والذل.

نفوسكم من الكفر ببعض الكتب الإلهية أو النبيين الذين جاؤوا بها، ما يحملكم على بغض أهل الكتاب.

قال ابن جرير: «في هذه الآية إبانة من الله عز وجل عن حال الفريقين أعني المؤمنين والكافرين، ورحمة أهل الإيمان ورأفتهم بأهل الخلاف لهم، وقساوة قلوب أولئك وغلظتهم على أهل الإيمان، كما حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة في قوله: «ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله» فوالله إن المؤمن ليحب المنافق(١) ويأوي إليه ويرحمه، ولو أن المنافق يقدر من المؤمن على ما يقدر عليه المؤمن منه لأباد خضراءه». وعن ابن جريج قال: «المؤمن خير للمنافق من المنافق للمؤمن، يرحمه، ولو يقدر المنافق من المؤمن على مثل ما يقدر عليه المؤمن منه لأباد خضراءه» اهـ.

ثم قال تعالى مبيناً شأن طائفة منهم أسندها إليهم في الجملة على قاعدة تكافل الأمة وكونها كشخص واحد: ﴿وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾ كان بعض اليهود يظهرون الإيمان للنبي ﷺ والمؤمنين نفاقاً وخداعاً، ومنهم من كان يظهره ثم يرجع عنه ليشكك المسلمين، وإذا خلا بعضهم إلى بعض أظهروا ما في نفوسهم من الغيظ والحقد الذي لا يستطيعون معه إلى التشفي سبيلاً، وعض الأنامل: كناية عن شدة الغيظ ويكنى به أيضاً عن الندم ﴿قل موتوا بغيظكم﴾ فإن الإسلام الذي هو سبب غيظكم لا يزداد باعتصام أهله به إلا عزة وانتشاراً ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ فهو يعلم ما تضم صدوركم من شعور الغيظ والبغضاء، فكيف يخفى عليه ما تقولون في خلواتكم، وما يبديه بعضكم لبعض من ذلك؟ ويعلم كذلك ما تنطوي عليه صدورنا معشر المؤمنين من حب الخير والنصح لكم.

---

(١) قوله: «إن المؤمن ليحب المنافق إلخ يعني بهذه المحبة محبة الخير له، وبصلاح حاله، لأن المسلم لا يكره الكافر أو المنافق أو العاصي أو الظالم لشخصه، وذاته، بل يكرهه للسبب السيىء الذي ارتكبه، ألا وهو كفره ونفاقه إلخ... فالمؤمن يحب الخير لكل الناس ويسعى لتوصيله إليهم، بكل إخلاص امتثالاً لأمر الله تعالى.

ثم قال مبيناً حسدهم وسوء طويتهم:

١٢٠ ــ ﴿إن تمسسكم حسنة تسوءهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها﴾ «المس» في الأصل كاللمس، والمراد بـ «تمسسكم» هنا: تصبكم، ولعل اختيار لفظ «المس» في جانب الحسنة، و«الإصابة» في جانب السيئة، للإشعار بأن أولئك الكافرين يسوءهم ما يصيب المسلمين من خير وإن قَلَّ؛ بأن كان لا يزيد على ما يمس باليد، وإنما يفرحون بالسيئة إذا أصابت المسلمين إصابة يشق احتمالها.

قال قتادة في بيان ذلك كما رواه عنه ابن جرير: «فإذا رأوا من أهل الإسلام إلفة وحماية وظهوراً على عدوهم غاظهم ذلك وساءهم، وإذا رأوا من أهل الإسلام فرقة واختلافاً أو أصيب طرف من أطراف المسلمين سرهم ذلك وأعجبوا به وابتهجوا به، فهم كلما خرج منهم قرن أكذب الله أحدوثته وأوطأ محلته، وأبطل حجته وأظهر عورته، فذلك قضاء الله فيمن مضى منهم وفيمن بقي إلى يوم القيامة».

﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا﴾ ذهب بعضهم إلى أن المراد: «وإن تصبروا» على عداوتهم، «وتتقوا» اتخاذهم بطانة وموالاتهم من دون المؤمنين، «لا يضركم كيدهم» لكم، وهم بمعزل عنكم. وذهب آخرون إلى أن المراد «وإن تصبروا» على مشاق التكاليف وامتثال الأوامر عامة، «وتتقوا» ما نهيتم عنه وحظر عليكم ــ ومنه اتخاذ البطانة منهم ــ «لا يضركم كيدهم».

إن الصبر يذكر في القرآن في مقام ما يشق على النفس، وحبس الإنسان سِرَّه عن عشيره ومعاملة قريبه مما يشق عليه، فإن من لذات النفوس أن تفضي بما في الضمير إلى من تسكن إليه وتأنس به، فلما نهوا عن اتخاذ بطانة ممن دونهم من خلطائهم وعشرائهم وحلفائهم، وعلل بما علل به من بيان بغضائهم وكيدهم حَسُنَ أن يذكروا بالصبر على هذا التكليف الشاق عليهم وباتقاء ما يجب اتقاؤه لأجل السلامة من عاقبة كيدهم. ويصح أن يراد بالتقوى: الأخذ بوصاياه وامتثال أمره تعالى في البطانة وغيرها.

وأقول: ومن الاعتبار في الآية: أنه تعالى أمر المؤمنين بالصبر على عداوة أولئك المبغضين الكائدين، وباتقاء شرهم، ولم يأمرهم بمقابلة كيدهم وشرهم بمثله، وهكذا شأن القرآن لا يأمر إلا بالمحبة والخير والإحسان ودفع السيئة بالحسنة إن أمكن كما قال: «ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم» فإن لم يكن تحويل العدو إلى محب بدفع سيئاته بما هو أحسن منها فإنه يجيز دفع السيئة بمثلها من غير بغي ولا اعتداء.

﴿إن الله بما يعملون محيط﴾ المحيط بالعمل: هو الواقف على دقائقه، فهو إذا دل على طريق النجاة من كيد الكائدين فإنما يدل على الطريق الموصل للنجاة حتمًا، فالكلام كالتعليل لكون الاستعانة بالصبر والتمسك بالتقوى شرطين للنجاح.

والمعنى: أن الله قد دلكم يا معشر المؤمنين على ما ينجيكم من كيد عدوكم، فعليكم ـ بعد الامتثال ـ أن تعلموا أنه محيط بأعمالهم إحاطة قدرة، تمنعهم مما يريدون منكم، معونةً منه لكم فعليكم أن تثقوا به وتتوكلوا عليه.

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ

﴿فَإِنَّهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

إن هذه الآيات وعشرات بعدها نزلت في شأن غزوة أُحد، ويتوقف فهمها على الوقوف على قصة تلك الغزوة ولو إجمالاً. فوجب لذلك أن نأتي قبل تفسيرها بما يعين القارىء على فهمها ونبين له مواقع تلك الأخبار وما فيها من الحكم والأحكام، فنقول:

﴿غزوة أُحد﴾[1]

لما خذل الله المشركين في غزوة بدر ورجع فُلُّهم إلى مكة مقهورين موتورين، نذر أبو سفيان بن حرب أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً ﷺ، فخرج في مئة رجل من قريش حتى أتى بني النضير ليلاً، وبات ليلة واحدة عند سلام بن مشكم اليهودي سيد بني النضير وصاحب كنزهم، فسقاه الخمر وبطن له من خبر الناس؛ ثم خرج في عقب ليلته وأرسل أصحابه إلى ناحية من المدينة، يقال لها «العريض»، فقطعوا وحرقوا نخلا للمسلمين، ورأوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له فقتلوهما وعلم به رسول الله ﷺ فخرج في طلبه، فلم يدركهم، لأنهم فروا وألقوا سويقاً كثيراً من أزوادهم يتخففون به فسميت «غزوة السَّويق» وكانت بعد بدر بشهرين، وإنما ذكرناها قبل ذكر أُحد ليعلم القارىء أن العدوان من المشركين على المسلمين كان متصلاً متلاحقاً!!

ولما رجع أبو سفيان إلى مكة أخذ يؤلب على رسول الله ﷺ والمسلمين وكان بعد قتل صناديد قريش في بدر هو السيد الرئيس فيهم، فاجتمعت قريش للحرب حين فعل ذلك أبو سفيان ابن حرب وخرجت ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة فكانوا نحو ثلاثة آلاف، وأخذوا معهم نساءهم التماس الحفيظة وأن لا يفروا فإن الفرار بالنساء عسر والفرار دونهن عار.

---

(١) «أُحُد» بضمتين جبل مستطيل على نحو ميل من المدينة من جهة الشَّمال. وقد وصل إليه الآن البناء من المدينة.

ونزل أبو سفيان بجيشه قريباً من أُحد على شفير الوادي مقابل المدينة، وكان ذلك في شوال من السنة الثالثة، فلما علم رسول الله ﷺ بذلك استشار أصحابه كعادته،ثم في سحر يوم السبت خرج بألف من أصحابه واستعمل بالمدينة عبد الله بن أم مكتوم الأعمى على الصلاة بمن بقي فيها.

فلما كانوا بالشوط بين المدينة وأُحد انعزل عنه عبد الله بن أُبَـيٍّ بن سلول رئيس المنافقين بنحو ثلث العسكر ــ وهم ثلاثمائة ــ وقال: أطاعهم وعصاني، وفي رواية أنه قال: أطاع الولدان ومن لا رأي له، فما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس. فرجع بمن اتبعه من قومه أهل النفاق والريب، وقد كان المسلمون نحو ثلث المشركين الذين خرجوا إليهم فأمسوا وقد ذهب من الثلث نحو ثلثه، وهمت بنو سلمة من الأوس وبنو حارثة من الخزرج أن تفشلا فعصمهما الله تعالى. ومضى رسول الله ﷺ حتى نزل الشِّعْب من جبل أُحد في جانب الوادي إلى الجبل فجعل ظهره وعسكره إلى أُحد، فلما أصبح يوم السبت تَعَبَّى للقتال وهو في سبعمائة فيهم خمسون فارساً، واستعمل على الرماة ــ وكانوا خمسين ــ عبد الله بن جبير وقال: «انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك» رواه الشيخان،ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير وجعل على إحدى المجنبتين الزبير بن العوام وعلى الأخرى المنذر بن عمرو. وتَعَبَّتْ قريش وهم ثلاثة آلاف رجل معهم مئتا فرس قد جنبوها، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل وابتدأت الحرب بالمبارزة.

وكان أول من بَدَرَ من المشركين أبو عامر عبد بن عمرو بن صيفي وكان رأس الأوس في الجاهلية، فلما جاء الإسلام شرق به وجاهر رسول الله ﷺ بالعداوة وخرج من المدينة إلى مكة يؤلب قريشاً على قتاله، ويزعم أن قومه إذا رأوه أطاعوه ومالوا معه وكان يسمى الراهب فسماه النبي ﷺ بالفاسق. ولما برز نادى قومه وتعرف إليهم، فقالوا له: لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق. فقال: لقد أصاب قومي بعدي شر. وقاتل قتالاً شديداً وقد كان الظفر للمسلمين في المبارزة ثم في الملاحمة،وأبلى يومئذٍ أبو دجانة الأنصاري الذي أعطاه النبي ﷺ

سيفه، وحمزة أسد الله وأسد رسوله، وعلي بن أبي طالب، والنضر بن أنس، وسعد بن الربيع، وغيرهم، بلاءً عظيمًا حتى انهزم المشركون وولوا مدبرين.

فلما انهزم المشركون وولوا إلى نسائهم مدبرين ورأى الرماة من المسلمين هزيمتهم،ترك الرماة مركزهم الذي أمرهم رسول الله ﷺ بحفظه، وأن لا يدعوه سواء كان الظفر للمسلمين أو عليهم، لئلا يكر عليهم المشركون ويأتوهم من ورائهم، وقالوا: يا قوم الغنيمة الغنيمة. فذكرهم أميرهم عهد رسول الله ﷺ فلم يرجعوا، وظنوا أن ليس للمشركين رجعة، فذهبوا في طلب الغنيمة وأخلوا الثغر. فلما رأى فرسان المشركين الثغر قد خلا من الرماة كروا حتى أقبل آخرهم فأحاطوا بالمسلمين وأبلوا فيهم؛ حتى خلصوا إلى رسول الله ﷺ فجرحوا وجهه الشريف وكسروا رَبَاعِيَته اليمنى من ثناياه السفلى، وهشموا البيضة التي على رأسه،ورموه بالحجارة حتى سقط لشقه ووقع في حفرة،فأخذ عليٌّ بيده واحتضنه طلحة بن عبيد الله. وكان الذي تولى أذاه عمرو بن قميئة الحارثي وعتبة بن أبي وقاص، وقتل مصعب بن عمير بين يديه فدفع اللواء إلى علي بن أبي طالب،ونشبت حلقتان من حلق المغفر في وجنته فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح، عض عليهما حتى سقطت ثنيتاه من شدة غوصهما في وجهه، وامتص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم من وجنته، وطمع فيه المشركون فأدركوه يريدون منه ما الله عاصم إياه منه بقوله: «والله يعصمك من الناس»، وحال دونه نفر من المسلمين نحو عشرة حتى قُتلوا ثم جالدهم طلحة حتى أجهضهم عنه،وترس عليه أبو دجانة بنفسه فكان يقع النبل على ظهره وهو لا يتحرك حتى كثر فيه، ودافع عنه أيضاً بعض النساء اللواتي شهدن القتال.

قال ابن هشام :وقاتلت أم عمارة نُسَيْبَةُ بنت كعب المازنية يوم أُحد، فذكر سعيد بن أبي زيد الأنصاري أن أم سعد بنت سعد بن الربيع كانت تقول: دخلت عليَّ أم عمارة فقلت لها: يا خالة أخبريني خبرك. فقالت: خرجت أول النهار وأنا أنظر ما يصنع الناس ومعي سقاء فيه ماء. فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه والدولة والريح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى

رسول الله ﷺ فقمت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف وأرمي عن القوس حتى خلصت الجراح إليَّ ــ فرأيت على عاتقها جرحاً أجوف له غور، فقلت: من أصابك بهذا؟ ــ فقالت: ابن قمئة أقمأه الله، لما ولى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل يقول: دلوني على محمد فلا نجوت إن نجا. فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير وأناس ممن ثبت مع رسول الله ﷺ فضربني هذه الضربة ولكن ضربته على ذلك ضربات ولكن عدو الله كان عليه درعان.

قالوا: وصرخ صارخ بأعلى صوته: إن محمداً قد قتل. قال الزبير فيما ذكره ابن هشام عن ابن إسحق من وصفه لهزيمة المشركين: والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب ما دون أخذهن قليل ولا كثير إذ مالت الرماة إلى العسكر حين كشفنا القوم عنه وخلوا ظهورنا للخيل فأتينا من خلفك وصرخ صارخ «ألا أن محمداً قد قتل»، فانكفأنا وانفكأ علينا القوم بعد أن أصبنا أصحاب اللواء حتى ما يدنو منه أحد من القوم ووقع ذلك في نفوس كثير من المسلمين فانهزموا وكسرت قلوبهم، ومر أنس بن النضر بقوم من المسلمين فيهم عمر وطلحة قد ألقوا بأيديهم[1] فقال: ما تنظرون فقالوا: قتل رسول الله ﷺ فقال: ما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه. ثم استقبل الناس ولقي سعد بن معاذ فقال: يا سعد إني لأجد ريح الجنة من دون أحد، فقاتل حتى قتل ووجد به بضع وثمانون ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ومَثَّل به المشركون فلم تعرفه إلا أخته عرفته ببنانه، وجرح عبد الرحمن بن عوف نحو عشرين جراحة.

وأقبل رسول الله ﷺ نحو المسلمين وكان أول من عرفه تحت المغفر كعب بن مالك، فصاح بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله ﷺ فأشار بيده أن اسكت. واجتمع إليه المسلمون ونهضوا معه إلى الشعب الذي نزل فيه وفيهم أبو بكر وعمر وعلي والحارث بن الصمة الأنصاري

---

(١) قوله: «قد ألقوا بأيديهم» أي: توقفوا عن القتال، وقد روى قصة أنس بن النضر هذه الشيخان عن أنس بن مالك رضي الله عنه الذي قال: كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه» الآية «٢٣» من سورة «الأحزاب».

وغيرهم. وفي صحيح مسلم: «أنه ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من المهاجرين»الحديث، وفيه،أن السبعة قتلوا دونه،إذ كان ينبري للدفاع عنه واحد بعد واحد ولم يخرج القرشيان، فقال ﷺ «ما أنصفنا أصحابنا».

وفي صحيح ابن حبان عن عائشة قالت قال أبو بكر: لما كان يوم أحد انصرف الناس كلهم عن النبي ﷺ فكنت أول من فاء إليه. فرأيت بين يديه رجلاً يقاتل فقلت: كن طلحة فداك أبي وأمي «مرتين» فلم أنشب أن أدركني أبو عبيدة بن الجراح وهو يشتد كأنه طير فدفعنا إلى النبي ﷺ فإذا طلحة بين يديه صريعاً فقال ﷺ:«دونكم أخاكم فقد أوجب» أي: وجب له الجنة: وقد زلزل كل أحد ساعتئذٍ إلا رسول الله ﷺ فإنه لم يتحرك من مكانه.

وأدرك رسول الله ﷺ أبي بن خلف وهو مقنع بالحديد على جواد له يقال له العود، كان يعلفه في مكة ويقول: أقتل عليه محمداً. وكان قد بلغ النبي ﷺ خبره، فقال: «بل أنا أقتله إن شاء الله»، فلما اقترب منه استقبله مصعب بن عمير فقتل مصعباً، وجعل يقول: أين هذا الذي يزعم أنه نبي؟ فليبرز لي، فإنه إن كان نبياً قتلني. فتناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصِّمة فطعنه بها فجاء في تَرْقُوته من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة، فكر الخبيث منهزماً فقال له المشركون: والله ما بك من بأس. فقال: والله لو كان ما بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون. ومات من ذلك الجرح في «سَرِف» مرجعه إلى مكة. ولم يقتل النبي ﷺ في حياته أحداً سواه.

وقد انتهت الحرب بصرف الله المشركين عما كانوا يريدون من استئصال المسلمين، فإن المسلمين كانوا أولاً هم الغالبين بحسن تدبير الرسول ﷺ والصبر والثبات، وتمحُّض القصد إلى الدفاع عن دين الله وأهله، فلما أخرجهم الظفر عن التزام طاعة رسولهم وقائدهم، ودب إلى قلوبهم فريق منهم الطمع في الغنيمة، فشلوا وتنازعوا في الأمر وزادهم فشلاً إشاعة قتل الرسول ﷺ حتى فر كثيرون إلى المدينة، واختلط الأمر على كثير ممن ثبت، ولما جاءهم خالد بالفرسان من ورائهم صار يضرب بعضهم بعضاً على غير هدى، فمنهم الذين

استبسلوا وأرادوا أن يموتوا على ما مات عليه الرسول ﷺ، ومنهم الذين كانوا معه ﷺ يفدونه بأنفسهم ويتلقون السهام والسيوف دونه.

ولما انقضت الحرب أشرف أبو سفيان على الجبل، فنادى: أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه، فقال: أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجيبوه، فقال: أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوه. فقال: أما هؤلاء فقد كفيتموهم. فلم يملك عمر نفسه أن قال: يا عدو الله إن الذين ذكرتهم أحياء وقد أبقى الله لك ما يسوءك. فقال: قد كان في القوم مثلة لم آمر بها ولم تسؤني ــ ثم قال ــ «أُعْلُ هُبَل». فقال النبي ﷺ: «ألا تجيبونه؟» فقالوا: فما نقول؟ قال: « قولوا الله أعلى وأجل» ثم قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم. قال: «ألا تجيبونه؟» قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا الله مولانا ولا مولى لكم» ثم قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر والحرب سجال. فأجابه عمر: لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار. وانصرف الفريقان.

* * *

إذا تمهد هذا فلنشرع في تفسير الآيات. ونقول أولاً: إن وجه اتصالها بما قبلها هو: أنه تعالى نهاهم في تلك عن اتخاذ بطانة من الأعداء المعروفين بالعداوة لهم وأعلمهم ببغضهم إياهم وإن خادعهم أفراد منهم بدعوى الإيمان، وأنهم إن يصبروا ويتقوا ما يجب اتقاؤه لا يضرهم كيدهم شيئاً، وبعد هذا البيان ذكرهم في هذه الآيات بوقعة أُحد وما كان فيها من كيد المنافقين إذ قالوا ما قالوا أولاً وآخراً، وإذ خرجوا ثم انشقوا ورجعوا ليخذلوا المؤمنين ويوقعوا الفشل فيهم، ومن كيد المشركين وتألبهم، الذي لم يكن له من دافع إلا الصبر حتى عن الغنيمة التي طمع فيها الرماة فتركوا موقعهم، وإلا التقوى ومنها ــ بل أهمها ــ طاعة الرسول فيما أمر به الرماة، وذكرهم أيضاً بوقعة بدر إذ نصرهم على قلتهم بصبرهم وتقواهم.

فقال تعالى:

١٢١ ــ ﴿وإذ غدوت من أهلك﴾ أي: واذكر بعد هذا يا محمد إذ

خرجت من بيت أهلك غدوة، وذلك سحر يوم السبت سابع شوال من سنة ثلاث للهجرة ﴿تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال﴾ أي: توطنهم وتنزلهم أماكن ومواضع في الشِّعب من أُحُد لأجل القتال فيها. فمنها موضع للرماة، وموضع للفرسان، وموضع لسائر المؤمنين، فالمقاعد جمع «مقعد»، وهو في الأصل: مكان القعود، كالمجلس لمكان الجلوس، والمقام لمكان القيام ثم استعملت هذه الألفاظ كلها بمعنى المكان توسعاً. وقيل: تبوئة المقاعد تسويتها وتهيئتها ﴿والله سميع عليم﴾ لم يخف عنه شيء مما قيل في مشاورتك لمن معك في أمر الخروج إلى لقاء المشركين في أحد أو انتظارهم في المدينة.

١٢٢ ـ ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا﴾ يعني بذلك جل ثناؤه: والله سميع عليم حين همت طائفتان منكم أن تفشلا. و«الهم»: حديث النفس وتوجهها إلى الشيء، والفشل: ضعف مع جبن. والطائفتان هما: بنو سلمة وبنو حارثة من الأنصار كما تقدم في القصة ﴿والله وليهما﴾ أي: متولي أمورهما لصدق إيمانهما، لذلك صرف الفشل عنهما وثبتهما، فلم يجيبا داعي الضعف الذي ألم بهما عند رجوع نحو ثلث العسكر، بل تذكروا ولاية الله للمؤمنين فوثقا به وتوكلا عليه ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أمثالهم، لا على حولهم وقوتهم، ولا على أعوانهم وأنصارهم، وإنما يبذلون حولهم وقوتهم ويأخذون أهبتهم وعدتهم، إقامة لسنن الله تعالى في خلقه إذ جعل الأسباب مفضية إلى المسببات، وهو الفاعل المسخر للسبب والمسبب، والموفق بينهما، فينصر الفئة القليلة على الكثيرة إن شاء كما نصر المؤمنين يوم بدر ولذلك قال:

١٢٣ ـ ﴿ولقد نصركم الله ببدر﴾ وهو ماء بين مكة والمدينة كان لرجل اسمه «بدر» فسمي باسمه، ثم أطلق اللفظ على المكان الذي هو فيه. وقد كانت فيه أول غزوة قاتل فيها النبي المشركين في السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثالثة للهجرة، فنصره الله عليهم نصراً مؤزراً ﴿وأنتم أذلة﴾ أي: نصركم في حالة ذلة كنتم فيها على قلتكم كما يفيده لفظ «أذلة»، إذ هو جمع قلة ـ وقد كانوا ثلاث مائة وثلاثة عشر رجلاً، والمراد بكونهم أذلة أنهم لا منعة لهم إذ كانوا قليلي العدة من السلاح والظهر (أي: ما يركب) والزاد. ولا غضاضة

في الذل إلا إذا كان عن قهر من البغاة والظالمين ولم يكن المؤمنون بمقهورين ولا مستذلين من الكافرين، وإنما كانت قوتهم في أوائل تكونها ﴿فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾ فإن التقوى هي التي تعدكم للقيام في مقام الشكر على النعم التي يسديكم إياها،فمن لم يرض نفسه بالتقوى غلب عليه اتباع الهوى فلا يرجى له أن يكون شاكراً يصرف النعمة إلى ما وهبت لأجله من الحكم والمنافع.

١٢٤ ـ ﴿إذ تقول للمؤمنين﴾ قيل: إن هذا متعلق بقوله «ولقد نصركم الله ببدر»،وقيل إنه خاص بوقعة أُحد التي ورد فيها هذا السياق بـ«تبويء» أو بـ«سميع». والتقدير: تبوئهم مقاعد للقتال في الوقت الذي هَمَّ فيه بعضهم بالفشل مع أن الله نصركم ببدر على قلة وذلة، وفي الوقت الذي كنت تقول فيه للمؤمنين ﴿ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين﴾ وهذا هو المختار. والتقدير على الأول: إن الله نصركم ببدر في ذلك الوقت الذي كنت تقول فيه لهم:«ألن يكفيكم» إلخ،أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وغيرهما عن الشعبي: أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كُرز بن جابر المحاربي يريد أن يمد المشركين فشق ذلك عليهم فأنزل الله: «ألن يكفيكم» إلخ فبلغت كرزاً الهزيمة فلم يمد المشركين. ورواه ابن جرير عن الشعبي وعن غيره، وذكر الخلاف في حصول هذا الإمداد بالفعل، وأن بعضهم يقول: إنه لم يحصل وبعضهم قال: إنه حصل يوم بدر، ونقل عن بعضهم أن الوعد بالإمداد ـ وإن لم يحصل ببدر ـ عام في كل الحروب، وأنهم أمدوا في حرب قريظة والأحزاب، ولم يمدوا يوم أحد لأنهم لم يصبروا ولم يتقوا.

١٢٥ ـ ﴿بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾ «الفور» في الأصل: فوران القدر ونحوها، ثم استعير الفور للسرعة، ثم سميت به الحالة التي لا ريث فيها ولا تعريج على شيء؛ فمعنى: يأتوكم من فورهم، من ساعتهم هذه بدون إبطاء. و«مسومين» من التسويم. وقد ورد: سوّمه الأمر، بمعنى: كلفه إياه، وسوّم فلاناً: خَلاَّه، وسوّمه في ماله: حكمه وصرفه، وسوّم الخيل: أرسلها، وكل هذه المعاني ظاهرة على قراءة فتح الواو من «مسومين» فيصح أن يكون المعنى: أن هؤلاء الملائكة

يكونون مكلفين من الله تثبيت قلوب المؤمنين، أو محكمين ومصرفين فيما يفعلونه في النفوس من إلهام النصر بتثبيت القلوب والربط عليها، أو مرسلين من عنده تعالى.

وأما قراءة كسر الواو ــ مسوِّمين ــ فهي من قولهم: «سوّم على القوم» إذا أغار عليهم ففتك بهم، ولو بالإعانة المعنوية على ذلك، وقال بعض المفسرين: إنه من التسويم بمعنى إظهار سيما الشيء أي: علامته، أي: معلمين أنفسهم أو خيلهم، وهو كما ترى لولا الرواية لم يخطر على بال أحد منهم، ويمكن أن يقال: مسومين للمؤمنين بما يظهر عليهم من سيما تثبيتهم إياهم.

قال ابن جرير بعد ذكر الخلاف في هذا الإمداد ما نصه: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر عن نبيه محمد ﷺ أنه قال للمؤمنين: ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة، ثم وعدهم بعد الثلاثة الآلاف خمسة آلاف إن صبروا لأعدائهم واتقوا: ولا دلالة في الآية على أنهم أمدوا بالثلاثة الآلاف ولا بالخمسة الآلاف ولا على أنهم لم يمدوا بهم، وقد يجوز أن يكون الله أمدهم على نحو ما رواه الذين أثبتوا أن الله أمدهم، وقد يجوز أن يكون الله لم يمدهم على نحو الذي ذكره من أنكر ذلك. ولا خبر عندنا صح من الوجه الذي يثبت أنهم أمدوا بالثلاثة الآلاف ولا بالخمسة الآلاف وغير جائز أن يقال في ذلك قول إلا بخبر تقوم الحجة به ولا خبر به فنسلم لأحد الفريقين قوله. غير أن في القرآن دلالة على أنهم قد أمدوا يوم بدر بألف من الملائكة وذلك قوله: «إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين» أما في أحد فالدلالة على أنهم لم يمدوا أبين منها في أنهم أمدوا، وذلك أنهم لو أمدوا لم يهزموا وينلْ منهم ما نيل منهم» اهـ.

أقول: أما معنى هذا الإمداد بالملائكة فهو من قبيل إمداد العسكر بما يزيد عددهم أو عدتهم وقوتهم ولو النفسية وهذا هو الظاهر وهاك بيانه.

«الإمداد» من المد، و«المد» في الأصل عبارة عن بسط الشيء، كمد اليد والحبل، فالإمداد يكون بالمال وهو ما يتمول وينتفع به، ويكون بالأشخاص.

والإمداد بالملائكة يصح أن يكون من قبيل الإمداد بالمال الذي يزيد في قوة القوم،وأن يكون من الإمداد بالأشخاص الذين ينتفع بهم ولو نفعاً معنوياً، وذلك أن الملائكة أرواح تلابس النفوس فتمدها بالإلهامات الصالحة التي تثبها وتقوي عزيمتها، ولذلك قال عز وجل:

١٢٦ ـ ﴿وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾.

الظاهر أن يكون التقدير: وما جعل الله ذلك القول الذي قاله لكم الرسول وهو «ألن يكفيكم» إلخ إلا بشرى يفرح بها روعكم وتنبسط به أسارير وجوهكم وطمأنينة لقلوبكم التي طرقها الخوف من كثرة عدوكم واستعدادهم. أي إن قول الرسول له هذا التأثير في تقوية القلوب وتثبيت النفوس وإنما أرجعنا ضمير «جعله» إلى قول الرسول ﷺ لا إلى وعد الله عز وجل، لأن الآيتين السابقتين ليستا وعداً من الله بالإمداد بالملائكة، وإنما هما إخبار عما قاله الرسول ﷺ، فقد أخبر تعالى في تينك الآيتين أن رسوله قال لأصحابه ذلك القول، وبَيَّن في هذه الآية فائدة ذلك القول ومنفعته مع بيان الحقيقة، وهي أن النصر بيد الله العزيز، أي: القوي الذي لا يمتنع عليه شيء، الحكيم الذي يدبر الأمر على سنَن، ويقيمه بأحسن سُنَن، فيهدي لأسباب النصر الظاهرة والباطنة من يشاء؛ ويصرف عنها من يشاء، فإن حصل الإمداد بالملائكة فعلاً فما يكون إلا جزءاً من أجزاء سبب النصر أو فرداً من أفراده، ومنه: إلقاء الرعب والخوف في قلوب الأعداء، ومنه: سائر الأسباب المعروفة من الصبر والثبات، وحسن التدبير، ومعرفة المواقع، وغير ذلك، فإن النبي ﷺ سلك إلى أُحد أقرب الطرق، وأخفاها عن العدو، وعسكر في أحسن موضع وهو الشِّعب ـ الوادي ـ وجعل ظهر عسكره إلى الجبل، وجعل الرماة من ورائهم، فلما اختل بعض هذه التدبيرات لم ينتصروا.

١٢٧ ـ ﴿ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين﴾ ذهب بعض المفسرين إلى أن هذا متعلق بقوله «ولقد نصركم الله ببدر» وبعض آخر إلى أنه من الكلام في وقعة أحد المقصودة بالذات؛ فإن ذكر النصر

ببدر إنما جاء استطراداً ولذلك أنكروا أن يكون ذِكْرُ الملائكة الثلاثة الآلاف والخمسة الآلاف متعلقاً به. وهذا هو المختار عندنا. أي: إنه فَعَلَ ما فَعَل ليقطع طرفاً، أو وما النصر إلا من عنده ليقطع طرفاً. ومعنى «قطع الطرف منهم» إهلاك طائفة منهم.

وأما قوله «أو يكبتهم» فقد فسروه بأقوال، منها أن معناه: يخزيهم، ومنها أن معناه: يصرعهم لوجوههم ويقال: «كبت الله عدوه» أكبه وأهلكه. والمعنى: أنه يقطع طرفاً وطائفة ويكبت طائفة أخرى، أي: ويتوب على طائفة ويعذب طائفة كما في الآية الآتية:

١٢٨ ــ ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾.

جملة: «ليس لك من الأمر شيء» معترضة وما بعدها معطوف على ما قبلها.

أما كونها نزلت في شأن وقعة أُحد فيدل عليه ما ورد في سبب نزولها. روى أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وغيرهم من حديث ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ يوم أحد: «اللهم العن أبا سفيان، اللهم العن الحارث بن هشام، اللهم العن سهيل بن عمرو، اللهم العن صفوان بن أمية» فنزلت هذه الآية، فتيب عليهم كلهم. وروى البخاري عن أبي هريرة نحوه، وروى أحمد ومسلم من حديث أنس: أن النبي ﷺ كُسِرَتْ رَباعيته يوم أحد، وشُجَّ في وجهه حتى سال الدم على وجهه، فقال: «كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم؟» فأنزل الله: «ليس لك من الأمر شيء» الآية، ذكر ذلك كلّه «السيوطي» في «لباب النقول» ولم يعز الأول إلى الترمذي والنسائي اكتفاء بمن هو أصح منهما رواية. ولا تنافي بين حديث ابن عمر وحديث أنس لأن الجمع بينهما ظاهر، وهو أنه قال ما قال فيهم حين أدموه، ثم لعن رؤساءهم، فنزلت الآية عقب ذلك كله.

وأما المعنى: فهو ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ليس لك من الأمر شيء.

وتأويل «ليس لك من الأمر شيء» : ليس إليك يا محمد من أمر خلقي إلا أن تنفذ فيهم أمري، وتنتهي فيهم إلى طاعتي، وإنما أمرهم إليَّ، والقضاء فيهم بيدي دون غيري، أقضي فيهم وأحكم بالذي أشاء.

ثم أكد تعالى هذه الحقيقة وأيدها بقوله:

١٢٩ ــ ﴿ولله ما في السماوات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم﴾ فمن كان له ملك السماوات والأرض كان حقيقاً بأن يكون له الأمر كله في السماوات والأرض ولا يمكن أن يكون لأحد من أهلهما شركة معه ولا رأي ولا وساطة تأثير في تدبيرهما، وإن كان ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلاً إلا من سخره تعالى للقيام بشيء فإنه كون خاضعاً لذلك التسخير، لا يستطيع الخروج فيه عن السنن العامة التي قام بها نظام الكون ونظام الاجتماع، وفي ذلك تأديب من الله تعالى لرسوله وإعلام بأن ذلك اللعن والدعاء على المشركين مما لم ينبغي له.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

١٣٠ ــ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة﴾ هذا أول[١] ما نزل في تحريم الربا وآيات «البقرة»[٢] في الربا نزلت بعد هذه، بل هي آخر آيات الأحكام نزولاً.

و «الأضعاف»، جمع قلة لـ«ضِعْف» ــ بكسر الضاد ــ وضعف الشيء: مثله الذي يثنِّيه، فضعف الواحد واحد، فهو إذا أضيف إليه ثنَّاه. وهو من الألفاظ

---

(١) قوله: «وهذا أول ما نزل في تحريم الربا» لقد أطال المؤلف في الأصل في بحث الربا وله في ذلك رسالة طبعت بعد وفاته وقدم لها الأستاذ الشيخ محمد بهجت البيطار.

(٢) قوله: «وآيات البقرة في الربا» يعني الآيات «٢٧٥» وما يليها منها.

المتضايفة، أي: التي يقتضي وجودُها وجودَ آخر من جنسها، كالنصف والزوج، ويختص بالعدد، فإذا ضاعفتَ الشيء ضممت إليه مثله مرة وأكثر. وإذا قلنا: إن «الأضعاف المضاعفة» في الزيادة فقط ـ التي هي الربا ـ فيصح تصوير المسألة: بتأخير أجل الدين والزيادة في المال، وهذا هو الذي كان معروفاً في الجاهلية، ويصح أيضاً أن تكون الأضعاف بالنسبة إلى رأس المال، وهذا واقع الآن فإنني رأيت في مصر من استدان بربا ثلاثة في المئة كل يوم، فانظركم ضعفاً يكون في السنة.

وأقول: حاصل المعنى: لا تأكلوا الربا حال كونه أضعافاً تضاعف بتأخير أجل الدين الذي هو رأس المال، وزيادة المال ضعف ما كان، كما كنتم تفعلون في الجاهلية، فإن الإسلام لا يبيح لكم ذلك، لما فيه من القسوة والبخل، واستغلال ضرورة المعوز أو حاجته ﴿واتقوا الله﴾ في أهل الحاجة والبؤس فلا تحملوهم من الدين هذه الأثقال التي ترزحهم وربما تخرب بيوتهم ﴿لعلكم تفلحون﴾ في دنياكم بالتراحم والتعاون، فتتحابون والمحبة رأس السعادة.

١٣١ ـ ﴿واتقوا النار التي أعدت للكافرين﴾ الذين قست قلوبهم واستحوذ عليهم الطمع والبخل فكانوا فتنة للفقراء والمساكين وأعداء البائسين والمعوزين،وهذا وعيد للمرابين بجعلهم مع الكافرين في النار.

١٣٢ ـ ﴿وأطيعوا الله والرسول﴾ فيما نهيا عنه من أكل الربا وما أمرا به من الصدقة ﴿لعلكم ترحمون﴾ في الدنيا بما تفيدكم الطاعة من صلاح حال مجتمعكم، وفي الآخرة بحسن الجزاء على أعمالكم، فإن الراحمين يرحمهم الرحمن.

وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ

فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾

ثم ذكر جزاء المتقين بعد الأمر المؤكد باتقاء النار اتباعاً للوعيد بالوعد وقرناً للترهيب بالترغيب كما هي سنته، فقال:

١٣٣ ـ ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين﴾ المسارعة إلى المغفرة والجنة: هي المبادرة إلى أسبابها وما يعد الإنسان لنيلها من التوبة عن الإثم كالربا والإقبال على البر كالصدقة. والمراد بكون عرض الجنة كعرض السماوات والأرض: المبالغة في وصفها بالسعة والبسطة، تشبيهاً لها بأوسع ما علمه الناس،وخص العرض بالذكر لأنه يكون عادة أقل من الطول. وقوله «أعدت للمتقين»: هيئت لهم، وفيه دليل على أن الجنة مخلوقة وأنها خارجة عن هذا العالم.

ثم وصف المتقين بالصفات الخمس الآتية، فقال: في بيان الصفة الأولى:

١٣٤ ـ ﴿الذين ينفقون في السراء والضراء أي: في حالة الرخاء والسعة وحالة الضيق والعسرة، كل حالة بحسبها.

وقد بدأ وصف المتقين بالإنفاق لوجهين، أحدهما: مقابلته بالربا الذي نهى عنه في الآية السابقة،فإن الربا هو استغلال الغني حاجة المعوز وأكل ماله بلا مقابل والصدقة إعانة له وإطعامه ما لا يستحقه فهي ضد الربا. ولم يرد في القرآن ذكر الربا إلا وَقُبِّحَ ومدحت معه الزكاة والصدقة.

وثانيهما: أن الإنفاق في السراء والضراء أدل على التقوى وأشق على النفوس وأنفع للبشر من سائر الصفات والأعمال.

وإذا كان الله تعالى قد جعل الإنفاق في سبيله علامة على التقوى أو أثراً من آثارها حتى في حال الضراء، وكان انتفاؤه علامة على عدم التقوى التي هي سبب دخول الجنة، فكيف يكون حال أهل السراء الذين يقبضون أيديهم؟ وهل يغني عن هؤلاء من شيء أداء الرسوم الدينية الظاهرة التي يتمرنون عليها عادة مع الناس؟

وقال في الصفة الثانية: ﴿والكاظمين الغيظ﴾ الغيظ: أشد الغضب، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه إذا هضم حق من حقوقه المادية كالمال، أو المعنوية كالشرف فيحركه إلى التشفي والانتقام، ومن أجاب داعي الغيظ إلى الانتقام لا يقف عند حد الاعتدال ولا يكتفي بالحق بل يتجاوزه إلى البغي لذلك كان من التقوى كظمه.

وفي الصفة الثالثة، قال تعالى: ﴿والعافين عن الناس﴾ العفو عن الناس: هو التجافي عن ذنب المذنب منهم وترك مؤاخذته مع القدرة عليها، وتلك مرتبة في ضبط النفس والحكم عليها وكرم المعاملة قَلَّ من يتبوأها، فالعفو مرتبة فوق مرتبة كظم الغيظ إذ ربما يكظم امرؤ غيظه على حقد وضغينة.

ثم ذكر الصفة الرابعة مبيناً أن هناك مرتبة أعلى من كظم الغيظ والعفو عن الناس، فقال تعالى: ﴿والله يحب المحسنين﴾ فالإحسان وصف من أوصاف المتقين، ولم يعطفه على ما سبقه من الصفات بل صاغه بهذه الصيغة تمييزاً به بكونه محبوباً عند الله تعالى.

ثم قال تعالى مبيناً الصفة الخامسة من صفات المتقين في هذه الآيات:

١٣٥ ــ ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله؟﴾ الفاحشة: الفعلة الشديدة القبح، وظلم النفس يطلق على كل ذنب، وقيل: «الفاحشة» هي: الكبيرة، وظلم النفس: الصغيرة، ولعل الفاحشة ما تتعدى وظلم النفس ما ليس كذلك، وذكر الله عند الذنب يكون بتذكر نهيه ووعيده أو عقابه أو تذكر عظمته وجلاله.

﴿ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾ لا يصر المؤمن المتقي من أهل

الدرجة الدنيا على ذنبه وهو يعلم أن الله تعالى نهى عنه وتوعد عليه ولا يصر كذلك بالأولى، صاحب الدرجة العليا، من أهل الإيمان والتقوى، وهو يعلم أن الذنوب فسوق عن نظام الفطرة السليمة، واعتداء على قانون الشريعة القويمة.

١٣٦ ـ ﴿أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ يعني بقوله: «أولئك» المتقين الموصوفين بما تقدم من الصفات الخمس، وفيه تأكيد للوعد وتفصيل ما للموعود به. وأما قوله عز وجل: ﴿ونعم أجر العاملين﴾ فهو نص في أن هذا الجزاء إنما هو على تلك الأعمال التي منها ما هو إصلاح لحال الأمة كإنفاق المال، ومنها ما هو إصلاح لنفس العامل، وكلها مما يرقي النفس البشرية، حتى تكون أهلاً لتلك المراتب العلية، أي: ونعم ذلك الجزاء الذي ذكر من المغفرة والجنات أجراً للعاملين تلك الأعمال البدنية كالإنفاق، والنفسية كعدم الإصرار، وإن كانوا يتفاوتون فيه لتفاوتهم في التقوى والأعمال.

قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾

١٣٧ ـ ﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾ إن بعض المفسرين يجعل هذه الآية والتي بعدها تمهيداً لما بعدهما من النهي عن الوهن والحزن وما يتبع ذلك، كأنه يقول: إن هذا الذي وقع لا يصح أن يضعف عزائمكم فإن السنن التي قد خلت من قبلكم تبين لكم كيف كانت مصارعة الحق للباطل، وكيف ابتلي أهل

الحق أحياناً بالخوف والجوع والانكسار في الحرب ثم كانت العاقبة لهم، فانظروا كيف كانت عاقبة المكذبين للرسل المقاومين لهم، فإنهم كانوا هم المخذولين المغلوبين وكان جند الله هم المنصورين الغالبين، وإذا كان الأمر كذلك فلا تهنوا ولا تحزنوا لما أصابكم في أحد.

وهذا رأي ضعيف، فإن ذكر السنن بعد آيات متعددة في موضوعات مختلفة تفيد معاني كثيرة. فإن الله تعالى نهى المؤمنين عن اتخاذ بطانة من الأعداء الذين بدت لهم بغضاؤهم، وبين هو لهم مجامع خبثهم وكيدهم، ثم ذَكَّر النبي والمؤمنين بوقعة أحد وما كان فيها بالإجمال، وذكَّرهم بنصره لهم ببدر، ثم ذَكَرَ المتقين وأوصافهم وما وعدوا به، ثم ذَكَرَ بعد ذلك كله مضي السنن في الأمم وأنه بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين، فَذِكْرُ السنن بعد ذلك كله يفيد معاني كثيرة تحتاج إلى شرح طويل جداً لا معنى واحداً كما قيل. وإن في القرآن من إفادة المباني القليلة للمعاني الكثيرة بمعونة السياق والأسلوب ما لا يخطر في بال أحد من كتاب البشر وعلمائهم، ومثل هذا مما تجب العناية ببيانه، يقول الشيخ عبد القاهر في «دلائل الإعجاز»: إن كون القرآن معجزاً ببلاغته يوجب علينا أن نجعل أسلوبه الذي كان معجزاً به فَنَّاً ليبقى دالاً على وجه إعجازه، وكذلك أقول: إن إرشاد الله إيانا إلى أن له في خلقه سنناً، يوجب علينا أن نجعل هذه السنن عِلْمًا من العلوم لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه، كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال، وقد بينها العلماء التفصيل عملاً بإرشاده، كالتوحيد والأصول والفقه. والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن يحيل عليه في مواضع كثيرة وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمم إذ أمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها.

ومعنى الجملة: انظروا إلى من تقدمكم من الصالحين والمكذبين فإذا أنتم سلكتم سبيل الصالحين فعاقبتكم كعاقبتهم، وإن سلكتم سبل المكذبين فعاقبتكم كعاقبتهم.

وأقول: «السُّنَن» جمع «سُنَّة» وهي الطريقة المعبدة، والسيرة المتبعة، أو: المثال المتبع، ومعنى «خَلَتْ»: مضت وسلفت. أي: إن أمر البشر في اجتماعهم وما يعرض فيه من مصارعة الحق للباطل،وما يتبع ذلك من الحرب والنزال، والملك والسيادة وغير ذلك، قد جرى على طرق قويمة وقواعد ثابتة. فمن سار على سننه في الحرب ـ مثلاً ـ ظفر بمشيئة الله وإن كان ملحداً أو وثنياً، ومن تنكبها خسر وإن كان صدِّيقاً أو نبياً، وعلى هذا يتخرج انهزام المسلمين في وقعة أحد، حتى وصل المشركون إلى النبي ﷺ فشجوا رأسه، وكسروا سنه، وردّوه في تلك الحفرة، ولكن المؤمنين الصادقين أجدر الناس بمعرفة سنن الله تعالى في الأمم، وأحق الناس بالسير على طريقها الأمم، لذلك لم يلبث أصحاب النبي ﷺ أن ثابوا يومئذٍ إلى رشدهم، وتراجعوا للدفاع عن نبيهم، وثبتوا حتى انجلى عنهم المشركون، ولم ينالوا منهم ما كانوا يقصدون.

﴿فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ أي: إن المصارعة بين الحق والباطل قد وقعت من الأمم الماضية، وكان أهل الحق يغلبون أهل الباطل، وينصرون عليهم بالصبر والتقوى وكان ذلك يجري بأسباب مطردة، وعلى طرائق مستقيمة، يُعْلَم منها أن صاحب الحق إذا حافظ عليه ينصر ويرث الأرض، وأن من ينحرف عنه ويعيث في الأرض فساداً يخذل وتكون عاقبته الدمار، فسيروا في الأرض واستقرئوا ما حلَّ بالأمم، ليحصل لكم العلم الصحيح التفصيلي بذلك، وهو الذي يحصل به اليقين ويترتب عليه العمل.

والسير في الأرض والبحث عن أحوال الماضيين وتعرف ما حل بهم هو الذي يوصل إلى معرفة تلك السنن والاعتبار بها كما ينبغي.

ثم بين تعالى أن كل إنسان له عقل يعتبر به، يفهم أن السير في الأرض يدله على تلك السنن، ولكن المؤمن المتقي أجدر بفهمها لأن كتابه أرشده إليها، وأجدر كذلك بالاهتداء والاتعاظ بها فقال عز وجل:

١٣٨ ـ ﴿هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾ أي: إن جريان الأمور على السنن المطردة حجة على جميع الناس،

مؤمنهم وكافرهم تقيهم وفاجرهم، وهي تدحض ما وقع للمشركين والمنافقين من الشبهة على الإسلام، إذ قالوا: لو كان محمد ﷺ رسولاً من عند الله لما نيل منه. فكأنه يقول لهم: إن سنن الله حاكمة على أنبيائه ورسله كما هي حاكمة على سائر خلقه، فما من قائدِ عسكر يخالفه جنده، ويتركون حماية الثغر الذي يؤتون من قِبَله، ويُخَلُّون بين عدوهم وبين ظهورهم، والعدو مشرف عليهم، إلا ويكونون عرضة للانكسار إذا هو كر عليهم من ورائهم.

وأما كونه هدى وموعظة للمتقين خاصة فهو: أنهم هم الذين يهتدون بمثل هذه الحقيقة، ويتعظون بما ينطبق عليها من الوقائع فيستقيمون على الطريقة.

١٣٩ ــ ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ الوهن: الضعف في العمل، وفي الأمر، وكذا في الرأي. والحزن: ألم يعرض للنفس إذا فقدت ما تحب، أي: لا تضعفوا عن القتال وما يلزمه من التدبير، بما أصابكم من الجرح والفشل في أحد، ولا تحزنوا على من قتل منكم في ذلك اليوم، فهو تربية لكم على ما وقع منكم من مخالفة قائدكم ﷺ في تدبيره الحربي المحكم، وفشلكم وتنازعكم في الأمر وذلك خروج عن سنة الله في أسباب الظفر، وبهذه التربية تكونون أحقاء بأن لا تعودوا إلى مثل تلك الذنوب، فتكون التربية خيراً لكم من عدمها، بل يجب أن تزيدكم المصائب قوة وثباتاً بما تربيكم على اتباع سنن الله في الحزم والبصيرة وإحكام العزيمة واستيفاء الأسباب في القتال وغيره، وأن تعلموا أن الذين قتلوا منكم شهداء، وذلك ما كنتم تتمنونه.

ثم بين تعالى وجه جدارتهم بأن لا يهنوا ولا يحزنوا، فقال:

١٤٠ ــ ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾ قال كثير من المفسرين: إن «القرح» بالفتح والضم واحد، فهو كالضعف فيه اللغتان، ومعناه: الجرح. وقال بعضهم: إن «القرح» بالفتح هو الجراح، وبالضم أثرها وألمها.

وأقول: المعنى إن يكن السلاح قد عضكم وعمل فيكم عمله يوم أحد فقد أصاب المشركين أيضاً مثل ما أصابكم في ذلك اليوم، أو في يوم بدر.

﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ الأيام: جمع يوم، وهو في أصل اللغة

بمعنى الزمن والوقت، فالمراد بالأيام هنا: أزمنة الظفر والفوز. ونداولها بينهم: نصرفها، فنديل تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء، أي: تكون الدولة فيه لهؤلاء مرة وهؤلاء مرة، و«دالت الأيام»: دارت. والمعنى: أن مداولة الأيام سنة من سنن الله في الاجتماع البشري فلا غرو أن تكون الدولة مرة للمبطل ومرة للمحق وإنما المضمون لصاحب الحق أن تكون العاقبة له وإنما الأعمال بالخواتيم.

﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾ أي: فعل ذلك لقيم سنته في مداولة الأيام، وليعلم الذين آمنوا من الذين نافقوا و «قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم» أي: يميزهم منهم.

﴿ويتخذ منكم شهداء﴾ هو من الشهادة في القتال، وهي أن يقتل المؤمن في سبيل الله أي: مدافعاً عن الحق قاصداً إعلاء كلمته وهو الذي يسبق إلى الذهن في هذا المقام. وإنما سمي هؤلاء المقتولون «شهداء» لأنهم يشاهدون بعد الموت من الملكوت ونعيمه ما لا يكون لغيرهم، أو لأنهم ببذل أنفسهم في سبيل الله يكونون من الشهداء على الناس يوم القيامة، أو لأنه مشهود لهم بالجنة، أو لأن الملائكة تشهد موتهم. أقوال.

وقوله: ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ جملة معترضة مسوقة لبيان أن الشهداء يكونون ممن أخلصوا لله في إيمانهم وأعمالهم، وفي ذلك بشارة للمتقين وإنذار للمقصرين، فالناس قبل الابتلاء بالمحن والفتن يكونون سواء فإذا ابتلوا تبين المخلص والصادق والظالم والمنافق، وما أسهل ادعاء الإخلاص والصدق إذا كانت آياتهما مجهولة. فبيان السبب مؤدب للمقصرين وقاطع لألسنة المدعين، إلا أن يكونوا مع الأغبياء الجاهلين.

وفيه أيضاً: أن الظالم لا تدوم له سلطة، ولا تثبت له دولة، فإذا أصاب غِرَّةً من أهل الحق والعدل فكانت له دولة في حرب أو حكم؛ فإنما تكون دولته سريعة الزوال، قريبة الانحلال والاضمحلال، وفيه تعريض أيضاً بالمنافقين فإنهم أظلم الظالمين.

١٤١ ـ ﴿وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾ محص الشيء محصاً، ومحصه تمحيصاً، خلَّصه من كل عيب، ومحص الذهب بالنار خلصه مما يشوبه، ومن المجاز: محص الله التائب من الذنوب ومحص قلبه، وتمحصت ذنوبه، وتمحصت الظلماء تكشفت.

وأصل «المحق»: النقصان ومنه المحاق لآخر الشهر، ويقال: محق الشيء محاه وذهب به. . . قال بعض المفسرين: إن تمحيص المؤمنين عبارة عن تكفير ذنوبهم ومحو سيئاتهم، وعبر عنه بعضهم بالتطهير والتزكية، وروي عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما من السلف تفسير التمحيص: بالابتلاء والاختبار، وكأنه بيان لمبدئه دون غايته. وقال بعضهم: يمحص الله بالمصائب ذنوب المؤمنين ويمحق نفوس الكافرين.

وأما محق الكافرين بالشدائد فليس معناه فناؤهم وهلاكهم، وإنما هو اليأس يسطو عليهم وفقدُ الرجاء يذهب بعزائمهم فلا تبقى لهم شجاعة ولا بأس، فيكون أحدهم كالهلال في المحاق لا نور له، بل يكون وجوده كالعدم، لأنه لا أثر له ولا فائدة فيه، فذلك محقه إذا غُلب على أمره وإذا هو انتصر طغى وتجبر وبغى وظلم، وذلك محق معنوي تكون عاقبته المحق الصوري، كذلك لا يثبت للكافرين المبطلين وجود مع المؤمنين الصادقين وإنما يبقون ظاهرين إذا لم يظهر من أهل الحق والعدل من ينازعهم ويقاوم باطلهم.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

١٤٢ ـ ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ أي: هل جريتم على تلك السنن؟ هل تدبرتم تلك الحكم أم حسبتم كما يحسب أهل الغرور أن تدخلوا الجنة وأنتم إلى الآن لم تقوموا

بالجهاد في سبيله حق القيام، ولم تتمكن صفة الصبر من نفوسكم تمام التمكن، والجنة إنما تنال بهما، ولا سبيل إلى دخولها بدونهما، لو قمتم بذلك لعلمه تعالى منكم وجازاكم عليه بالنصر والظفر في غزوتكم هذه. وقد جرينا في هذا على أن نفي العلم هنا بمعنى نفي المعلوم، والنكتة في إيثار ذكر العلم وإرادة المعلوم هي الأشعار بأن العلم إنما يكون علماً صحيحاً بظهور متعلَّقه بالفعل. وههنا نكتة أخرى خطرت في البال وهي أن التعبير عن نفي ذلك بنفي علم الله به عبارة عن دعوى مقرونة بالدليل والبرهان،كأنه قال:إن كلاً من الجهاد والصبر اللذين هما وسيلة إلى دخول الجنة لما يقع منكم، أي: لم يقع إلى الآن من مجموعكم أو أكثركم، فلا ينافي ذلك وقوعه من بعض الأفراد الذين ثبتوا مع النبي ﷺ فلم يخالفوا ولم ينهزموا، إذ لو وقع لعلمه الله تعالى الذي لا يخفي عليه شيء ولكنه لما يعلمه، فهو لم يتحقق قطعاً.

ثم إن هذا يوافق أحد الوجوه التي تقدمت في تفسير قوله «وليعلم الله الذين آمنوا» من حيث إن المراد بالذوات وصفها، فالمعنى هناك: وليعلم الله إيمان الذين آمنوا، وهنا: ولما يعلم الله جهاد الذين جاهدوا وصبر الصابرين، أي: واقعَينْ ثابتَينْ. ويصح أيضاً أن يكون العلم هنا بمعنى التمييز كما تقدم هناك في وجه آخر،ويكون المعنى:أم حسبتم أن تدخلوا الجنة جميعاً ولما يميز الله المجاهدين منكم والصابرين من غيرهم.

والجهاد هنا أعم من الحرب للدفاع عن الدين وأهله وإعلاء كلمته. لأن الجهاد في الكتاب والسنة يستعملان بمعناهما اللغوي وهو احتمال المشقة في مكافحة الشدائد،ومنه جهاد النفس ومجاهدة الإنسان لشهواته لا سيما في سن الشباب، وجهاده بماله، وما يبتلى به المؤمن من مدافعة الباطل ونصرة الحق.

١٤٣ ـ ﴿ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾الخطاب لجماعة المسلمين الذين شهدوا وقعة أُحد.

وبيان ذلك: أنهم تمنوا القتال أو الموت في القتال لينالوا مرتبة الشهادة، وقد أثبت الله لهم هذا التمني وأكده بقوله «ولقد» فلم يكن ذلك منهم دعوى

قولية ولا صورة في الذهن خيالية بل كان حقيقة واقعة في النفس، ولكنها زالت عند مجيىء دور الفعل.

وقد كان في مجموع المخاطبين بالآية عند نزولها من هم في المرتبة العليا، وهم المجاهدون الصابرون الذين ثبتوا مع النبي ﷺ ثبات الجبال وهم نحو ثلاثين رجلاً، وإنما جعل الخطاب عاماً ليكون تربية عامة، فإن أصحاب المراتب العلية يتهمون أنفسهم بالتقصير فيزدادون كمالاً.

فهذه الآية تنبه كل مؤمن إلى اتقاء الغرور بحديث النفس والتمني والتشهي، وتهديه إلى امتحان نفسه بالعمل الشاق، وعدم الثقة بما دون الجهاد والصبر على المكاره في سبيل الحق حتى يأمن الدعوى الخادعة، بَلْهَ الدعوى الباطلة، وإنما الخادعة أن تدعي ما تتوهم أنك صادق فيه، مع الغفلة أو الجهل بعجزك عنه، والباطلة لا تخفى عليك، وإنما تظن أنها تخفى على سواك.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

بعد هذا بين الله تعالى حكمة أخرى من أعظم الحكم المتعلقة بغزوة أحد، وهي إشاعة قتل النبي ﷺ وما كان من تأثيرها في المسلمين، فقال:

١٤٤ ـ ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم؟﴾.

تقدم أنه أشيع عندما فرق خالد بن الوليد جمع المسلمين في أُحد أن النبي ﷺ قد قتل. وقال بعضهم في سبب ذلك: إن عمرو بن قميئة الحارثي لما رمى الرسول بالحجر فشج رأسه وكسر سنه أقبل يريد قتله، فذب عنه مصعب بن عمير صاحب راية المسلمين يومئذٍ حتى قتل، فظن أنه قَتَلَ النبي ﷺ فقال: قتلت محمداً. فصرخ بها الصارخ حتى سمعها الكثير من المسلمين وفشت في الناس، فوهن أكثر المسلين وضعفوا واستكانوا من شدة الحزن. وقال بعض الضعفاء: ليت عبد الله بن أبي يأخذ لنا من أبي سفيان أماناً. وقال قوم من المنافقين: لو كان نبياً لما قتل، ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم.

وحاصل المعنى: أن محمداً ليس إلا بشراً رسولاً، قد خلت ومضت الرسل من قبله فماتوا، وقد قتل بعض النبيين كزكريا ويحيى، فلم يكن لأحد منهم الخلد، وهو لا بد أن تحكم عليه سنة الله بالموت فيخلوا كما خلوا من قبله، إذ لا بقاء إلا لله وحده ولا ينبغي للمؤمن الموحد أن يعتقده لغيره، أفإن مات كما مات موسى وغيره، أو قتل كما قتل زكريا ويحيى، تنقلبون على أعقابكم، أي: تولون الدبر راجعين عما كان عليه؟ وقوله: ﴿انقلبتم على أعقابكم﴾ من قبيل المثل تضرب لمن رجع عن الشيء بعد الإقبال عليه، والأحسن أن تكون عامة تشمل الارتداد عن الدين الذي جاهر بالدعوة إليه بعض المنافقين، وتشمل أيضاً الارتداد عن العمل كالجهاد ومكافحة الأعداء وتأييد الحق، وهذا هو الصواب.

﴿ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا﴾ لأنه وعد بأن ينصر من ينصره ويعز دينه، ويجعل كلمته هي العليا، وهو منجز وعده لا يحول دون إنجازه ارتداد بعض الضعفاء والمنافقين على أعقابهم، ﴿وسيجزي الله

الشاكرين﴾ له نعمه عليهم بالقوى العقلية والجسدية وبالإيمان والهداية، القائمين بحقوقها في حياة رسوله وبعد موته على حد سواء.

وفي هذه الآية إرشاد لنا إلى أن لا نجعل المصائب الشخصية دليلاً على كون من تصيبه على باطل أو على حق، فإن من الجائز عقلاً والواقع فعلاً أن يبتلى صاحب الحق بالمصائب والرزايا، وأن يبتلى صاحب الباطل بالنعم والعطايا، كما أن عكس ذلك جائز وواقع.

١٤٥ ـ ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلا﴾ تلك قضية وهذه قضية أخرى، ووجه الاتصال بينهما: أن المراد بتلك لوم المؤمنين على ما وقع منهم إذ بلغهم قتل النبي ﷺ، والمراد بهذه بيان أنه لو قتل لما كان قتله إلا بإذن الله ومشيئته، فهو توبيخ لمن اندهش من خبر موته كأنه يقول: إن محمداً يدعوكم إلى الله ـ أي: لا إلى نفسه ـ فلو كان هذا الموت يقع بدون إذن الله لكان الانقلاب صواباً، ولكن إذا كان هذا الموت لا يقع إلا بإذنه تعالى إذ ليس لأحد في العالم سلطان يقهره ويوقع في ملكه شيئاً بالكره منه، فلا معنى لزلة ثقتكم بالله وضعفكم عن المضي فيما كنتم عليه مع النبي في حياته، لأن الله لم يزل حياً باقياً عليماً حكيماً.

وفي الآية معنى آخر: وهو أنه ما دام محيانا ومماتنا بيد الله فلا محل للجبن والخوف، ولا عذر في الوهن والضعف، وفيها تأكيد لما تقدم في بيانه في الآية التي قبلها، وهو أن الموت لا يدل على بطلان ما كان عليه من يموت ولا على حقيته.

وأما قوله « كتاباً مؤجلا» فهو مؤكد لمضمون ما قبله أي: كتبه الله كتاباً مؤجلاً، أي: أثبته مقروناً بأجل معين لا يتغير. ومؤقتاً بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر.

﴿ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها﴾ قالوا: إنها تعريض بالذين شغلتهم الغنائم يوم أحد فتركوا موقعهم الذي أمرهم النبي ﷺ بلزومه. وإن معناها: أن من قصد بعمله حظ الدنيا أعطاه الله شيئاً

من ثوابها،ومن قصد الآخرة أعطاه الله حظاً من ثوابها، وفيها بيان أن من يطلب الدنيا وحدها ولا يعمل للآخرة عملها فليس له في الآخرة من خلاق، وأن مِنْ هدي الإسلام أن يطلب المرء خير الدنيا وخير الآخرة، ويقول: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة»، فالإنسان يطلب ويريد بحسب سعة معرفته وعلو همته ودرجة إيمانه، وله ما يريد كله أو بعضه بحسب سنن الله وتدبيره لنظام هذه الحياة.

﴿وسنجزي الشاكرين﴾، أي: الذين يعرفون نعمة الله عليهم بقوة الإرادة،ويستعملونها فيما يعرج بهم إلى مستوى الكمال، فتكون أعمالهم صالحة رافعة لنفوسهم ونافعة لغيرهم.

١٤٦ ـ ﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير﴾ «كأين» بمعنى «كم» الخبرية ومعناها: أن ما دخلت عليه كثير، و«الربيون» هم: الربانيون وهو جمع «رباني» نسبة إلى الرب، والألف والنون فيها كزيادتها في «جسماني» وقيل: غير ذلك. والاستكانة: ضرب من الخضوع هو عبارة عن سكون الإنسان لخصمه ليفعل به ما يريد.

والمعنى: أن كثيراً من النبيين الذين خلوا قد قاتل معهم كثير من المؤمنين بهم. المنتسبين إلى الرب تعالى في وجهة قلوبهم وفي أعمالهم. المعتقدين أن النبيين والمرسلين هداة ومعلمون. لا أرباب معبودون. ﴿فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله﴾ أي: ما ضعف مجموعهم بما أصاب بعضهم من الجرح وبعضهم من القتل، وإن كان المقتول هو النبي نفسه لأنهم يقاتلون في سبيل الله وهو ربهم لا في سبيل شخص نبيهم وإنما حظهم من نبيهم تبليغه عن ربهم وبيانه لهدايته وأحكامه ﴿وما ضعفوا﴾ عن عدوهم ﴿وما استكانوا﴾ لما أصابهم في الجهاد عن دينهم، وذلك هو الصبر، ﴿والله يحب الصابرين﴾، أي: وإذا كان يحب الصابرين أمثالهم، فعليكم أن تعتبروا بحالهم، فإن دين الله واحد، وسنته في خلقه واحدة، ولذلك هديتم إلى السنن، وأمرتم بمعرفة عاقبة من سبقكم من الأمم، فاقتدوا بعمل الصادقين الصابرين.

١٤٧ ـ ﴿وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا﴾ أي: ما كان لهم من قول في تلك الحال التي اعتصموا فيها بالصبر والثبات، وعزة النفس، وشدة البأس، إلا ذلك القول المنبىء عن قوة إيمانهم، وصدق إرادتهم، وهو الدعاء بأن يغفر الله لهم ما كانوا ألموا به من الذنوب والتقصير في إقامة السنن، أو الوقوف عندما حددته الشرائع ﴿وإسرافنا في أمرنا﴾ بالغلو فيه، وتجاوز الحدود التي حددتها السنن له ﴿وثبت أقدامنا﴾ على الصراط المستقيم الذي هديتنا إليه حتى لا تزحزحنا عنه الفتن، وفي موقف القتال، حتى لا يعرونا الفشل ﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾ بك، الجاحدين لآياتك، المعتدين على أهل دينك، فلا يشكرون لك نعمة بالتوحيد والتنزيه، ولا بفعل المعروف وترك المنكر، ولا يمكنون أهل الحق من إقامة ميزان القسط، فإن النصر بيدك، تؤتيه من تشاء بمقتضى سننك.

١٤٨ ـ ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا﴾ بالنصر والظفر بالعدو، والسيادة في الأرض، وما يتبع ذلك من الكرامة والعزة، ﴿وحسن ثواب الآخرة﴾ بنيل رضوان الله وقربه والنعيم بدار كرامته، ﴿والله يحب المحسنين﴾ وإنما جمع لهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة لأنهم أرادوا بعملهم سعادة الدنيا والآخرة وإنما الجزاء على حسب النية.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾

قوله تعالى:

١٤٩ ـ ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا﴾ معناه: إن تطيعوا

الذين جحدوا نبوة محمد ولم يقبلوا دعوته إلى التوحيد والخير، كأبي سفيان ومن معه من مشركي مكة، الذين دعاكم مرضى القلوب إلى الرجوع إليهم، وتوسيط رئيس المنافقين عبد الله بن أبي بينكم وبين رئيسهم ـ أبي سفيان ـ ليطلب لكم منه الأمان، أو الذين كفروا بقلوبهم وآمنوا بأفواههم، كعبد الله بن أبي وأصحابه الذين خذلوكم قبل الشروع في الحرب، ثم دعوكم بعدها إلى الرجوع إلى دينكم وقالوا: لو كان محمد نبياً لما أصابه ما أصابه ﴿يردوكم على أعقابكم﴾ إلى ما كنتم عليه من الكفر ابتداء أو استدراجاً. أي: إن طلبتم الأمان منهم وكانت حالكم معهم حال المغلوب من الغالب يتولوا عليكم وتكونوا معهم أذلاء مقهورين حتى يردوكم عن دينكم ﴿فتنقلبوا خاسرين﴾ للدنيا والآخرة، أما الأول فبخضوعكم لسلطانهم وامتهانكم بينهم، وحرمانكم مما وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات من استخلافهم في الأرض بالسيادة والملك، ومن تمكين دينهم وتبديلهم من بعد خوفهم أمناً، وأما الآخر ففيما يمسكم في الآخرة من عذاب المرتدين مع الحرمان مما وعد الله المتقين.

١٥٠ ـ ﴿بل الله مولاكم﴾ فلا ينبغي أن تفكروا في ولاية أبي سفيان وحزبه، ولا عبد الله بن أبي وشيعته، ولا أن تصغوا لإغـواء من يدعـوكم إلى موالاتهم فإنهم لا يستـطيعون لكم نصـراً ولا أنفسهم ينصرون، وإنمـا الله هو المولى القادر على نصركم ﴿وهو خير الناصرين﴾ فإن من يطلق عليهم لفظ الناصر من الناس، إنما ينصر بعضهم بعضاً بما أوتوا من القوى وما تيسر لهم من الأسباب. وإنما الله هو الذي آتاهم القوى وسخر لهم الأسباب، وهو القادر بذاته على نصر من شاء من عباده بإيتائهم أفضل ما يؤتي غيرهم من الصبر والثبات والعزيمة وإحكام الرأي وإقامة السنن والتوفيق للأسباب.

١٥١ ـ ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشـركوا بـالله ما لم ينزل به سلطانا﴾ المتبادر لنا: أن الآية تعليل أو تصوير لكونه تعالى خير الناصرين للمؤمنين الموحدين، مبينة لبعض وجوهه تبييناً يقبِّح لهم الشرك ويزيدهم حباً في الإيمان، وبيانه: أنه سيحكم في أعدائهم المشركين سنته العادلة. وهي أنه يلقي في قلوبهم الرعب أي: شدة الخوف التي تملأ القلب،

بسبب إشراكهم بالله أصناماً ومعبودات لم ينزل بها سلطاناً أي لم يقم برهاناً من العقل ولا من الوحي على ما زعموا من ألوهيتها وكونها واسطة بين الله وبين خلقه. وإنما قلدوا في اتخاذها واعتقادها آباءهم الذين اتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل. ومن كان كذلك فهو غير مطمئن في دينه، ولا متبع للدليل في اعتقاده. فهو دائمًا عرضة لاضطراب القلب، واتباع خطرات الوهم. فالإشراك قد يكون سبباً طبيعياً لوقوع الرعب في القلب وما كان كذلك فإن الله يسنده إلى نفسه وإن لم يذكر السبب لأنه هو واضع الأسباب والسنن. ولكنه قد صرح به هنا ليكون برهاناً على بطلان الشرك وسوء أثره. وهو الوجه المختار في تفسير الآية.

وعلى هذا يكون الإشراك سبباً للرعب كسائر الأسباب العادية التي ربط الله بها المسببات كالشرب للري والأكل للشبع. فمن وصل إليه الحق تزلزل الباطل في نفسه لا محالة.

هذا هو شأن الكافرين المعاندين مع المؤمنين الصادقين، كأنه تعالى يقول: هذه هي الطبيعة في المشركين إذا قاوموا المؤمنين، فلا تخافوهم ولا تبالوا بقولِ من يدعوكم إلى موالاتهم والالتجاء إليهم.

وفيه دفع لقول من يقول: «ما بالنا نجد الرعب كثيراً ما يقع في قلوب المسلمين ولا يقع في قلوب الكافرين» فإن الذين يسمون أنفسهم مسلمين قد يكونون على غير ما كان عليه أولئك الذين خوطبوا بهذا الوعد، من قوة اليقين والإذعان والثبات والصبر، وبذل النفس والمال في سبيل الله، وتمني الموت في الدفاع عن الحق. فمعنى «المؤمنين» غير متحقق فيهم، وإنما رُعْبُ المشركين مرتبط بإيمان المؤمنين وما يكون له من الآثار، فحال المسلمين اليوم لا يقوم حجة على القرآن لأن أكثرهم قد انصرفوا عن الاجتماع على ما جاء به الإسلام من الحق، وما كان عليه سلفهم من الإيمان والصفات والأعمال، فالقرآن باقٍ على وعده، ولكنْ هاتِ لنا المؤمنين الذين ينطبق إيمانهم على آياته، ولَكَ من إنجاز وَعْدِه في هذه الآية وغيرها ما تشاء.

﴿ومأواهم النار﴾ أي: هي مكانهم الذين يأوون إليه في الآخرة بعد الذي يصيبهم من الخذلان في الدنيا ﴿وبئس مثوى الظالمين﴾ أي: والنار التي يأوون

إليها بئس المثوى والمقام لهم، بسبب ظلمهم لأنفسهم بالكفر والجحود، ومعاندة الحق ومقاومة أهله وظلم الناس بسوء المعاملة.

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾

١٥٢ ـ ﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ إياكم بالنصر حتى في هذه الواقعة ﴿إذ تحسونهم﴾ أي: المشركين، أي: تقتلونهم قتلاً ذريعاً ﴿بإذنه﴾ تعالى، أي: بعنايته وتأييده لكم ﴿حتى إذا فشلتم﴾ ضعفتم في الرأي والعمل، فلم تقووا على حبس أنفسكم عن الغنيمة ﴿وتنازعتم في الأمر﴾ فقال بعضكم: ما بقاؤنا هنا وقد انهزم المشركون؟ وقال الآخرون: لا نخالف أمر الرسول ﴿وعصيتم﴾

رسولكم وقائدكم بترك أكثر الرماة للمكان الذي أقامهم فيه، يحمون ظهوركم بنضح المشركين بالنبل ﴿من بعد ما أراكم ما تحبون﴾ من النصر والظفر فصبرتم على الضراء ولم تصبروا في السراء ﴿منكم من يريد الدنيا﴾ كالذين تركوا مكانهم وذهبوا وراء الغنيمة ليصيبوا منها ﴿ومنكم من يريد الآخرة﴾ كالذين ثبتوا من الرماة مع أميرهم عبد الله بن جبير وهم نحو عشرة، وكان الرماة خمسين رجلاً. والذين ثبتوا مع النبي ﷺ وهم ثلاثون رجلاً، أي: صدقكم وعده ونصركم على قلتكم وكثرة المشركين، واستمر هذا النصر إلى أن فشلتم وتنازعتم وعصيتم، فعندما وصلتم إلى هذه الغاية لم تعودوا مستحقين لهـذه العناية، لمخالفتكم لسننه في استحقاق النصر الذي وعد بـه أهل الثبـات والصبر ﴿ثم صرفكم عنهم ليبتليكم﴾ وحاصل المعنى: أنه بعد أن صدقكم وعده فكنتم تقتلونهم بإذنه ومعونته، قتل حس واستئصال، صرفكم عنهم بفشلكم وتنازعكم وعصيانكم، وحال بينكم وبين تمام النصر ليمتحنكم بذلك، أي: ليعاملكم معاملة من يمتحن ويختبر، أو لأجل أن يكون ذلك ابتـلاء واختباراً لكم يمحصكم به، ويميز بين الصادقين والمنافقين، وقد أسند الله تعالى صرف المؤمنين عن المشركين إلى نفسه هنا، باعتبار غايته الحميدة في تربيتهم وتمحيصهم الذي يُعِدُّهم للنصر الكامل والظفر الشامل في المستقبل، وأضاف ما أصابهم إليهم في قوله الذي سيأتي في السياق: «قل هو من عند أنفسكم» باعتبار سببه، وهو ما كان منهم من الفشل والتنازع والعصيان.

قال تعالى: ﴿ولقد عفا عنكم﴾ بذلك التمحص الذي محا أثر الذنب من نفوسكم فصرتم كأنكم لم تفشلوا ولم تتنازعوا ولم تعصوا، ﴿والله ذو فضل على المؤمنين﴾ فلا يذرهم على ما هم عليه من ضعف يلم ببعضهم. أو تقصير يهبط بنفـوس غير الـراسخين منهم، حتى يبتـلي مـا في قلوبهم، ويمحص مـا في صدورهم، فيكونوا من المخلصين.

١٥٣ ـ ﴿إذ تصعدون ولا تلوون على أحد﴾ أي: صرفكم عنهم في ذلك الوقت الذي أصعدتم فيه، أي: ذهبتم وأبعدتم في الأرض منهزمين ـ وهو غير الصعود الذي هو الذهاب في المرتفعات كالجبال ـ لا تلوون أي: لا تعطفون على أحد بنجدة ولا مدافعة، ولا تلتفتون إلى من وراءكم لشدة

الدهشة التي عرتكم، والذعر الذي فاجأكم ﴿والرسول يدعوكم في أخراكم﴾ أي: تفعلون ذلك والرسول من ورائكم يدعوكم إليه فيمن تأخر معه منكم، وأنتم لا تسمعون ولا تنظرون وكان يجب أن يكون لكم أسوة حسنة في الرسول فتقتدوا به في صبره وثباته ولكن أكثركم لم يفعل ﴿فأثابكم غمًا بغم﴾ أي: فجازاكم الله غمًا بسبب الغم الذي أصاب الرسول من فشلكم وهزيمتكم، أو غمًا متصلاً بغم، فنال العدو منكم ونلتم من أنفسكم إذ صرتم من الدهشة يضرب بعضكم بعضاً، وفاتتكم الغنيمة التي طمعتم فيها. ﴿لكي لا تحزنوا على ما فاتكم﴾ أي: لأجل أن لا تحزنوا بعد هذا التأديب والتمرين على ما فاتكم من غنيمة ومنعة ﴿ولا ما أصابكم﴾ من قرح ومصيبة، فإن التربية إنما تكون بالعمل والتمرن الذي به يكمل الإيمان وترسخ الأخلاق، ويجوز أن يكون الضمير في «فأثابكم» للرسول، أي: فآساكم في الإغتمام، فكما غمكم ما نزل به من كسر الرباعية والشجة وغيرهما غمه ما نزل بكم، فأثابكم غمًا اغتمه لأجلكم بسبب غم اغممتموه لأجله، ولم يثر بكم على عصيانكم ومخالفتكم لأمره، وإنما فعل ذلك ليسليكم وينفس عنكم، لئلا تحزنوا على ما فاتكم من نصر الله ولا على ما أصابكم من غلبة العدو.

﴿والله خبير بما تعملون﴾ لا يخفى عليه شيء من دقائقه وأسبابه ولا من نيتكم فيه وعاقبته فيكم. ومن بلاغة هذه الجملة في هذه الموضع: أن كل واحد من المخاطبين يتذكر عند سماعها أو تلاوتها أن الله تعالى مطلع على عمله عالم بنيته وخواطره فيحاسب نفسه، فإن كان مقصراً تاب من ذنبه وإن كان مشمراً ازداد نشاطاً خوف الوقوع في التقصير وأن يراه الله حيث لا يرضى. أي: فلا تعتذروا عن أنفسكم ولا تخادعوها، فإن الخبير بأعمالكم المحيط بنفوسكم لا يخفى عليه من أمركم خافية، وإنما المعوَّل على علمه وخبره لا على إعذاركم وتأويلكم لأنفسكم.

١٥٤ ـ ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم﴾ «الأَمَنَة»: الأمن، وهو ضد الخوف، والنعاس معروف، وهو: فتور يتقدم النوم ويظهر أثره في العينين، يقال: غشية النعاس أو النوم، كما يقال: «ران عليه» أي: عرض له فاستولى عليه وغطاه كما يلقى الستر على الشيء.

واختلف المفسرون في وقت هذا النعاس فقال بعضهم: إن ذلك كان في أثناء الواقعة، وأن الرجل كان ينام تحت ترسه كأنه آمن من كل خوف وفزع، إلا المنافقين فإنهم أهمتهم أنفسهم فاشتد جزعهم. وحمل بعضهم هذه الآية على آية الأنفال «إذ يغشيكم النعاس أمنة منه» وإنما هذه غزوة بدر. وقد مضت السنة في الخلق بأن من يتوقع في صبيحة ليلته هولاً كبيراً ومصاباً عظيًما فإنه يتجافى جنبه عن مضجعه ويبيت ليلة كالملسوع فيصبح خاملاً ضعيفاً،وقد كان المؤمنون يوم بدر يتوقعون مثل ذلك إذ بلغهم أن جيشاً يزيد على عددهم ثلاثة أضعاف سيحاربهم غداً وهو أشد منهم قوة وأعظم عدة،فكان من مقتضى العادة أن يناموا على بساط الأرق والسهاد يضربون أخماساً لأسداد، ويفكرون بما سيلاقون في غدهم من الشدة والبأس، ولكن الله رحمهم، بما أنزل عليهم من النعاس، غشيهم فناموا واثقين بالله تعالى مطمئنين لوعده،وأصبحوا على همة ونشاط في لقاء عدوهم وعدوه، فالنعاس لم يكن يوم بدر في وقت الحرب بل قبلها، ومثله المطر الذي أنزل عليهم عند شدة حاجتهم إليه،وقد قرن ذكره به في الآية التي ذكرتهم بعناية الله بهم في ذلك.

وأما النعاس يوم أحد فقد قيل إنه كان في أثناء الحرب، وقيل: إنه كان بعدها،وقد اتفق المفسرون وأهل السير على أن المؤمنين قد أصابهم يوم أحد شيء من الضعف والوهن لما أصابهم من الفشل والعصيان وقتل طائفة من كبارهم وشجعانهم، فكانوا بعد انتهاء الواقعة قسمين، فقسم منهم ذكروا ما أصابهم فعرفوا أنه كان بتقصير من بعضهم،وذكروا الله ووعده بنصرهم فاستغفروا لذنوبهم ووثقوا بوعد ربهم،وعلموا أنهم إن كانوا قد غلبوا في هذه المرة فإن الله سينصرهم في غيرها، حيث لا يعودون إلى مثل ما وقع منهم فيها من الفشل والتنازع وعصيان قائدهم ورسولهم، فأنزل الله عليهم النعاس أمنة أو الأمنة نعاساً، حتى يستردوا ما فقدوا من القوة بما أصابهم من القرح وما عرض لهم من الضعف، والنوم للمصاب بمثل تلك المصائب نعمة كبيرة وعناية من الله عظيمة، وقد كان من أثر هذا الاطمئنان في القلوب، والراحة للأجسام والتسليم للقضاء، أن سهل على هؤلاء المؤمنين اقتفاء أثر المشركين

بعد انصرافهم وعزموا على قتالهم في «حمراء الأسد» عندما دعاهم الرسول إلى ذلك فاستجابوا له مذعنين.

هـذا واتفق الـرواة أيضـاً عـلى أن كثيـراً منهم كـانـوا مثقلين بالجراح فلم يقدروا على اقتفاء أثر المشركين فذلك قوله تعالى: ﴿وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية﴾ فهذه الطائفة[1] من المؤمنين ولا حاجة إلى جعلها في المنافقين كما قيل، فإن هؤلاء سيأتي الكلام فيهم. وما من أمة إلا وفيها الضعفاء والأقوياء في الإيمان وغيره. وقد بين ظنهم بقوله ﴿يقولون هل لنا من الأمر من شيء﴾ فنلام أن ولينا وغلبنا، يعنون أنه ليس لهم من أمر النصر وعدمه شيء، فإنهم فهموا مما وقع يوم بدر أن النصر وحقية الدين متلازمان، وعجبوا مما وقع في أحد كأنه مناف لحقية الدين، وهذا خطأ عظيم، أي: فإن نصر الله لرسله لا يمنع أن تكون الحرب سجالاً والعاقبة للمتقين.

أقول: وسيأتي بيان ما جرى عليه جمهور المفسرين مخالفاً لهذا.

﴿قل إن الأمر كله لله﴾ لا أمر النصر وحده، أي: إن كل أمر يجري بحسب سنته تعالى في خلقه، ونظامه الذي ربط فيه الأسباب بالمسببات، ومنه نصر من ينصره من المؤمنين ﴿يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا﴾ أي: لو كان أمر النصر والظفر في أيدينا لما وقع فينا القتل ههنا، يقررون رأيهم، ويستدلون عليه بما وقع لهم، غافلين عن تحديد الآجال ولذلك أمر الله نبيه أن يجيبهم بقوله: ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾ أي: لو كنتم وادعين في بيوتكم في سلم وأمان، لخرج من بينكم من انتهت آجالهم إلى حيث يقتلون.

---

(١) قوله: «فهذه الطائفة من المؤمنين» هذا ما ذهب إليه المؤلف مخالفاً بذلك جمهور المفسرين كما يقول هو بعد أسطر، فما عليه الجمهور: أن المراد بهذه الطائفة الذين أهمتهم أنفسهم هم المنافقون، أما المؤمنون فقد خرجوا جميعاً في طلب المشركين في اليوم التالي لأحد على ما بهم من جراح وكانوا ستمائة وثلاثين رجلاً بعد السبعين الذين قتلوا من المسلمين يوم أحد، أما المنافقون فقد رجعوا أكثرهم قبل أحد ولم يبق منهم إلا القليل. وقول الجمهور أقوى وأظهر.

﴿وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم﴾ أي: يقع ذلك لأجل أن يكون القتل عاقبة من جاء أجلهم منكم، ولأجل أن يمتحن الله نفوسكم فيظهر لكم ما انطوت عليه من ضعف وقوة في الإيمان، ويطهرها حتى تصل إلى الدرجات العلى من الإيقان ﴿والله عليم بذات الصدور﴾ أي: بالسرائر الملازمة للصدور حيث القلوب المنفعلة بها، والمنبسطة أو المنقبضة بتأثيرها، وقد يخفى ذلك على أصحابها فينخدعون للشعور العارض لها الذي لم يرسخ بالتجارب والابتلاء كما انخدع الذين تمنوا الموت من قبل أن يلقوه.

هذا وإن جمهور المفسرين قد جروا على خلاف ما اخترناه في هذه الطائفة فقالوا: إن المراد بها المنافقون، فهم الذين كانت تهمهم أنفسهم إذ كان هَمُّ المؤمنين محصوراً فيما أصاب الرسول ﷺ وما وقع لبعضهم من التقصير، وكان في غشيان النعاس ونزول الأمنة على المؤمنين من دونهم معجزة ظاهرة لأنه جاء على غير العادة، وهم الذين يظنون في الله ظن مشركي الجاهلية كظنهم أن ظهور المشركين دليل على بطلان دعوة النبي والمؤمنين. وهم الذين يخفون ما في أنفسهم ما لا يبدونه للنبي ﷺ من الكفر به ويحتجون عليه بألسنتهم بما يعتذرون به عن أنفسهم. ولكن يعارض فهمهم هذا كون الخطاب قبله وبعده للمؤمنين والكلام عن المنافقين سيأتي بعده، وكذا قوله تعالى «وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم» فإن المصائب إنما تكون بعد الإبتلاء والاختبار تمحيصاً للمؤمنين كما قال «وليمحص الله الذين آمنوا» وبأساً وضعفاً للكافرين، كما قال «ويمحق الكافرين».

وتحرير الكلام في هذه المسألة: أنه تعالى بين لنا في كتابه ثلاث حقائق، وبين لنا ضلال الذين ضلوا فيها واحتجوا بواحدة على بطلان الأخرى.

الحقيقة الأولى: أنه تعالى هو خالق كل شيء، الذي بيده ملكوت كل شيء، وبمشيئته يجري كل شيء، فلا قاهر له على شيء، وهو القاهر فوق كل شيء.

الحقيقة الثانية: أن خلقه وتدبيره إنما يجري بحسب مشيئته وحكمته على سنن مطردة ومقادير معلومة.

الحقيقة الثالثة: أن في جملة سننه في خلقه وقدره في تدبير عباده أن الإنسان خلق ذا علم ومشيئة وإرادة وقدرة، فيعمل بقدرته وإرادته ما يرى بحسب ما وصل إليه علمه وشعوره أنه خير له. والآيات الناطقة بأن الإنسان يعمل وبعمله تناط سعادته وشقاوته في الدنيا والآخرة كثيرة جداً. وهو ليس في ذلك معارضاً لمشيئة الله بل مشيئته تابعة لمشيئة الله، وقد جرت سنته بأن شاء لنا أن نعمل عندما يترجح في علمنا أن العمل خير من تركه، وأن نترك عندما يترجح في علمنا أن الترك خير من الفعل كما هو معلوم لكل من يعرف ما هو الإنسان.

١٥٥ ـ ﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا﴾ أي: إن الذين تولوا وفروا من أماكنهم يوم التقى جمعكم بجمع المشركين في أحد، لم يكن ذلك التولي منهم إلا بإيقاع الشيطان لهم في الزلل أي: زلوا وانحرفوا عما يجب أن يكونوا ثابتين عليه باستجرار الشيطان لهم بالوسوسة. فإن الخطيئة الصغيرة إذا ترخص الإنسان فيها تصير مسهلة لسبيل الشيطان على نفسه، أو المراد بالذين تولوا: الرماة الذين أمرهم الرسول ﷺ أن يثبتوا في أماكنهم ليدفعوا المشركين عن ظهور المؤمنين، فإنهم ما زلوا وانحرفوا عن مكانهم إلا مترخصين في ذلك، إذ ظنوا أنه ليس للمشركين رجعة من هزيمتهم، فلا يترتب على ذهابهم وراء الغنيمة ضرر، فكان هذا الترخيص والتأويل سبباً لكل ما جرى من المصائب وأعظمها ما أصاب الرسول ﷺ. وهناك وجه آخر: وهو أن الذين تولوا هم جميع الذين تخلوا عن القتال من الرماة وغيرهم، كالذين انهزموا عندما جاءهم العدو من خلفهم.

﴿ولقد عفا الله عنكم﴾ العفو هنا غير العفو في آية[1] «الشورى»، ذلك عفو عام وهذا عفو خاص. ذلك عفو يراد به أن من سنة الله في فطرة البشر أن

---

(١) قوله: «في آية الشورى» يعني قوله تعالى فيها: «وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون» فالعفو في هذه الآية عام، أما قوله تعالى: ﴿ولقد عفا الله عنكم﴾ فهو عفو خاص بما حصل منهم يوم أحد.

تكون بعض هفواتهم وذنوبهم غير مفضية إلى العقوبة بالمصائب في الدنيا والعذاب في الآخرة، وهذا العفو خاص بالمؤمنين يراد به أن ذنبهم يوم أحد الذي كان من شأنه أن يعاقب عليه في الدنيا والآخرة قد كانت عقوبته الدنيوية تربية وتمحيصاً، وعفا الله عن العقوبة عليه في الآخرة، ولذلك قال: ﴿إن الله غفور حليم﴾ لا يعجل بتحتيم العقاب. ومن آيات مغفرته توفيقهم للاستفادة مما وقع منهم وإثابتهم الغمَّ الذي دفعهم إلى التوبة.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

لـمّا بيّـن سبحانه وتعالى للمؤمنين أن هزيمة من تولى منهم يوم أُحد كانت بوسواس من الشيطان استزلهم به فزلوا، أراد أن يحذرهم من مثـل تلك الوسوسة التي أفسد الشيطان بها قلوب الكافرين، فقال:

١٥٦ ــ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا﴾ أي لا تكونوا مثل الذين كفروا وقالوا لأجل إخوانهم، أو: في شأن إخوانهم في النسب، أو: المودة والمذهب، إذا هم ضربوا في الأرض ــ أي: سافروا فيها للتجارة والكسب ــ فماتوا أو كانوا غزى أي: غزاة ــ وهو جمع لـ«غازٍ» من الجموع النادرة، سواء أكان غزوهم في وطنهم أم في بلاد أخرى، فَقُتِلوا: لو كانوا مقيمين عندنا ما ماتوا وما قتلوا. أي: ما مات أولئك المسافـرون.

وما قتل أولئك الغازون، وقرن هذا القول بالكفر مشعر بأن مثله لا ينبغي أن يصدر عن مؤمن، لأنه إنما يصدر من الكافرين وبيان ذلك من وجهين:

أحدهما: أن هذا القول مخالف للمعقول مصادم للوجود، فإن من مات أو قتل فقد انتهى أمره وصار قول ــ لو كان كذا ــ عبثاً لأن الواقع لا يرتفع، والحسرة على الفائت لا تفيد، ومن شأن المؤمن أن يكون صحيح العقل سليم الفطرة، ولذلك جعل سبحانه الخطاب في كتابه موجهاً إلى العقلاء، وبين أن أولي الألباب هم الذين يعقلونه ويتذكرون به ويقبلون هدايته، وقال فيمن لا إيمان لهم: «ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن الإنس لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون» .

وثانيهما: أن هذا القول يدل على جهل قائله بالدين أو جحوده، فإن الدين يرشد إلى تحديد الآجال وكونها بإذن الله.

﴿ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم﴾ أي: لا تكونوا يا معشر المؤمنين مثل أولئك الكافرين في اعتقادهم، ولا تقولوا مثل قولهم الناشىء عن ذلك الاعتقاد، ليكون ذلك منكم سبباً لتحسرهم وغمهم بحسب سنة الله تعالى؛ فإنهم إذا رأوكم أشداء أقوياء لا يضعفكم فَقْدُ من فُقِدَ منكم، ولا يقعد بكم عن القتال خوف أن يصيبكم ما أصاب أولئك الذين قتلوا، فإنهم يحزنون ويتحسرون.

﴿والله يحيي ويميت﴾ أي: والحقيقة أن الله تعالى يحيي من يشاء بمقتضى سننه في بقاء أسباب الحياة وإن طوى بالأسفار بساط كل بر، ونشر شراع كل بحر، وخاض معامع الحروب، وصارع الأهوال والخطوب، ويميت من يشاء بمقتضى سننه في أسباب الموت وإن اعتصم في الحصون المشيدة، وحرس بالجنود المجنّدة ﴿والله بما تعملون بصير﴾ فلا يخفي عليه ما تكنون في أنفسكم من الاعتقاد، وما يؤثر في قلوبكم من الأقوال والأحوال؛ فاحرصوا على أن يكون ترككم لأقوال الكفار ناشئاً عن طهارة نفوسكم من وساوسهم.

١٥٧ ـ ﴿ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون﴾ حاصل معنى الآية: أن رب العزة يخبرنا مؤكداً خبره بالقسم بأن من يقتل في سبيله أو يموت فإن ما ينتظره من مغفرة تمحو ما كان من ذنوبه وسيئاته، ورحمةٍ ترفع درجاته خير له مما يجمع الذين يحرصون على الحياة ليتمتعوا بالشهوات واللذات. إذ لا يليق بالمؤمنين الذين يؤثرون مغفـرة الله ورحمته الدائمة على الحظوظ الفانية أن يتحسروا على من يقتل منهم أو يموت في سبيل الله، ويودوا لو لم يكونوا خرجوا من دورهم إلى حيث لقـوا حتفهم، فإن ما يلقونه بعد هذا الحتف خير مما كانوا فيه قبله.

١٥٨ ـ ﴿ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون﴾ قالـوا: إن الموت والقتل هنا أعم مما في الآية السابقة، لأن كل من يموت ومن يقتل في سبيل الله وهي طريق الحق والخير، أو في سبيل الشيطان، وهي طريق الباطل والشـر، فلا بد أن يحشر إلى الله تعالى.

وفي معنى الحشر إلى الله تعالى نقول: إنه ليس لله تعالى مكان يحصره فيحشر الناس ويساقون إليه، ولكن الإنسان يغفل في هذه الدار عن الله فينسى هيبته وجلاله، وينصرف عن استشعار عظمته وسلطانه، لاشتغاله بدفع المكاره عن نفسه وجلب اللذات والرغائب لها. وأما ذلك اليوم الذي يحشر له الناس فلا اشتغال فيه بتقويم بنية، ولا التمتع بلذة، ولا مدافعة عدو، ولا مقاومة مكروه، ولا بتربية نفس، ولا تنزيه حس، وإنما يستقبل فيه كل أحد ما يلاقيه من الله تعالى جزاء على عمله لا يشغله عنه شيء فيكون بذلك راجعاً عن كل شيء كان فيه إلى الله تعالى، محشوراً مع سائر الناس إليه لا يشغله عنه شيء، وإذا كان مصير كل من يموت أو يقتل إلى الله تعالى مهما كان سبب موته أو قتله، ومهما طالت حياته، فالاشتغال بذكر سبب هذا المصير ومبدئه لا يفيد، وإنما الذي يفيد هو الاهتمام بذلك المستقبل والاشتغال بالاستعداد له، وذلك دأب العقلاء من المؤمنين.

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ

حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾

١٥٩ ـ ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ الفاء للتعقيب، لأن الكلام في واقعة خالف النبي فيها بعض أصحابه فكان لذلك من الفشل وظهور المشركين ما كان حتى أصيب النبي ﷺ مع من أصيب، فكان من لينه في معاملتهم ومخاطبتهم ومن رحمته بهم أن صبر وتجلد، فلم يتشدد في عتب ولا توبيخ، اهتداء بكتاب الله تعالى.

وكأنه يقول: إنه كان من أصحابك يا محمد ما كان، ـ وهو مما يؤاخذون عليه ـ فلنت لهم وعاملتهم بالحسنى، وإنما لنت لهم بسبب رحمة عظيمة أنزلها الله على قلبك وخصك بها فعمت الناس فوائدها، وجعل القرآن ممداً لها بما هداك إليه من الآداب العالية والحكم السامية التي هونت عليك المصائب، وعلمتك منافعها وحكمها وحسن عواقبها للمعتبر بها ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ لأن الفظاظة والشراسة، والخشونة في المعاشرة، والقسوة والغلظة من الأخلاق المنفرة للناس،لا يصبرون على معاشرة صاحبها وإن كثرت فضائله ورجيت فواضله، بل يتفرقون، ويذهبون من حوله ويتركونه وشأنه، لا يبالون ما يفوتهم من منافع الإقبال عليه، والتحلق حواليه، وإذاً لفاتتهم هدايتـك، ولم تبلغ قلوبهم دعوتـك ﴿فاعف عنهم واستغفـر لهم﴾ فلا تؤاخذهم على ما فرطوا واسأل الله تعالى أن يغفر لهم،فبذلك تكون محافظاً على تلك الرحمة التي خصك الله بها ﴿وشاورهم في الأمر﴾ العام الـذي هو سياسة الأمة في الحرب والسلم، والخوف والأمن؛ وغير ذلك من مصالحهم الدنيوية، أي: دم على المشاورة وواظب عليها، كما فعلت قبل الحرب في هذه الواقعة ــ غزوة أحد ــ وإن أخطأوا الرأي فيها،فإن الخير كل الخير في تربيتهم على المشاورة بالعمل،دون العمل برأي الرئيس وإن كان صواباً، لما في ذلك من النفع لهم في مستقبل حكومتهم إن أقاموا هذا الركن العظيم ــ المشاورة ــ،فإن الجمهور أبعد عن الخطأ من الفرد في الأكثر،والخطر على الأمة في تفويض أمرها إلى

الرجل الواحد أشد وأكبر، وليس من السهل أن يشاور الإنسان ولا أن يشير، وإذا كان المستشارون كثاراً كثر النزاع وتشعب الرأي، ولهذه الصعوبة والوعورة أمر الله تعالى نبيه أن يقرر سنة المشاورة في هذه الأمة بالعمل، فكان ﷺ يستشير أصحابه بغاية اللطف ويصغي إلى كل قول ويرجع عن رأيه إلى رأيهم.

ثم قال تعالى بعد أمر نبيه بالمشاورة: ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾ أي: فإذا عزمت بعد المشاورة في الأمر على إمضاء ما ترجحه الشورى وأعددت له عدته، فتوكل على الله في إمضائه وكن واثقاً بمعونته وتأييده لك فيه ولا تتكل على حولك وقوتك، بل اعلم أن وراء ما أتيته وما أوتيته قوة أعلى وأكمل، يجب أن تكون بها الثقة وعليها المعول، وإليها اللجأ إذا تقطعت الأسباب وأغلقت الأبواب.

﴿إن الله يحب المتوكلين﴾ على حوله وقوته، مع العمل في الأسباب بسننه، أقول: ومن أحبه الله عصمه من الغرور باستعداده، والركون إلى عدته وعتاده، والبطر الذي يصرفه عن النظر فيما يعرض له بعد ذلك حتى لا يقدر قدره، ولا يحكم فيه أمره.

والآية صريحة في وجوب إمضاء العزيمة المستكملة لشروطها، وأهمها ما كان في الأمور العامة حربية كانت أو سياسية أو إدارية ـ وذلك أن نقض العزيمة ضعف في النفس وزلزال في الأخلاق، لا يوثق بمن اعتاده في قول ولا عمل.

إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾

١٦٠ ـ ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾ الكلام استئناف مسوق لبيان وجه وجوب التوكل على الله تعالى بعد المشاورة والعزيمة المبنية على أخذ الأهبة والاستعداد بما يستطاع من حول وقوة، أي: إن ينصركم الله بالعمل بسننه وما يكون لكم من القوة والثبات بالاتكال على توفيقه ومعونته؛ فلا غالب

لكم من الناس الذين نَصَبَهُمْ حرمانهم من التوكل عليه تعالى غرضاً للقنوط واليأس، ﴿وإن يخذلكم﴾ بما كسبت أيديكم من الفشل، وعصيان القائد فيما حتمه من عمل، كما جرى لكم في أُحد، أو بالإعجاب بالكثرة، والاعتماد على الاستعداد والقوة، وهو مخل بالتوكل كما جرى يوم حنين، ﴿فمن ذا الذي ينصركم من بعده﴾ أي: من بعد خذلانه أي: لا أحد يملك لكم حينئذٍ نصراً، ولا يدفع عنكم ضراً ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ ولا يتوكلوا على غيره، لأن النصر بيده. وهو الموفق لأسبابه وأُهَبِهِ.

علم مما تقدم أن التوكل إنما يكون مع الأخذ بالأسباب، وأن ترك الأسباب بدعوى التوكل لا يكون إلا عن جهل بالشرع أو فساد في العقل. فالتوكل محله القلب والعمل بالأسباب محله الأعضاء والجوارح. والإنسان مسوق إليه بمقتضى فطرة الله التي فطر الناس عليها «لا تبديل لخلق الله» ومأمور به في الشرع.

ذلك بأن الإنسان إذا توكل ولم يستعد للأمر ويأخذ له أهبته بحسب سنة الله في الأسباب والمسببات، يقع في الحسرة والندم عندما يخيب ويفوته غرضه فيكون ملوماً شرعاً وعقلاً.

وجاء ذكر التوكل في مقام ذكر الحرمان من الرزق أو من سعته، كما جاء في مقام الصبر على إيذاء المعتدين كقوله تعالى: « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه » وقوله في مقام وجوب نبذ الاغترار بسعة الرزق خشية الغفلة عن الآخرة: «فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون» .

وحسبنا هذه الآيات في هداية القرآن وتحقيقه في مقام الجمع بين الأسباب والتوكل.

وأما الأحاديث الشريفة فأصح ما ورد في التوكل منها حديث الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وقد رواه أحمد والشيخان وغيرهم من حديث ابن عباس مرفوعاً، وقد روي بعدة ألفاظ منها: «يدخل الجنة من أمتي سبعون

ألفاً بغير حساب، هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون» رواه الشيخان معاً عن عمران بن حصين، والبخاري عن ابن عباس، ومسلم عن أبي هريرة،والطبراني عن خباب، رضي الله عنهم.

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾

أخرج أبو داود والترمذي وابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن قوله تعالى:

١٦١ ـ ﴿وما كان لنبي أن يغل﴾ قد نزل في قطيفة حمراء فُقِدَتْ يوم بدر فقال بعض الناس: لعل رسول الله ﷺ أخذها. وقد ضعف هذه الرواية بعض المفسرين، وإن حسنها الترمذي، لأن السياق كله في واقعة أُحد، ورجحوا عليها ما روي عن الكلبي ومقاتل: من أن الرماة قالوا حين تركوا المركز الذي وضعهم النبي ﷺ فيه: نخشى أن يقول النبي ﷺ:«من أخذ شيئاً فهو له» وأن لا يقسم الغنائم كما لم يقسم يوم بدر، فقال النبي ﷺ:«أظننتم أننا نغل ولا نقسم لكم؟» ولهذا نزلت الآية.

وأصل «الغَلِّ»: الأخذ بخفية كالسرقة، وغلب في السرقة من الغنيمة قبل القسمة وتسمى «غُلولاً». والمعنى: ما كان شأن نبي من الأنبياء ولا من سيرته أن يغل لأن الله عصم أنبياءه من الغل والغلول فهو لا يقع منهم.

وذهب بعض المفسرين إلى أن الغل أو الغلول المنفي هنا هو: إخفاء شيء من الوحي وكتمانه عن الناس لا الخيانة في المغنم،وإن كان ما بعده عاماً في كل غلول أو خاصاً بالغنيمة فإنه جيء به للمناسبة كما عهد في مناسبات القرآن وانتقاله من حكم إلى حكم أو خبر له حكمة. ومن مناسبة كون الغل بمعنى الكتمان وإخفاء بعض التنزيل ما تقدم من أمر الله تعالى نبيه ﷺ في الآيات السابقة بمعاتبة من كان معه في أحد وتوبيخهم على ما قصروا، وذلك مما يصعب

تبليغه عادة لأنه يشق على المبلِّغ والمبلَّغ، ومن أمره ﷺ بالعفو والاستغفار لهم ومشاورتهم في الأمر على ما كان منهم، وفي هذا إعلاء لشأنهم ومعاملة لهم بالمساواة في كل هذه الشؤون.

ثم قال: ﴿ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة﴾ أي: إن كل من يقع منه غل أو غلول فإنه يأتي بما غل يوم القيامة. وقد ذهب الجمهور إلى أن المراد بالإتيان أنه يجيء يوم القيامة حاملاً له ليفتضح به ويكون مزيداً في عذابه هنالك.

وأقول: ولما كان الجزاء يترتب على علم الله بالأعمال وإعلامه العاملين بها يوم الحساب، قال بعد ما مر: ﴿ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ أي: ثم إنه بعد أن يأتي الغال بما غل، كما يأتي كل عامل بما عمل، فيتمثل لديه، كأنه حاضر بين يديه، ينظر إليه بعينيه «يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا» تاماً لا تُنْقَصُ منه شيئاً «وَوُضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً».

أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾

١٦٢ ــ ﴿أفمن اتبع رضوان الله﴾ أي: جعل ما يرضيه من فعل وترك إماماً له فجد واجتهد في الخيرات والأعمال الصالحات، واتقى الغلول وغيره من الفواحش والمنكرات، حتى زكت نفسه، وارتقت روحه، فوفي جزاءه الحسن ﴿كمن باء بسخط من الله﴾ أي: انتهى إلى مباءته في الآخرة مصاحباً ومقترناً بغضب عظيم من الله عز وجل ﴿ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ ذلك المأوى الذي ينتهي إليه، كلا إنهما لا يستويان كما لا تستوي الظلمة والنور، ولا الظل ولا الحرور، وقد جعل الخير متبعاً للرضوان لأن أسباب الرضوان أعلام هداية تُتَّبَعُ، ولم يقل ذلك في الشرير لأنه في ظلمة يبتدع ولا يتبع.

١٦٣ - ﴿هم درجات عند الله﴾ أي: إن كلاً من الذين يتبعون رضوان الله والذين يبوؤون بسخطه درجات أو ذوو درجات ومنازل عند الله أي: في يوم الجزاء الذي ينسب إليه وحده لا ينسب إلى غيره فيه شيء لا حقيقة ولا مجازاً ﴿والله بصير بما يعملون﴾ فهو لا يغيب عنه شيء من أعمالهم، وما لها من التأثير في تزكية نفوسهم، التي يترتب عليها الفلاح في ارتقاء الدرجاتْ وفي تدسيتها التي تترتب عليها الخيبة في هبوط الدركات «قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها» فتحصيل الدرجات إنما يكون في هذه الدار، والتمتع بها يكون في دار القرار، أما الدرجات في الدنيا فإنما هي درجات ابتلاء وامتحان يظهر بها التفاوت بين أفراد الإنسان.

لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾

١٦٤ - ﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم﴾ منّ عليهم: غمرهم بالمنة وأثقلهم بالنعمة.

انتقل من نفي الغلول عن النبي عليه الصلاة والسلام، ومن وصفه قبل ذلك بالرحمة واللين، وأمره بالمشاورة، إلى التفرقة بين أصحابه الذين اتبعوا رضوان الله وبين من باء بسخط من الله، وبيان تفاوت درجاتهم في ذلك، ثم ذكر منته تعالى على المؤمنين ببعثة النبي ﷺ فيهم. وقد كان ما تقدم من وصفه ﷺ بالرحمة واللين، وأمره بتلك المعاملة الحسنى، وتنزيهه عن الغلول تمهيداً لهذه المنة.

ثم وصفه بأوصاف أخرى أكد بها المنة أولها: أنه من أنفسهم، أي: من جنسهم أي: العرب. ووجه هذه المنة الخاصة التي لا تنافي كونه ﷺ رحمة عامة، هو أن كونه منهم يزيد في شرفهم ويجعلهم أول المهتدين به، لأنهم أسرع الناس فهما لدعوته، والنعمة العامة قد ذكرت في آيات أخرى كقوله تعالى: «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين».

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بأنفسهم ههنا البشر لا العرب. أقول وهذا القول ضعيف وإن وجب الإيمان بكون جميع الأنبياء من البشر.

والوصف الثاني قوله: ﴿يتلو عليهم آياته﴾ الآيات: هي الآيات الكونية الدالة على قدرته وحكمته ووحدانيته، وتلاوتها: عبارة عن تلاوة ما فيه بيانها، وتوجيه النفوس إلى الاستفادة منها والاعتبار بها، وهو القرآن كقوله عز وجل في أواخر هذه السورة «إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب».

الوصف الثالث والرابع قوله تعالى: ﴿ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ تزكيته إياهم: هي تطهيرهم من العقائد الزائغة ووساوس الوثنية وأدرانها. أما تعليمهم الكتاب: فمعناه أن هذا الدين الذي جاء به قد اضطرهم إلى تعلم الكتابة بالقلم وأخرجهم من الأمية لأنه دين حث على المدنية وسياسة الأمم، وكان يأمرهم بتعلم الكتابة، ثم كان يكثر فيهم، على قدر نماء مدنيتهم وامتداد سلطتهم.

وأما الحكمة: فهي أسرار الأمور وفقه الأحكام، وبيان المصلحة فيها والطريق إلى العمل بها، ذلك الفقه الذي يبعث على العمل، أو طرق الاستدلال ومعرفة الحقائق ببراهينها لأن هذه الطريقة هي طريقة القرآن وسنته في العقائد وكذا في الآداب والعبادات.

﴿وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ أي: وإنهم كانوا قبل بعثة النبي ﷺ في ضلال بين واضح، وأيُّ ضلال أبين من ضلال قوم مشركين يعبدون الأصنام ويتبعون الأوهام، أميين لا يقرؤون ولا يكتبون ليعرفوا كنه ضلالتهم وحقيقة جهالتهم، فضلالهم أبين من ضلال أهل الكتاب، كما هو ظاهر لأولي الألباب.

أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ

فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾

١٦٥ ــ ﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا؟﴾ قال المفسرون: إن الاستفهام الأول للتقريع و«لما» بمعنى «حين»، والمصيبة: ما أصابهم يوم أُحد من ظهور المشركين عليهم. والمشهور: أن معنى إصابتهم مثليها هو كونهم قتلوا في بدر سبعين من المشركين وأسروا سبعين والمشركون لم يقتلوا منهم يوم أُحد غير سبعين رجلاً فجعل الأسرى في حكم القتلى للتمكن من قتلهم. وأما قولهم: أنى هذا؟ فهو تعجب منهم، أي: من أين جاءنا هذا المصاب؟ وسبب تعجبهم مما أصابهم هو اعتقادهم أنهم لا بد أن ينتصروا وهم مسلمون يقاتلون في سبيل الله وفيهم رسوله.

﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ فإنكم أخطأتم الرأي بخروجكم من المدينة إلى أُحد، وكان الرأي ما رآه النبي ﷺ من البقاء فيها حتى إذا ما دخلها المشركون عليهم قاتلوهم على أفواه الأزقة والشوارع، ثم إنكم فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم الرسول طمعاً في الغنيمة، ففارق الرماة منكم موقعهم الذي أقامهم فيه لحماية ظهوركم بنضح عدوكم بالنبل إذا أراد أن يكر عليكم من ورائكم. هذا هو المتبادر المشهور، والمعقول المعنى، الموافق لقاعدة كون العقوبات آثاراً للأعمال.

﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ لا يعجزه تنفيذ سننه بعقاب المسيء وإثابة المحسن، وإقامة النظام العام في الكائنات بربط الأسباب بالمسببات، فلا يشذ عن ذلك مؤمن ولا كافر، ولا بر ولا فاجر.

١٦٦ - ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله﴾ أي: وكل ما أصابكم أيها المؤمنون يوم التقى جمعكم بجمع المشركين في أُحد فهو بإذن الله، أي: إرادته الأزلية وقضائه السابق، بأن تكون السنن العامة في الأسباب والمسببات مطردة، فكل عسكر يخطىء الرأي ويعصي القائد يصاب بمثل ما أصبتم أو بما هو أشد منه ﴿وليعلم المؤمنين﴾ أي: حالهم من قوة الإيمان وضعفه، والاستفادة من المصائب، حتى لا يعودوا إلى أسبابها، أي: ليظهر علمه بذلك ويترتب عليه مقتضاه.

١٦٧ - ﴿وليعلم الذين نافقوا﴾ ليبين في هذه الآية وما بعدها حال المنافقين مع المؤمنين كما بين من قبل حال الكافرين معهم، والذين نافقوا هم الذين أظهروا الإيمان وتبطنوا الكفر، قال ابن الأنباري: إنه مأخوذ من النفق وهو السرب فهم يتسترون بالإسلام كما يتستر الرجل في السرب، وسيأتي من أوصافهم ما يظهر به وجه التسمية.

والمعنى: وليعلم حال الذين نافقوا أي: وقع منهم النفاق في هذه الواقعة، ولم يقل «المنافقين» كما قال «المؤمنين»، لأن النفاق لم يكن صفة ثابتة لهم كثبوت إيمان المؤمنين فإن منهم من تاب بعد ذلك وصدق في إيمانه. أي: ليظهر علمه بذلك فيترتب عليه مقتضاه من العبرة بسوء عاقبة المنافقين حتى فيما طنوه حزماً وتوقياً للمكروه واحتياطاً في الأمر، كالعبرة بحسن عاقبة الصادقين حتى فيما ظنوه شراً وسوءاً وكرهوا حصوله. ﴿وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا﴾ معناه: أن هؤلاء الذين نافقوا قد دعوا إلى القتال على أنه في سبيل الله ولإقامة دينه لا للحمية والهوى ولا ابتغاء الكسب والغنيمة فراوغوا وحاولوا، وقعدوا وتكاسلوا ﴿قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾ أي: لو نعلم أنكم تلقون قتالاً في خروجكم لاتبعناكم، ولكننا نرى أن الأمر ينتهي بغير قتال، نزل ذلك في عبد الله بن أبي السلولي وأصحابه الذين خرجوا من المدينة في جملة الألف الذين خرج بهم رسول الله ﷺ ثم رجعوا من الطريق وهم ثلاث مئة ليخذلوا المسلمين ويوقعوا فيهم الفشل ﴿هم للكفر يومئذٍ أقرب منهم للإيمان﴾ أي: أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان يوم قالوا ذلك القول، لظهور صفته فيهم

وانطباق آيته عليهم يعني: أن هذا الذي صدر منهم وإن كان من شأنه ألا يصدر إلا من الكافرين لا يعد بحد ذاته كفراً صريحاً في حكم الظاهر لاحتمال العذر والتأويل،ولو سجل عليهم به ظاهراً لوجب أن يعاملوا معاملة الكفار مع أنه ﷺ كان يعاملهم بعد ذلك معاملة المؤمنين،حتى أنـه صلى على جنازة رئيسهم عبد الله بن أبي بعد بضع سنين من وقعة أُحد وحينئذٍ فضحهم الله تعالى في سورة التوبة بعدما كان من ظهور كفرهم ونفاقهم في غزوة تبوك وأنزل عليه «ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبـره إنهم كفروا بـالله ورسوله».

فحاصل المعنى: أنه تعالى كان يعلم أنهم يبطنون الكفر،وأن امتناعهم عن الجهاد عمل من أعمال الكفر،ولكنه لم يصرح به في الآية بل صرح بما يومىء إليه تأديباً لهم،عسى أن يتوب منهم من لم يتمكن الكفر في قلبه، ومنعاً للناس من الهجوم على التكفير[1].

وقوله تعالى: ﴿يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم﴾ جملة مستأنفة مبينة لحالهم في مثل قولهم هذا، أي: إن الكذب دأبهم وعادتهم، يصدر عنهم على الدوام والاستمرار ليستروا بذلك ما يضمرون، ويؤيدوا به ما يظهرون، وهل يكون نفاق بغير كذب؟ وفي تقييد القول بالأفواه توضيح لنفاقهم بمخالفـة ظاهرهم لباطنهم ﴿والله أعلم بما يكتمون﴾ من الكفر والكيد للمسلمين وتربص الدوائر بهم، فهو يبين في كل حين من مخبآت سرائرهم ما تقتضيه الحال وتقوم به المصلحة، ثم هو الذي يعاقبهم به في الدنيا والآخرة.

١٦٨ ـ ﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا﴾ أي: هم

---

(١) قوله: «ومنعاً من الهجوم على التكفير»، الأولى القـول: «على الإكفار»، أي: نسبة الكفر إلى غيره، فمن قال: فلان كافر، يقال فيه: «أكفره» لا «كفَّره» خلافاً لما هو شائع لأن «كفَّر» بالتشديد: تشتق منه «الكفارة» أما «الكفر» فمن «كَفَرَ».

الذين قالوا لإخوانهم، أو هو بدل من قوله: «الذين نافقوا» أو نعت له، أي: قالوا لأجل إخوانهم الذين قُتلوا في أُحد وفي شأنهم ـ والحال أنهم هم قد قعدوا عن القتال ـ لو أطاعونا في القعود عن القتال فلم يخرجوا كما أننا لم نخرج لما قتلوا كما أننا نحن لم نقتل إذ لم نخرج. وهذا وصف آخر من أوصاف المنافقين جاء في سياق التقريع المتقدم. وقدم القول فيه على القعود عن القتال لأنه أقبح منه، فإن القعود ربما كان لعذر، أو التمس الناس له عذراً، واللوم فيه على فاعله وحده لأن إثمه لا يتعداه إلى غيره، وأما هذا القول الخبيث فإنه أدل على فساد السريرة وضعف العقل والدين، وضرره يتعدى لما فيه من تثبيط هم المجاهدين، ﴿قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ في أن قولكم[1]: «لو أطاعونا ما قتلوا» يتضمن: أن علمكم قد أحاط بأسباب الموت في هذه الواقعة ـ وإذا جاز هذا فيها جاز في غيرها ـ ولكن لا يمكنهم درء الموت أي: دفعه عن أنفسهم، ولذلك طالبهم به وجعله حجة عليهم.

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا

---

(١) قوله: «في أن قولكم». إلى قوله: «وجعله حجة عليهم»، ليس هكذا في أصل المؤلف، وكان المعنى على حسب ما كتبه غير واضح تماماً (راجع الأصل إذا شئت ص ٢٣١ ج ٤ من تفسير المنار) لذلك تصرفنا في عبارته بما وضّح المعنى. ولعله مراد المؤلف رحمه الله.

وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾

١٦٩ ــ ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا﴾ أخرج الإمام أحمد وغيره من حديث ابن عباس، رضي الله عنهما، قال. قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا ــ وفي لفظ ــ قالوا من يبلغ إخواننا أننا أحياء في الجنة نرزق لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب، فقال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله هؤلاء الآيات». والمعنى: لا تحسبن يا محمد، أو: أيها السامع لقول المنافقين الذين ينكرون البعث أو يرتابون فيه فيؤثرون الدنيا على الآخرة أن من قتلوا في سبيل الله أموات قد فقدوا الحياة وصاروا عدماً ﴿بل﴾ هم ﴿أحياء عند ربهم يرزقون﴾ في عالم غير هذا العالم هو خير منه للشهداء وغيرهم من الصالحين، ولكرامته وشرفه أضافه الرب تعالى إليه فهذه العندية عندية شرف وكرامة لا مكان ومسافة. وقيل: عندية علم وحكم. وإذا كان الأمر كذلك فليس يضير أولئك الذين قتلوا في سبيل الله قتلهم، وليس ما صاروا إليه دون ما كانوا فيه..

١٧٠ ــ ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ أي: مسرورين بما أعطاهم الله من فضله ــ أي: زيادة على ذلك الرزق الذي استحقوه بعملهم ــ فالفضل: ما كان في غير مقابلة عمل ﴿ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم﴾ الاستبشار: السرور الحاصل بالبشارة وأصل «الاستفعال» طل الفعل، فالمستبشرون بمنزلة من طلب السرور فوجده بالبشارة ويصح أن يكون معنى الطلب فيه على حاله، والذين لم يلحقوا بهم: هم الذين بقوا في الدنيا. وإنما

قال: «من خلفهم» للدلالة على أنهم وراءهم يقتفون أثرهم ويحذون حذوهم فهو قيدٌ فيه الخبر، والحث، والترغيب، والمدح، والبشارة، وهو من البلاغة بالمكان الذي لا يطاول.

والمعنى: يتوقعون أن يبشروا في وقت قريب بقدومهم عليهم مقتولين في سبيل الله كما قتلوا، مستحقين من الرزق والفضل الإلهي مثل ما أوتوا، أو أنهم يسرون بذلك عند حصوله.

وقوله: ﴿أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ بدل اشتمال من «الذين لم يلحقوا» أي: يستبشرون بهم من حيث لا خوف عليهم، فالخوف والحزن على هذا منفيان عن الذين لم يلحقوا بهم. أي: إن الفرح والاستبشار يكونان شاملين، بسبب انتفاء الخوف والحزن عنهم حيث هم. كما يحتمل أن يكون المراد نفيهما عن الذين لم يلحقوا بهم أيضاً والمختار عندي: أن المراد بنفي الخوف والحزن نفيهما عن الذين لم يلحقوا بهم ممن قاتل معهم ولم يقتل وأن الآية الآتية مفسرة لذلك. والخوف: تألم من مكروه يتوقع، والحزن: تألم من مكروه وقع. ويجوز أن يكون المعنى: أنه لا خوف عليهم في الدنيا من استئصال المشركين لهم أو ظفرهم بهم ثانية، ولا هم يحزنون في المستقبل البعيد عندما يقدمون على ربهم في الآخرة.

١٧١ ـ ﴿يستبشرون بنعمة من الله﴾ ضمير «يستبشرون»: إما للشهداء، وإما للذين لم يلحقوا بهم، فإن كان للشهداء فهو عبارة عما يتجدد لهم من نعمة وفضل، أو: المراد بقوله «بنعمة» ما ذكره في الآية السابقة من كونهم أحياء عنده يرزقون ﴿وفضل﴾ هو عين ما ذكره في الآية السابقة، من كونهم «فرحين بما آتاهم الله من فضله»، وإن كان للذين لم يلحقوا بهم فالمعنى: أنهم يستبشرون بمثل ما فرح به الشهداء ﴿وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾. والمؤمنون هنا عام أريد به خصوص الذين وصفهم بقوله:

١٧٢ ـ ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعدما أصابهم القرح﴾ وهم إخوان أولئك الشهداء الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، فدعاهم الرسول ﷺ إلى اتباع أبي سفيان في «حمراء الأسد» فاستجابوا لله وله، من بعد ما أصابهم القرح في «أحد» حتى أنهك قواهم.

﴿للـذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم﴾ قد يقال: إن أولئك الذين استجابوا لله ولرسوله في تلك الحالة هم أخيار المؤمنين وكلهم من المحسنين المتقين فما معنى قوله «منهم»؟ وأجابوا عن ذلك بأن «من» هنا للتبيين لا للتبعيض، وأن الوصف بالإحسان والتقوى للمدح والتعليل لا للتقييـد، وأقول: فالضمير في قوله «منهم» راجع على هذا القول للمؤمنين، لا للذين استجابوا، وهو لا يظهر إلا إذا جعلنا قوله «الذين استجابوا» منصوباً على المدح والجملة المدحية معترضة.

والإحسان أن يعمل الإنسـان العمل عـلى أكمل وجـوهه الممكنـة، والتقوى: أن يتقي الإساءة والتقصير فيه. فليعتبر المسلمون بهذه الآيات التي وردت في أولئك الأبرار الأخيار الذين بذلوا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله وكيف جاء وعدهم بالأجر مقـروناً بـوصف الإحسان والتقـوى وأنى يعتبر المغرورون المسيئون، الذين هم عن صلاتهم ساهون، والـذين هم للزكاة مانعون، والذين يبخلون بأنفسهم فلا يبذلونها في سبيل الحق ولا يتعبون، والذين يقولون الكذب وهم يعلمـون، والذين يتـولون المبـطلين وينصرون، ويشاقون أهل الحق ويخذلون، ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون، والله يعلم ما يسرون وما يعلنون.

١٧٣ ــ ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم﴾ «الذين قال لهم الناس»: هم الذين استجابوا لله وللرسول والمراد بالناس الذين قالوا للمؤمنين: «إن الناس قد جمعوا لكم» نعيم بن مسعود ومن وافقه فأذاع ذلك. وأما الناس الذين جمعوا الجموع لقتال المسلمين فهم: أبو سفيان وأعوانه قولاً واحداً.

﴿فزادهم إيمانا﴾ أي: فزادهم قول الناس لهم إيماناً بالله وثقة به، من حيث خَشُوه ولم يخشوا الناس الذين خُوِّفوا منهم بأنهم جمعوا لهم الجموع، واعتمدوا على نصره ومعونته فإنه هو العزيز القوي،وكان من قوة إيمانهم وزيادته أن أقدموا وهم عدد قليل قد أثخنوا بالجراح على محاربة الجيش الكبير. فالزيادة كانت في الإذعان النفسي، والشعور القلبي، وتبعتها الزيادة في العمل.

ثم إن فائدة الإيمان إنما تكون بإذعان النفس الذي يحرك فيها الخوف والرجاء وغيرهما من وجدانات الدين، التي يترتب عليها ترك المنكر المنهي عنه، وفعل المعروف المأمور به ولولا ذلك لم يكن للدين فائدة في إصلاح حال البشر. وهل يقول عاقل: إن الإذعان والخوف والرجاء من الأمور التي لا تقبل الزيادة والنقصان؟ أمَا إنه لو كان إذعان جميع المؤمنين في درجة واحدة لتساووا في الأعمال، ولكنهم متفاوتون فيها تفاوتاً عظيمًا كما هو ثابت بالمشاهدة، فثبت أنهم متفاوتون في منشاها من النفس وهو الإذعان، الذي يقوي ويضعف بالتبع للإيمان، وهذا عين قبول الزيادة والنقصان.

﴿وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ أي: «وقالوا» معبرين عن إيمانهم، «حسبنا الله» أي: هو كافينا ما يهمنا من أمر الذين جمعوا لنا. وحسبنا: بمعنى محسبنا، فهو من «أَحْسَبَه» إذا كفاه، «ونعم الوكيل» الذي توكل إليه الأمور، وهو فإنه لا يعجزه أن ينصرنا عليهم، على قلتنا وكثرتهم، أو يلقي الرعب في قلوبهم، ويكفينا شر بغيهم وكيدهم وقد كان الأمر كذلك، فإن الله تعالى ألقى الرعب في قلب أبي سفيان وجيشه على كثرتهم فولوا مدبرين، وأعز الله بذلك ورسوله والمؤمنين.

١٧٤ ـ ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء﴾ أي: فعادوا بعد خروجهم إلى لقاء الذين جمعوا لهم ومناجزتهم القتال متمتعين أو مصحوبين بنعمة من الله وهي السلامة كما روي عن ابن عباس، أو العاقبة كما روي عن مجاهد والسدي، أو ما هو أعم من ذلك. وأما الفضل: فقد فسروه بالربح في التجارة، روى البيهقي عن ابن عباس: أن عيراً مرت في أيام الموسم، فاشتراها رسول الله ﷺ فربح مالاً، فقسمه بين أصحابه، فذلك الفضل.

والظاهر أن هذا الموسم هو موسم بدر الصغرى، وقد تقدم آنفاً خبر الخروج إليها، وأنهم اتجروا فيها وربحوا، وليس في ألفاظ الآية ما يدل على أنها نزلت في غزوة بدر الصغرى، أو بدر الموعد، إلا هذه الكلمة، لأن غزوة «حمراء الأسد» المتصلة بغزوة «أُحد» قد قيل لهم فيها: إن الناس قد جمعوا لكم فزادهم ذلك إيماناً فخرجوا إلى لقائهم، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل معنوي،

لم يمسسهم سوء ولا أذى، وفسر السوء بالقتل والجراح ﴿واتبعوا رضوان الله﴾ أي: أعظم ما يرضيه وتستحق به كرامته ﴿والله ذو فضل عظيم﴾ فإن كان أكرمهم بذلك في الدنيا، فقد يعطيهم ما هو أعظم وأكرم في العقبى.

١٧٥ ـ ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه﴾ قيل: إن المراد بالشيطان هنا شيطان الأنس الذي غش المسلمين وخوفهم ليخذلهم. وقيل: بل المراد به شيطان الجن الذي يوسوس في صدور الناس، والمعنى على الأول: ليس ذلك الذي قال لكم إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم أو من أوعز إليه بأن يقول ذلك أو من وسوس به إلا الشيطان يخوفكم أولياءه، ـ وهم مشركو مكة ـ ويوهمكم أنهم جمع كثير أولو بأس شديد وأن من مصلحتكم أن تقعدوا عن لقائهم وتجنبوا عن مدافعتهم. والمعنى على الثاني: أن الشيطان يخوف أولياءه ولا سلطان له على أولياء الله المؤمنين فهو عاجز عن تخويفهم. ﴿فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ أي: لا تحفلوا بقوله «فاخشوهم» فتخافوهم، بل خافوني أنا، لأنكم أوليائي وأنا وليكم وناصركم، إن كنتم راسخين في الإيمان، قائمين بحقوقه.

ففي الآية التنبيه إلى الموازنة بين أولياء الشيطان من مشركي مكة وغيرهم، وبين ولي المؤمنين القادر على كل شيء، كأنه يقول: عليكم أن توازنوا بين قوتي وقوتهم ونصرتي ونصرتهم، فأنا الذي وعدتكم النصر وأنا وليكم ونصيركم ما أطعتموني وأطعتم رسولي.

وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾

لما كان ما كان من فوز المشركين في أحد وما أصاب النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين، أظهر بعض المنافقين كفرهم وقالوا: لو كان محمد نبياً ما قتل، ولم سارع هؤلاء في إظهار ما يسرون من الكفر وتثبيط المؤمنين عن نصر الإيمان إلا لظنهم أن المسلمين قد قضي عليهم، وقد كان هذا مما يحزن النبي ﷺ فكان من تسلية التنزيل له في هذا السياق قوله عز وجل:

١٧٦ ـ ﴿ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ كما كان يسليه عما يحزنه من إعراض الكافرين عن الإيمان أو طعنهم في القرآن، أو: في شخصه ﷺ، أو المراد من السياق تسليته ﷺ عما ساءه وأحزنه من اهتمام المشركين بنصرة شركهم ومعاودتهم للقتال بعد أُحد في حمراء الأسد أو بدر الصغرى لولا خذلان الله لهم. والمسارعة في الكفر: هي المسارعة في نصرته والاهتمام بشؤونه، والإيجاف في مقاومة المؤمنين، وما كل كافر يسارع في الكفر، فإن من الكافرين القاعد الذي لا يتحرك لنصرة كفره، ولا لمقاومة المخالف له فيه. والمسارعون المعنيون هنا: هم أولئك النفر من المشركين كأبي سفيان ومن كان معه من صناديد قريش، ﴿إنهم لن يضروا الله شيئاً﴾ أي: إنهم لا يحاربونك فيضروك بذلك وإنما يحاربون الله تعالى ولا شك في ضعف قوتهم وعجزها عن مناوأة قوته عز وجل فهم لا يضرون بذلك إلا أنفسهم. أقول: وقد بين هذا بقوله: ﴿يريد الله أن لا يجعل لهم حظاً في الآخرة﴾ أي: إنهم على حالة من فساد الفطرة تقتضي حرمانهم من نعيم الآخرة بسنة الله وإرادته فلا نصيب لهم فيها ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ فوق عذاب الحرمان من نعيمها، ولم يقيد هذا العذاب بكونه في الآخرة فهو أعم كما هو ثابت وقوعاً ونقلاً بمثل قوله تعالى في المنافقين «سنعذبهم مرتين».

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾

١٧٧ ـ ﴿إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم﴾ قالوا: إن الآية تكرير للتأكيد وتعميم للكفرة بعد تخصيص من نافق من المتخلفين عن القتال، أو المرتدين من الأعراب، ولكن من فَقِهَ الآيتين علم أن تلك في المسارعين في الكفر، وهذه في الذين اشتروا الكفر بالإيمان، أي: اختاروه ورضوا به، كما يرضى المشتري أن يرى ما أخذه أنفع له مما بذله،

ففي إعادة العبارة بهذا الأسلوب فائدتان: إحداهما: أن فيها قسمًا من الكافرين لم يذكروا في الآية الأولى، والثانية أن فيها مع تأكيد عدم إضرارهم بالنبي ﷺ بياناً لحال من أحوالهم يدل على سخافتهم وضعف عقولهم إذ رضوا بالكفر واختاروه، وحسبوه منفعة وفائدة، فكأنه يقول: إن هؤلاء لا قيمة لهم فيخاف منهم أو يحزن عليهم. ثم قال تعالى:

١٧٨ ــ ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أن ما نملي لهم خير لأنفسهم، إنما نملي لهم ليزدادوا إثمًا ولهم عذاب مهين﴾ فبين لنا سنة حكيمة من سننه في الاجتماع البشري؛ وهي أن الإنسان يبلغ الخير بعمله الحسن، ويقع في الضَّيْر بتقصيره في العمل الصالح وتشميره في عمل السيئات، والعبرة بالخواتيم، أي: إن هذا الإملاء للكافرين ليس عناية من الله بهم وإنما هو جرى على سننه في الخلق، وهي أن يكون ما يصيب الإنسان من خير وشر هو ثمرة عمله. ومن مقتضى هذه السنة العادلة أن يكون الإملاء للكافر علة لغروره، وسبباً لاسترساله في فجوره، فيوقعه ذلك في الإثم الذي يترتب عليه العذاب المهين. وإنما يكون الخير للإنسان في الإملاء وطول الأجل، مع التمكن من العمل، إذا كان يزداد فيه عملاً صالحاً ينتفع به في نفسه بارتقائها في الأخلاق العالية؛ والصفات الفاضلة، وينفع به الناس في تهذيب أنفسهم، وتحسين معيشتهم، وهؤلاء الكافرون من المنافقين والمشركين وأمثالهم لا يزدادون بجهلهم وسوء اختيارهم إلا إثمًا يضرهم في أنفسهم بالتمادي في مكابرة الحق، والاسترسال في الفسق، وتأييد سلطان الشر في الخلق، فاللام في قوله «ليزدادوا إثما» هي التي يسمونها لام العاقبة والصيرورة أي: لتكون عاقبتهم بحسب السنة العامة في الخلق ازدياد الإثم، فإنهم بمقتضى كفرهم وباطلهم يقاومون أهل الحق من المؤمنين، وكلما عمل الإنسان على شاكلته قويت بالعمل والإثم داعية الإثم، كما أن الخير يمد بعضه بعضاً.

ثم إن في الآية من مواضع العبرة أن من شأن الكافر أن يزداد كفراً بطول العمر والتمكن من العمل على شاكلته وبحسب استعداده، ويقابله أن المؤمن كلما طال عمره كثرت حسناته، وازدادت خيراته، فعسى أن يتخذ هذا ميزاناً

من موازين الإيمان ومحاسبة النفس، فإنه مما يذهب بالغرور، ويخرج الذي فقهه من الظلمات إلى النور.

أقول: وفي الآيات الثلاث التفنن في وصف العذاب بين عظيم وأليم ومهين، والأليم:ذو الألم، والمهين:ذو الإهانة، وهذه الأوصاف يتوارد بعضها على بعض كما لا يخفي وهذا لا يمنع مناسبة كل وصف لآيته ككون الجزاء بالعظيم على المسارعة في الكفر، لأن من شأن المسارعة أن تكون في العظائم، وبالأليم على شراء الكفر، لأن المشتري المغبون يتألم، وبالمهين على ازدياد الإثم بالإملاء، لأن من ازدادوا إثمًا ما كانوا يطلبون إلا العز والكرامة.

مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾

١٧٩ ــ ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾ والمعنى: ما كان من شأن الله تعالى ولا من سنته في عباده أن يذر المؤمنين على مثل الحال التي كان عليها المسلمون عند حدوث غزوة أُحد حتى يميز الخبيث من الطيب.

وكيف كانوا؟.

كانوا يصلون ويمتثلون كل ما يأمرهم به النبي ﷺ ومنه إرسال السرايا المعتاد مثلها ولم تكن فيها مخاوف كبيرة على الإسلام وأهله، ولذلك كان يختلط فيها الصادق بالمنافق بلا تمييز، إذ التمايز لا يكون إلا بالشدائد. أما الرخاء واليسر وتكليف ما لا مشقة فيه كالصلاة والصدقة القليلة فكان يقبله المنافقون كالصادقين لما فيه من حسن الأحدوثة مع التمتع بمزايا الإسلام وفوائده، وربما خدع الشيطان المؤمن بترغيبه في الزيادة من أعمال العبادات لما في ذلك من الرياء والسمعة، والاستواء في الظاهر مدعاة الالتباس والاشتباه.

والشدائد تميز بين القوي في الإيمان والضعيف فيه، وتزيل الالتباس بين

الصادقين والمنافقين وفي ذلك فوائد كثيرة منها: أن الصادق قد يفضي ببعض أسرار الملة إلى المنافق لما يغلب عليه من حسن الظن والانخداع بأداء المنافق للواجبات الظاهرة ومشاركته للصادقين في سائر الأعمال، فإذا عرفه اتقى ذلك.

ومنها: أن تعرف الجماعة وزن قوتها الحقيقية لأنها بانكشاف حال المنافقين لها تعرف أنهم عليها لا لها، وبانكشاف حال الضعفاء الذين لم تـربهّم الشدة تعرف أنهم لا عليها ولا لها.

هذا بعض ما تكشفه الشدة للجماعة من ضرر الالتباس وأما الأفراد فإنها تكشف لهم حجب الغرور بأنفسهم فإن المؤمن الصادق قد يغتر بنفسه فلا يدرك ما فيها من الضعف في الاعتقاد والأخلاق لأن هذا مما يخفى مكانه على صاحبه حتى تظهره الشدائد.

﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾ وإنما لم يكن من شأنه إطلاع الناس على الغيب لأنه لو فعل ذلك لأخرج به الإنسان عن كونه إنساناً، فإنه تعالى خلق الإنسان نوعاً عاملاً، يحصل جميع رغائبه ويدفع جميع مكارهه بالعمل الكسبي، الذي ترشده إليه الفطرة وهدي النبوة.

﴿ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء﴾ أي: يصطفيهم فيطلعهم على ما شاء من الغيب وهو ما في تبليغه للناس مصلحة ومنفعة لهم في الإيمـان كصفات الله تعالى واليوم الآخر وبعض شؤونه والملائكة. وهذا هو الغيب الذي أمر المكلفون بالإيمان به ومدحوا عليه في مثل قوله تعالى: «آلم، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنين بالغيب» ﴿فـآمنوا بـالله ورسله﴾ وبما أخبر به رسله من خبر الغيب ﴿وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم﴾ أي: إن أنتم آمنتم بما جاؤوا به من خبر الغيب، وقرنتم بالإيمان تقوى الله تعالى، بترك المنهيات وفعل المأمورات، فلكم أجر عظيم لا يقدر قدره ولا يعرف كنهه.

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم

بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

١٨٠ ـ ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم﴾ اعلم أنه تعالى لما بالغ في التحريض على بذل النفس في الجهاد في الآيات المتقدمة شرع ههنا في التحريض على بذل المال في الجهاد، وبين الوعيد الشديد لمن يبخل ببذل المال في سبيل الله.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس: أن الآية نزلت في أهل الكتاب الذين كتموا صفة النبي ﷺ ونبوته، فالبخل على هذا هو البخل بالعلم وبيان الحق. وأكثر المفسرين على أن المراد «بما آتاهم الله من فضله» المال، وأن البخل به هو البخل بالصدقة المفروضة فيه، وعدم التصريح بذلك من ضروب إيجاز القرآن، فكثيراً ما يترك التصريح بالقول لأنه مفهوم من السياق والقرائن دالة عليه، واللبس مأمون. فلا يخطر ببال أحد أن الوعيد هو على البخل بجميع ما يملك الإنسان من فضل ربه عليه، فإن الله أباح لنا الطيبات والزينة في نص كتابه، والعقل يجزم أيضاً بأن الله لا يكلف الناس بذل كل ما يكسبون وأن يبقوا جائعين عراة بائسين. والأَولى أن تبقى على عمومها فإن المال من فضل الله، وكذلك العلم والجاه والناس مطالبون بشكر ذلك، والبخل على الناس به كفر لا شكر.

وأقول: ويؤيد العموم في قوله «بما آتاهم الله» العموم في الجزاء على ذلك البخل في قوله: ﴿سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾ ولم يقل سيطوقون زكاتهم، أو المال الذي منعوه. أما معنى التطويق فقد يكون من «الطاقة» فيكون بمعنى التكليف، أي: سيكلفون ذلك في الآخرة فلا يجدون إليه سبيلاً كقوله «ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون»، وقد يكون من «الطَّوْق» أي: سيجعل ما بخلوا به طوقاً في أعناقهم يُهْلَكون بما يلزمهم من الجزاء عليه فلا يجدون عنه مصرفاً.

وفسّر بعضهم[1] التطويق بحديث أبي هريرة عند البخاري والنسائي عن النبي ﷺ قال: «من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مُثِّل له ماله شجاعاً ـ ثعبان معروف ـ أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة فيأخذ بِلِهْزِمَتَيْهِ ـ أي: شدقيه ـ يقول: أنا مالك، أنا كنزك ثم تلا هذه الآية. وفي رواية للنسائي: «إن الذي لا يؤدي زكاة ماله يخيل إليه ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان فيلزمه أو يطوقه يقول: أنا كنزك»، أنا كنزك وهناك روايات عند ابن جرير وغيره: «أن ذلك يكون طوقاً من النار في عنق من يبخل.

﴿ولله ميراث السماوات والأرض﴾ أي: إن له وحده سبحاه جميع ما في السماوات والأرض مما يتوارثه الناس، فينقل من واحد إلى آخر لا يستقر في يد، ولا يسلم التصرف فيه لأحد، إلى أن يفنى جميع الوارثين والمورثين، ويبقى المالك الحقيقي وهو الله رب العالمين.

أي: إن كل ما يعطاه الإنسان من مال وجاه وقوة وعلم فإنه عرض زائل وصاحبه يفنى ويزول، ولا معنى لاستبقاء الإنسان ما هو فان مثله، بل عليه أن يضع كل شيء في موضعه الذي يصلح له، ويبذله في وجوهه اللائقة به.

﴿والله بما تعملون خبير﴾ أي: لا يخفى عليه شيء من دقائق عملكم ولا مما تنطوي عليه الصدور من الهوى فيه والنية في إتيانه فيجزي كل عامل بما عمل على حسب تأثير عمله في نفسه.

لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ

---

(١) قوله: «وفسر بعضهم التطويق» غريب من المؤلف، لأن النبي ﷺ هو الذي فسر التطويق بما جاء في الحديث الصحيح الذي ذكره! ويعتبره قولاً من الأقوال، لأنه ليس بعد بيان النبي ﷺ بيان، فطالما أنه ثبت في الصحيح هذا التفسير فلا يصح العدول عنه إلى غيره مطلقاً.

مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾

١٨١ ــ ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ الظاهر أن هذه المجازفة في القول قد وقعت من غير واحد من يهود، وما يقوله البعض ويجيزه الجمع يسند إلى القائلين والمجيزين جميعاً، والظاهر أنهم قالوا ذلك تهكمًا بالقرآن.

سَمْعُ الله قول هؤلاء المجازفين لم يفته ولم يخف فيه فهو سيجزيهم عليه، فهذا التعبير يتضمن التهديد والوعيد كما يتضمن قوله «سمع الله لمن حمده» البشارة والوعد بحسن الجزاء كما يتضمن قوله: «قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما» مزيد العناية وإرادة الإشكاء والإغاثة، ذلك بأن قولك: «سمعت ما قال فلان» يشعر بما لا يشعر به قولك «علمت بما قال»، والسمع هو العلم بالمسموعات خاصة بوجه خاص ﴿سنكتب ما قالوا﴾ وعيد لهم على ذلك القول الذي قالوه استهزاء بالقرآن. قال بعضهم: أي: نأمر بكتابته، وغفلوا عن قوله: ﴿وقتلهم الأنبياء بغير حق﴾ فإنه كان من سلفهم فما معنى التعبير عن كتابته بصيغة الاستقبال؟ لا بد من تفسيره بوجه يصح في الأمرين، والمعنى الصحيح لهذه الكلمة: «سنعاقبهم على ذلك حتمًا» فإن الكتابة هنا عبارة عن حفظه عليهم، ويراد به لازمه وهو العقوبة عليه. والتوعد بحفظ الذنب وكتابته وإرادة العقوبة عليه شائع مستعمل حتى اليوم فلا يحتاج إلى دقة نظر. ولفظ «الكتابة» آكد من لفظ «الحفظ» لما فيه من معنى الاستتباب وأمن النسيان. وإنما ضم قتل الأنبياء ــ وهو أفظع جرائم هذا الشعب ــ إلى الجريمة التي سبق الوعيد لأجلها لبيان أن مثل هذا الكفر والتهور ليس بدعاً من أمرهم، فإنه سبق لهم أن قتلوا الهداة المرشدين بعدما جاؤوهم بالبينات.

وأما إضافة القتل إلى الحاضرين فإنهم يعدون قتلة لرضاهم بما فعله

سلفهم، لأن الأمم متكافلة في الأمور العامة إذ يجب على الأمة الإنكار على فاعل المنكر من أفرادها وتغييره أو النهي عنه، لئلا يفشو فيها فيصير خلقاً من أخلاقها فتستحق عقوبته في الدنيا كالضعف والفقر وفقد الاستقلال، كما تستحق عقوبته في الآخرة.

ذلك بأن من أقر فاعل المنكر فلم ينهه ولم يسخط عليه تكون نفسه مشاكلة لنفسه تأنس بما تأنس به، ثم لا يلبث أن يفعل المنكر ولو بعد حين ما لم يكن عاجزاً عن ذلك بسبب من الأسباب الحسية، كضعف الجسم أو قلة المال أي: إن مثل هذا لا يترك المنكر لأنه رذيلة تدنس نفس فاعلها فيكون بعيداً من الخير غير مستحق لرضوان الله عز وجل.

﴿ونقول ذوقوا عذاب الحريق﴾ الذوق: عبارة عن الشعور بالألم أو ضده فمعنى «ذوقوا»: تألموا. أما كيفية القول فلا نبحث فيها، وإنما نعلم أن الله تعالى يوصل هذا المعنى إليهم.

١٨٢ ـ ﴿ذلك بما قدمت أيديكم﴾ أي: ذلك العذاب الذي تذوقون مرارته أو حرارته بسبب ما قدمتم في الدنيا من الأعمال. عبر عن الأشخاص بالأيدي لأن أكثر الأعمال تزاول بها، وليفيد أن ما عذبوا عليه هو من عملهم حقيقة لا مجازاً. فإن نسبة الفعل إلى يد الفاعل تفيد من إلصاقه به ما لا تفيده نسبته إلى ضميره.

﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ أي: ذلك العذاب إنما يصيبكم بعملكم وبكونه تعالى عادلاً في حكمه وفعله لا يجور ولا يظلم، فيعاقب غير المستحق للعقاب، ولا يجعل المجرمين كالمتقين والكافرين كالمؤمنين.

١٨٣ ـ ﴿الذين قالوا إن الله عهد إلينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار﴾ أي: أولئك هم الذين قالوا في الاعتذار عن عدم الإيمان بمحمد ﷺ: إن الله عهد إلينا في كتابه التوراة أن لا نؤمن لرسول يدعي أنه مرسل من الله حتى يأتينا بقربان تأكله النار.

قال المفسرون: إنهم أرادوا شيئاً كان شائعاً عندهم، وهو أن يذبح

القربان من النعم أو غيرها فيوضع في مكان معين فتأتي نار بيضاء من السماء لها دوي فتأخذه أو تحرقه. وروى ابن جرير عن ابن عباس أن الرجل منهم كان يتصدق بالصدقة فإذا تقبل منه نزلت عليه نار من السماء فأكلته. أي: أكلت ما تصدق به. هذا ما أورده ابن جرير وردُّوه بأن هذا القربان إنما كان يوجب الإيمان لأنه معجزة لا لذاته إذ هو كغيره من المعجزات.

أقول: إن القربان في عبادة بني إسرائيل كان قسمين دموياً وغير دموي. فالقرابين الدموية كانت من الحيوانات الطاهرة كالبقر والغنم والحمام، وغير الدموية هي باكورات المواسم والخمر والزيت والدقيق . والقرابين عندهم أنواع منها المحرقات والتقدمات وذبائح السلامة وذبائح الخطيئة وذبائح الإثم. وكانوا يحرقون المحرقات بأيديهم.

ويجوز وهو الأظهر أن يكون معنى «حتى يأتينا بقربان تأكله النار» أن يفرض علينا تقريب قربان يحرق بالنار. فقد كان من أحكام الشريعة عندهم أن يحرقوا بعض القربان، وقد أمر الله تعالى نبيه أن يرد عليهم، فقال: ﴿قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين﴾ في زعمكم أنكم لا تؤمنون بي لأني لم آمر بإحراق القرابين، أي: إنكم لم ترضوا بعصيان أولئك الرسل فقط بل قسوتم عليهم وقتلتموهم أي: لا ريب أن هذا لم يقع منكم إلا لأنكم شعب غليظ الرقبة ـ بذا وصفوا في التوراة التي في أيديهم ـ وأنكم قساة غلف القلوب لا تفقهون الحق ولا تذعنون له. وهذا مبني على ما قلناه من اعتبار الأمة باتفاق أخلاقها وصفاتها وعاداتها العامة كالشخص الواحد؛ وكان هذا المعنى معروفاً عند العرب فإنهم يلصقون جريمة الشخص بقبيلته ويؤاخذونها به ولو بعد موته.

١٨٤ ـ ﴿فإن كذبوك﴾ بعد أن جئتهم بالبينات الناصعة، والزبر الصادعة، والكتاب الذي ينير السبيل، ويقيم الدليل، فلا تأس عليهم، ولا تحزن لكفرهم، ولا تعجب من فساد أمرهم، فإن هذه سنة الله في العباد، وخُلُق من سبق من هؤلاء من آباء وأجداد ﴿فقد كذب رسل من قبلك جاؤوا بالبينات والزبر والكتاب المنير﴾ فأقاموا على أقوامهم الحجة ببيناتهم، وهزوا قلوبهم بزبر عظاتهم، وأناروا بالكتاب سبيل نجاتهم، فما أغنى ذلك عنهم من

شيء لما انصرفت قلوبهم عن طلب الحق وتحري سبيل الخير. فالآية تسلية للنبي ﷺ وبيان لطباع الناس واستعدادهم.

و «الزبر» جمع «زبور» بمعنى مزبور، من «زَبَرْتُ الكتاب» إذا كتبتَه مطلقاً، أو كتابة عظيمة غليظة أو متقنة فهو بمعنى الكتب والصحف.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾

١٨٥ ــ ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ المعنى ظاهر يفهمه كل من يعرف العربية: وهو أن كل حي يموت، فتذوق نفسه طعم مفارقة البدن التي تعيش فيه، ﴿وإنما توفون أجوركم يوم القيامة﴾ «وفَّاه أجره»: أعطاه إياه وافياً بالعمل، لم ينقصه منه شيئاً، ومهما نال الإنسان من أجر على عمله في الدنيا فإنه لا يوفاه إلا في الآخرة، و«القيامة»: يوم يقوم الناس لرب العالمين في الحياة التي بعد الموت. واستدل بالآية من[1] ينكر عذاب القبر ونعيمه.

﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾ زحزح عن النار: نُحي وأبعد عنها واختطف دونها قبل أن تلتهمه و«الزحزحة» تكرير الزح وهو الجذب بعجلة. أي: الإزاحة بعد الإزاحة جُعل الذي يهم بمواقعتها مرة بعد مرة فَيُنَحَّى عنها في كل مرة بتوفيق الله إلى أن يدخل الجنة، فائزاً فوزاً عظيمًا.

---

(١) قوله: «واستدل بالآية إلخ» الواقع أن الآية دليل على عذاب القبر ونعيمه ليس العكس، فهي تفيد: أن عذاب القبر ونعيمه ليسا كل الجزاء فلا ينال الميت من عذاب أو نعيم في قبره إلا جزء يسير جداً مما أعد الله له في الآخرة، وحينئذ يوفيه الله كل جزائه في جنة الخلد أو في النار المؤبدة، نقول هذا من باب رد استدلال من استدل بهذه الآية على إنكاره لعذاب القبر ونعيمه، وهم الجهمية والرافضة، وأكثر المعتزلة، وهؤلاء أهل بدعة وضلالة، فالصحيح ما عليه أهل السنة والجماعة من أن نعيم البرزخ وعذابه ثابتان بدلالة كثير من الآيات كقوله تعالى في فرعون وقومه: ﴿النار يعرضون عليها غدوّاً أو عشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ أما الأحاديث فقد بلغت في جملتها حد التواتر المعنوي وكلها تثبت أن عذاب البرزخ ونعيمه حق لا مجال للشك في ذلك.

وأقول: ذكر توفية الأجور ثم بين ذلك بأبلغ عبارة موجزة إيجازاً معجزاً، فأعلم أن هنالك جنة وناراً، وأن من الناس من يلقى في تلك، ومنهم من يدخل هذه، وأبان عظيم هول النار وشدتها بالتعبير عن النجاة عنها بالزحزحة، كأن كل شخص كان مشرفاً على السقوط فيها، وأن مجرد الزحزحة عنها فوز كبير. وفيه إيماء إلى أن أعمال الناس سائقة لهم إلى النار لأنها حيوانية في الغالب، حتى لا يكاد يدخل أحد الجنة إلا بعد أن يكون زحزح عما كان صائراً إليه من السقوط في النار، أما هؤلاء المزحزحون، فهم الذين غلبت في نفوسهم الصفات الروحية على الصفات الحيوانية، فأخلصوا في إيمانهم وفي أعمالهم، وجاهدوا في الله حق جهاده، حتى لم يبق في نفوسهم شائبة من إشراك غير الله في عمل من الأعمال.

﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ «الدنيا»: صفة للحياة، وهي مؤنث الأدنى و«المتاع»: ما يتمتع به، أي: ينتفع به زمناً ممتداً امتداداً طويلاً أو قصيراً، والمراد منها حياتنا هذه، أي: معيشتنا الحاضرة التي نتمتع فيها باللذات الحسية كالأكل والشرب، أو المعنوية كالجاه والمنصب والسيادة. هذه الحياة هي أقرب الحياتين وأدناهما وأحطهما، وهي على كل حال متاع الغرور، لأن صاحبها مخدوع لها تشغله بجلب لذاتها ودفع آلامها، فهو يتعب لما لا يستحق التعب.

ومعنى الجملة: أن الدنيا ليست إلا متاعاً من شأنه أن يغر الإنسان ويشغله عن تكميل نفسه بالمعارف الحقيقية، والأخلاق المرضية التي ترقي بروحه فتُعِدُّها لسعادة الآخرة، فينبغي له أن يحذر من الإسراف في الاشتغال بمتاعها.

لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

١٨٦ ـ ﴿لتبلون في أموالكم وأنفسكم﴾ الابتلاء في الأموال يفسَّر

بفرض الصدقات وبالبذل في سبيل الله ـ وهو كل ما يوصل إلى الخير ـ وبالجوائح والآفات، وهذا الجمع أولى مما ذهب إليه بعضهم من تخصيصه بالأول، وبعضهم من تخصيصه بالثاني. والابتلاء في الأنفس يكون بتكليف بذلها في سبيل الله، وبموت من يحب الإنسان من الأهل والأصدقاء، وكذا الابتلاء بالمصائب البدنية كالأمراض والجروح، والابتلاء بالتكليف هو أهم الابتلائين. وذلك أن الله تعالى لم يكفل للمسلمين الحفظ والنصر والسيادة لأنهم مسلمون فقط بل إنما يكلفهم الجري على سنته تعالى كغيرهم، فلا بد لهم من الاستعداد للمدافعة دائمًا وذلك يقتضي بذل المال والنفس وتَحَمُّلَ البلاء بلا تبرم ولا سآمة، فإن ظفر المؤمن فلا يفرح فرح البطر الفجور، وإن خسر فلا يشقى شقاء اليئوس الكفور، فهذا الإعلام تربية من الله لعباده المؤمنين.

وأما قوله: ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا﴾ فهو ابتلاء آخر، وقد نزلت هذه الآية بعد أن كان المشركون وأهل الكتاب ملأوا الفضاء بكلامهم المؤذي للرسول والمؤمنين ﴿وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾ يعني: «إن تصبروا» على البلاء الكبير الذي سيحل بكم في أموالكم وأنفسكم، وعلى ما تسمعون من أهل الكتاب والمشركين من الأذى، «وتتقوا» ما يجب اتقاؤه في الاستعداد لذلك قبل نزوله ومكافحته عند وقوعه، «فإن ذلك» الصبر والتقوى من معزومات الأمور أي: الأمور التي يجب العزم عليها، أو مما عزم الله أن يكون، أي: من عزمات قضائه التي لا بد من وقوعها.

والصبر: هو تلقي المكروه بالاحتمال وكظم النفس عليه مع الروية في دفعه ومقاومة ما يحدثه من الجزع، فهو مركب من أمرين دفع الجزع ومحاولة طرده، ثم مقاومة أثره حتى لا يغلب على النفس، وإنما يكون ذلك مع الإحساس بألم المكروه، فمن لا يحس به لا يسمى صابراً وإنما هو فاقد للإحساس يسمى بليداً، وفرق بين الصبر والبلادة، فالصبر وسط بين الجزع والبلادة، وما أحسن

قرن التقوى بالصبر في هذه الموعظة وهي أن يمتثل ما هدى الله إليه فعلاً وتركا عن باعث القلب وذلك من عزم الأمور، أي: التي يجب أن تعقد عليها العزيمة وتصح فيها النية وجوباً محتمًا.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧)﴾

١٨٧ ـ ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب﴾ وجه الاتصال بين هذه الآية هو أن ما ذكر في الآية السابقة من البلاء الذي يصاب به المؤمنون إنما يصابون به لأخذهم بالحق ودعوتهم إليه ومحافظتهم في الشدائد عليه، فناسب بعد ذكر ذلك البلاء الذي أخبر الله به المؤمنين ووطن عليه نفوسهم ليثبتوا ويصبروا، أن يذكر لهم مثل الذين خلوا من قبل إذ أخذ عليهم الميثاق ببيان الحق فكان من أمرهم ما استحقوا به الوعيد المذكور في الآية. فهويذكر المؤمنين بذلك كأنه يقول لهم إنكم إذا كتمتم ما أنزل عليكم يكون وعيدكم كوعيدهم، أي: اذكروا إذ أخذ الله الميثاق عليهم بلسان أنبيائهم ﴿لتبيننه للناس ولا تكتمونه﴾ أي: أكد عليهم إيجاب البيان أو التبيين، وتبيينه: هو أن يوضحوا معانيه كما هي، ولا يحرفوه عن مواضعه التي وضع لتقريرها، ومقاصده التي أنزل لأجلها حتى لا يقع في فهمه لبس ولا اضطراب. والعبرة في ذلك ظاهرة عندنا، فإن كتابنا وهو القرآن العزيز لم يوجد كتاب حُفظ كما حُفظ، ونُقل كما نُقل، ونُشر كما نُشر، فإن الجماهير من المسلمين قد حفظوه عن ظهر قلب، من القرن الأول إلى هذا ليوم، وهم يتلونه في كل مكان، حتى إنك تسمعه في الشوارع[1] والأسواق

(١) قوله: «حتى إنك تسمعه في الشوارع والأسواق ومجتمعات الأفراح» مراده بهذا ـان كثرة تلاوته، لا أن التلاوة في هذه المواضع جميعها جائز ومشروع فإن لتلاوة القرآن كريم شروطاً وآداباً لا تراعى في الشوارع والأسواق، أهمها الاستماع إليه والإنصات، فإن ناس منشغلون في تجارتهم وأعمالهم، فلا يجوز إسماعهم القرآن الكريم وهم غير مستعدين لاستماع إليه، أما عادة قراءة القرآن في الجنائز، وعندما يموت إنسان، فهي من العادات التي

ومجتمعات الأفراح والأحزان، وفي كل حال من الأحوال، ولكنهم تركوا تبيينه للناس فلم يغن عنهم عدم الكتمان شيئاً، فإنهم فقدوا هـدايته حتى أنهم يعترفون بأن المسلمين أنفسهم منحرفون عنه، وأن القابض على دينه كالقابض على الجمر، ويعترفون بأن الغش قد عم وطم، ويعترفون بارتفاع الأمانة، وشيوع الخيانة إلخ، وكل هذا من نتائج ترك التبيين.

والتبيين على نوعين أحدهما: تبيينه لغير المؤمنين به لأجل دعوتهم إليه. وثانيهما: تبيينه للمؤمنين به لأجل إرشادهم وهدايتهم بما أنزل إليهم من ربهم، وكلٌّ من النوعين واجب حتم لا هوادة فيه، ﴿فنبذوه وراء ظهورهم﴾ أي: تركوا الكتاب مهملاً لا يهتمون به عملاً وتبييناً ﴿واشتروا به ثمناً قليلاً﴾، أي: أخذوا بدله فائدة دنيوية قليلة لا تنفعهم شيئاً، وهذا الثمن هو ما كان يستفيده الرؤساء من المرؤوسين وعكسه.

﴿فبئس ما يشترون﴾ أي: هو ذميم قبيح، لأنهم يجعلون هذا العرض الفاني بدلاً من النعيم الباقي في الآخرة.

لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾

= أساءت كثيراً إلى كتاب الله تعالى، حتى صار كثير من الناس يتشاءمون إذا سمعوا آياته ويقلقون، ظناً منهم أن أحداً من الناس قد مات، فبدلاً من أن تطمئن قلوب هؤلاء لذكر الله وما نزل من الحق، صارت ـــ بسبب قرن القرآن بالأموات والموت ـــ تنفر وتخاف عند سماعه. ولا يخفى أن إثم الإعراض عن الاستماع يقع على الذي اقتحم على الناس أسواقهم وبيوتهم بالقراءة أثناء عملهم وراحتهم ونومهم في مساكنهم. وكذلك في المساجد بما يعطِّل على الناس ويشوش عليهم صلاتهم. وهذه بدع مستحدثة لا يجوز الاستمرار بها.

١٨٨ ـ ﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾ روى الشيخان وغيرهما أن مروان بن الحَكَم ـ وكان يومئذ أميراً على المدينة ـ قال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل: لئن كان كل امرىء منا فرح بما أتى، وأحب أن يُحمد بما لم يفعل معذباً، لنعذبن أجمعون. فقال ابن عباس: «ما لكم وهذه، إنما نزلت هذه الآية في أهل الكتاب، سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره، فخرجوا قد أروه أنهم قد أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أتوا من كتمان ما سألهم عنه». وأخرج الشيخان أيضاً من حديث أبي سعيد الخدري: أن رجالاً من المنافقين كانوا إذ خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ، فإذا قدم اعتذروا إليه وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا فنزلت هذه الآية. وأخرج عبد الرزاق في تفسيره عن زيد بن أسلم: أن رافع بن خديج وزيد بن ثابت كانا عند مروان فقال مروان: يا رافع في أي شيء أنزلت هذه الآية «لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا» قال رافع: أنزلت في ناس من المنافقين كانوا إذا خرج النبي ﷺ اعتذروا، وكأن مروان أنكر ذلك فجزع رافع من ذلك، فقال لزيد بن ثابت: أنشدك الله هل تعلم ما أقول؟ قال: نعم. قال الحافظ ابن حجر: يجمع بين هذا وبين قول ابن عباس: بأنه يمكن أن تكون نزلت في الفريقين معا.

أقول إن هذه الآية على عمومها مبينة لشيء من الثمن الذي استبدلوه بكتاب الله وكونه بئس الثمن، وهو أمران: «أحدهما»: فرحهم بما أتوه من الأعمال فرح غرور وخيلاء فخر، على أن منه نبذ كتاب الله بترك العمل به، وعدم تبيينه على وجهه، إما بتحريفه عن مواضعه ليوافق أهواء الحكام أو أهواء الناس، وإما بالسكوت عنه والأخذ بكلام السابقين تقليداً بغير حجة، إلا ادعاء أنهم كانوا أعلم بالكتاب، و«ثانيهما»: حب المدح والثناء بالباطل، فإنهم يتبعون أهواء الحكام والناس في الدين، ويحبون أن يحمدوا بأنهم يبينون الحق لوجه الله لا تأخذهم فيه لومة لائم، فإن الحاكم أو غير الحاكم إذا احتاج إلى عمل يرضي به هواه وشهوته مما يحظره عليه الدين فلجأ إلى العالم فعلمه حيلة شرعية يسلم بها

من نقد الناقدين وذم المتدينين، فلا شك أنه يحمد ذلك العالم ويطريه بأنه العالم التقي المحقق، لا مكافأة له فقط بل يرى من مصلحته أن يعتقد الناس العلم والصلاح في مفتيه ليأخذوا كلامه بالقبول، وقد علمنا من الثقات أن الحكام منذ كانوا يتواطؤون مع كبار شيوخ العلم وشيوخ الطريق المحترمين عند العامة على تعظيم كل فريق منهم للآخر،فرؤساء الحكام يظهرون للعامة احترام العلماء والاعتقاد بولاية كبار شيوخ أهل الطريق، فيقلبون أيديهم عند اللقاء، وربما أهدوا إليهم بعض الهدايا، والمشايخ من العلماء وأهل الطريق يظهرون للعامة احترام أولئك الحكام ويشهدون بقوة دينهم وشدة غيرتهم على الإسلام والمسلمين ووجوب طاعتهم في السر والجهر ـ يقولون ـ:وإن ظلموا وجاروا لأنهم مسلطون من الله عز وجل!! فهكذا كان الظالمون المستبدون وما زالوا يستفيدون من الدين بمساعدة رجاله، ويتفق الرؤساء من الفريقين على إضاعة حقوق الأمة وإذلالها لهم ليتمتعوا بلذة الرياسة ونعيمها، فيفرحون بما أتوا من ضروب المكايد السياسية والاجتماعية، والتأويلات الدينية، التي ترفع قدرهم، وتخضع العامة لهم، ويحبون أن يحمدوا دائمًا بأنهم أنصار الدين وحماته، ومبينو الشرع ودعاته، وإن نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، وتوجهوا إلى كتب أمثالهم وأشباههم، وكانت الأمة لا تزداد كل يوم إلا شقاء بهم، حتى سبقتها الأمم كلها بسوء سياستهم، ولو أنهم أقاموا الكتاب كما أمروا، بالبيان له والعمل به، وإلزام الحكام بهديه، لما عم الفسق والفجور، وصارت الشعوب الإسلامية دون سائر الشعوب حتى ذهبت سلطتها وتقلص ظلها عن أكثر الممالك التي كانت خاضعة لها؛ وهي تتوقع نزول الخطر بالباقي وهو أقلها.

ثم أعود إلى المسألة الأولى فأقول: إن الفرح بالعمل من شأن المغرورين، وليس المراد به هنا ارتياح نفس العامل وانبساطها لما يأتيه من العمل الذي يرى أنه محمود كما فهم مروان، وإنما هو فرح البطر والغرور الذي يتبعه الخيلاء والفخر كما أشرنا إلى ذلك، وهو ما نبه عليه القرآن بقوله عز وجل: «لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور» وهذا الإفراط في الفرح بالنعمة الذي يكون من الضعفاء يقابله عندهم المبالغة في

الحزن في المصيبة إلى أن يقع المصاب في اليأس، فإذا تدبرت ما قلناه في هاتين الصفتين الذميمتين: فرح البطر والغرور والفخر بالأعمال، الذي يدعو إلى الكسل والإهمال، وحب المحمدة الباطلة والقناعة بالثناء الكاذب، إذا تدبرت هذا فقهت سرَّ الوعيد الشديد بتعذيب الأمة المتصفة بهما مرتين، واحدة في الدنيا وواحدة في الآخرة، وهو المراد بقوله عز وجل: ﴿فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب﴾ إلخ.

أي: لا تظن يا محمد أو أيها المخاطب: أنهم بمنجاة من العذاب الدنيوي، أي: متلبسون بالفوز والنجاة منه، وهو العذاب الذي يصيب الأمم التي فسدت أخلاقها وساءت أعمالها وكابرت الحق والعدل وألفت الفساد والظلم، وهو على قسمين: عذاب هو أثر طبيعي اجتماعي للحال التي يكون عليها المبطلون بحسب سنة الله في الاجتماع البشري، وهو خذلان أهل الباطل والإفساد وانكسارهم وذهاب استقلالهم بنصر أهل الحق والعدل عليهم، وتمكينهم من رقابهم وديارهم وأموالهم ليحل الإصلاح محل الإفساد، والعدل مكان الظلم وعذابٌ لا يكون أثراً طبيعياً بل يسمى سخطاً سماوياً كالزلزال والخسف والطوفان، وغير ذلك من الجوائح المدمرة التي نزلت ببعض أقوام الأنبياء الذين كفروا بهم وكذبوهم وآذوهم، ثم قال: ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي: في الآخرة، فإن فساد أخلاقهم وفرحهم وبطرهم وصغارهم الذي زين لهم حب الحمد الكاذب بالباطل، جعل أرواحهم مظلمة دنسة فهي التي تهبط بهم إلى الهاوية حيث يلاقون ذلك العذاب المؤلم.

١٨٩ ــ ﴿ولله ملك السماوات والأرض والله على كل شيء قدير﴾ عطف هذه الآية على ما قبلها لاتصالها بالآيات التي قبلها، كأنه يقول: لا تحزنوا أيها المؤمنون ولا تضعفوا، واصبروا واتقوا، ولا تخــورنَّ عزائمكم، بينوا الحق، ولا تكتموا منه شيئاً، ولا تشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، ولا تفرحوا بما علمتم، ولا تحبوا أن تحمدوا بما لم تفعلوا فإن الله تعالى يكفيكم ما أهمكم ويغنيكم عن هذه المنكرات التي نهيتم عنها، فإن ملك السماوات والأرض كله له، يعطي منه

ما يشاء وهو على شيء قدير، لا يعز عليه نصركم على الذين يؤذونكم بأيديهم وألسنتهم من أهل الكتاب والمشركين، وإليه ترجع الأمور لأنه هو الذي يدبرها بحكمته وسننه في خلقه.

إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

١٩٠ ــ ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾ «السماوات»: ما علاك مما تراه فوقك، و«الأرض»: ما تعيش عليه، والخلق: التقدير والترتيب لا الإيجاد من العدم، فإنه لا يتضمن معنى النظام والاتقان، أي: ما هي عليه في الواقع ونفس الأمر. وبعدما ذكر خلق السماوات والأرض لفت العقول إلى أمر مما يكون في الأرض وهو اختلاف الليل

والنهار، فإن هذا الاختلاف قائم بنظام، في طول الليل والنهار وقصرهما وتعاقبهما، ومن الحِكَم في ذلك ما نراه في أجسامنا وعقولنا، من تأثير حرارة الشمس ورطوبة الليل، وكذا في تربية الحيوان والنبات وغير ذلك، ولو كان الليل سرمداً والنهار سرمداً لفاتت.

وهذه الآيات تظهر لكل أحد على قدر علمه وفهمه وجودة فكره، فأما علماء الهيئة فإنهم يعرفون من نظامها ما يدهش العقل. وأما سائر الناس فحسبهم هذه المناظر البديعة والأجرام الرفيعة وما فيها من الحسن والروعة. وخص أولي الألباب بالذكر مع أن كل الناس أولو ألباب، لأن من اللب ما لا فائدة فيه، كَلُبِّ الجوز ونحوه إذا كان عفناً. وكذا تفسد ألباب بعض الناس وتعفن، فهي لا تهتدي إلى الاستفادة من آيات الله في خلق السماوات والأرض وغيرهما. وإنما سمي العقل «لُبّاً» لأن اللب هو محل الحياة من الشيء، وخاصته وفائدته، وإنما حياة الإنسان الخاصة به هي حياته العقلية، وكل عقل متمكنٌ من الاستفادة من النظر في هذه الآيات، والاستدلال بها على قدرة الله وحكمته، ولكن بعضهم لا ينظر ولا يتفكر، وإنما العقل الذي ينظر ويستفيد ويهتدي هو الذي وصف أصحابه بقوله تعالى: ﴿الذين يذكرون الله قياماً

١٩١ ـ ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾ والذكر في الآية على عمومة، لا يخص بالصلاة، والمراد به ذكر القلوب وهو ذكر الله تعالى في النفس، وتذكر حكمه وفضله ونعمه في حال القيام والقعود والاضطجاع،وهذه الحالات الثلاث التي لا يخلو العبد عنها والآيات الإلهية لا تظهر من السماوات والأرض إلا لأهل الذكر.

ثم إن ذكر الله تعالى لا يكفي في الاهتداء إلى الآيات، ولكن يشترط مع الذكر التفكر فيها، فلا بد من الجمع بين الذكر والفكر، فقد يذكر المؤمن ربه ولا يتفكر في بديع صنعه وأسرار خليقته، ولذلك قال: ﴿ويتفكرون في خلق السماوات والأرض﴾.

أقول: قد يتفكر المرء في عجائب السماوات والأرض وأسرار ما فيهما من الإتقان والإبداع والمنافع الدالة على العلم المحيط والحكمة البالغة والنعم

السابغة والقدرة التامة وهو غافل، فالذين يشتغلون بعلم ما في السماوات والأرض وهم غافلون عن خالقهما ذاهلون عن ذكره يمتعون عقولهم بلذة العلم ولكن أرواحهم تبقى محرومة من لذة الذكر ومعرفة الله عز جل، يعني: أن الفكر وحده وإن كان مفيداً، لا تكون فائدته نافعة في الآخرة إلا بالذكر، والذكر وإن أفاد في الدنيا والآخرة، لا تكمل فائدته إلا بالفكر، فيا طوبي لمن جمع بين الأمرين واستمتع بهاتين اللذتين، فكان من الذين أوتوا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، ونجوا من عذاب النار في الآخرة ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك﴾ أي: يقول اللذين يجمعون بين التذكر والتفكر، معبرين عن نتيجة جمع الأمرين، «ربنا ما خلقت» هذا الذي نراه من العوالم السماوية والأرضية «باطلاً» ولا أبدعته وأتقنته عبثاً، «سبحانك» تنزيهاً لك عن الباطل والعبث بل كل خلقك حق مؤيد بالحكم ﴿فقنا عذاب النار﴾ بعنايتك وتوفيقك لنا، واجعلنا مع الأبرار بهدايتك إيانا ورحمتك بنا.

١٩٢ ـ ﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته﴾ أي: إنهم ينظرون إلى هيبة ذلك الرب العلي العظيم، الذي خلق تلك الأكوان المملوءة بالأسرار والحكم، والدلائل على قدرته وعزته، فيعلمون أنه لا يمكن لأحد أن ينتصر عليه، وأن من عاداه فلا ملجأ ولا منجا له منه إلا إليه، فيقرون بأن من أدخله ناره فقد أخزاه، أي: أذله وأهانه ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ وصف من يدخلون النار بالظالمين تشنيعاً لأعمالهم وبياناً لعلة دخولهم فيها، وهو جورهم وميلهم عن طريق الحق، فالظالم هنا: هو الذي يتنكب الطريق المستقيم لا الكافر خاصة كما قال بعض المفسرين، فإن هذا التخصيص لا حاجة إليه ولا دليل عليه، وإنما سببه ولوع الناس بإخراج أنفسهم من كل وعيد يذكر في كتابهم، فكل ظالم يؤخذ بظلمه، ويعاقب على قدره، ولا يجد له نصيراً يحميه من أثر ذنبه.

١٩٣ ـ ﴿ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا﴾ المنادي للإيمان: هو الرسول ﷺ وذكره بوصف المنادي تفخيماً لشأن هذا النداء.

وسماع النداء يشمل من سمع منه مباشرة في عصره ومن وصلت إليه

دعوته من بعده ويحتمل أن يكون قولهم «فآمنا» مراداً به إيمان جديد غير الإيمان الذي استفادوه من التفكر والذكر وهو الإيمان التفصيلي الذي أشرنا إليه آنفاً. ويحتمل أن يكون سمعوا دعوة الرسول أولاً وآمنوا به، ثم نظروا وذكروا وتفكروا فاهتدوا إلى ما اهتدوا إليه، من الدلائل التي تدعم إيمانهم، فذكروا النتيجة، ثم اعترفوا بالوسيلة، ولا ينافي ذلك تأخير هذه عن تلك في العبارة كما هو ظاهر.

﴿ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا﴾ تفيد الفاء في قوله «فاغفر» اتصال هذا الدعاء بما قبله وكون الإيمان سبباً له، والمراد بالإيمان الإذعان للرسل في النفس والعمل، لا دعوى الإيمان باللسان مع خلو القلب من الإذعان الباعث على العمل. ولأجل هذا استشعروا الخوف من الهفوات والسيئات فطلبوا المغفرة والتكفير. وقال بعض المفسرين: إن المراد بالذنوب هنا الكبائر وبالسيئات الصغائر وأقول: بل «الذنب» يشمل كل عمل تسوء عاقبته في الدنيا والآخرة من المعاصي كلها سواء منها ما يتعلق بحقوق الله عز وجل، وما يتعلق بحقوق العباد ومنه ترك الطاعات الواجبة، وأما «السيئة» فهي الفعلة القبيحة التي تسوء صاحبها أو تسوء غيره سواء كان ذلك عاجلاً أو آجلاً، فهي عامة أيضاً وضدها الحسنة، قال الراغب: والحسنة والسيئة ضربان: أحدهما بحسب اعتبار العقل والشرع نحو المذكور في قوله تعالى «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها»، وحسنة وسيئة بحسب اعتبار الطبع، وذلك ما يستخفه الطبع وما يستثقله نحو قوله: «فإذا جاءتهم الحسنة ـ أي: النعمة ـ قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة ـ أي: بلاء ـ يَطَّيَّروا بموسى ومن معه».

﴿وتوفنا مع الأبرار﴾ أي: أمتنا على حالتهم وطريقتهم، والأبرار: هم المحسنون في أعمالهم.

١٩٤ ـ ﴿ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك﴾ أي: أعطنا ما وعدتنا من الجزاء الحسن كالنصر في الدنيا والنعيم في الآخرة جزاء على تصديق رسلك واتباعهم إذ استجبنا لهم وآمنا بما جاؤوا به، أو ما وعدتنا به على ألسنة رسلك. والمعنى: أعطنا ذلك بتوفيقنا للثبات على ما نستحقه إلى أن تتوفانا مع الأبرار

﴿ولا تخزنا يوم القيامة﴾ أي: لا تفضحنا وتهتك سترنا يوم القيامة، بإدخالنا النار التي يخزى من دخلها، ﴿إنك لا تخلف الميعاد﴾ فهي ثناء ختم به الدعاء، ولا شك أن الوعد يصيبهم إذا قاموا بما ترتب هو عليه من الإيمان والعمل الصالح، فإن الوعد لا يتناول آحاد الأمة بأعيانهم، بل إنما يتناولهم بحسب أوصافهم.

١٩٥ ـ ﴿فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى﴾ استجاب دعاءهم لصدقهم في الإيمان، والذكر والفكر، والتقديس والتنزيه، والوصول إلى معرفة الحياة الآخرة، وصدق الرسل وإيمانهم بهم، وشعورهم بعد ذلك كله بأنهم ضعفاء مقصرون في الشكر لله، ولكن هذه الاستجابة لم تكن بعين ما طلبوا، ولذلك صورها وبين كيفيتها وهذا التصوير لحكمة عالية، وهي أن الاستجابة ليست إلا توفية كل عامل جزاء عمله، لينبههم بذكر العمل والعامل إلى أن العبرة في النجاة من العذاب والفوز بحسن الثواب إنما هي بإحسان العمل والإخلاص فيه، فإن الإنسان قد تَغُشُّه نفسه فيظن أنه محسن وهو ليس بمحسن، وأنه مخلص وما هو بمخلص، وأنه لا يريد إلا وجهه تعالى في كل حركة وسكون، ويكون في الواقع ونفس الأمر مغروراً مرائياً. وبين أن الذكر والأنثى متساويان عند الله تعالى في الجزاء متى تساويا في العمل، حتى لا يغتر الرجل بقوته ورياسته على المرأة فيظن أنه أقرب إلى الله منها ولا تسيء المرأة الظن بنفسها فتتوهم أن جعل الرجل رئيساً عليها يقتضي أن يكون أرفع منزلة عند الله تعالى منها. وقد بين تعالى علة هذه المساواة بقوله ﴿بعضكم من بعض﴾ فالرجل مولود من المرأة، والمرأة مولودة من الرجل، فلا فرق بينهما في البشرية ولا تفاضل بينهما إلا بالأعمال وما تترتب عليه الأعمال ويترتب هو عليها من العلوم والأخلاق.

﴿فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم﴾ ذِكْرُ الإخراج من الديار بعد الهجرة، من باب التفصيل بعد الإجمال، فالهجرة إنما كانت وتكون بالإخراج من الديار، وتستتبع ما ذكر في قوله: ﴿وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا﴾ من الإيذاء والقتال، فمن لم يحتمل القتل بل والتقتيل في سبيل الله تعالى ويبذل

مهجته لله عز وجل فلا يطمعن بهذه المثوبة المؤكدة في قوله: ﴿لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ ومثل هذه الآية، الآيات الكثيرة الواردة في صفات المؤمنين، كقوله تعالى « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون» .

إن هذه الصفات تجتمع وتفترق، فمن المهاجرين من ترك وطنه مختاراً ولم يخرج منه إخراجاً، بل من الصحابة من هاجر مستخفياً لئلا يمنعه المشركون. ولكن قد يقال:إنهم إذا لم يكونوا أمروهم بالهجرة أمراً، وأخرجوهم من ديارهم قسراً. فإنهم قد ضيقوا عليهم المسالك حتى ألجؤهم إلى ذلك ومنهم من أوذي ولم يخرجه المشركون ولا مكنوه من الخروج.

أما قوله تعالى: ﴿ثواباً من عند الله﴾ فمعناه لأكفرن عنهم سيئاتهم وأدخلنهم الجنات، أثيبهم بذلك ثواباً من النوع العالي الكريم الذي لا يقدر عليه غيري. والثواب:اسم من مادة «ثاب يثوب ثوباً» أي: رجع، ومنه جعل البيت الحرام مثابة للناس، فإنهم يعودون إليه بعد مفارقته، ولذلك قال «الراغب»: الثواب ما يرجع إلى الإنسان من جزاء أعماله، فيسمى الجزاء ثواباً تصوراً أنه هو، ألا ترى كيف جعل الله تعالى الجزاء نفس الفعل في قوله: « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره» ولم يقل جزاءه. والثواب يقال في الخير والشر، لكن الأكثر المتعارف في الخير، وعلى هذا قوله عز وجل: « ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب» .

وقوله تعالى: ﴿والله عنده حسن الثواب﴾ هذا تأكيد لما قبله من كون الثواب من عند الله، ليبين أن هذا الجزاء بمحض الفضل والكرم الإلهي، وأنه يقع بإرادته واختياره تعالى، وإن كان جزاءً على عمل.

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

١٩٦ ــ ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد﴾ معنى الآية: لا يغرنك أيها المخاطب المؤمن، أو لا يغرنك يا محمد تقلبهم، قالوا: وما خوطب به النبي ﷺ من مثل هذا فالمراد به أمته، فروي عن قتادة أنه قال: والله ما غروا نبي الله ﷺ حتى قبضه الله. ومعنى«غرَّه»: أصاب غرته فنال منه بالقول أو العمل شيئاً مما يريد وهو غافل عن ذلك لم يفطن لما في باطن الشيء مما يخالف الظاهر.

وحاصل معنى النهي عن الغرور: أن تقلب الذين كفروا في البلاد آمنين معتزين لا ينبغي أن يكون سبباً لغرور المؤمن بحالهم، وتوهمه أن هذا شيء يدوم لهم، فإن هذا من إبقاء الأشياء على ظاهرها من غير بحث عن أسبابها. والغوص على بواطنها ودخائلها.

١٩٧ ــ ﴿متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾ أي: ذلك التقلب في البلاد الذي يتمتعون به متاع قليل عاقبته هذا المأوى الذي ينتهون إليه في الآخرة فيكونون خالدين فيه، سواء منهم من مات متمتعاً بدنياه، ومن أُنْسِيءَ له في عمره حتى أدركه الخذلان بنصر الله المؤمنين فسلب منه متاعه أو نغصه عليه. وأما المؤمنون فسيأتي ما لهم في مقابلة هذا في الآية الآتية: وجهنم، اسم للدار التي يجازى فيها الكافرون في الآخرة.

قيل: إن الآية نزلت في مشركي مكة إذ كانوا يضربون في الأرض يتجرون ويكسبون على حين لا يستطيع المسلمون ذلك لوقوف المشركين لهم بالمرصاد، وإيقاعهم بهم أينما ثقفوهم،وعجز هؤلاء عن مقاومتهم إذا خرجوا من

دارهم للتجارة أو غير التجارة، ويروى أن بعض المؤمنين قالوا: إن أعداء الله فيما نرى من الخير وقد هلكنا من الجوع والجهد، فنزلت الآية.

ثم بين تعالى في مقابلة ذلك مأوى المؤمنين ليعلموا أنهم في القسمة غير مغبونين فقال:

١٩٨ ـ ﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً من عند الله﴾ «النزل»: ما يهيأ للضيف النازل، وإذا كانت الجنات نزلاً وهي النعيم الجسماني، فلا بد أن يكون النعيم الروحاني برضوان الله الأكبر أعظم من ذلك، وقد وعدهم هذا الجزاء على التقوى الذي يتضمن معناها ترك المعاصي وفعل الطاعات، ﴿وما عند الله﴾ من الكرامة الزائدة على هذة النزل الذي هو بعض ما عنده ﴿خير للأبرار﴾ وأفضل مما يتقلب فيه الذين كفروا من متاع فان.

١٩٩ ـ ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً﴾ روى النسائي من حديث أنس قال: لما جاء نَعْيُ النجاشي قال رسول الله ﷺ: «صلوا عليه» قالوا:[١] يا رسول الله نصلي على عبد حبشي؟ فأنزل الله هذه الآية. وروى ابن جرير نحوه عن جابر، وفي المستدرك عن عبد الله بن الزبير، قال: نزل في النجاشي: « وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله » اهـ. من «لباب النقول».

ونقول: إنها تشمل النجاشي وغيره من اليهود والنصارى الذين صدق عليهم ما فيها من الصفات، وكذا المجوس على القول بأنهم أهل كتاب، كما روي عن علي رضي الله عنه، ولكن لا نعرف أحداً منهم أسلم في عهد التنزيل، إلا سلمان الفارسي، رضي الله عنه، على أنه كان قد تنصر قبل إسلامه.

فبعد أن بين حال المؤمنين وما أعدلهم من الثواب، وذكر حال الكافرين

---

(١) قوله ﷺ: «صلوا عليه» أي: لأنه كان قد أسلم وآمن برسالة محمد ﷺ. وقد صلى عليه ومعه المسلمون بالفعل كما جاء في روايات من صحيح البخاري وغيره. وكان ذلك في السنة التاسعة أو الثامنة للهجرة.

وما أعد لهم من العقاب، ذكر فريقاً من أهل الكتاب، يهتدون بهذا القرآن، وذكر من وصفهم الخشوع لله وما كل من يدعي الإيمان بالكتاب خاشع لله. وذكر إيمانهم بصيغة التأكيد لأن أهل الكتاب، بغرورهم بكتابهم وتوهمهم الاستغناء بما عندهم عن غيره، كانوا أبعد الناس عن الإيمان وكان من الغرابة بعد ذلك العناد ومكابرة النبي ﷺ وحسده على النبوة أن يؤمن بعضهم إيماناً صحيحاً كاملاً. ولهذا كان المؤمنون منهم قليلين، وكانوا من خيارهم علماً وفضلاً وبصيرة.

ووصف هذا الفريق من أهل الكتاب بخمس صفات:

إحداها: الإيمان بالله، يعني الإيمان الصحيح الذي لا تشوبه نزعات الشرك ولا يفارقه الإذعان الباعث على العمل.

ثانيها: الإيمان بما أنزل إلى المسلمين، وهو ما أوحاه الله إلى نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم.

ثالثها: الإيمان بما أنزل إليهم، وهو ما أوحاه الله تعالى إلى أنبيائهم. ولا ينافي ذلك ضياع بعضه، وطروء التحريف بالترجمة والنقل بالمعنى على البعض الآخر، فإن المراد هو الإيمان به إجمالاً واتباع ما أرشد إليه القرآن فيه تفصيلاً، والقرآن هو العمدة فلا يعتد بإيمان من خالفه بعد العلم به.

رابعها: الخشوع، وهو ثمرة الإيمان الصحيح الذي يعين على اتباع ما يقتضيه الإيمان من العمل. فالخشوع أثر خشية الله تعالى في القلب، تفيض على الجوارح والمشاعر فيخشع البصر بالسكون والانكسار، ويخشع الصوت بالمخافتة والتهدج، كما يخشع غيرهما.

خامسها: وهي أثر لما قبله، عدم اشتراء شيء من متاع الدنيا بآيات الله، كما هو فاش في أصحاب الإيمان التقليدي من علماء ملتهم، ويقع مثله من أمثالهم في سائر الملل.

﴿أولئك لهم أجرهم عند ربهم﴾ أي: أولئك المتصفون بما ذكر من الصفات لهم أجرهم اللائق بهم عند ربهم الذي رباهم بنعمه، وهداهم إلى

الحق أي في دار الرضوان بخلاف الذين ليس لهم مثل هذه الصفات من أهل الكتاب، المغرورين بأنفسهم وسلفهم عناداً، فأولئك هم الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار.

﴿إن الله سريع الحساب﴾ يحاسب الخلق كلهم في وقت واحد قصير.

ثم ختم سبحانه السورة بهذه الوصية للمؤمنين، لأنها هي التي تتحقق بها استجابة ذلك الدعاء وإيفاء الوعد بالنصر في الدنيا وحسن الجزاء في الآخرة، فقال:

٢٠٠ – ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ أي: «اصبروا» على ما يلحقكم من الأذى، و«صابروا» الأعداء الذين يقاومونكم ليغلبوكم على أمركم ويخذلوا الحق الذي في أيديكم «واربطوا» الخيل كما يربطونها استعداداً للجهاد.

فالمصابرة والمرابطة – وهي الرباط – بمعنى مباراة الأعداء ومغالبتهم في الصبر وفي ربط الخيل كما قال «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل» على الأصل الذي قرره الإسلام من مقاتلتهم بمثل ما يقاتلوننا به، فيدخل في ذلك مباراتهم في هذا العصر بعمل البنادق والمدافع والسفن والآلات البحرية والبرية والهوائية، وغير ذلك من الفنون والعدد العسكري، ويتوقف ذلك كله على البراعة في العلوم الرياضية والطبيعية، فهي واجبة على المسلمين في هذا العصر، لأن الواجب من الاستعداد العسكري لا يتم إلا بها. وقد أطلق لفظ المرابطة عند المسلمين على الإقامة في ثغور البلاد وهي مداخلها على حدود المحاربين لأجل الدفاع عنها إذا هاجمها الأعداء، فإن هؤلاء يقيمون فيها ويقومون في أثناء ذلك بربط خيولهم وخدمتها وغير ذلك مما يحتاج إليه من الاستعداد.

يكثر الله تعالى من الوصية بالتقوى، ومع ذلك نرى الناس قد انصرفوا عنها بتة حتى صار التقي عند الناس، هو الأهبل الذي لا يعقل مصلحته. ولكن التقوى: أن تقي نفسك من الله، أي: من غضبه وسخطه وعقوبته، ولا يمكن

هذا إلا بعد معرفته ومعرفة ما يرضيه وما يسخطه، ولا يعرف هذا إلا مَنْ فهم كتاب الله تعالى وعرف سنة نبيه ﷺ وسيرة سلف الأمة الصالح، مطالباً نفسه بالاهتداء بذلك كله. فمن صبر وصابر، ورابط لأجل حماية الدين وأهله، ونشر دعوته، واتقى ربه في سائر شؤونه، فقد أعد نفسه بذلك للفلاح والفوز بالسعادة عند الله تعالى[1].

* * *

(١) «تنبيه»: لقد درج المؤلف فيما بعد هذه السورة من تفسيره ـ تفسير المنار ـ على وضع خلاصة لما تضمنه تفسير كل سورة، ولكنه لم يكتب هذه الخلاصة للسور التي في هذا الجزء نعني: «الفاتحة والبقرة وآل عمران».

تم بعونه تعالى الجزء الأول من:
«التفسير المختصر المفيـد للقرآن المجيد»
وهو مختصر «تفسير المنار» للسيد محمد رشيد رضا،
متضمناً تفسير سور: «الفاتحة والبقرة وآل عمران»،
ويليه الجزء الثاني مفتتحاً بأول سورة «النساء».
والحمد لله رب العالمين

فهرس الجزء الأول
من «مختصر المنار»

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة